الثَّقافَةُ الإِسْلامِيَّةُ وَالْعَرَبِيَّةُ

فِي الْبُوسْنَةِ وَالْهَرْسَكِ

من سنة ٨٦٩-١٢٩٥هـ / ١٤٦٣-١٨٧٨م



الشيخ / صالح أحمد صالح جولاقوفيتْش



للنشر والتوزيع

هذا الكتاب..

سيثير اهتماماً كبيراً لدى القراء والباحثين بسبب محتواه ومؤلفه الذي عاش وكتب زمناً طويلاً في العالم العربي، وكان في البوسنة والهرسك مكلفاً بالمسؤوليات والمناصب العظيمة - في المجالات الدينية و الاجتماعية.

والكتاب يُلقى الضوء على الإنجازات التي قدمها مسلمو البوسنة والهرسك في حقل العلوم العربية والإسلامية لأمتهم في حقبة مهمة من الزمن ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر الميلادي.

المؤلف في سطور

- من مواليد موستار عام ١٩٤٥ م.
- تخرج من مدرسة «الغازي خسرو بك» في سرايفو سنة ١٩٦٤ م.
- خريج جامعة بغداد - كلية الشريعة، سنة ١٩٧٣ م.
- خريج جامعة الكويت - الدراسات العليا، سنة ١٩٧٧م.
- بعد التخرج عاد إلى موستار وعمل في مجال الدعوة الإسلامية.
- اختير رئيسا للأئمة داخل البوسنة والهرسك، سنة ١٩٨٨ م.
- وقف على رأس حركة الأئمة في البوسنة والهرسك ١٩٨٨ م.
- اختير رئيساً للمشيخة الإسلامية في البوسنة والهرسك ١٩٩٠ م.
- عين مديراً للمركز الاسلامي في موستار، سنة ١٩٩٤ م.
- عين مديراً لمدرسة «قره كوز بك» في موستار ١٩٩٥ م.

يعمل حاليا :

مدير المركز الإسلامي بمدينة موستار.

مدرس التفسير بمدرسة «قره كوز بك» بمدينة موستار.

مدرس مادة التفسير بجامعة «جمال بيبيدتش» بمدينة موستار.

عضو في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

الناشر

دار اقرأ للنشر والتوزيع

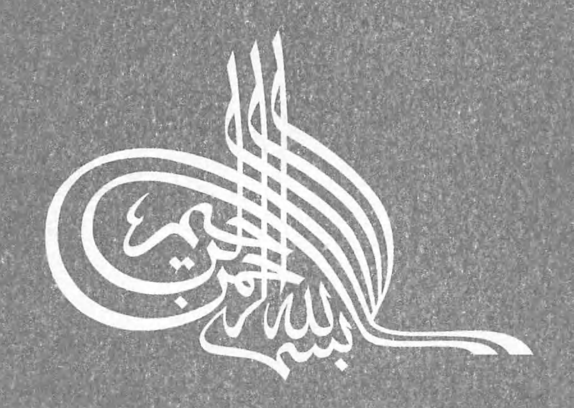


@dariqraa

email:dariqraa@hotmail.com
www.dariqraa.com


ISBN 9958-804-44-1
9 789958 804441





بسم الله الرحمن الرحيم

اَلثَّقَافَةُ الإِسلامِيَّةُ وَ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبُوسنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

من سنة ٨٦٩-١٢٩٥ هـ/ ١٤٦٣-١٨٧٨ م

التَقديم وَ التَّصْمِيم:

الماجستير الأزهريّ/ آلْدِينْ عَاصِم مُصطَفِيتْش

اَلثَّقَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَ الْعَرَبِيَّةُ

فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

من سنة ٨٦٩-١٢٩٥ هـ/ ١٤٦٣-١٨٧٨ م

تأليف:

الشّيخ/ صالح أحمد صالح چولاقوفيتْشْ

١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥ م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

كلمة النّاشر

هٰذَا الكتاب الثّاني الَّذِي يقوم المركز الإِسْلَامِيّ الثّقافيّ بنشره بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة خلال عشرين سنة من افتتاحه. فالكتاب الأَوَّل كان "مائة سؤال وَ جواب حول الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك" فِي عام ٢٠١٢ م تأليف الأستاذ الشّيخ/ صالح أحمد صالح چولاقوفيتْش، وَ هٰذِهِ المرّة يقوم المركز بنشر كتاب "الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة وَ الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ"، وَ هُوَ فِي حقيقة الأمر رسالة التّخصّص (الماجستير) الَّذِي تم مناقشتها فِي قسم اللُّغَة الْعَرَبِيَّة بكلّيّة الآداب وَ التّربية بجامعة الكويت فِي سنة ١٩٧٨ م، وَ هٰذَا أول الأمال الجادّة المكتوب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة بقلم مُسْلِم الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي التّأريخ الحديث للبوسنة وَ الْهَرْسَك.

أثار الكتاب الأَوَّل بعنوان "مائة سؤال وَ جواب حول الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك" – الَّذِي قد نفذ من السّوق وَ يتمّ إعداد طبعته الثانية – اهتمامًا كبيرًا لدى القرّاء، خاصّة لدى النّاطقين بِالْعَرَبِيَّةِ من الدّول الْعَرَبِيَّة، الَّذِينَ ازداد تواجدهم فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ زياراتهم إِلَيْهَا، وَ أيضًا لدى القرّاء داخل الْبُوسْنَة وَ

الْهَرْسَك، فِي المؤسّسات الدّينيّة وَ التعليميّة العالية وَ الثّقافيّة، الَّتِي يظهر احتياج طلّابها وَ أعضائها إلٰى الكتب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة.

نعتقد أن هٰذا الكتاب سيثير اهتمامًا كبيرًا لدى القرّاء بسبب محتواه وَ مؤلّفه، الَّذِي عاش وَ كَتب زمنًا طويلًا فِي العالم الْعَرَبِيّ، وَ كان فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك مكلّفًا بالمسؤوليّات وَ المناصب العظيمة – فِي المجالات الدّينيّة وَ الاجْتماعيّة وَ غيرها –، وَ هُوَ مَا زال نشيطًا فِي تِلْكَ المجالات.

موستار

رجب ١٤٣٦ هـ

مايو ٢٠١٥ م

المقدّمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدّمة

تعتبر هٰذِهِ الرّسالة محاولة منّا لإعطاءِ فكرة مفصّلة – قدر الإمكان – عن الإنجازات الَّتِي قدّمها مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي حقل العلوم الْعَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة لِأمّتهم فِي حقبة من الزّمن، مَا بين القرن السّادس عشر وَ التّاسع عشر الميلاديّ، معتمدين بادئ ذي بدء عَلٰى حقيقة ثابتة، ألا وَ هِيَ شمول الثّقافة الإِسْلَامِيَّة، كلّ مَا كتب فِيهَا بلغة الْقُرْآن، بغضّ النّظر عن المكان الَّذِي كتبت فِيهِ هٰذِهِ الثّقافة. وَ بناء عَلٰى ذٰلِكَ فإنّ الإِسْلَام وَ الثّقافة المستمدّة منه ليست لها علاقة محدّدة تنحصر بمكان مَا من العالم أو بشعب مَا من الشّعوب، وَ إنّما الإِسْلَام دين عامّ للبشر كافّة.

لِهٰذَا فقد كان يخالجني شعور دائم بحاجتي الماسّة للاطّلاع عَلٰى مَا قدّمته الشّعوب الإِسْلَامِيَّة الأُخرٰى من عطاء كبير فِي هٰذَا المجال، وَ يكفينا أن نعترفَ بقيمة هٰذَا العطاء فِي إبراز الثّقافة الإِسْلَامِيَّة عَلٰى وجهها الصّحيح، وَ خير برهان عَلٰى ذٰلِكَ مَا نجده بين مختلف الشّعوب، وَ هِيَ كتابتهم بأحرف عَرَبِيَّة مع أنّهم لا يتكلّمون اللُّغَة الْعَرَبِيَّة، وَ مردّ ذٰلِكَ حسب اعْتقادنا مَا يكنّونه من حبّ وَ تكريم

نحو الْقُرْآن الكريم، وَ من بين هٰذِهِ الشّعوب الَّتِي عاشت وَ ماتت مساهمة – بكلّ مَا لديها مَا استطاعت إِلٰى ذٰلِكَ سبيلًا – فِي بناء ثقافة إِسْلَامِيَّة متينة البنيان، الشّعب المسلم فِي منطقة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الَّذِينَ عاشوا قلبًا وَ قالبًا مع بقية الشّعوب الْإِسْلَامِيَّة، بأفراحهم وَ أحزانهم، بنجاحاتهم وَ خساراتهم، وَ مع ذٰلِكَ نجد أنفسنا مجبرين عَلٰى الاعْتراف بأنّ مَا قدّم وَ يقدّم من مساعدات مادّيّة وَ معنويّة، وَ خاصّة من الدّول الْإِسْلَامِيَّة لِهٰؤُلَاءِ المسلمين شيء لا يذكر، وَ خاصّة عندما كانوا وحيدين فِي بلاد البلقان تحت رحمة شعوب لا تعرف الرّحمة إِلٰى قلوبهم سبيلًا، وَ لٰكنّنا نعترف بحقّ بأنّ العالم الْإِسْلَامِيّ آنذاك لم يكن بإمكانه تقديم المساعدة لِنفسهِ، فكيف بِهِ ليساعد المسلمين فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ هم كانوا عَلٰى إحساس بِهٰذِهِ الحقيقة منطلقين من حبّهم الكبير نحو الْإِسْلَام وَ رسول الْإِسْلَام، هٰذَا الحبّ، وَ هٰذِهِ الأحاسيس حفظوها فِي قلوبهم وَ كتبوا بأقلامهم كتبًا كثيرةً تملأ مكتبات بلدهم إِلٰى وقتنا الحاضر.

وَ مع الأسف، فإنّ هٰذَا التّراث مع وفرته غير معروف إِلٰى الآن بالنّسبة لِلرّأي العامّ الْإِسْلَامِيّ خاصّة وَ العالميّ بشكل عامّ، وَ هٰذَا بلا شكّ أكبر ظلم قدّمته البشريّة فِي حقّ مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

وَ فِي فترة دراستي فِي جامعة بغداد، داخلني إحساس كبير بالتّفكير بما كَتَبَهُ مسلمُو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة وَ بكتبهم الَّتِي تَمْلأُ رفوف المكتبات هناك، وَ الَّتِي كتبوا فِيهَا عن أحوال المسلمين فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك خاصّة وَ أوروبا بشكلٍ عامٍّ، فكرت كثيرًا بِهٰذَا التّراث العظيم الَّذِي لا يعرف عنه فِي العالم الْإِسْلَامِيّ إِلَّا القليل، وَ غالبًا لا يعرف عنه شيْء أبدًا.

فِي تِلْكَ الفترة أخذت عَلٰى نفسي – بعون الله – بعد إتمام دراستي أنْ أتفرّغ لعمل شاقّ وَ مسؤول ألا وَ هُوَ دراسة وَ إظهار هٰذَا التّراث الدّفين إِلٰى الوجود لِيكونَ العالم أجمع عَلٰى علم بما كتبه مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة وَ ليتعرّف العالم الْإِسْلَامِيّ عَلٰى إخوة لهم فِي الدّين.

وَ بعد حصولي عَلٰى الإجازة – وَ بعون الله وَ مشيئته – اسْتطعت أنْ أحقّقَ رغبتي فِي ذٰلِكَ، حدث هٰذَا فِي جامعة الكويت حيث لقيت من القائمين عَلَيْهَا مساعدة وَ تفهّمًا كبيرًا لما أردْت القيام بِهِ، وَ خاصّةً من الأخت المسؤولة عن مجموعتي السّيّدة الأستاذة الشّاعرة نازك الملائكة، وَ إنّي لأنتهز هٰذِهِ المناسبة لِأُقدّمَ لها خالص شكري لما قدّمته لي من جهد وَ مساعدة وَ تفهّم.

أعود لِأقولَ أنّ هٰذِهِ الرّسالة تعتبر أوّل محاولة لِإنارة تراث مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، الَّذِي كُتب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة فقط (لُغَة الْقُرْآن) مقتصرًا عَلٰى هٰذَا الجانب منه، وَ قد كنتُ وحيدًا أمام بحر عميق لم يتجزّأ عَلٰى اهْتمام الكثيرين من بعدي لِيكتشفوا عمقه وَ مَا يحويه من تراث، وَ إنّني لَأشعر بالسّعادة لكوني أخط بداية الطّريق لعمل كبير ليكون منارة أمام الباحثين من بعدي.

أمّا مَا يخصّ هٰذَا الرّسالة، فقد اتّخذت فِي عملي هٰذَا التّقسيم إِلٰى أبواب وَ فصول حسب مَا يلي:

البابُ الأوَّل

وَ قدْ عمدت إِلى تقسيم هٰذا الباب إِلى أربعة فصول، متَّخذًا الفصل الأوَّل تحت عنوان "أحوال الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك العامّة قبيل مَجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ" وَ فِي هٰذا الفصل سوف أتكلّم عن شيئيْنِ اثْنيْنِ، أوّلهما الموقع الجغرافيّ لجمهوريّة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ قيمته الاستراتيجيّة فِي حياة وَ تقدّم الشّعوب البلقانيّة وَ ثانيهما أصل شعب الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

لقد كان من العسير عَلى الفرد أنْ يحدّدَ حدودًا معيّنةً لِهٰذِهِ الجمهوريّة قبيل مَجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ، وَ خلال فترة فتحهم لها، لِأنّ هٰذِهِ الحدود كانت فِي حالة متغيّرة دائِمًا، لِذٰلِكَ حاولت أنْ أذكرَ الحدود التّقريبيّة وَ العدد التّقريبيّ لسكّان هٰذِهِ المنطقة فِي فترة دخول الْعُثْمَانِيِّينَ لها، وَ قد شمل ذٰلِكَ أيْضًا تحديد عدد وَ نوع القوميّات الَّتِي انْتسب لها شعب الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

وَ فِي الفصل الثّاني وَ تحت عنوان "الأحوال الدّينيّة وَ السّياسيّة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك إثر مَجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ" حاولت أنْ أؤكّدَ عَلى عنصريْنِ هامّيْنِ كان لهما الأثر الأكبر فِي تمزيق وَ تقسيم الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك ألا وَ هما العنصر السّياسيّ وَ الدّينيّ وَ الفصل الَّذِي تمّ بين الدّين وَ السّياسة، وَ قد كان لوضع هٰذِهِ الجمهوريّة الاقْتصاديّ – وَ مَا حباها الله من ثروة طبيعيّة جميلة وَ موقع جغرافيّ وسط شبه جزيرة البلقان ممّا جعلها ملتقى للطّرق التّجاريّة من مختلف الجهات – اهْتمام كبير لدٰى القوٰى المتصارعة فِي هٰذا الجزْء من العالم حماية منها لمصالحها فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ فِي نفس الوقت لضعف شعب المنطقة، فقد كان عندهم سيان، تحت حكم من سوف يقعون عُثْمَانِيِّينَ كانوا أم يونانيِّينَ، لِأنَّ

كلاهما لا يتّفق وَ آمال الْبُوسنَوِيِّينَ، وَ مَجِيء أيّ منهم ليس فِي مصلحتهم وَ لا مصلحة تراثهم وَ حياتهم.

وَ أخيرًا وَ بدخول الْعُثْمَانِيِّينَ، حصل شعب الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك عَلٰى وحدته السّياسيّة وَ الدّينيّة فِي جميع مناطقه، وَ مع أنّ كثيرًا منهم لا يتّفق وَ هٰذِهِ النّظرة، إلّا أنّه ليس من الصّعوبة بمكان البرهان عَلَيْهَا.

وَ مع أنّ كثيرًا من شعب الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك لم يتقبّل الْإِسْلَام إلّا أنّهم جميعًا مسلمين وَ غير مسلمين كان لهم نفس الحقوق السّياسيّة وَ الواجبات الاجْتماعيّة، فلم يبْقَ هناك شيْء اسْمه عوائق دينيّة، بل وقفت جميع طبقات الشّعب باخْتِلَاف أديانهم صفًّا واحدًا.

أمّا مَا يخصّ الوحدة السّياسيّة، فقد كانت الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك أكبر مركز رئيسيّ للحكّام الْعُثْمَانِيِّينَ الَّذِينَ جاؤوا بالإسلام إِلٰى هٰذِهِ المنطقة، وَ أكبر قلعة الْعُثْمَانِيِّينَ فِي شبه جزيرة البلقان.

وَ قدْ عمدْت فِي هٰذَا الفصل إِلٰى تسليط الأوضاء وَ بشكل خاصّ عَلٰى شعب سمي بـ"البوغوميل" (Bogumil) لسبب هامّ وَ هُوَ قلّة من كتب عنهم بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، وَ هم أحد من الفرق الدّينيّة الَّتِي لعبت دورًا كبيرًا فِي حياة الشّعوب الأوروبيّة عامّةً وَ شعب الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك بشكل خاصّ، لِأَنَّ غالبيّتهم قد دخلوا تحت راية الْإِسْلَام.

وَ فِي الفصل الثّالث وَ عنوانه "فتح الْعُثْمَانِيِّينَ لِلْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك" تكلّمت فِيهِ أوّل ذي بدء عن تشكّل الدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ فتوحاتها فِي قارّة آسيا بشكلٍ عامٍّ، وَ من ثمّ فِي بلاد البلقان، وَ أخيرًا لِلْبُوسنَة وَ الْهَرْسَكِ بشكلٍ خاصٍّ مؤكّدًا

عَلٰى الفتح الْعُثْمَانِيّ التّدريجيّ لها، وَ قد حصلت أوّل معرفة بهم سنة ١٤٦٣ م مع أنّ فتحهم لها كان بعد ذٰلِكَ بعشرات السّنين، وَ بالضّبط سنة ١٥٩٢ م وَ فِي خلال فتحهم لها مرّوا بعقبات كثيرة، وَ ذٰلِكَ بسبب المصالح الاقْتصاديّة وَ السّياسيّة الَّتِي كانت تحاول القوٰى المختلفة فِي البلقان المحافظة عَلَيْهَا بأيّ ثمن، وَ منهم بالدّرجة الأولٰى دولة المجر وَ جمهوريّة البندقيّة وَ الإمبراطوريّة النّمساويّة.

وَ فِي الفصل الرّابع وَ الأخير من هٰذَا الباب، تكلّمت بشكل مفصّل وَ عريضٍ عن الانْتشار التّدريجيّ لِلْإِسْلَامِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ عن طريقة وَ كيفيّة هٰذَا الانْتشار، فمن المعروف أنّه قد كتب وَ يكتب إلٰى هٰذَا اليوم الكثير عن طريقة انْتشار الْإِسْلَام فِي أوروبا بالقوّة وَ السّيف وَ الإجبار، إلَّا أنّنا نؤمن بالقول الَّذِي يقول بأنّ الْعُثْمَانِيِّينَ نشروا الْإِسْلَام كما نشره أسلافهم العرب من قبل متمسّكين بالآية الكريمة الَّتِي تقول: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"، وَ أنّه لم تستعمل القوّة فِي يوم من الأيّام لنشر دعوة الْإِسْلَام فِي أيّ جزء من العالم، لا فِي الْبُوسْنَة وَ لا فِي غيرها، وَ ممّا يثبت هٰذِهِ الحقيقة لِأعداء الْإِسْلَام بقاء هٰذِهِ الدّعوة وَ صمود أهلها لما لَاقُوهُ وَ يُلَاقُونَهُ من صعوبات بسببها إلٰى وقتنا هٰذَا فِي معظم بلاد البلقان حتّٰى بعد خروج الْعُثْمَانِيِّينَ منها.

وَ نجد فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ الدّول المجاورة البرهان الأكيد إلٰى مَا ذهبنا إِلَيْهِ. لِذٰلِكَ نجدُ أنّ بعضهم قد دخل الْإِسْلَام، وَ أغلبهم بقي عَلٰى دينه دون إكراه أو قسوة، وَ لم يكن ذٰلِكَ مرتبطًا لا بِالْعُثْمَانِيِّينَ وَ لَا بغيرهم، وَ إنّما لِحبّهِمْ لِهٰذَا الدّين الحنيف، وَ بعد جلاء الْعُثْمَانِيِّينَ عن هٰذِهِ البلاد نرٰى أنّ الْإِسْلَام بقي وَ سيبقٰى إلٰى الأبد فِي قلوب أبناء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ لو أنّهم دخلوا فِيهِ بالقوّة

لتركوه الآن وَ هم فِي قمّة حرّيّتهم، وَ لٰكنّنا نرٰى عَلٰى عكس ذٰلِكَ، فهم من القوّة الإيمانيّة بحيث لَا يستطيع أحد من البشر أنْ يحولهم عن إسلامهم.

الباب الثّاني

انتشار الثّقافة الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

فِي هٰذَا الباب تكلّمت عن المؤسّسات وَ الدّوائر الَّتِي عنيت بشكل خاصٍّ بالثّقافة الْإِسْلَامِيَّة، وَ الَّتِي كان هدفها من هٰذِهِ الأبحاث إنسانيًّا حضاريًّا، وَ علميًّا أكثر منه مادّيًّا وَ قد كان لِهٰذِهِ المؤسّسات أهمّيّة كبيرة فِي قلب أوروبا، وَ قد نجدهم إِلٰى وقتنا الحاضر وَ قد تخلّٰى بعضهم عن المهمّة الَّتِي وجدوا من أجلها، وَ لٰكنّهم لَا زالوا برهانًا أكيدًا عَلٰى أهمّيّتهم بالنّسبة لِلْإنْسان، لِأنّ هدفهم الأكبر بناء هٰذَا الإنسان مادّيًّا وَ معنويًّا، حضاريًّا وَ روحيًّا، وَ ليس هدم المجتمع وَ تحطيم أخلاقه وَ معتقداته.

كما ذكرت فِي الفصل الْأَوَّل من هٰذَا الباب عن الأملاك التّابعة لدار الأوقاف الْإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، كما عرضت إِلٰى المجتمع الْإِسْلَامِيّ الْأَوَّل فِي المدينة المنوّرة وَ أثر هٰذَا المجتمع الْأَوَّل فِي حياة وَ تطوّر المجتمع الْعَرَبِيّ الْإِسْلَامِيّ، وَ بخاصّةٍ المجتمع التّركيّ، وَ أخيرًا تعرّضت إِلٰى المجتمع الْإِسْلَامِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ذاكرًا أهمّ الشّخصيّات الَّتِي ساهمت فِي تطوّر وَ دعم دائرة الأوقاف، وَ زيادة أملاكها مجملًا تأريخ حياة هٰؤُلَاءِ الشّخصيّات.

وَ فِي الفصل الثّاني من هٰذَا الباب تكلّمت عن المساجد وَ أثرها فِي حياة مسلمي هٰذِهِ المنطقة منذ دخول الإِسْلَام إِلَيْهَا وَ حتّٰى وقتنا الحاضر، كما أنّني تطرّقت إِلٰى أثر التّصوّف فِي حياة المسلمين فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ عن المكتبات وَ المدارس الّتِي كانت آنذاك كما حرصت عَلٰى ذكر أهمّ المدارس وَ المكتبات وَ دور الذّكر الإِسْلَامِيَّة بشكلٍ يعطي القارئ الكريم فكرةً واضحةً مفصّلةً عن التّراث الإِسْلَامِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

وَ فِي الفصل الثّالث وَ الأخير من هٰذَا الباب، تعرّضت إِلٰى بعض المؤسّسات الاجْتماعيّة وَ الاقْتصاديّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، مع العلم أنّ أغلب هٰذِهِ المؤسّسات قد توقّفت عن العمل منذ زمن بعيدٍ أمثال: دور المسافرين، الخانات لأهل السّبيل، وَ المطابخ. غير أنّ جزءًا منها يقف إِلٰى الآن يصارع الزّمن أمثال: حوانيت التّجارة، الدّكاكين، الجسور، كما أن من مؤسّسات الدّولة من تهمهم المحافظة عَلٰى هٰذِهِ الآثار وَ ترميمها لقيمتها التّاريخيّة وَ السّياسيّة.

الباب الثّالث

فِي إطار هٰذَا الباب تعرّضت إِلٰى مَا كتبه مسلمُو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك من إنتاج بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، وَ من الجدير بالذّكر أنّه مَا من أحد سلط الأضواء عَلٰى هٰذَا الموضوع لِأنّ معظم الباحثين أوروبيّين كانوا أم يُوغُسْلَافيّين قد خلطوا بين الكتابة بِالْعَرَبِيَّةِ وَ التّركيّة وَ الْفَارِسِيَّة خلطًا من الصّعب التّفريق معه بين الكتابة بِالْعَرَبِيَّةِ وَ التّركيّة، وَ مَا يتبعه من تداخل فِي الأفكار وَ المواضيع، وَ لسوف يمرّ معنا بعض الأمثلة الّتِي ذكر أنّها من أصل تركيّ أو فَارِسِيّ وَ بالعكس.

وَ بما أنّ مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قد قدموا إنتاجًا فِي مختلف العلوم فقد اتّبعت فِي تعرّضي لِهٰذَا الإنتاج التّسلسل التّالي:

- فِي الفصل الأوّل وَ تحت عنوان "التّأليف فِي العلوم الدّينيّة" يتضمّن علوم الحديث، العقائد، أصول الفقه، الفقه وَ التّصوّف.

- وَ فِي الفصل الثّاني وَ عنوانه "التّأليف فِي العلوم اللُّغَوِيَّة" تحدّثت عن المسلمين الَّذِينَ كتبوا فِي الشّعر وَ النّثر، مع أنّهم لم يبرعوا فِي مجال الشعر، إلّا أنّهم برعوا فِي المجالات الأخرٰى كالأدب وَ اللُّغَة، فقدّموا إنتاجًا يستحقّ الاهْتمام وَ التّقدير.

وَ أعترف منذ البداية، أنّني لم أبحث فِي هٰذَا الباب كلّ مَا كتب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة فِي مختلف العلوم، وَ لٰكنّني عَلٰى كلّ حالٍ تعرّضت إلٰى كلّ مَا اسْتطعت أنْ أتوصّلَ إلٰى معرفته عن هٰذَا الموضوع من خلال المكتبات العامّةِ وَ الخاصّةِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ إنّني عَلٰى اعْتقاد بأنّه لَا يزال قسم كبير من هٰذَا التّراث غير معروف، وَ قدْ أشَرْتُ سابقًا إلٰى أن محاولتي هٰذِهِ بداية لكشف هٰذَا التّراث وَ تسليط الأوضاء عَلَيْهِ.

الباب الرّابع

فِي هٰذَا الباب تعرّضت إلٰى الحديث عن كلّ مَا يتعلّق بِالأدَبِ الشّعبيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ مع أنّه لَا توجد قيمة أدبيّة تذكر لِهٰذَا الأدب، فقد تعرّضْتُ له لكونه مكتوبًا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، وَ قدْ مرّ زمن ضعفت فِيهِ كفاءة

المسلمين فِي الْبُوسْنَة فِي كتابة أدبهم بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، فأخذوا يكتبونه بِاللُّغَةِ الْبُوسْنَوِيَّة كما يلفظونه، وَ لٰكن بأحرف عَرَبِيَّة، مع حفاظهم عَلٰى اسْتعمال الْعَرَبِيَّة فِي المجالات الأخرٰى.

وَ فِي الفصل الْأَوَّل من هٰذَا الباب تحدّثت عن طريقة كتابة الْبُوسْنَوِيَّة بأحرف الْعَرَبِيَّة.

أمّا الفصل الثّاني فقدْ تعرّضت فِيهِ لِأهمّ الكتّاب وَ الأدباء الَّذِينَ خاضوا غمار الأدب الشّعبيّ مع بعض الأمثلة الَّتِي سردتها كَبراهين عَلٰى إنتاجهم.

أمّا مَا يتعلّق بمصادر أبحاث هٰذِهِ الرّسالة، فالنّسبة للحكم الْعُثْمَانِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، فقد حصلت عَلٰى مصادر كثيرة وَ متنوّعة، وَ لنشر الْإِسْلَام فِي هٰذِهِ المنطقة مصادر أقلّ، أمّا الإنتاج الأدبيّ وَ الَّذِي كتب بلغة عَرَبِيَّة فالقلّة القليلة من المصادر.

هٰذَا وَ قد صرفت جزءًا كبيرًا من الزّمن فِي ثنايا المكتبات إِلٰى أن حصلت عَلٰى أصل المراجع الَّتِي أثبتها فِي الموضوع، وَ فيما يتعلّق بتاريخ الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك حتّٰى العقد الثّلاثين من هٰذَا القرن، فقد اعْتمدت عَلٰى مصادر أوروبيّة لاتينيّة اللُّغَة وَ المصدر، مع أنّها لم تتضمّنْ إِلَّا جزءًا بسيطًا من بحثي لِأَنّها لَا تعطينا معلومات وافية عن تطوّر هٰذِهِ الثّقافة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ الَّتِي هِيَ مجال البحث، وَ خاصّة خلال الحكم الْعُثْمَانِيّ لِلْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ لٰكنّهم يتعرّضون فقط من خلال حكم المجر وَ الإمبراطوريّة النّمساويّة، وَ من ناحية أخرٰى عندما يتعرّض المؤرّخون الأوروبيّون إِلٰى تاريخ مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فإنّهم – بقصد أو بغير قصد – يعطوننَا معلومات غير صحيحة عنهم، وَ

لِهٰذَا السّبب فقد كان جلّ اعْتمادي عَلٰى المعلومات الَّتِي نقلت بِاللُّغَةِ التّركيّة وَ من أصل تركيّ لقربهم من الواقعيّة فِي فترة مَا قبل الإِسْلَام وَ خلال حكمهم، لِأَنَّهُمْ كانوا حريصين عَلٰى تسجيل كلّ الوقائع وَ الحوادث الَّتِي عاشوها وَ تضمّنتها خبرتهم، فسجلوا الحالة الَّتِي كانت عَلَيْهَا هٰذِهِ الشّعوب حَتّٰى قبل مجيئهم بكلّ تحرّر وَ أمانة.

وَ فِي عملي هٰذَا اعْتمدت أساسًا عَلٰى المصادر وَ المراجع التّالية:

أوّلًا: المصادر:

١- المصادر المحلّيّة وَ الأوروبيّة (بِاللُّغَةِ الْبُوسْنَوِيَّة وَ اللّاتينيّة وَ المجريّة وَ الألمانيّة).

أ- الوثائق (المرسومات وَ الرّسائل وَ الآثار المنحوتة).

ب- المؤلّفات (التّواريخ القديمة، السّيرة وَ أوصاف الرّحلات).

٢- المصادر الشرقيّة (الْعَرَبِيَّة منها وَ التّركيّة).

أ- الوثائق، الدّفاتر الْعُثْمَانِيَّة القديمة، دفاتر الأوقاف المحفوظة، وثائق الأوقاف، المراسيم الأميريّة، الصّكوك... إلخ.

ب- المؤلّفات التّاريخيّة الْعُثْمَانِيَّة القديمة وَ السّير وَ الرّحلات.

ثانيًا: المراجع:

١- المراجع الْعَرَبِيَّة وَ الأوروبيّة (الغربيّة).

٢- المراجع العربيّة وَ التّركيّة (الشّرقيّة).

أمّا مَا يتعلّق بالمصادر المادّيّة، وَ الّتِي تتضمّن فترة مَا قبل الحكم الْعُثْمَانِيّ، فليس باسْتطاعتنا الحصول عَلَيْهَا فِي هٰذَا الزّمن، وَ ممّا لَا شكّ فِيهِ أنّها كانت موجودةً وَ لٰكن الصّراعات السّياسيّة الّتِي توالت عَلى المنطقة قبيل الحكم الْعُثْمَانِيّ قد أضاعتها أو أتلفتها، وَ جدير بالذّكر أنّ قوم البوغوميل وَ هم الّذِينَ كانوا يؤلفون معظم سكّان منطقة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قد أهملوا تسجيل الوقائع المادّيّة المحسوسة لِأحوالهم، وَ الشّيْء الوحيد الّذِي خلفوه وراءهم هُوَ تِلْكَ النّحوت وَ التّماثيل الحجريّة وَ الّتِي تستطيع أن نعرف منها أسماء أصحابها وَ علامات تميّزت بِهَا دياناتهم آنذاك.

إنّ أوّل وثائق تاريخيّة عن الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بين أيدينا تتكلّم عن أحوالهم فِي القرون الوسطى فد أَتَتْ عن طريق المجر أو من مصادر بابويّة مسيحيّة، وَ هٰذَا واقع معروف لِأنّ كلّ هٰذِهِ الدّول قد ربطت بينها وَ بين الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك علاقات تجاريّة حَتّى فِي خلال الحكم الْعُثْمَانِيّ لها.

وَ باسْتطاعتِنا دائمًا أنْ نجدَ بعض الرّسائل وَ المرسومات المكتوبة من قبل حكم الْبُوسْنَة آنذاك أو من كبار رجال الكنائس أو عن طريق المجريّينَ وَ أغلب من هٰذِهِ الوثائق مكتوب بِلغة بُوسْنَوِيّة غير مفهومة (غير مفهومة (لُغَة محلّيّة)).

وَ مع أنّ لِهٰذِهِ المصادر قيمة كبيرة لباحثِي تاريخ الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك إلّا أنّه قد بدأ بِالِاطّلاع عَلَيْهَا وَ اسْتعمالها فِي بداية القرن التّاسع عشر، وَ قد اسْتفدْت

بصورة خاصّة من مجموعة الوثائق المنشورة وَ خاصّة وثائق دار المحفوظات بمدينة دوبروفنيك (Dubrovnik) فِي جنوب كُرواتيا، وَ أذكر منها مَا يلي:

١- مجموعة الوثائق الَّتِي نشرها ميقْلوشيتْش فْرانيو (Miklošić Franjo)،

٢- مجموعة الوثائق الَّتِي نشرها لوپاشيتْش رادوفان (Lopašić Radovan)،

٣- مجموعة الوثائق الَّتِي نشرها ترهلوها تْشيرو (Truhelka Ćiro).

وَ من الأهمّيَة بمكان لكلّ باحث فِي تاريخ شعب الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك تِلْكَ الوثائق الَّتِي تعرف بِاسْم "الحوليّات" القديمة المحلّيَة وَ الأجنبيّة وَ الَّتِي كتبت فِيما بين القرن الخامس عشر وَ السّابع عشر الميلاديّ وَ أهمّها:

١- حوليّة ميخايلوفيتْش قسطنطين من مدينة أوسترويتْسا، وَ هٰذِهِ الحوليّة من الأهمّيّة بمكان لِأنّها تحكي لنا عن فتح السّلطان محمّد الفاتح لمنطقة الْبُوسْنَة، وَ فِيهَا يتكلّم عن الأحوال الاجْتماعيّة وَ السّياسيّة وَ الاقْتصاديّة فِي خلال الحكم الْعُثْمَانِيّ وَ الأهمّ من ذٰلِكَ أن الكاتب نفسه قد شارك فِي فتح المنطقة مع الأتراك.

٢- حوليّة مدينة فُويْنِيتْسَا (Fojnica) فِي القرن السّابع عشر وَ المكتوبة فِي نفس المدينة، إلّا أنّها تعطينا – عَلَى الأغلب – معلومات غير صحيحة. أمّا بقيّة المصادر الَّتِي اعْتمدت عَلَيْهَا فِي البحث عن الحالات الاقْتصاديّة وَ الاجْتماعيّة وَ السّياسيّة وَ الدّينيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ

الْهَرْسَكِ، فَهِيَ التّقارير المختلفة وَ المرسلة إلَى الباباوات فِي روما وَ إلَى جمهوريّة البندقيّة وَ الإمبراطوريّة النّمساويّة من قبل القساوسة وَ الرّهبان الكاثوليك وَ أتباعهم، أو من قبل جواسيس النّمسا الَّذِينَ ساعدوا بتقاريرهم عَلَى حشد الطّاقات ضدّ الْعُثْمَانِيِّينَ وَ احتلال الْبُوسْنَة من بعدهم، وَ أغلب هٰذِهِ التّقارير ترجع إلَى القرن السّابع عشر وَ مَا بعده، وَ أهمّها:

- تقرير مبعوث البابويّة بيتر ماساريتْشي (Petar Masarichi) رفع سنة ١٦٢٣ م وَ سنة ١٦٢٤ م.

- تقرير باوله (Pavle) من مدينة روفينْيْ، وَ قد رفعه سنة ١٦٤٠ م. هٰذَا وَ إن لما كتبه الرّحّالة الأوروبيّون الَّذِينَ عبروا هٰذِهِ المنطقة فِي النّصف الثّاني للقرن السّادس عشر وَ القرن السّابع عشر أثر كبير، لِأنّهم يعطوننا معلومات لها علاقة كبيرة بموضوع بحثنا.

أمّا مَا يتعلّق بمخطوطات الرّحّالة بعد هٰذِهِ الفترة فليس من الأهمّيّة بمكان وَ يشكّ فِي صحّتها.

وَ من أهمّ الرّحّالة الغربيّين الَّذِينَ تركوا لنا معلومات عن الْبُوسْنَة فِي مَا بين الفترة موضوع البحث أو بعدها بقليل، أيْ خلال القرن السّابع عشر، الرّحّالة قوريبيشيتْشْ (Kuripešić)، وَ ژان شينو (Jean Cheno)، وَ ژاك غاسو (Jacques Gassot)، وَ بيير لاسكالوبيير (Pierre Lescalopier)، وَ لويس دي هيس (Louis des Hayes)، وَ كيكله (Quiclet)، وَ بوله داس (Pollet Das).

وَ لقد أشرت فيما سبق أنّ اعْتمادي الكبير فِي هٰذَا البحث كان عَلٰى المصادر التّركيّة، وَ الَّتِي بُدئ فِي إخراجها للقرّاء فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي بداية القرن العشرين، وَ فِي السّنوات الثّلاثين الأخيرة من هٰذَا القرن، وَ لِهٰذَا التّأخير أسباب كثيرة وَ عديدة، منها تأخّر ظهور الدّراسات عن تراث هٰذِهِ المنطقة، وَ قد كانت كتابة هٰذَا التّراث بِاللُّغَةِ التّركيّة من أكبر العوائق أمام الباحثين لِأنّ هٰذَا يتطلّب معرفة اللُّغَة التّركيّة.

وَ الحقيقة أنّ من المؤلّفين اليُوغُسْلَافيّين من اعْتمد عَلٰى المصادر التّركيّة فقط ليخطوا خطوة يفوقون بِهَا الباحثين الغربيّينَ، وَ ليتقدّموهم فِي أبحاثهم وَ من هٰذَا الصّنف نجد سْتويان نوفاكوفيتْشْ (Stojan Novaković)، وَ فلاديسلاف سْكاريتْشْ (Vladislav Skarić) وَ آخرين غيرهم.

أمّا بالنّسبة للمصادر التّركيّة، فقد عمدت إِلٰى تقسيمها حسب أهمّيّتها للبحث كالآتي:

١- الدّفاتر الْعُثْمَانِيَّة القديمة (طابودفترلرى (Tapu defterleri)) وَ القوانين الْعُثْمَانِيَّة – قانون نامه – وَ المراسلات الرّسميّة الأميريّة... إلخ.

٢- وثائق الأوقاف وَ دفاترها وَ سجلّات المحاكم الشّرقيّة.

٣- النّقوش عَلٰى الآثار الإِسْلَامِيَّة (الجوامع، وَ دور الذّكر، وَ المقابر).

٤- المؤلّفات (التّواريخ العامّة القديمة وَ الجغرافيات العامّة وَ السّير وَ أوصاف الأسفار وَ الرّحلات).

مراجع البحث:

بالنّسبة للمراجع فقد اعْتمدت فِي تقسيمها كما هُوَ الحال بالنّسبة للمصادر إِلَى محلّيّة، وَ أوروبيّة، وَ شرقيّة، وَ إسْلَامِيَّة.

كما أنّني عمدت إِلَى التّقسيم الموضوعيّ لِهَٰذِهِ المراجع حسب التّالي:

١- المراجع وَ الدّراسات الَّتِي تبحث فِي مختلف وجوه الحياة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ قبل العهد الْعُثْمَانِيّ.

٢- المراجع وَ الدّراسات الَّتِي تتعلّق بالفتوحات الْعُثْمَانِيَّة وَ انْتشار الإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

٣- المراجع وَ الدّراسات الَّتِي قامت بجمعها وَ طبعها المؤسّسات الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

وَ من أهمّ الدّراسات التّاريخيّة الَّتِي ظهرت عن الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك تِلْكَ الَّتِي سجّلها فلاديمير تْشوروفيتْشْ (١٨٨٥-١٩٤١ م). وَ قد أظهر فِي دراساته بشكل خاصّ الحالة السّياسيّة فِي الْبُوسْنَة منذ بدايتها وَ حَتَّى سقوطها النّهائيّ فِي يد الْعُثْمَانِيِّينَ، وَ أمّا المؤرّخ الصُّرْبِيّ المعاصر وَ اسمه سيما تْشيرقوفيتْشْ فقد ذهب إِلَى أبعد من سالفه لأنّه مع ذكره الحالة السّياسيّة فقد اشْتملت دراسته عَلَى النواحي الاقْتصاديّة وَ التّاريخيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ قد اسْتخدمت لِهَٰذَا

الفرض وثائق هامّة وَجَدَهَا فِي مدينة دوبروفنيك القديمة عَلَى ساحل البحر الأدرياتيكيّ.

وَ فِي هٰذَا المجال نذكر أيْضًا المؤرّخ الكرواتيّ وْيبقوسْلَاف قْلانِيتْشْ (١٨٤٩-١٩٢٩ م). وَ هُوَ وَ إن كتب عن تاريخ الجمهوريّة الكرواتيّة إلّا أنّه قد ضمّن أبحاثه معلومات كثيرة عن الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ عَلَى نفس المنوال سار المؤرّخ الْيُوغُسْلَافيّ المشهور قسطنطين بيريتْشيك (١٨٥٤-١٩١٨ م) وَ الَّذِي ضمّن كتابه (تأْريخ الصّرْب) نبذة عن جمهوريّة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، كما أنّ الباحث الْكُرواتيّ فْرانيو راتْشْكي قد أصدر أفضل الأبحاث عن قوم البوغوميل، وَ تعد دراسته من أفضل الدّراسات فِي هٰذَا المجال.

وَ يجدر بنا أنْ نذْكرَ دور الصّحف فِي هٰذَا الموضوع كمجلّة المتحف البلدي وَ الَّتِي كانت تصدر باسم المتحف المذكور فِي مدينة سراييفو عاصمة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ مجلّة جمعيّة مؤرّخي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي سراييفو أيْضًا وَ من الَّذِينَ ساهموا فِي إخراج هٰذِهِ المجلّات ميخايلو دينيتْشْ.

أمّا بالنّسبة للأعْمال الفرديّة لبعض الدّارسين، فقد اعْتمدْتُ عَلَى الدّراسات الحديثة كَالَّتِي قام بِهَا سْتويان نوفاكوفيتْشْ، وَ عَلَى الأخصّ دراسة الدّكتور حازم شعبانوفيتْشْ، كما اطّلعت عَلَى أعمال للمؤرّخ التّركيّ خليل إينالجق وَ الكاتب المشهور مُحَمَّد خانْجيتْشْ.

هٰذَا وَ قد زوّدنا جماعة الباحثين فِي المعهد الشّرقيّ بمدينة سراييفو عن طريق مجلّة هٰذَا المعهد وَ اسْمها پريلوزي (Prilozi) ملاحق للدّراسات فِي اللّغات الشّرقيّة وَ غيرها من المجلّات العلميّة، بدراسات مفيدة عن

انْتشار الإِسْلَام وَ من أعضاء هٰذِهِ الجماعة الأستاذ نديم فيليپوفيتْشْ وَ الأستاذ آدم خانْجيتْشْ، معتمدين فِي دراساتهم هٰذِهِ عَلٰى دفاتر صكوك التّملّك الْعُثْمَانِيَّة (وَ هِيَ غير مشهورة) وَ قد أعطتنا معلومات إحصائيّة عن انْتشار الإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

وَ من الباحثين الأجانب الَّذِينَ قدّموا لنا معلومات عامّة عن انْتشار الإِسْلَام فِي المنطقة الباحث الإنجليزيّ المعروف آرنولد توماس، وَ قد نجد بعض الإحصائيّات عن سكّان الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي القرن السّادس عشر فِي دراسات الباحث التّركيّ عمر لُطفي بركان.

وَ من المجلّات الَّتِي تعرّضت إِلٰى المؤسّسات الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي بداية هٰذَا القرن مجلّة "غلاسْنيق" وَ هِيَ من إصدار المتحف البلديّ فِي سراييفو ١٨٨٩ م وَ نستطيع أن نجد معلومات واقعيّة فِي هٰذَا المجال عن طريق مجلّة تصدر باسْم المشيخة الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ تحمل نفس اسْم سابقتها.

كما يجدر بنا أنْ نذْكرَ فضل معهد المحافظة عَلٰى الآثار الحضاريّة التّابع للدّولة اليُوغُسْلَافيّة وَ الَّذِي يصدر مجلّته المعروفة بِاسْم "تراثنا القديم" (Naše starine) وَ قد صدر أوّل عدد لها سنة ١٩٥٣ م.

وَ يوجد الْآنَ عدد من المعاهد الَّتِي تدرس الثّقافات بصورة عامّة فِي جمهوريّة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ قد اطّلعت عَلٰى بعض أعمالها أذكر منها عَلٰى سبيل المثال الأبحاث الَّتِي قام بِهَا بعضهم أمثال مُحَمَّد بكوفيتْشْ

(Muḥammed Begović)، وَ جمال تْشيليتْشْ (Džemal Čelić)، وَ مُحَمَّد مُفتيتْشْ (Muḥammed Muftić) وَ درويش بوتوروفيتْشْ (Derviš Buturović).

وَ من الباحثين الأجانب الَّذِينَ تطرّقوا إِلٰى هٰذَا الموضوع وَ لوْ سطْحيًّا وَ ذكروا المؤسّسات الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَة، الباحث التّركيّ أكرم آيودي حقّي، وَ الَّذِي أعد وصفًا لِهٰذِهِ المؤسّسات عَلٰى أساس معلومات اسْتقاها من كتاب "سياحة نامه" لِأَوْلياء چلبي (Evlija Čelebi) وَ بعض المراجع اليُوغُسْلَافيّة المحلّيّة، وَ ذٰلِكَ ضمن وصفه لِلْآثار الْعُثْمَانِيَّة فِي يُوغُسْلَافِيَا عامّة.

وَ قد أفادني عَلٰى الخصوص أحدث عمل قام بِهِ فِي هٰذَا المجال الأستاذ نيازي مُحَمَّد شُكْريتْشْ (Nijazi Muḥammed Šukrić) وَ يعتبر عمله من أشمل وَ أفضل مَا ظهر حَتّٰى الآن فِي هٰذَا المجال، كما اسْتفدْت من فهرست المخطوطات الْعَرَبِيَّة الَّذِي ألّفه الأستاذ قاسم دوبراتْشا (Kasim Dobrača) وَ من خلال هٰذَا الفهرست حصلت عَلٰى أعمال حقيقيّة لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ قد وَجَدْتُ بعض الصّعوبات عَلٰى هٰذَا الطّريق، وَ لٰكنّه طريق البحث وَ الاسْتكشاف، كان وَ لَا يزال الطّريق الشّاق الطّويل، الَّذِي لَا بدّ منه لتقدّم الحضارة وَ الإنسانيّة.

* * *

وَ أخيرًا يحقّ لي أنْ أذكر أنّ هٰذِهِ الرّسالة ليست إلّا حلقة فِي سلسلة الدّراسات الَّتِي تعنٰى بثقافة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك معتقدًا أنّني بِذٰلِكَ قد ساهمت إلٰى حدّ مَا فِي إعطاء الرأي العامّ الْعَرَبِيّ وَ الْإسْلَامِيّ صورة واضحة عن مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ إنْ كنت لمْ أف بالموضوع كما يجب، فمردّ ذٰلِكَ لعظم وَ حساسيّة الموضوع وَ أهمّيّته.

وَ سأكون راضيًا مرتاح الضّمير فيما لوْ أخذ هٰذَا العمل أساسًا وَ منطلقًا لِأبحاث قادمة، إنْ شاءَ الله.

وَ الله وليّ التّوفيق

الكويت فِي ٢١ جمادي الثّاني ١٣٩٨ هـ

٢٨ مايو ١٩٧٨ م

صالح أحمد صالح چولاقوفيتْشْ

الباب الْأَوَّل:

انْتشارُ الْإِسْلَامِ وَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

الفصلُ الأوّلُ:

الأحوالُ العامّةُ لِلْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ قبيل مَجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ

لمحة عن جغرافيا المنطقةِ وَ تأْريخِهَا

تقع الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي المناطق الشّرقيّة من شبه جزيرة البلقان. وَ هٰذِهِ الجزيرة تختلف عن الجزر الأوروبيّة الأُخرٰى (البيريني (Pyrénées) وَ الآبينيني (Appennini)) لَا فِي طبيعتها وَ موقعها الجغرافيّ فحسب وَ إنّما فِي تطوّرها السّياسيّ وَ الحضاريّ كَذٰلِكَ[1]. وَ مع أنّ قمّة جبالها لَا تبلغ علوّ جبال سِيِيرا نِيوَادَا (Sierra Nevada) أو أَتْنَا (Etna) إلَّا أنّ المرور عبر جبال البلقان أصعب بكثير منه عبر الجبال الإسبانيّة أو الإيطاليّة. وَ ليس لِهٰذِهِ الجزيرة اسم يتّفق عَلَيْهِ الجغرافيُّون، بَلْ سمّوها – وَ لَا يزالُون – بأسماءٍ مُختلفةٍ؛ مِنها:

---

[1] Jireček, Konstantin Josef (1952.) *Istorija Srba*, II, Beograd, p. 6.
تأريخ الصِّرْب، بيريتْشيك قُسْطنطين، ص ٦، بلغراد ١٩٥٢ م.

الجزيرة الإيليريّة وَ الجزيرة الإغريقيّة، ثمّ – أخيرًا – جزيرة البلقان، وَ هُوَ الإسم الَّذِي أخذنا بِهِ فِي هٰذِهِ الدّراسة، لِأَنَّهُ الأحدث تاريخًا، وَ من بين خصائصِ هٰذِهِ الجزيرة أَنَّهَا لَمْ تكنْ تمثّل فِي يومٍ من الأيامِ وحدة سياسيّة أو دينيّة أو لغويّة... وَ إذا كان الرّومان – وَحْدهم – هم الَّذِينَ نجحُوا فِي الإسْتيلاءِ عَلَيْهَا، وَ اخضاعها – كاملة – لِحكمِهِمْ، فَإِنَّ البيزنطيين وَ الْعُثْمَانِيِّينَ من بعدهم لم ينجحُوا إلَّا فِي حكم مناطقٍ محدودةٍ منها، فِي فتراتٍ مختلفةٍ.

وَ لَا شكّ فِي أنّ الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك تمثّلان منطقتَيْنِ فريدتَيْنِ فِي هٰذِهِ الجزيرة، فَهُمَا المنطقتانِ الوحيدتانِ اللَّتَانِ الْتَقَى فِيهما الشّرقُ بالغربِ.

فبينما كانت كُرواتيا (Croatia (Hrvatska)) تحت تأثير العنصر الرّومانيّ وَ كانت صَرْبيا (Serbia (Srbija)) واقعة تحت تأثير العنصر البيزنطيّ، وَ بخاصّة منذ القرن السّادس الهجريّ / الثّاني عشر الميلاديّ وَ من ثمّ فَلَا غرو فِي أنّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كلا التاثيرَيْنِ. وَ عَلَى أثر ذٰلِكَ كانتا مسرحًا للحروب وَ المنازعات الكثيرة.

وَ أكثر الَّذِينَ كتبوا عن تأريخ هٰذِهِ المنطقة ذهبوا إِلَى أنّ الفوارق القبليّة وَ السّياسيّة أدّت إِلَى هٰذِهِ الحروبِ وَ الإضْطراباتِ وَ نسوا أنّ الفوارق الدّينيّة لعبت دوْرَها فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ منذُ القرون الوسطى. فَهٰذِهِ الفوارق كانت أبرز من الفوارق القبليّة وَ السّياسيّة وَ أخطر. وَ إِلَى جانب الكاثوليكيّين وَ الأرثوذكسيّين نلاحظ فِي القرن السّابع الهجريّ / الثّالث عشر الميلاديّ نشاطًا عظيمًا قامت بِهِ الطّائفة البوغوميليّة (Bogumili) وَ أخيرًا فِي القرن التّاسع الهجريّ / الخامس عشر الميلاديّ جاء دور الإسْلَام. لِذٰلِكَ لَا يكون من العجب أنّ الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك سمّيتا بـ"إسبانيا اليُوغُسْلَافيّة".

وَ يرجع اعتبار الْبُوسْنَة منطقة خاصّة إِلٰى القرن الرّابع الهجريّ أو القرن العاشر الميلاديّ، وَ هٰذَا مَا يذهب إِلَيْهِ طائفة من المؤرّخِينَ البيزنطيِّينَ[٢] وَ المحليِّينَ[٣]، وَ قد يكون الامبراطور قسطنطين السّابع پورفيروغينت (Porphyrogénnētos (Porfirogenit)) (٣٠٠-٣٤٨ هـ / ٩١٢-٩٥٩ م) أوّل من ذكر هٰذَا الإِسم فِي كتابه "De Administrando Imperio". وَ لَا نعرف شيئًا عن تأريخ هٰذِهِ المنطقة فِي أقدم عصورها. لٰكنّنا نعلم أنّ مصيرها كان كمصير الدّول الْأخرٰى فِي تِلْكَ الْأزمنة وَ كانت جميعها تدور فِي فلك الدّولة الْإغريقيّة أوّلًا وَ فِي فلك الدّولة الرّومانيّة ثانيًا. وَ قد نالت الْبُوسْنَة اسْتقلَالها أوّل مرّة سنة تسعمائة وَ خمسين[٤] وَ لٰكن هٰذَا الإِسْتقلال كان اسْميًّا لِأَنَّهَا لمْ تستطِعْ أنْ تؤدّيَ دورًا بارزًا فِي حياة الصّقالبة الجنوبيِّينَ. بلْ كثيرًا مَا خضعت للحكم البيزنطيّ أو الكرواتيّ. وَ معنٰى ذٰلِكَ أنّ الْبُوسْنَة فِي أقدم عصُورها كانت تحت تأثير الثّقافة

---

[٢] Ćorović, Vladimir (1925.) *Bosna i Hercegovina*, Beograd, p. 6.

الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسك، تْشُوروفيتْش وْلادمير، ص ٦، بلغراد ١٩٢٥ م.

[٣] Ferijančić, Božidar (1959.) *Bizantijski izvori za istoriju naroda Jugoslavije*, Srpska Akademija nauka, Beograd, II, p. 58-59.

المصادر البيزنطيّة لِتأريخ الشّعوب اليوغسلافيّة، فيريانتْشيتْش بوژيدار، مجمع العلوم الصِّرْبيّة، الطبعة الثّانية، ص ٥٨-٥٩، بلغراد ١٩٥٩ م.

[٤] Mošin, Vladimir (1950.) *Ljetopis popa Dukljanina*, Matica Hrvatska, Zagreb, p. 54-55.

ذكريات راهب من دُكْلَا (Dukla)، موشين وْلادمير، ص ٥٤-٥٥، زَغْرَبْ ١٩٥٠ م.

الْإغْريقيّة كما حدث للقبائل الإيليريّة (Iliri) الأخرٰى الَّتِي اسْتوطنت فِي داخل جزيرة البلقان.

وَ كانت المراكز الأولٰى لنشر هٰذِهِ الثّقافة داخل الجزيرة هِيَ المدن الواقعة عَلٰى ساحل البحر الأدرياتيكيّ وَ هِيَ المدن الَّتِي أصبحت فِي أيدي اليونانيِّينَ وَ كانت مدينة نورونا (Norona) من أهمّ هٰذِهِ وَ تسمّٰى اليوم ويد (Vid) وَ منها يبدأ الطّريق التّجاريّ الشّهير° الَّذِي يمتدّ إلٰى داخل الْبُوسْنَة. وَ لمْ يقتصر هٰذَا الطّريق الَّذِي كان يصل الْبُوسْنَة بالبحر عَلٰى أداء دور سياسيٍّ وَ تجاريٍّ فحسب وَ إنّما كان له دور ثقافيّ كَذٰلِكَ لِأنّ التّجّار كانوا أوّل من حمل الثّقافة الْإغْريقيّة إلٰى داخل الْبُوسْنَة. كما أنّه قد كان لِهٰذَا الطّريق أهمّيّته الِاقْتصاديّة وَ الثّقافيّة طوال القرون الوسطٰى خلال الحكم الرّومانيّ، وَ هِيَ أهمّيّة مَا زالت قائمة حَتّٰى عصرنا هٰذَا. وَ كانت الثّقافة الْإغْريقيّة تظلّ الْبُوسْنَة قبل الميلاد، أمّا بعد الميلاد فقد أظلتها ثقافة جديدة هِيَ الثّقافة الرّومانيّة. ذٰلِكَ أنّ الرّومان احتلّوا هٰذِهِ المناطق فِي السّنة التّاسعة بعد الميلاد بعد مقاومة عنيدة قابلتهم بِهَا القبائل الْإيليريّة وَ اسْتمرّت قرنين من الزمن[٦] وَ خِلَالَ الحكمِ الرّومانيّ تغيّرت الأوضاع

° وَ أشهر هٰذِهِ الطّرق فِي القرون الوسطٰى:

- طريق دبروفنيك (Dubrovački put) وَ كان يؤدّي من ساحل البحر الأدرياتيكيّ نحو الشّرق وَ يمرّ فِي جنوب الْبُوسْنَة.
- الطّريق الْبُوسْنَوِيّ (Bosanski put) وَ كان يؤدّي من شمال الْبُوسْنَة نحو الشّرق.

٦ Ćirković, Sima (1946.) *Istorija Bosne*, Beograd, p. 28.

السّياسيّة وَ الاِقْتصاديّة فِي المنطقة الّتِي نشأت فِيهَا دولة الْبُوسْنَة فيما بعد وَ فِي هٰذِهِ الفترة أصبحتْ شبكة الطّرق التّجاريّة تربط هٰذِهِ المنطقة بالعالم الرّومانيّ بفضل موقعِهَا الجغرافيّ وَ خيراتِهَا الطّبيعيّة[٧] وَ سرعان مَا أدّت الْبُوسْنَة دورًا مهمًّا فِي الإمْبراطوريّة الرّومانيّة حَتّٰى سقوط هٰذِهِ الدّولة سنة أربعمائة وَ ستّ وَ سبعين وَ أصبحت الْبُوسْنَة بعد ذٰلِكَ تحت حكم دولة غوط[٨] (Goti) أربعين سنة حَتّٰى احتلّها الإمبراطور البيزنطيّ يوستنيان (Justinijan) سنة سبع وَ ثلاثين وَ خمسمائة. وَ استمرّ هٰذَا الحكم إلٰى القرن السّابع الميلاديّ[٩] وَ سرعان مَا أصبحت الْبُوسْنَة تكوّن جزءًا من أراضي صِرْبيا ((Srbija (Serbia)) حينًا وَ جزءًا من أراضي كْرواتيا (Croatia) حينًا آخر وَ لٰكنّها رفضت أنْ تخضع لحكم أيّ منهما

تاريخ الْبُوسْنَة، تْشيرقوفيتْش سِيما، ص ٢٨، بلغراد ١٩٤٦ م.

٧ تغلب الجبال عَلٰى طبيعة الْبُوسْنَة باسْتثناء بعض السّهول الواقعة حول نهر سافا (Sava) وَ دْرينا (Drina) وَ بعض السّهول فِي الْهَرْسَك وَ أودية الأنهر الّتِي تجري فِيهَا. وَ جبال الْبُوسْنَة غنيّة بالغابات وَ المعادن المختلفة. كما أنّ الأودية الّتِي تتخللها كانت خير معين فِي تكوين الطّرق وَ كانت هٰذِهِ الجبال سدًّا منيعًا طبيعيًّا يحمي سكّان الْبُوسْنَة من أعدائها عبر القرونِ وَ اسْتمرّ ذٰلِكَ حَتّٰى الحرب العالميّة الثّانية حين دارت أهمّ المعارك وَ أعنفها فِي جبال الْبُوسْنَة بين جيش التّحرير اليُوغُسْلَافيّ وَ القوّات الألمانيّة.

٨ Prelog, Milan (1942.) *Povijest Bosne*, Sarajevo, p. 5.

تاريخ الْبُوسْنَة، پْريلوغ ميلان، ص ٥، بلغراد ١٩٤٢ م.

٩ المصدر نفسه، ص ٧-٨.

حَتَّى بداية القرن السّابع الهجريّ بداية القرن الثّاني عشر حين انفصلت عن دولة صَرْبيا وَ فِي هٰذَا التّاريخ ظهرت الْبُوسْنَة عَلَى مسرح الأحداث دولة مستقلة[١٠].

أمّا فيما يتعلّق بتسمية هٰذِهِ المنطقة بِالْبُوسْنَةِ فإنّ بين أيدينا أكثر من نظريّة وَ رَأيٍ. أمّا المؤرّخ البيزنطيّ پورفيروغينت (Porfirogenit) فَهُوَ يذكر هٰذِهِ المنطقة فِي القرن العاشر الميلاديّ باسم الْبُوسْنَة (Bosna) وَ كانت الْبُوسْنَة حينذاك ضمن الأراضي الصَّرْبيّة وَ لم تكنْ قد أصبحت دولة مستقلّةً. وَ لقد ذكرت هٰذِهِ المنطقة فِي المصادر التّاريخيّة القديمة بأسماء مختلفة، منها: بُوسَّنَا، بُوسْتْنَا، بُوسّنه (Bossena, Bostna, Bosna). وَ هُوَ اسم يتّفق مع اسم أهمّ نهر فِي الْبُوسْنَة وَ لِذٰلِكَ استنتج أكثر الباحثين أنّ المنطقة كلّها تحمل هٰذَا الإسم[١١]. وَ ذهب آخرون إِلَى أنّها سمّيت بِهٰذَا الإسْمِ بسبب تراكم الملح فِي بعض مناطقها وَ خاصّةً فِي منطقة توزلا (Tuzla) حيث مَا زالت مصانع الملح المشهورة إِلَى يومنا هٰذَا. وَ من الباحثين من يزعم أنّ النّهر وَ المنطقة قد سمّيا بِهٰذَا الإسمِ نسبة إِلَى القلعة الرومانيّة الحصينة الَّتِي أقيمت عَلَى ضفاف هٰذَا النّهرِ وَ كان اسْمها: آد بوسّنته (Ad Bossante)، وَ لقد قيل أَيْضًا أنّ الصّقاليّة الَّذِينَ استوطنوا المنطقة

---

[١٠] Ćorović, Vladimir (1940.) *Historija Bosne*, Beograd, p. 608.

الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، تْشُوروفيتْشْ وْلادمير، ص ٦٠٨، بلغراد ١٩٤٠ م.

[١١] Vego, Marko (1957.) *Naselja bosanske srednjovjekovne države*, Sarajevo, p. 8.

المناطق المسكونة فِي الدّولة الْبُوسْنَوِيّة فِي القرون الوسطى، ماركو ويغو، ص ٨، سراييفو ١٩٥٧ م.

بعد الرّومان – هم الَّذِينَ سمّوها بِالْبُوسْنَةِ وَ انتسبوا إِلَيْهَا "بُوسْنَوِيُّونَ". وَ من هٰذِهِ الآراء وَ أمثالها نستطيع أنْ نخرج من هٰذَا الغموض فنقول أنّ الْبُوسْنَة قد سمّيت بِهٰذَا الِاسمِ بسبة إِلٰى اسم النّهرِ المذكور. لِأنّ هٰذَا الرّأي يستند إِلٰى الدّلائل التّاريخيّة الوثيقة فِي حين أنّ الآراء الأخرٰى أقرب إِلٰى الِافتراضات الشّخصيّة وَ الخيالات.

أمّا منطقة الْهَرْسَك (Hercegovina) فإنّها سمّيت باسْمِها هٰذَا نسبة إِلٰى كلمة ألمانيّة معناها "الأمِير"، وَ اتّخذ هٰذَا الِاسم أحد حكّام منطقة هُومْ (Hum) وَ مَا يجاورها من أراضي الْبُوسْنَة وَ ذٰلِكَ سنة ٨٥٢ ﻫ / ١٤٤٨ م وَ هُوَ الأمير سْتيفان كوساتْشا (Stefan Kosača) وَ قد سمّيت بِهٰذَا الِاسم – مَا عدا منطقة هُومْ المذكورة – مناطق تْرافونيا (Travunija) وَ پودغوريه (Podgorje) أيْضًا، أمّا الِاسم الرّسميّ لِهٰذِهِ المنطقة فكان: Ducatus Sancti Sabbae (أراضي القدّيس سافا، وَ ذٰلِكَ لِأنَّ أمراء الْهَرْسَك حكموا منطقة ميلوشيفو (Miloševo) حيث دفن أحد رجال الدّين الأرثوذكسيّين المشهورين بالقداسة.

أمّا المصادر التّركيّة فتذكر هٰذِهِ المنطقة باسم الْهَرْسَك منذ سنة ٨٥٩ ﻫ / ١٤٥٤ م وَ نحن نجد ذٰلِكَ فِي إحدٰى رسائل الوالي الْعُثْمَانِيّ عيسٰى بك ابن إسحاق بك[١٢] (ʻĪsā-beg bin Isḥāq-beg). وَ الجدير بالذّكر أنّ اسْم الْبُوسْنَة يغلب عَلٰى

---

[١٢] Truhelka, Ćiro (1911.) *Tursko-slovenski spomenici dubrovačke arhive,* Gradski zemaljski muzej, Sarajevo, document No. 7.

الآثار التّركيّة-السّلافيّة فِي متحف دوبروفنيك، تْروهَلقا تْشيرو، المتحف البلديّ، رقم ٧، سراييفو ١٩١١ م.

كلتا المنطقتين خلال الفترة الَّتِي ندرسها وَ لِذَا نستعمل فِي بحثنا هٰذَا الْبُوسْنَة دون الْهَرْسَك. إِلَّا فِي تِلْكَ الحالات الَّتِي يتطلّب الموضوع نفسه اسْتعمال لفظ الْهَرْسَك باعْتبارها منطقة خاصّة.

أمّا حدود الْبُوسْنَة السّياسيّة فنحن نعرفها من التّقسيمات وَ السجلّات الَّتِي وضعها الْعُثْمَانِيُّونَ أثناء سقوطها فِي أيديهم سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م. لِأَنَّهُمْ فِي بداية الْأمر كانوا يبقون التّقسيم الْإداريّ فِي الْأراضي المفتوحة، وَ يظهر هٰذَا من الدّفاتر الْعُثْمَانِيَّة لسنجق[١٣] (Sandžak) الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك ٨٧٣-٨٧٤ هـ / ١٤٦٨-١٤٦٩ م[١٤] وَ كَذٰلِكَ سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م[١٥] وَ لسنجق الْهَرْسَك سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م[١٦] وَ ذكرت المصادر التُّركيّة هٰذَا التّقسيم نفسه كما فِي كتاب طورسون بك[١٧]. وَ سوف نرٰى أنّ هٰذِهِ المناطق الَّتِي تسمّٰى بمملكة الْبُوسْنَة من النّاحية السّياسيّة وَ الْإداريّة كانت مقسّمة إِلٰى الْأقسام الْأربعة التّالية:

---

١٣ كلمة تركيّة معناها: عَلَم أو لواء وَ كان المصطلح الإداريّ وَ يعني المنطقة الَّتِي يديرها الوالي وَ يسمّٰى – سنجق بك – أي أمير اللّواء.

١٤ Tapu defterleri (TD), *Başbakanlık Arşivi (BBA)*, Istanbul, No. 18., photocopy 1-110.

١٥ Tapu defterleri (TD), *Belediye Kütüphanesi – Muallim Cevdet Kısmı*, Istanbul, No. 76., photocopy 1-156.

١٦ TD, *(BBA)*, Istanbul, No. 5., photocopy 1-277.

١٧ تاريخ أبو الفتح، طورسون بك، ص ١٢١، إسطنبول ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م.

الأراضي الَّتِي حكمها الملك مباشرة وَ تسمَّى فِي المصادر الْعُثْمَانِيَّة – ولاية قْرَال (Kraljeva zemlja).

الْأراضي الَّتِي حكمها الأمير (الْهَرْسَك) سْتيفان كوساتْشا (Stefan Kosača) – ولاية هرسك (Hercegova zemlja).

المنطقة الَّتِي حكمتها الأسرة الإقطاعيّة پافلوفيتْش (Pavlović) – ولاية پافلوفيتْش (Oblast Pavlovića).

المقاطعة الَّتِي حكمتها الأسرة الإقطاعيّة كوفاتْشيفيتْش (Kovačević) – ولاية كوفاتْشيفيتْش (Oblast Kovačevića).

وَ ظلّت الْبُوسْنَة تحمل هٰذا المعنٰى الجغرافيّ وَ السّياسيّ حَتّٰى بداية القرن العاشر الهجريّ / بداية القرن السّادس عشر الميلاديّ، حَتّٰى توسعت عَلٰى حساب البلاد المجاورة مثل دالماتْسيا (Dalmacija) وَ كْرواتيا ((Hrvatska (Croatia)) خِلال اتّساع الفتوحات العثمانية، وَ من ثمّ رفعت الْبُوسْنَة من درجة سنجق إِلٰى درجة پاشالق (pašaluk) فِي سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م وَ كان الوالي الْعُثْمَانِيّ وَ الملقّب بـ"بَغْلَرْ بك" (Begler-beg) يدير أراضي أوسع ممّا كان يديره أيّ ملك من ملوك الْبُوسْنَة من قبل. وَ أصبحت حدود الْبُوسْنَة السّياسيّة فِي القرن العاشر الهجريّ / السّادس عشر الميلاديّ تمتدّ مدينة شاباتْس (Šabac) شمالًا حَتّٰى البحر الْأدرياتيكيّ جنوبًا وَ من مدينة زْفيتْشيفو (Zvečevo) شرقًا إِلٰى مدينة فيروفيتيتْسا

(Virovitica) غربًا، إلّا أنّ هٰذِهِ الحدود كانت معرّضة للتّغيير المستمرّ.[18] وَ فيما يتعلّق بالدّول وَ الإمارات الّتِي كانت تجاور الْبُوسْنَة فِي القرن التّاسع الهجريّ / الخامس عشر الميلاديّ فقد ذكر المؤرّخ الْعُثْمَانِيّ طورسون بك (Turson-beg) الّذِي اشْترك مع السّلطان الْعُثْمَانِيّ مُحَمَّد الثّاني فِي فتح الْبُوسْنَة سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م أنّها كانت تحدّ شمالًا ببلاد المجر، وَ جنوبًا وَ غربًا بساحل البحر الأدرياتيكيّ وَ البلاد الغربيّة[19]، وَ من شرقها كانت الدّويلات الصّربيّة التّابعة للدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ بعد أن قضٰى السّلطان سليمان القانونيّ عَلٰى الدّولة المجريّة فِي موقعة موهاچ (Mohač) عقب هزيمته للجيش المجريّ سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م أصبحت الْبُوسْنَة تجاور حدود الإمبراطوريّة النّمساويّة فِي كْرواتيا عَلٰى طول مجرٰى نهري أونَا (Una) وَ سَاوَا (Sava) فِي الشّمالِ.

---

[18] Šabanović, Hazim (1959.) *Bosanski pašaluk*, Naučno društvo Bosne i Hercegovine, Sarajevo, „Djela" knjiga XIV, p. 78-79.

الباشالق الْبُوسْنَوِيّ، شعبانوفيتْش حازم، المجمع العلميّ فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، التّراث ١٤، ص ٧٨-٧٩، سراييفو ١٩٥٩ م.

[19] وَ يقصد بالبلاد الغربيّة جمهورية البندقيّة (Venecija) وَ جمهورية دوبروفنيك (Dubrovnik).

سكّان الْبُوسنْنَةِ

تعدّ القبائل الإيليريّة (Ilir) أقدم العناصر القبليّة الّتِي استوطنت الْبُوسْنَة وَ أقوامها[20] وَ قدْ جاءَت إلَى الْبُوسْنَة من الشّمال قبل الميلاد، وَ من خصائصها – أنّها تحبّ الحرّيّة وَ الحروب وَ المغامرات وَ عندما أصبح إيليرك (Ilirik) يدور فِي فلك الدّولة الرّومانيّة[21] فِي القرن الثّاني قبل الميلاد كوّنت الإمبراطوريّة الرّومانيّة من هٰؤُلاءِ عنصرًا حربيًّا بارزًا. وَ لٰكن الإيليريّين قاموا بثورات عديدة ضدّ الحكم الرّومانيّ وَ من أشهر هٰذِهِ الثّورات تِلْكَ الثّورة الّتِي اندلعت فِي السّنة السّادسة قبل الميلاد احْتجاجًا عَلٰى الضّرائب الجديدة الّتِي فرضها الرّومانيّون. وَ لمْ تقتصرْ هٰذِهِ الثّورة عَلٰى الْبُوسْنَة وحدها وَ إنّما اشْتركت فيها القبائل الإيليريّة الأخرٰى الّتِي عاشت وراء نهري ساوا (Sava) وَ الدّانوب (Dunav) وَ أخيرًا قضٰى عَلٰى هٰذِهِ الثّورة الإمْبراطور الرّومانيّ تيباريوس (Tiberije) بعد أربع سنوات من قيامها.

---

[20] وَ يذهب بعض المؤرّخين اليونانيّينَ وَ منهم هيرودوت (Herodot) إلَى أنّ أقدم سكّان الْبُوسْنَة كانوا بيسي (Besi) وَ أنّهم استوطنوا وادي نهر نوست (Nost) الّذِي سمّاه الْعُثْمَانِيُّونَ "قاراسوف" (Karasov) وَ سمّاه اليونانيُّون مَسترو (Mestro).

[21] وَ أصبحت السّفن الرّومانيّة تبحر لِأوّل مرّة فِي مياه البحر الأدرياتيكيّ سنة ٢٢٩ ق.م، وَ بِهٰذَا انْتهٰى النّفوذ اليونانيّ فِي البلقان.

أمّا القبائل السّلَافيّة وَ أشهرها الصّرب (Srbi) وَ الكْرواتيّون (Hrvati) فقد بدأت تستوطن هٰذِهِ المنطقة فِي القرن السّادس وَ السّابع الميلاديّ[٢٢] وَ سرعان ما انْدمجت هٰذِهِ القبائل مع السّكّان الْأصليّين إلّا أنّ هٰذَا الِانْدماج لم يكن عسيرًا لتشابهِ حياة هٰذِهِ القبائل وَ بما أنّ السّلَافيّين بمرور الزّمن أصبحوا الْأكثريّة السّاحقة فِي الْبُوسْنَة فقد سادت طبائعهم السّلافيّة فِي البلاد، وَ لَا يعني ذٰلِكَ أنّ السّلافيّين قد تمكّنوا من إزالة العناصر الْأخرٰى المستوطنة فِي الْبُوسْنَة وَ إنّما بقي عدد غير قليل من هٰذِهِ العناصر فمن ذٰلِكَ وْلاجِيُّونَ ((Vlah (Vlasi)) وَ هم القبائل الرُّحّل الَّذِينَ زالوا تربية المواشي وَ نقل السّلع التّجاريّة عَلٰى دوابّهم فِي القرون الوسطٰى.

وَ الجديرُ بالذّكر أنّ هٰؤُلَاءِ ساعدوا الْعُثْمَانِيِّينَ فِي فتوحاتهم فِي البلقان فيما بعد[٢٣]. وَ من العناصر الباقية فِي الْبُوسْنَة كَذٰلِكَ العنصر الْألمانيّ المُسمّٰى بِـ"ساسي" (Sasi) وَ كَذٰلِكَ النور (الغجر)[٢٤] (Cigani) وَ هٰذَا العنصر الْأخير قد

---

٢٢ Prelog, Milan (1942.) *Povijest Bosne*, Sarajevo, p. 30.

تأريخ الْبُوسْنَة، بريلوغ ميلان، ص ٣٠، سراييفو ١٩٤٢ م.

٢٣ Filipović, Nedim (1957.) *Kanuni i Kanun-name*, Monumenta turcia, Orijentalni institut Sarajevo, Sarajevo, p. 12-14.

القوانين وَ قانون نامه، ص ١٢-١٤، فيليبوفيتْشْ نَديم، المعهد الشّرقيّ فِي سراييفو، سراييفو ١٩٥٧ م.

٢٤ Đorđević, F. (1964.) *O Ciganima uopšte i njihovom doselenju na Balkansko poluostrvo*, SKG, No. 76., Beograd, p. 433.

زاد فِي الْبُوسْنَة بالفتوحات الْعُثْمَانِيَّة وَ من هٰؤُلَاءِ وَ غيرهم من الْأقليَّات كان سكّان الْبُوسْنَة إبَان الفتح الْعُثْمَانِيّ مع ملاحظة أنّ هٰذَا الِامْتزاج قدِ اسْتمرّ فِي أيّام الحكم الْعُثْمَانِيّ أيْضًا.

أمّا عدد هٰؤُلَاءِ السّكّان فِي الفترة الَّتِي ندرسها فمن الصّعب معرفته وَ ذٰلِكَ لعدم توافر الْإحصائِيَّات فِي المصادر وَ ذٰلِكَ أنّ المصادر الموجودة لم تحص الْأجناس وَ إنّما اكْتفتْ بتعداد الْأديان الموجودة آنذاك فِي الْبُوسْنَة وَ هِيَ ممثّلة فِي المسيحيّة وَ طائفة البوغوميل وَ الدّين الْإسْلَامِيّ. وَ من أقدم المصادر الَّتِي تذكر عدد سكّان الْبُوسْنَة الدّفاتر الْعُثْمَانِيَّة القديمة. وَ من هٰذِهِ الدّفاتر نفهم أنّ عدد سكّان الْبُوسْنَة فِي النّصف الثّاني من القرن التّاسع الهجريّ (النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلاديّ) كان يتراوح مَا بين ثلاثمِائة وَ أربعمِائة ألف نسمة[٢٥] تقريبًا، وَ يُؤَيّدنا فِي هٰذَا القول الرّحّالة الشّهير بينيديكْتْ قوريبيشيتْشْ[٢٦] الَّذِي يذكر سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م أنّ الْبُوسْنَة لمْ تكنْ مزدحمة بالسّكّان، وَ يرجع سبب ذٰلِكَ إلٰى العوامل الثّلاثة التّالية:

النور (الغجر) وَ مجيئهم فِي البلقان، جورجيفيتْشْ ف.، المخبر الْأدبيّ الصّربيّ، رقم ٧٦، ص ٤٣٣، بلغراد ١٩٦٤ م.

٢٥ وَ هٰذَا العدد حصلنا عَلَيْهِ بعد اطّلاعِنا عَلٰى الدّفاتر الْعُثْمَانِيَّة من السّنوات التّالية: ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م، ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م.

٢٦ عبر الْبُوسْنَة وَ صرْبِيا وَ بلْغاريا وَ رُوميليا (Rumelija) سنة ١٥٣٥ م، بينيديكْتْ قوريبيشيتْشْ (Benedikt Kuripešić)، ص ٣٠، سراييفو ١٩٥٠ م.

أنّ الأوبئة كانت تقض عَلٰى أعداد كبيرة من السّكّان.

أنّ الصّرْب (يُقصد بِهِمُ الأرثوذكس) غادروا الْبُوسْنَة تخلّصًا من الحكم الْعُثْمَانِيّ.

أنّ الْعُثْمَانِيِّينَ كانوا يأخذون أبناء البلد معهم إلٰى تركيا لِاسْتخدامهم فِي جيش الانكشاريّة[٢٧] (Janičari) وَ الخدمات الأخرٰى.

وَ لٰكنّنا لَا نسلّم بما ذهب إِلَيْهِ الرّحّالة فِي النّقطة الثّانية وَ الثّالثة. لِأنّ الأرثوذكسيّين الّذِينَ غادروا الْبُوسْنَة عند مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ قليلون جدًّا وَ لَا يمكن أن يؤثّروا فِي عدد سكّان المنطقة. أمّا تجنيد السّكّان فِي جيش الانكشاريّة فكان يتمّ كلّ خمس سنوات، وَ هٰذَا العدد كَذٰلِكَ كان ضَئِيلًا بحيث لَا يؤثّر فِي عدد السّكّان، وَ الصّواب أنّه كانت هناك طائفة ثانية اضطرّت إلٰى أن تغادر الْبُوسْنَة قبيل مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ[٢٨] وَ هِيَ الطّائفة البوغوميليّة (الهرطقيّة فِي نظر العالم

---

[٢٧] بالتّركيّة الْعُثْمَانِيّة: يكيچرى، وَ بالتّركيّة الحديثة: (Yeniçeri). لقد اعْتاد الْعُثْمَانِيُّونَ أنْ يختاروا عددًا من غلمان النّصارٰى فِي الأراضي المفتوحة وَ يذهبون بِهِمْ إلٰى تركيا حين يربّونهم تربية عسكريّة خاصّة. وَ كوّن الْعُثْمَانِيُّونَ من هٰؤُلَاءِ الشّباب أقوٰى صفوف جيشهم. وَ الجدير بالذّكر انّ هٰؤُلَاءِ الأطفال لم يؤخذوا بالإكْراه وَ الهمجيّة كما نجد فِي المصادر الغربيّة، وَ كثيرًا مَا وافق المسيحيُّون بإرسال أطفالهم إلٰى مثل هٰذِهِ المدارس طموحًا إلٰى السّلطة وَ الجاه.

[٢٨] Rački, Franjo (1931.) *Bogumili i Paterani*, Srpska književna akademija, Knjiga 38., Beograd, sec. ed., p. 455-467.

المسيحيّ حينذاك)، فَهٰذِهِ الطّائفة كانت تكوّن معظم سكّان المنطقة وَ قد تعرّضت للحروب الصّليبيّة وَ اضطهاد العالم المسيحيّ (وَ خاصّة الكاثوليك) وَ من هٰؤُلَاءِ ملوك الْبُوسْنَة أنفسهم ممّا كان يسبّب هجرة سكّانها إِلٰى المناطق المجاورة، كما حدث أيّام حكم ملك توماش أُوستويا (Tomaš Ostoja) (٨٣٧-٨٦٦ هـ / ١٤٣٣-١٤٦١ م) حيث شرّد حوالي أربعين ألف بوغوميلي إِلٰى منطقة هوم (Hum) وَ دالماتّسيا (Dalmacija) وَ دوبروفنيك (Dubrovnik) وَ صِرْبيا[٢٩] وَ الَّذِي أدّى إِلٰى انْخفاض عدد سكّان الْبُوسْنَة – فِي رَأْيِنَا – هُوَ الحروب الدّاخليّة الَّتِي كانت تقوم بين النّبلاء وَ الملوك وَ بين النّبلاء أنفسهم. كما ترجع إِلٰى الحروب الخارجيّة بين حكّام الْبُوسْنَة وَ المجر وَ دوبروفنيك أوْ صِرْبيا أو الْعُثْمَانِيِّينَ. وَ هٰذِهِ الحوادث كانت تكلّف كثيرًا من الضحايَا وَ الأسرٰى وَ الأرقّاء وَ بِذٰلِكَ ينقص سكّان المنطقة.

أمّا المجاعات وَ الأوبئة وَ الأمراض فقد كان لها دورها فِي القرون الوسطٰى لَا فِي الْبُوسْنَة وَ حسب، وَ إنّما فِي كلّ أنحاء العالم، وَ كانت هٰذِهِ النّكبات تقضي عَلٰى كثير من النّاس فِي المدن وَ القرٰى[٣٠]. وَ بالرّغم من اسْتقرار حالة

بوغوميلي وَ پاتران، راتْشكي ڤرانيو، المجمع الأدبيّ الصِّرْبيّ، الكتاب ٣٨، الطّبعة الثّانية، ص ٤٥٥-٤٦٧، بلغراد ١٩٣١ م.

٢٩ الَّتِي كانت فِي ذٰلِكَ الوقت فِي أيدِي الْعُثْمَانِيِّينَ.

٣٠ Hrbak, Bogumil (1975.) *Kuga u balkanskim zemljama pod Turcima od 1450-1600.*, Historijski glasnika (Organ istorijskog društva N. R. Srbije), Beograd, No. 1-2., p. 21-26.

الْبُوسْنَة فِي القرن العاشر الهجريّ (القرن السّادس عشر الميلاديّ) نسبيًّا، وَ وُقُوع بعض الهجرات الدّاخليّة فِي البلقان فلمْ يزدْ سكّان المنطقة كثيرًا عن العدد المذكور لِأسباب أهمّها الحروب الّتِي كانت تشنّها الدّولة العثمانيّة عَلٰى أوروبا وَ آسيا فِي هٰذَا القرن وَ هِيَ حروب ساهم فِيهَا سكّان الْبُوسْنَة عامّة، وَ المسلمون خاصّة، مساهمة قويّة وَ فعالة.

الطّاعون فِي دول البلقان زمن الحكم الْعُثْمَانِيّ من سنة ٨٥٤-١٠٠٩ هـ / ١٤٥٠-١٦٠٠ م، هُزْباك بوغوميل، عدد ١-٢، ص ٢١-٢٦، المخبر التّاريخيّ، بلغراد ١٩٧٥ م.

الفصل الثاني:

الْأَحْوَالُ الدِّينِيَّةُ وَ السِّيَاسِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ إِثْرَ مَجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ

الْأَحْوَالُ الدِّينِيَّةُ

عندما نلقي نظرة عَلى الأحداث العالميّة فِي القرون الوسطى يظهر لنا بوضوح أنّ الرّوح الدّينيّ كان يسيطر عَلى الحياة الإنسان، وَ تكوين النّظم الاِجتماعيّة وَ الدّوليّة. كما نلاحظ أثر الدّين فِي مجال الفنّ وَ الأدب وَ الفلسفة، وَ هٰذا أمر طبيعيّ لِأنّ الدّين منذ القدم كان يمثّل قوّة اجتماعيّة كبرى لدى الشّعوب كلّها، وَ يدفعها إِلى فعاليّات كثيرة فهو من العوامل الموضوعيّة التّاريخيّة المهمّة. وَ لقد لاحظنا فِي الفصول السّابقة أن أحوال الْبُوسْنَة كانت شديدة التّعقيد، بحيث يصعب عَلى الباحث أن يتبيّن عدد سكّانها، وَ مجرى الأحداث السّياسيّة الّتِي وقعت فِيهَا فِي السّنوات ما قبل الفتح الْعُثْمَانِيّ وَ مَا بعده أَيْضًا. وَ لا تبدو المنطقة أقلّ تعقيدًا حين نحاول رسم صورة واضحة لِلأحوال الدّينيّة فِيهَا.

وَ نجد فِي الْبُوسْنَة فِي مطلع القرن التّاسع الهجريّ / الخامس عشر الميلاديّ المذاهب المسيحيّة الثّلاثة:

الكاثوليكيّة وَ الأرثوذكسيّة وَ البوغوميل – أي الكنيسة الْبُوسْنَوِيَّة –. أمّا المسيحيّة، فيرجع وجودها فِي بعض مناطق البوسنة إلٰى بداية القرن الرّابع الميلاديّ[٣١]، وَ معنٰى ذٰلِكَ أن القبائل السّلافيّة الّتِي نزحت إلٰى الْبُوسْنَة (وَ كانت وثنيّة) تعرّضت للعمل التّبشيريّ المسيحيّ، وَ خاصّة فِي المدن السّاحليّة، وَ لٰكن المسيحيّة لم تنتشر فِي الْبُوسْنَة انْتشارًا كاسحًا عَلٰى الرّغم من الجهود التّبشيريّة، وَ استمرّ ذٰلِكَ حَتّٰى ظهرت الكتب الدّينية بِاللُّغَةِ السّلافيّة، وَ ذٰلِكَ فِي القرن الثّالث الهجريّ / التّاسع الميلاديّ[٣٢] وَ بعده.

وَ يبدو أن ترجمة الكتب الدّينيّة المسيحيّة من اللُّغَة اللّاتينيّة وَ اليونانية إلٰى اللُّغَة السّلافيّة القديمة جاءت ردّ فعل لنشاط الجاليات الإِسْلَامِيَّة فِي اليونان وَ جنوب بلغاريا، فمن المعروف أن السّلطات فِي تِلْكَ البلاد كانت تمنع المنشورات وَ الكتب الإِسْلَامِيَّة الَّتِي كان المسلمون يوزّعونها بين سكّانها.

وَ لا نريد أن نتكلّم هنا عن انتشار المسيحيّة فِي الْبُوسْنَة، لِأَنَّ هٰذَا الموضوع ليس من صميم بحثنا، كلّ ما نودّ أن نذكره هُوَ أنّ التّنافس الدّيني بين الكنيسة الكاثوليكية وَ الكنيسة الأرثوذكسيّة كان يظهر بوضوح، وَ هذا التنافس أدى إلٰى تقسيم البوسنة وَ ضعفها سياسيًا وَ اقتصاديًا. وَ كانت الدّولة البيزنطيّة

---

٣١ Ćirković, Sima (1946.) *Istorija Bosne*, Beograd, p. 32.

تأريخ الْبُوسْنَة، تْشيرقوفيتْش سيما، ص ٣٢، بلغراد ١٩٤٦ م.

٣٢ Klaić, Vjekoslav (1897.) *Istorija srednjega vijeka*, Zagreb, p. 299.

تأريخ القرن الوسيط، ڤلائيتْش ڤيِيقوسْلاف، ص ٢٩٩، زغرب ١٨٩٧ م.

تدافع عن الأرثوذكسيّة تحقيقًا لِأغراضها السّياسيّة فِي البلقان، وَ كانت الدّولة المجريّة تحمي الكاثوليكيّة فِي هٰذِهِ المناطق المدفوعة بالأغراض نفسها. وَ سوف نتكلّم فِي هٰذَا الفصل بشيء من التفصيل عن طائفة البوغوميل لِأهمّيّة الدّور الَّذِي لعبته فِي نواحي الحياة الْبُوسْنَوِيَّة المختلفة، وَ لِأنّها اعْتنقت الْإِسْلَام فيما بعد.

البوغوميل وَ مبادِئُهم الدّينيّة

بدأت الحركات الدّينيّة تؤدّي دورًا ملحوظًا فِي العالم المسيحيّ فِي القرن التّاسع الميلاديّ وَ ما بعده. وَ جاءت هٰذِهِ الحركات نتيجة لعدم الرضا بموقف الكنيسة الَّتِي أصبحت منذ الوقت تعمل فِي خدمة السّلطان وَ الطّغيان، وَ لَا تعمل فِي خدمة السّماء. وَ أصبحت الكنيسة فِي الإمبراطورية الرّومانية مجرد مؤسّسة حكوميّة، وَ بِذٰلِكَ ابتعدت عن مبادئِها الأولٰى. وَ لَئِن كانت فِي بداية الأمر تهتمّ بالإنسان فلقد أصبحت الْآن تهتمّ بالمال وَ السّلطان، وَ وقفت إِلٰى جانب الحكومة فِي اسْتعباد الجماهير وَ اسْتغلَالها. وَ ليست البوغوميليّة سوٰى إحدٰى هٰذِهِ الحركات وَ قد تكون أقواها وَ أقربها إِلٰى الدّين الْإِسْلَاميّ، كما سنرٰى فيما بعد. وَ لقد اختلف الباحثون فِي مسألة تسمية هٰذِهِ الطائفة بالبوغوميلية، فيكون أقرب إِلٰى الحقيقة أن هٰذَا الاسم قد أطلق عليهم نسبة لاسم مؤسّسهم وَ هُوَ القسّ بوغوميل (Bogumil) الَّذِي نشر تعاليمه فِي بلغاريا وَ البلاد المجاورة أيّام حكم الملك بيتر

(Petar) (٣١٠-٣٥٨ هـ / ٩٢٧-٩٦٨ م) وَ لقد ساعدت ظروف كثيرة عَلٰى نشر فكرته هٰذِهِ وَ منها أنّ المسيحيّة كانت حديثة العهد فِي بلغاريا، وَ منها أَيْضًا أنّ الحالة الِاجْتماعيّة وَ الِاقْتصاديّة كانت متدهورة. وَ لقد انْتشرت هٰذِهِ الحركة من بلغاريا عَلٰى الدّول الأوروبيّة مثل إيطاليا وَ جنوب فرنسا وَ ألمانيا، وَ عرفت بأسماء مختلفة، منها:

- كاتاري (Katari) فِي ألمانيا وَ فرناس،
- أمّا فِي إيطاليا فقد عرفت باسم پاترانى (Paterani) نسبة إِلٰى حيّ فِي مدينة مِيلانو يسمى پاتري (Patri).

وَ من الجدير بالذّكر أنّ أتباع هٰذِهِ الطّائفة سواء أ كانوا فِي الشّرق أم فِي الغرب سمّوا أنفسهم بالِاسم نفسه، وَ هُوَ: أَحِبَّاء الله. وَ يشير القرآن الكريم إِلٰى أن بعض النّصارٰى يسمّون أنفسهم بِهٰذَا الاسم، قال تعالى: (وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارٰى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ)[٣٣]. وَ حاشا أن ازعم أن البوغوميل أو أجدادهم القدماء هم الَّذِينَ تشير إليهم الآية الكريمة، وَ إنّما أردت أن أقول أن القرآن الكريم يساعدنا كثيرًا فِي دراستنا لتاريخ الأمم وَ طبائعها، وَ مع هٰذِهِ فنحن نتمسّك بالمصادر الَّتِي كثيرًا مَا تكون زائفة، وَ ننسٰى القرآن!

---

[٣٣] الْقُرْآن الكريم، سورة المائدة، الآية ١٨.

وَ أوّل ما نسمع من أخبار البوغوميل فِي الْبُوسْنَة يأتي فِي نهاية القرن الثّاني عشر الميلاديّ أيّام حكم البَان قولين[٣٤] (ban Kulin) وَ كان الوضع التّاريخيّ فِي الْبُوسْنَة فِي تِلْكَ الفترة يشابهُ تمامًا الوضع الَّذِي كان فِي بلغاريا فِي القرن العاشر الميلاديّ حينما انْتشرت الحركة البوغوميليّة هناك، فلا شكّ فِي أنّ البوغوميليّين جاءُوا إِلى الْبُوسْنَة عن طريق صَرْبيا المجاورة حيث وصلوا من بلغاريا وَ مقدونيا[٣٥]، وَ لٰكنّهم لمْ يبقوْا فِي صَرْبيا إلّا فترة وجيزة، لِأنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة قامت بحملة صليبيّة ضدّهم وَ طردوا من هناك، وَ كان ذٰلِكَ أيّام حكم ستفان نيمانيا (Stefan Nemanja) الَّذِي أحرق كتبهم الدّينية وَ قتل منهم كثيرين. وَ أصبحت الْبُوسْنَة فِي القرن السّابع الهجريّ / الثّالث عشر الميلاديّ مركزًا مادّيًا وَ روحيًا لِهٰذِهِ الحركة، لِأن حالة أتباعها فِي أوروبا ساءت وَ لم يعودوا يجدون ملجًا فِي غير الجبال وَ الغابات.[٣٦]

---

٣٤ كان الملوك الأوائل فِي الْبُوسْنَة يلقبون بـ"البانوفي" (banovi).

٣٥ Ćorović, Svetozar (1925.) *Bosna i Hercegovina*, Beograd, p. 44.

الْبُوسْنَةُ وَ الْهَرْسَكُ، تْشوروفيتْش سْفيتوزارْ، ص ٤٤، بلغراد ١٩٢٥ م.

٣٦ Rački, Franjo (1931.) *Bogumili i Paterani*, p. 471.

بوغوميلي وَ پاتران، راتْشكي فْرانيو، ص ٤٧١.

مَبَادِئُ البوغوميلِيَّةِ

لا بدّ لنا فِي دراستنا لِأيّة حركة دينيّة أو فكريّة من أن نعتمد عَلٰى مؤلفات رجالها وَ مفكريها. وَ لٰكن فِي دراسة هٰذِهِ الطّائفة يتعذر الإعْتماد عَلٰى هٰذِهِ المصادر لعدم وجودها أو لعدم وصولها إلينا. فلا ريب فِي أنّ هٰذِهِ المؤلّفات كانت منشورة بين أتباعها لكنها ضاعت بمرور الزمن نتيجة الاضطهاد وَ التّشريد الّذِي لاقته الطّائفة المذكورة من أعدائها، وَ لذا فلم يبق أمامنا إلّا أن نعتمد عَلٰى ما كتبه عن الطّائفة أعداؤُها، وَ من الطّبيعيّ أن هٰؤُلاءِ لم يكونوا – فِي أكثر الأحيان – منصفين وَ إنّما كانوا متحيّزين ضدّها. وَ لِكيْ نوضّح اخْتِلَاف تعاليم هٰذِهِ الطّائفة عن تعاليم الطّوائف المسيحيّة الْأخرٰى، وَ قربها من المبادئِ الْإسْلَامِيَّة، نلخّص فيما يلي المبادئ البوغوميلية الأساسيّة:

١- اعْتقد البوغوميل أن اللهَ هُوَ خالق الرّوح وَ عالم الغيب وَ الخير، أمّا الشّيطان فهو خالق المادّة وَ العالم الظّاهر وَ الشّرّ. فَعَلٰى ذٰلِكَ يكون الصّراع مستمرًّا فِي حياة الإنسان بين تِلْكَ القوّتين. وَ لقد آمن البوغوميل بالحساب، أيْ بالجنّة والنّار[٣٧].

---

٣٧ Babić, Anto (1972.) *Iz istorije srednjovjekovne Bosne*, Sarajevo, p. 183.

من تأريخ الْبُوسْنَة فِي القرن الوسيط، بابيتْش آنتو، ص ١٨٣، سراييفو ١٩٧٢ م.

٢- اعْتقدوا أن المسيح رُوح الله غير مجسّد، وَ كانوا يرفضون طائفة من الطّقوس فِي الكنائس مثل التّعميد خاصّة لِلأطفال وَ الاستنطاق وَ الزّواج المقدّس، لِأن زواجهم كان حسب العرف، وَ كَذٰلِكَ أجازوا الطّلاق.

٣- اعْتمد البوغوميل عَلٰى كتاب العهد الجديد، وَ جزْء صغير من العهد القديم، وَ هو مترجم إلٰى اللُّغة السُّلافيّة، لغة كنيستهم[٣٨]، وَ كانوا يعرفونه معرفة وثيقة، وَ قد اعْتمدوا عَلَيْهِ فِي مناقشاتهم مع الطّوائف الأخرٰى.

٤- وَ يرٰى البوغوميل أن كنيستهم هِيَ الكنيسة المسيحيّة الحقيقيّة، لِأن الكنائس الأخرٰى ابتعدت عن المسيحيّة فِي مبانيها وَ طرازها المعماريّة المزركشة الضّخمة، وَ بما فيها من صلبان وَ أيقونات وَ صور، وَ هِيَ بذٰلِكَ وثنيّة وَ فِي خدمة الشّيطان. أمّا صلاة البوغوميل فكانت بسيطة وَ يستطيع الإنسان أن يؤدّيها فِي أيّ مكان، متّصل بالخالق مباشرة، بغير قسّ، وَ دونما اسْتنطاق وَ غفران. وَ لٰكن البوغوميل لم يكتفوا بانْتقاد الكنيسة المسيحيّة وَ إنّما انتقدوا الدّولة وَ الحكومة أيْضًا. وَ لقد اعتبروا السّلطة الدّنيويّة مؤسّسة الشّيطان، وَ

---

[٣٨] Ćirković, Sima (1946.) *Istorija Bosne*, Beograd, p. 103.

تاريخ البُوسْنة، تْشيركوفيتْش سيما، ص ١٠٣.

طلبوا من أتباعهم ألّا يطيعوا الملوك، لِأنّهم لا يحكمون باسم الله (Non sinta deo ordinati).

٥- وَ يبدو أن الأسبقيّة وَ الْإخلاص كانا من مقاييس التفاضل بين أتباع البوغوميل إذ ينقسمون إِلٰى طائفتين كما يلي:

أ- معلّمين وَ رجال الدّين، وَ يطلق عَلٰى هٰؤُلَاءِ – بعامّة – اسم كْرْسْتْيَانِي[39] (Krstjani) أو سْتْرُويْنِيجي (Strojnici)، وَ منهم يختار دِيدْ (Did)، وَ هُوَ بمنزلة منصب رئيس الكنيسة أو أسقف الكنيسة البوسنوية[40] وَ غيرها من المناصب. وَ فِي بداية الأمر كان رجال الدين يرفضون الزّواج وَ يفضّلون الحياة البسيطة وَ يعيشون من عمل أيديهم إلَّا أنّ هٰذِهِ العقيدة قد اضمحلّت تدريجيًا إذ نجدهم فِي مطلع القرن الخامس عشر الميلاديّ يعيشون فِي بلاطات الملوك وَ

---

[39] وَ هٰذَا التّقسّم عند البوغوميل عَلٰى المختارين (Perfecti) وَ الاعتياديّين (Credentes enalitores) نجده عند جميع الطّوائف المزدوجة.

[40] Rački, Franjo (1931.) *Bogumili i Paterani*, p. 519-520.

بوغوميلي وَ پاتران، راتشكي فرانيو، ص ٥١٩-٥٢٠.

قصورهم وَ يتقبّلون منهم الهدايا وَ يشاركونهم فِي الحياة السّياسيّة[٤١].

ب- الأتباع العاديّون، فلم تطلب الكنيسة منهم كثيرًا إذ كتن هٰؤُلَاءِ بلا معابد وَ لَا أسرار مقدّسة وَ لَا طقوس معيّنة، وَ لذا فكانت ملّة الكنيسة باتّباعها ضعيفة.

وَ بسبب هٰذِهِ المبادئ اعترضت الكنيسة المسيحيّة عَلٰى البوغوميل وَ اعتبرتهم خارجين عن الدين المسيحيّ. وَ لقد ذهب بعض المؤرّخين[٤٢] إِلٰى أنّ الحركة البوغوميلية حركة اجْتماعيّة أكثر منها دينيّة، لٰكنّنا نرٰى أنّ هٰذِهِ الحركة كان لها طابع دينيّ وَ اجْتماعيّ فِي الوقت نفسه، فالدّين يراعي مصلحة الْإنسان فِي الأرض، وَ كان دور الدّيانة المسيحيّة أوّل أمرها كَذٰلِكَ. وَ سبّب ابتعاد رجال الدّين عن هٰذِهِ الأصول وَ المبادئ الأوّليّة ظهور الحركات الدينيّة الّتِي طالبت بالرّجوع إِلٰى هٰذِهِ الأسس. إمّا الطّبقات المضطهد الّتِي كانت تقع عَلَيْهَا الضّرائب الدّولة وَ الكنيسة فقد كانت تلوذ بالدّين فلا تجد حماية لِأَنّ هٰذَا الدين مجرّد نظريّات لَا تطبيق لها.

---

٤١ Truhelka, Ćiro (1911.) *Testament gosta Radina*, Glasnik zemaljskog muzeja, XXXIII, Sarajevo, p. 365-367.

توصيات غوست رادِن، المجلّة المتحف البلديّ، تْروهَلقا تْشيرو، رقم ٣٣، سرايِيفو ١٩١١ م.

٤٢ Ćorović, Vladimir (1925.) *Bosna i Hercegovina*, Beograd, p. 34.

الْبوسْنَةُ وَ الْهَرْسَك، تْشوروفيتْشْ فْلاديمير، ص ٣٤، بلغراد ١٩٢٥ م.

وَ لقد ذكرنا أنّ الطّائف البوغوميليّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كانت تحت ضغط شديد من الكنيستين المسيحيّتيْنِ. أمّا الكنيسة الكاثوليكيّة فقد كان نشاطها مستندًا إِلٰى طريقتين كنيستيْنِ، وَ هما طريقة القدّيس فرانيو أيِ فرانسيسكو (Sveti Franjo) وَ طريقة القدّيس دومينيك[٤٣] (Dominikanci) وَ لِهٰؤُلَاءِ فضل كبير فِي انتشار الكاثوليكيّة فِي الْبُوسْنَة. وَ لقد ساعد الكاثوليكيّون فِي هٰذِهِ العمليّة ملوك المجر الَّذِينَ كانوا دائمًا ينفّذون أوامر بابوات روما. أمّا الكنيسة الأرثونكسيّة فعَلٰى الرّغم أنّ نشاطها لمْ يكنْ مثل النّشاطِ الكاثوليكيّ إلّا أنّها تسلّطتْ عَلٰى البوغوميل مرّات عديدة.

وَ عَلٰى الرّغم من أهمّيّة صلة البوغوميل بالدّولة الْعُثْمَانِيَّة بالنّسبة لموضوع بحثنا إِلّا أنّنا نجهل الكثير عنها وَ ذٰلِكَ لعدم وجود مصادر تتناول الموضوع. وَ نعرف يقينًا أنّ البوغوميل قد مالوا إِلٰى الْعُثْمَانِيِّينَ وَ خاصّة بسبب الحرّيات الدّينيّة وَ الإنسانيّة الَّتِي أعطاها الْعُثْمَانِيُّونَ للشّعوب المغلوبة. وَ نختتم هٰذَا الفصل بالإشارة إِلٰى أنّ الجهة الَّتِي استفادت من الخلافات الدّينيّة فِي الْبُوسْنَة كانت الدّولة الْعُثْمَانِيَّة الَّتِي فتحت الْبُوسْنَة سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م.

---

[٤٣] Ćirković, Sima (1946.) *Istorija Bosne*, Beograd, p. 62-63., 67-68.

تأريخ الْبُوسْنَة، تْشيركوفيتْش سيما، ص ٦٢-٦٣ وَ ص ٦٧-٦٨.

اَلْأَوْضَاعُ السِّيَاسِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ

قبل أن نبدأ حديثنا عن حالة الْبُوسْنَة السّياسيّة قبيل مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ لَا بدّ أن نقف وَ لو بصورة مختصرة عن دور الْبُوسْنَة السّياسي حَتّٰى ذٰلِكَ الوقت. وَ نبدأ بسؤال بسيط: منذ متٰى أصبحت الْبُوسْنَة وحدة سياسيّة وَ بدأت تقرّر مصيرها بنفسها؟ إنّ الإجابة عن هٰذَا السّؤال ليست يسيرة، وَ ذٰلِكَ لِانعدام الأخبار التّاريخيّة عن حياة الْبُوسْنَة السياسيّة والحضاريّة حَتّٰى بداية القرن الثّالث عشر الميلاديّ. وَ من أقدم المصادر الَّتِي ألمّت بِهٰذَا الموضوع المصدران:

١- بورفيروغينت (Porfirogenit) الَّذِي يعطينا معلومات عن مجموعة من المواضيع فِي الْبُوسْنَة مثل تْريبينْيه (Trebinje) وَ زَاهوملْيه (Zahumlje) أو بِالأحرٰى عن المناطق الَّتِي كانت تقع بقرب دوبروفنيك (Dubrovnik) وَ كانت تدور فِي فلك المصالح البيزنطيّة.

٢- ذكريات راهب من دُكْلْيَا[٤٤] (Ljetopis popa Dukljanina) وَ اعتمادًا عَلٰى هٰذَا المصدر الَّذِي يشير إِلٰى الأحداث فِي الْبُوسْنَة فِي

---

[٤٤] ظهر هٰذَا العمل سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م. وَ قام صاحب الكتاب بتسجيل الأحداث التاريخيّة فِي السّنوات المتأخّرة من العمر. وَ قد استطاع معتمدًا عَلٰى ذاكرته الشّخصيّة الخصبة وَ عَلٰى أقوال الرّواة أيْضًا أن يعطينا صورة واضحةً عن أحوال زمانه بل حياة الأجيال السّابقة أيْضًا.

الفترة مَا بين النّصف العاشر إِلى نهاية القرن الحادي عشر الميلاديّ. نستطيع أن نزعم أن الْبُوسْنَة فِي ذٰلِكَ الوقت كانت تمثّل وحدة جغرافيّة وَ سياسيّة مستقلّة أو شبه مستقلّة يرأسها الحاكم وَ كان يلقّب بـ"بان"[٤٥] (ban) وَ مع هٰذَا لَا نخطئ إِذْ نقول أنّ الْبُوسْنَة كانت منعزلة عن الأحداث التّاريخيّة الكبيرة فِي البلقان حَتّى منتصف القرن الثّاني عشر الميلاديّ.

وَ بعد هٰذَا العرض السّريع ننتقل إِلى الفترة الَّتِي تتعلّق ببحثنا، وَ هِيَ: حالة الْبُوسْنَة السّياسيّة قبيل مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ، حيث نجد أنّ أوّل ملوك الْبُوسْنَة الَّذِي اتّصل بِالْعُثْمَانِيِّينَ وَ واجَهَ خطرهم كان الملك تْفْرْتْكُو الأوّل (Tvrtko I) (٧٥٤-٧٩٤ هـ / ١٣٥٣-١٣٩١ م) وَ هُوَ من أُسْرة بني كوتْرومانيتْش (Kotromanić). وَ لقد كانت الدّولة الْبُوسْنَوِيَّة خلال حكمه فِي أوج قوّتها السّياسيّة وَ الِاقتصاديّة وَ كانت أوسع الدّول السّلافيّة آنذاك. وَ لقد اسْتطاع هٰذَا الملك أن يصمد أمام الخطر المجريّ وَ يحلّ المشاكل الدّاخليّة فِي الْبُوسْنَة، وَ لٰكن هٰذَا الِاستقرار لم يدم طويلًا لِأنّ نزاعًا شديدًا وقع بين نبلاء الْبُوسْنَة حول العرش وَ ذٰلِكَ بعد وفاة الملك تْفْرْتْكُو الأوّل سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م، وَ قد أصبحت الْبُوسْنَة فِي السّنوات الأولى من القرن الخامس عشر ميدانًا للصّراعات وَ الفتن

---

٤٥ Šišić, Ferdo (1928.) *Ljetopis popa Dukljanina*, Srpska akademija nauka (SAN), knjiga XVII, Beograd, p. 175.

ذكريات راهب من دُكْلْيَا، شيشيتْش فردو، ص ١٧٥، مجمع العلوم الصّربيّة، كتاب ١٧، بلغراد ١٩٢٨ م.

المستمرّة. وَ فِي هٰذِهِ الظّروف العصيبة فِي مملكة الْبُوسْنَة بدأ الْعُثْمَانِيُّونَ يتدخّلون فِي شُؤُونِها إِذْ ساعدوا بعض الأمراء وَ الملوك عَلٰى بعضهم وَ انتهٰى الأمر إِلٰى أن بعض النّبلاء كانوا يستندون إِلٰى مساعدة ملوك المجر، فِي حين يستند نبلاء آخرون إِلٰى مساعدة الْعُثْمَانِيِّينَ. فكان لَا بدّ لِلْعُثْمَانِيِّينَ وَ المجريِّين من المواجهة أو بالأحرٰى الِاصطدام فِي ساحة القتال حَتّٰى يظهر أيهما يتمتّع بنفوذ أكبر فِي هٰذِهِ المنطقة، وَ فعلًا وقع الِاشتباك بينهما سنة ٨٠٨ هـ / ١٤١٥ م بقرب منطقة دُوبُويْ[٤٦] (Doboj) فِي الْبُوسْنَة وَ انْتَهٰى بهزيمة الجيش المجريّ. وَ منذ ذٰلِكَ الوقت بدأ نفوذ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي الْبُوسْنَة يتعاظم وَ النّفوذ المجريّ يضمحلّ.

غير أن سقوط القسطنطينيّة، عَلٰى يد مُحَمَّد الفاتح سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م، قد هزّ أوروبا كلّها، بما فِي ذٰلِكَ الْبُوسْنَة بطبيعة الحال – بالرّغم أنّ الْعُثْمَانِيِّينَ كان قد تعاظم نفوذهم فِي الْبُوسْنَة، كما ذكرنا، من قبل، إِلّا أنّ ملوكَ الْبُوسْنَةِ وَ نُبَلَاءَهَا، قد اهتمُّوا هٰذِهِ المرّة اهتمَامًا كبيرًا بِهٰذَا "الخطر الخارجيّ" وَ لمْ يكنْ بمقدورهم آنذاك مواجهته مواجهة عسكريّة[٤٧]، فرضخوا، وَ اكْتفوا بِدَفْعِ الخَرَاجِ السَّنَوِيِّ الَّذِي طفق يزداد سنة بعد أخرٰى، حَتّٰى أن السّلطان الْعُثْمَانِيّ بعد فتح

---

[٤٦] Orbini, Mavro (1968.) *Kraljevstvo Slovena*, Srpska Književna zadruga (SKZ), Beograd, p. 159-160.

ملك السّلافيِّين، أُورْبِينِي ماوْرو، المجمع الأدبيّ الصُّرْبيّ، ص ١٥٩-١٦٠، بلغراد ١٩٦٨ م.

[٤٧] Šabanović, Hazim (1959.) *Bosanskī paşaluk*,... p. 28-31.

الپاشالق الْبُوسْنَوِيّ، شعبانوفيتْش حازم، ص ٢٨-٣١.

القسطنطينيّة قد فرض مبلغًا قدره مِائة وَ ستُّون ألفِ دينار ذهبيّ[48] وَ بعد أن عجز ملك الْبُوسْنَة عن دفع هٰذَا المبلغ لجأ إلٰى العالم المسيحيّ فِي أوروبا وَ راح يطلب المساعدة العسكريّة من البلدان الْأوروبيّة المختلفة، من المجر وَ البندقيّة وَ الْإمارات الْإيطاليّة، وَ لقد تقدّم إلٰى البَابَا فِي روما وَاعدًا بمقاومة الْعُثْمَانِيِّينَ لٰكنّه لم يكن يملك القوّة اللّازمة حَتّٰى يصمد أمامهم وَ لم يكن له سوٰى سند قوّيّ فِي داخل الْبُوسْنَة بسبب تعامل بعض نُبلائِه مع الْعُثْمَانِيِّينَ. وَ الواقع أنّ العالم المسيحيّ – وَ خاصّة البابا – فكّر فِي تنظيم حملة صليبيّة ضدّ الْعُثْمَانِيِّينَ وَ طردهم من أوروبا، وَ لِهٰذَا أرسل البابا كالِكْسْتْ التّاسع (Kalikst IX) علمًا وَ صليبًا إلٰى ملك الْبُوسْنَة توماش (Tomaš) رمزًا للموقف الصّليبيّ.[49] وَ لٰكن الملك كان متردّدًا فِي هٰذَا الأمر لِأنّهُ كان يشكّ فِي وصول مساعدات فعليّة إِلَيْهِ من سائر الدّول المسيحيّة، وَ اضطرّ الملك أن يستمرّ فِي دفع الخَرَاج لِلْعُثْمَانِيِّينَ. وَ بدأ الملك توماش بعد ذٰلِكَ يفاوض الأسرة الحاكمة فِي صِرْبيا (Srbija) وَ هِيَ أسرة بْرانْكُوفيتْشْ (Branković) وَ زوج ابْنه سْتَفَان (Stefan) الأميرة يَلَينَا (Jelena) وَ هِيَ ابْنة حاكم صِرْبيا الرّاحل الدّسپوت لاَزَارْ (Despot Lazar) (٨٦١-٨٦٣ هـ / ١٤٥٦-١٤٥٨ م). وَ قد أراد الملك بِهٰذَا الزّواج أن يضمن حصوله عَلٰى بعض المساعدات الأخرٰى من البقيّة الباقية من الدّول الأوروبيّة، وَ

---

[48] Ćorović, Vladimir (1940.) *Historija Bosne*,... p. 522-523.

الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، تْشُوروفيتْشْ وْلادمير، ص ٥٢٢-٥٢٣.

[49] Rački, Franjo (1931.) *Bogumili i Paterani*, p. 472.

بوغوميلي وَ پاتران، راتْشْكي فْرانيو، ص ٤٧٢.

فعلًا تمّ عقد الزّواج بعد موافقة ملك المجر ماتييا كُورْفِينْ (Matija Korvin) وَ ذٰلِكَ فِي مدينة سْميديريفو (Smederevo) سنة ٨٦٣ هـ / ١٤٥٨ م وَ عيّن سْتفان بعد ذٰلِكَ حاكم عَلٰى صَرْبيا، غير أن فترة حكمه كانت قصيرة الأمد لِأنّ السّلطان الْعُثْمَانِيّ مُحَمَّد الثّاني قرّر أنْ يقضيَ عَلٰى بقيّة الدّول الصُّرْبيّة، وَ ما أن وصل بجيشه سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م إِلٰى حاضرتها سميديريفو الحصينة، حَتّٰى سلّم الأمير سْتفان توماشيفيتْشْ المدينة إِلٰى السّلطان الْعُثْمَانِيّ دون أيّة مقاومة ثمّ رجع إِلٰى الْبُوسْنَة.[٥٠]

وَ طبيعيّ أن تسليم المدينة بِهٰذِهِ الطّريقة أثار ضجّة فِي الأوساط الأوروبيّة بلْ كان هُناك من اعْتقد من حكّام أوروبا وَ ملوكها أن الأمير سْتفان قد خان العالم المسيحيّ وَ باع هٰذِهِ المدينة لِلْعُثْمَانِيِّينَ.[٥١] وَ بدأ عَلٰى أثر ذٰلِكَ الضّغط الشّديد عَلٰى أبيه ملك توماش من كلّ الجهات، حَتّٰى أن البابا طلب من الدّول الأوروبيّة أن يشنّوا الحروب الصّليبيّة.[٥٢] وَ قدِ اسْتعمل الملك توماش وسائل شتّٰى ليردّ هٰذِهِ الِادّعَاءَات وَ التّهم، فحاول أن يقنع العالم المسيحيّ أنّ ابنَه لم يخن وَ لم يبع المدينة وَ إنّما أجبر عَلٰى تسليمها، وَ فِي سبيل هٰذَا الْإقناع بدأ بمطاردة الطّائفة

---

٥٠ تواريخ آل عثمان، عاشق پاشا زاده، ص ١٦٤-١٦٥.

٥١ Jireček, Konstantin Josef (1952.) *Istorija Srba*, II, Beograd, p. 174.

تاريخ الصُّرْب، ييريتْشيك قُسْطنطين، ص ١٧٤، بلغراد ١٩٥٢ م.

٥٢ Rački, Franjo (1931.) *Bogumili i Paterani*, p. 473.

بوغوميلي وَ پاتران، راتْشكي فْرانيو، ص ٤٧٣.

البوغوميليّة الموجودة فِي بلاده مشترطًا عَلَيْهَا: إمّا اعْتناق الكاثوليكيّة وَ إمّا مغادرة البلاد.[٥٣]

وَ لكي يظهر الملك سْتفان إخلاصه للعالم الأوروبيّ رفض تقديم الخَراج المرسوم إلى السّلطان العثمانيّ، وَ كان هٰذَا سببًا مباشرًا لتوجّه السّلطان مُحَمَّد الثّاني بجيشه إلى الْبُوسْنَة وَ احْتلَالها نهائيًّا فِي سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م.[٥٤]

---

٥٣ Orbini, Mavro (1968.) *Kraljevstvo Slovena*,... p. 164-165.

ملك السْلافيِّين، أورْبِينِي ماوْرو، ص ١٦٤-١٦٥.

٥٤ تاريخ أبو الفتح، طورسون بك، ص ١٢٠.

الفصل الثالث:

فَتْحُ الْعُثْمَانِيِّينَ لِلْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

ميلاد الدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ فتوحاتها

قبل أن نتناول موضوع فتح الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك نرٰى من الضّروريّ أن نلمّ –المامًا عابرًا – بالظّروف وَ الأحوال الَّتِي ولدت فيها الدّولة العثمانيّة[٥٥] وَ بفتوحاتها فِي البلقان بعد ذٰلِكَ، وَ هٰذَا لِأنّ الدّولة الْبُوسْنَوِيَّة قد عاشت أو عايشت – بِاعْتبارها إحدٰى الدّول البلقانيّة – تِلْكَ الظّروف السّياسيّة وَ الِاجتماعية مع سائر الدول الاوروبية الأخرٰى وَ كانت تؤلّف تيارًا واحدًا وقف فِي وجه الفاتحين الجدد.

---

[٥٥] عثمان بن أورتوغول، هُوَ المؤسّس الحقيقيّ للدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ لقد هزم البيزنطيّين فِي موقعة مشهورة عند بورصة (Bursa) وَ أزنبيق (Ezenbik) سنة ٧٠١ ﻫ / ١٣٠١ م وَ أسّس سلالة بني عثمان (Osmanvići)، ملك بين ٦٩٩-٧٢٧ ﻫ / ١٢٩٩-١٣٢٦ م.

ولدت الدّولة العثمانيّة فِي بداية القرن الثّامن الهجريّ / الرّابع عشر الميلاديّ وَ ذٰلِكَ فِي الوقت الَّتِي وهنت فيه الإمبراطوريّات العالميّة الكبرٰى.[٥٦] فقد اتّسع نفوذ الدّولة العثمانية وَ امتدّت حدودها امتدادًا سريعًا مدهشًا، اقتطع أراضي كثيرة من ممتلكات الدولة الآسيويّة وَ الأفريقيّة. وَ قد تكوّن نقطة الانطلاق وَ التحوّل فِي حياة هٰذِهِ الدولة دخول قوّاتها الأراضي الأوروبيّة سنة ٧٥٥ ﻫ / ١٣٥٤ م، وَ لم يكن تحقيق هٰذَا المشروع السياسيّ يسيرًا لِأن الدردنيل (Dardanelles) كانت فِي أيدي المسيحيِّين. وَ قد تحالف السّلطان أورخان (Orhan) سنة ٧٤٧ ﻫ / ١٣٤٦ م مع يوفان الخامس قنتاقوزن (Jovan V Kantakuzen) المرشّح البيزنطيّ للجلوس عَلٰى العرش وَ تزوج ابنته تيبودورا (Theodora) وَ أعطت هٰذِهِ المحالفة وَ المصاهرة لِلْعُثْمَانِيِّينَ فرصة سانحة للتّدخّل فِي الشُّؤون الدّاخلية لِلْإمبراطوريّة البيزنطيّة. وَ اشْترك الْعُثْمَانِيُّونَ بعد ذٰلِكَ مع قنتاقوزن فِي حروبه ضدّ الجيوش الصِّرْبيّة وَ البلغاريّة سنة ٧٥٣ ﻫ / ١٣٥٢ م، وَ فِي هٰذِهِ الأثْناء اسْتوْلٰى سليمان (ابن أورخان) عَلٰى مدينة جِمْپَا[٥٧] (Džimpa) عَلٰى بعد خمسة كيلومترات من غَالِيپولْيَه (Galipolje) وَ دخل الْعُثْمَانِيُّونَ فِي السّنة التّالية فِي غاليپولْيَه نفسها وَ جَاءُوا عَلٰى الفور بالقوّات

---

[٥٦] وَ هٰذِهِ الإمبراطوريّات كانت ممثلة فِي الإمبراطوريّة الإيرانيّة (Iranidi) وَ الإمبراطوريّة المغوليّة (Mongoli) وَ الإمبراطوريّة البيزنطيّة (Vizantija) فِي آناضولية الغربيّة وَ فِي البلقان.

[٥٧] Jireček, Konstantin Josef (1952.) *Istorija Srba*,... p. 235.

تاريخ الصِّرْب، ييريتْشيك قُسْطنطين، ص ٢٣٥.

الاحتياطيّة من الأناضول وَ بِهٰذَا الاجتياز ثبت الْعُثْمَانِيُّونَ أقدامهم فِي الأراضي الأوروبيّة.

وَ لما توفّى أورخان ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م خلفه عَلٰى العرش ابْنه الثّاني مُراد (٧٦٤-٧٩٢ هـ / ١٣٦٢-١٣٨٩ م) الَّذِي وجّه اهتمامه العسكريّ نحو شبه جزيرة البلقان حيث كان الوضع السياسي ميسّرًا لِلْعُثْمَانِيِّينَ، فقد كان هناك عدد من صغار الحكّام يتنازعون بينهم فِي حروب مستمرّة. فلما فتح الْعُثْمَانِيُّونَ أدِرنة (Edirna) سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م. وَ جعلوها عاصمة لهم[٥٨] وَ فتحوا بعد ذٰلِكَ پلوفدف (Plovdiv) سنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م أصبح من الواضح أنّهم يفكّرون فِي القضاء عَلٰى بيزنطة وَ البلقان كذٰلِكَ. وَ قد حدّدت طبيعة جزيرة البلقان لِلْعُثْمَانِيِّينَ طرقًا سلكوها أثناء فتوحاتهم فيها. وَ هٰذِهِ الطّرق هي:

١- الطّريق الأول: فِيهِ تحرّك الْعُثْمَانِيُّونَ نحو الغرب وَ سلكوا الطريق التّاريخيّ (Via Egnatia) وَ وصلوا عبر بيتولا (Bitola) وَ أوهْريد (Ohrid) إلٰى ألبانيا حيث اعْترف أكثر الحكام فِيهَا وَ فِي مقدونيا (Makedonija) بالسّيادة الْعُثْمَانِيَّة. ثمّ أن الصُّرْبِيِّين حاولوا سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م أن يوقّفوا تقدّم الْعُثْمَانِيِّينَ إلٰى البلقان وَ اشتبكوا معهم تحت قيادة وُوكاشين (Vukašin) وَ دارت بينهم معركة حامية الوطيس عند تْشرْنومن (Černomen) عَلٰى ضفاف نهر ماريتْسا

---

[٥٨] وَ كانت عاصمة الدّولة العثمانيّة حَتّٰى فتح أدرنة مدينة بورصة (Bursa) الَّتِي فتحها الْعُثْمَانِيُّونَ سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م.

(Marica) الَّتِي انتهت بهزيمة الصُّرْب، وَ بِهٰذَا فقدت صِرْبيا ممتلكاتها فِي مقدونيا وَ فتحت الأبواب أمام الْعُثْمَانِيِّينَ إِلَى داخل جزيرة البلقان.[٥٩]

٢- الطّريق الثّاني: هٰذَا الطّريق يؤدّي إِلَى تَسَالِيَا (Tesalija) (فِي اليونان) وَ منه وصل الْعُثْمَانِيُّونَ إِلَى سلانيك (Solun) وَ فتحوها سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م.

٣- الطّريق الثّالث: هُوَ طريق إستنبول – بلغراد. وَ لقد ذكرنا آنفا بأن سكّان وادي ماريتْسا استسلموا لِلْعُثْمَانِيِّينَ بمقاومة لا تذكر (ما عدا موقعة ماريتْسا)، أمّا الأراضي الصُّربية فإنّ إخضاعها كان أصعب بكثير لأنّ القوّات الصِّرْبيّة كانت تساندها القوّات البلغارية وَ المجرية وَ الْبُوسْنَوِيَّة. وَ من أكبر المعارك الَّتِي دارت فِي البلقان معركة كوسوفو (Kosovo) سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م الَّتِي انتهَتْ بهزيمة الصُّرْب وَ الجيوش المحالفة. وَ كانت هٰذِهِ المعركة حاسمة بالنّسبة للفتوحات العثمانية فِي البلقان، وَ بعد هٰذَا الإنتصار أصبح الباب مفتوحًا نحو الْبُوسْنَة وَ النّمسا وَ البندقيّة.[٦٠] غير أن السّلطان

---

٥٩ Šabanović, Hazim (1959.) *Bosanski pašaluk,...* p. 19.

الپاشالق الْبُوسْنَوِيّ، شعبانوفيتْش حازم، ص ١٩.

٦٠ تواريخ آل عثمان، عاشق پاشا زاده، ص ٥٢-٥٤.

مراد قد قتل فِي هٰذِهِ المعركة وَ خلفه ابنه بايزيد الملقب بـ"يلدرم" الصّاعقة (٧٩٢-٨٠٥ هـ / ١٣٨٩-١٤٠٢ م).

وَ من الطّبيعيّ أن هٰذِهِ الانتصارات العثمانيّة أثارت جزع الغرب وَ عَلٰى رأسهم باباوات روما ممّا أدّى إِلٰى توليد فكرة صليبيّة من جديد إذْ نجد بابا بونيفاسيوس التّاسع (Bonificije IX) يدعو العالم المسيحيّ إِلٰى الحرب المقدّسة ضدّ المسلمين. وَ فعلًا استطاع ملك المجر سيغموندْ (Sigismund) أن يجمع جيشًا قويًا تقاطر إِلَيْهِ من بلدان أوروبية مختلفة وَ اشْتبك مع بايزيد قرب نيقوپولْيه (Nikopolje) سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م وَ هزمت الجيوش الصّليبيّة شرّ هزيمة. وَ أصبح جليًا بعد ذٰلِكَ أن سيكون لِلْعُثْمَانِيِّينَ دور ملحوظ فِي حياة شعوب البلقان وَ فِي الوقت نفسه ارْتفع شأنهم فِي عيون العالم الْإِسْلَامِيّ.

وَ لم يبقَ أمام الْعُثْمَانِيِّينَ فِي نهاية القرن الثّامن الهجريّ / نهاية القرن الرّابع عشر الميلاديّ من الدول السْلَافيّة فِي البلقان سوٰى الْبُوسْنَة. وَ إنْ كان الْعُثْمَانِيُّونَ قدْ بدأُوا آنذاك، يتدخّلون فِي شُؤُونها الدّاخلية، دون أن يتمّ لهم فتحها إِلَّا بعد ذٰلِكَ لِأكثر من نصف قرن، بسبب مجموعة من الظّروف وَ الْأسباب الَّتِي حالت دون ذٰلِكَ، وَ كان من أهمّها انشغال الْعُثْمَانِيِّينَ بحدودهم الشّرقيّة فِي الآناضول. وَ لقد ظهرت فِي هٰذَا الوقت قوّة جديدة فِي آسيا الوسطٰى وَ إيران تنافس الْعُثْمَانِيِّينَ عَلٰى أراضيهم فِي الآناضول، هِيَ دولة الموغول (Mongoli). وَ كان لَا بدّ لبايزيد من أن يلتقي فِي ميدان القتال بأشهر قوّاد الدولة المغوليّة وَ هو تيمورلنك (Timurlenk) (٧٣٧-٨٠٨ هـ / ١٣٣٦-١٤٠٥ م)، وَ فِي معركة دارت بينهما بقرب عَنْقرة فِي اليوم الثّامن وَ العشرين من تموز سنة ١٤٠٢ م (٨٠٥ هـ)، وَ فِيهَا هزم بايزيد هزيمة قاسية وَ انقسمت دولته بعد هٰذَا إِلٰى عدة

مقاطعات يحكم فِيهَا أبناء بايزيد الَّذِينَ اعْترفوا بالسّلطة المغوليّة العليا. وَ أصبحت الدّولة الْعُثْمَانِيَّة بعد هٰذِهِ الهزيمة فِي مأزق خطير وَ كان يبدو فِي بداية الأمر أنّها ستفقد جميع مناطقها المفتوحة فِي آسيا وَ أوروبا. وَ فِي تِلْكَ الفترة العصيبة الَّتِي تعرّضت الدّولة الْعُثْمَانِيَّة فِيهَا للحروب وَ الفتن الدّاخليّة من ناحية وَ للحروب الخارجيّة الصّليبيّة من ناحية أخرٰى ظهر چلبي مُحَمَّد الأَوَّل (Čelebi Muḥammed I) (٨١٦ هـ / ١٤١٣ م) وَ أنقذها من السّقوط. لِأجل ذٰلِكَ لُقّب بالمؤسّس الثّاني للدولة العثمانيّة.[٦١] وَ لقد نجح هٰذَا الرّجل مع ابنه مراد الثّاني (الَّذِي اعْتلٰى العرش سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م) فِي استرداد المناطق المفتوحة فِي آسيا الصّغرٰى وَ مواصلة فتوحاته فِي أوروبا. كما استطاع مراد الثّاني بعده أن يخضع دول البلقان المفتوحة سابقًا، بعد أن كانت قد انتهزت فرصة الاضطرابات الدّاخليّة فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ أعلنت اسْتقلَالها. وَ لقد ختم السلطان مراد الثّاني مصير البلقان وَ الدّولة البيزنطيّة بعد النّصر الكبير الَّذِي أحرزه عَلٰى هٰذِهِ الجيوش عند وَارنا (Varna) سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م. وَ فِي عهده، الَّذِي اتّسم بالأمن وَ الاِستقرار، إِلٰى جانب الانتصارات العسكريّة أصبحت الدولة الْعُثْمَانِيَّة قوّة اقتصاديّة كبيرة وَ هُوَ أمر سهل عَلٰى مُحَمَّد الفاتح أن يحقّق أهدافه السّياسيّة الكبيرة، تِلْكَ الأهداف الَّتِي لم يحقّقها بايزيد الأَوَّل.

---

[٦١] Bašagić-Redžepašić (1900.) *Kratka uputa u prošlost Bosne i Hercegovine*, Sarajevo, p. 8.

المرشد القصير فِي ماضي الْبُوسنَة، باشآقيتْش-رجبپاشيتْش، ص ٨، سراييفو ١٩٠٠ م.

أمّا السّلطان مُحَمَّد الفاتح فمنذ أن اعتلٰى العرش الْعُثْمَانِيّ سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥٣ م. وَ بعد مقاومة شديدة دامت أربعة وَ خمسين يومًا سقطت المدينة فِي اليوم التّاسع وَ العشرين من أيّار سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م قرّر أن يقضي عَلٰى الدّولة البيزنطيّة وَ مَا تبقّٰى من دول البلقان. وَ لقد بدأ بحصار القسطنطينيّة فِي اليوم السّادس من نيسان سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م. وَ بعد مقاومة شديدة دامت أربعة وخمسين يومًا سقطت المدينة فِي اليوم التّاسع وَ العشرين من أيّار سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م.[٦٢] وَ بعد فتح القسطنطينيّة توجّه السّلطان مُحَمَّد الثّاني نحو الدّول المسيحيّة الأخرٰى فِي البلقان، وَ سرعان ما سقطت هٰذِهِ الدّول فِي قبضة الْعُثْمَانِيِّينَ، لِأنها – عَلٰى الرّغم من بعض المحاولات – لم تستطعْ أنْ تتعاونَ فيما بينها لتقاوم التّيار الْعُثْمَانِيّ الجديد. وَ قبل أن ننتقل إلٰى موضوع فتح الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك لَا بدّ من أن نشير إلٰى الأسباب الَّتِي مكّنت لِلْعُثْمَانِيِّينَ من هٰذِهِ الفتوحات السّريعة فِي البلقان من جهة، وَ من بقائهم الطّويل فِي هٰذِهِ الدّول من جهة ثانية. إنّ نجاح هٰذِهِ الفتوحات الْعُثْمَانِيَّة وَ استقرار حكم الْعُثْمَانِيِّينَ فِي البلقان يرجع إلٰى العوامل الدّاخلية وَ الموضوعيّة التاليّة:

١- فكرة الحرب المقدّسة – الجهاد – وَ هِيَ الفكرة الَّتِي يتناساها المؤرّخون الغربيّون حين يتناولون أسباب نجاح الفتوحات الْعُثْمَانِيَّة. وَ ذٰلِكَ لِأنّ هٰذِهِ الفتوحات مَا هِيَ إلّا امتداد للفتوحات الْعَرَبِيَّة

---

[٦٢] İnalcık, Halil (1974.) *Osmansko carstvo (klasično doba – 1300-1600.)*, Srpska Književna zadruga, translation, p. 35.

الإمبراطورية الْعُثْمَانِيَّة (١٣٠٠-١٦٠٠)، خليل إينالجق، ص ٣٥، بلغراد ١٩٧٤ م.

الْإِسْلَامِيَّة المجيدة، فلها طابع إِسْلَامِيّ[٦٣] قبل كلّ شيْء وَ هدفها نشر الدّعوة الْإِسْلَامِيَّة وَ إعْلاء كلمة الله عَلٰى وجه الأرض. وَ لقد كان المقاتل الْعُثْمَانِيّ – وَ خاصّة خلال الفترة الَّتِي تمثّل الفتوحات الكبرٰى، وَ هِيَ الفترة الَّتِي تعني بحثنا – لَا يقاتل بدوافع سياسيّة أو اقتصاديّة أو قوميّة وَ إنّما لأسباب دينيّة قوامها الجهاد فِي سبيل الله، وَ لِأجل ذٰلِكَ أحرز هٰذِهِ الانتصارات الَّتِي سجّلها التّاريخ وَ مجّدتها الأجيال. وَ من الطّبيعيّ أن الدولة العثمانيّة بعد هٰذِهِ الفتوحات الواسعة قد حققت أهدافها وَ مصالحها السّياسيّة وَ الاقتصاديّة الكثيرة. وَ ذٰلِكَ أن هٰذِهِ الأشياء تعتبر وسائل هٰذِهِ الفتوحات وَ ليست غاياتها، وَ إنّما كان الجهاد هُوَ الغاية.

فَلَا نخطئ إذْ نقول بأن المقاتل الْعُثْمَانِيّ المسلم اندفع إِلٰى الفتوحات بنفس الاندفاع وَ القوّة الَّتِي اندفع بِهَا المقاتل الْعَرَبِيّ المسلم من قبل وَ كان دليلهما هُوَ الْقُرْآن الكريم.

٢- كان النّظام العسكريّ وَ القيادة المركزيّة قويّة عند الْعُثْمَانِيِّينَ بخلاف الجيوش الإقطاعيّة الَّتِي كانت تنقصها القيادة المنظمة فِي البلقان.

---

[٦٣] وَ خير مثال عَلٰى ذٰلِكَ أن الْعُثْمَانِيِّينَ فِي الأراضي البلقانيّة المفتوحة أخذوا تحت حمايتهم حياة الملايين من المسيحيّين وَ أموالهم وَ تركوا لهم الحرّيّات الدّينيّة وَ الإنسانيّة كاملة.

٣- كان الجيش الْعُثْمَانِيّ قد تفوّق عَلٰى الجيوش الأوروبيّة بالأسلحة وَ بالفنون الحربية. إذ لَجَأوا أثناء فتوحاتهم إِلٰى الأساليب الحربيّة الَّتِي لمْ تكنْ معروفة من قبل، وَ هٰذِهِ الأساليب كانت تضمن لهم الانتصار، وَ لقد استعمل الْعُثْمَانِيُّونَ المراحل الثّلاثة التّالية أثناء استيلائهم عَلٰى المنطقة:

أ- المرحلة الأولٰى، و تميّزت بغزوات وَ هجمات صغيرة عَلٰى المناطق الَّتِي أرادوا فتحها، وَ كان هدفها تخويف سكّان المنطقة وَ إضعاف قوّتهم المعنويّة.

ب- المرحلة الثّانية، وَ هِيَ التّدخّل المباشر فِي شُؤُون المنطقة وَ غزوها عسكريًّا.

ت- المرحلة الثّالثة، طلب الخضوع السّياسيّ وَ الاعْتراف بالسّيادة الْعُثْمَانِيَّة مع دفع الخَرَاجِ.

٤- وَ من العوامل الموضوعيّة فِي انتصارات المسلمين اخْتِلَاف صقالبة البلقان وَ تفرق كلمتهم وَ تمزّقهم إِلٰى دويلَات صغيرة ممّا جعل السّلطة المركزيّة ضعيفةً.[٦٤]

---

[٦٤] تاريخ الشّعوب الإسلَامِيَّة، بْرُوكلمان كارل، ص ٤١٧، التّرجمة الْعَرَبِيَّة، بيروت ١٩٦٨ م.

٥- وَ لقد ذكرنا أن المشاكل الدّينيّة فِي المنطقة كانت قائمة حَتَّى مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ فإذا بالطوائف الدّينيّة المضطهدة تنعم بالرّاحة فِي ظلّ الحكم الْعُثْمَانِيّ لما وجدت فِيهِ من أمن وَ سماحة وَ استقرار، وَ من ثمّ، سرعان ما وقفت موقف المحايد طوال فترة الحكم الْعُثْمَانِيّ لهذه المناطق.

٦- الأسباب الاجتماعيّة: كانت حالة الطّبقات الشّعبيّة – وَ خاصّة الفلّاحين منهم – قبيل مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ فِي البلقان سيّئة جدًّا فِي البلقان فِي ظلّ النّظام الإقطاعيّ الفوضويّ. أمّا الْعُثْمَانِيُّونَ فقد أخذوا يدافعون عن هٰذِهِ الطّبقات وَ مصالحها، وَ رَأَتْ هٰذِهِ الجماهير فِي ظلّ النّظام الْعُثْمَانِيّ خلّاصًا من الاسْتغلال وَ العبوديّة. وَ صفوة القول أن الْعُثْمَانِيِّينَ فِي بعض دول البلقان استقبلوا اسْتقبال المنقذين لا الفاتحين وَ الغزاة. وَ كان هٰذَا – فِي رأيِنا – سبب نجاحهم فِي الحكم وَ اسْتتاب الأمر لهم فِي البلقان.

فتح الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك سنة ٨٦٨-١٠٠١ هـ / ١٤٦٣-١٥٩٢ م

وَ مع أن الْعُثْمَانِيِّينَ بدأوا بفتح منظّم فِي الْبُوسْنَة سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م إلّا أنّ وجودهم فِيهَا بدأ قبل ذٰلِكَ بثلاثين سنة، وَ لقد اسْتوْلى الْعُثْمَانِيُّونَ علٰى

الْبُوسْنَة تدريجيًّا تمامًا كما فعلت مع الأجزاء اليُوغُسْلَافيّة الأخرٰى، وَ عَلٰى سبيل المثال نذكر صِرْبيا (Srbija) وَ كانت قد خضعت للنّفوذ الْعُثْمَانِيّ منذ سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م إثر هزيمة ماريتْسا (Marica) وَ سقوط مدينة سميديريفو[٦٥] (Smederevo) وَ معنٰى ذٰلِكَ أن الوجود الْعُثْمَانِيّ فِي صِرْبيا، كان قد مضٰى عَلَيْهِ ثمانية وَ ثمانون عامًا ميلاديًّا قبل أن تقع نهائيًّا تحت الحكم الْعُثْمَانِيّ سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م.

وَ لقد اختلف المؤرّخون فِي تحديد الفترة الَّتِي استولٰى فِيهَا الْعُثْمَانِيُّونَ عَلٰى بعض مناطق البوسنة نهائيًّا، وَ منهم من زعم أنّهم قد استولوا عَلٰى بعض الحصون وَ المناطق الْبُوسْنَوِيَّة الاستراتيجيّة، وَ خاصة حصن هودِيدْيَدْ (Hodidjed) سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م، وَ منذ ذٰلِكَ الوقت ثبت الْعُثْمَانِيُّونَ أقدامهم فِي الْبُوسْنَة. أمّا الفريق الثّاني منهم فيذهب إلٰى أن الحكم الْعُثْمَانِيّ بدأ فِي هٰذِهِ المنطقة بدءًا فعليًّا فِي منتصف القرن الخامس عشر الميلاديّ. وَ هٰذَا الرّأي قد يكون صحيحًا لِأنه يتفق تمامًا وَ البحوث الحديثة فِي هٰذَا الموضوع[٦٦] عَلٰى خلاف

---

[٦٥] Jireček, Konstantin Josef (1952.) *Istorija Srba*, (translation Jovan Radonjić) II, Beograd, p. 311.

تاريخ الصِّرْب، بيريتْشيك قُسْطنطين، التّرجمة الصِّربوكُرواتيّة ليوفان رادونْييتْشْ (Jovan Radonjić)، ص ٣١١، بلغراد ١٩٥٢ م.

[٦٦] من المعروف تاريخيًّا أنّ الْعُثْمَانِيِّينَ كلّما استولوا عَلٰى منطقة ما ذكروها عَلٰى الفور فِي سجلّاتهم الرّسميّة. وَ من تسجيلهم الأوّل من سنة ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م يبدو جليًّا أنّ هٰذِهِ المقاطعة لم تكن فِي أيديهم بعد.

أصحاب الرَّأي الأوَّل الَّذِينَ يعتمدون عَلٰى الرأي الشّخصيّ وَ الاحتمالات. وَ يرتبط بِهٰذِهِ المسألة الخلافيّة بين المؤرّخين إنشاء أشهر المدن وَ المراكز الإِسْلَامِيَّة الثّقافية فِي الْبُوسْنَة، مثل مدينة سراييفو الَّتِي لَا تزال تؤدّي دورًا أساسيًّا فِي حياة المسلمين فِي أوروبا عامّة وَ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ خاصّة. وَ يذهب الفريق الأوَّل من هٰؤُلَاءِ المؤرّخين إِلٰى أن المدينة قد أسّست سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م وَ ذٰلِكَ فِي المكان الَّذِي أقيمت فِيهِ مدينة قديمة هِيَ وْرْخ بُوسْنَة (Vrh Bosna) وَ يذكر بعض المؤرّخين استنادًا إِلٰى المصادر الإيطاليّة تاريخ إنشاء هٰذِهِ المدينة[٦٧]، وَ لٰكن الدّراسات الحديثة أثبتت أن المدينة (وْرْخ بوسنة) لم يكن لها وجود عَلٰى الإطلاق، وَ إنّما هُوَ اسم المقاطعة[٦٨] وَ المدينة الحصينة الَّتِي كانت فيها هِيَ هودِيذْيَدْ[٦٩] (Hodidjed) وَ معنٰى ذٰلِكَ أنّ سراييفو قد أنشأت بعد

---

[٦٧] Vego, Marko (1957.) *Naselja bosanske srednjovjekovne države*, Sarajevo, p. 135.

المناطق المسكونة فِي الدّولة الْبُوسْنَوِيَّة فِي القرون الوسطٰى، ماركو ويغو، ص ١٣٥، سراييفو ١٩٥٧ م.

[٦٨] وَ تقع هٰذِهِ المقاطعة فِي وسط الْبُوسْنَة وَ كانت تمثّل مركزًا تجاريًّا شهيرًا فِي القرون الوسطٰى.

[٦٩] لَا شكّ فِي أن هٰذَا الحصن كان القاعدة الأولٰى الَّتِي تمركز فيها الْعُثْمَانِيُّون حينما فتحوا هٰذِهِ المقاطعة.

الاستقرار الْعُثْمَانِيّ الدائم فِي هٰذِهِ المنطقةِ وَ ذٰلِكَ فِي السّنوات الأولٰى من النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلاديّ[٧٠].

وَ يبدو أنّ الحملة العسكريّة الأولٰى عَلٰى البوسنة قد وجّهت سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م وَ ذٰلِكَ عَلٰى بعض المناطق فِي وادي نهر نيريتفا (Neretva) وَ قدْ أدّٰى هٰذَا الهجوم إلٰى أن يهرب أهل المنطقة إلٰى جمهورية دوبروفْنيك الَّتِي كانت مدينة حصينة مستقلّة عَلٰى ساحل البحر الأدرياتيكيّ. وَ لقد نظنّ أنّ هٰذَا التّدخّل الْعُثْمَانِيّ فِي الْبُوسْنَة مع نيّة التّوسّع قد عجّلته الدّولة المجريّة الَّتِي كانت تبذل كلّ ما فِي وسعها لبسط نفوذها السّياسي عَلٰى الْبُوسْنَة، وَ قد ساعدها فِي هٰذِهِ العملية بعض أمراء الْبُوسْنَة أنفسهم، وَ عَلٰى الأخصّ الكنيسة الكاثوليكيّة وَ رجالها.

إِلَّا أنّ الضّغط المجريّ خلق عند بعض أمراء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك ردّ فعل ضدّ هٰذِهِ السّياسية المجريّة، وَ حينما وجدوا أنفسهم عاجزين عن مقاومة المجر استنجدوا بالْعُثْمَانِيِّينَ، وَ من هٰؤُلَاءِ الأمراء نذكر الأمير هْرفويه وُوقْتْشيتْش (Hrvoje Vukčić) الَّذِي طلب المساعدة من الوالي الْعُثْمَانِيّ إسحق بك (Ishak- beg) (وَ كان مقرّه مدينة سْكوپيه (Skopje) بمقدونيا

---

[٧٠] وَ يدلّ عَلٰى ذٰلِكَ اسْم المدينة ذاتها، وَ هُوَ بوسنةسَرَاي (Bosna-Saraj) فسراي، هُوَ مقرّ الوالي الْعُثْمَانِيّ، وَ قد سمّيت المدينة بِهٰذَا الاسم لقيام بنايات أخرٰى حول هٰذَا المقرّ. وَ المصدر الأساسيّ الَّذِي يخبرُنا عن بناي سرايِيفو هُوَ وقفيّة عيسٰى بك ابن إسحاق سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م.

(Makedonija) حينذاك)، فاستجاب لدعوته وَ هزما الجيش المجري سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م. قرب مدينة دُوبُويْ (Doboj) فِي وسط الْبُوسْنَة.[٧١]

وَ بعد هٰذِهِ الهزيمة تعاظم النّفوذ الْعُثْمَانِيّ فِي الْبُوسْنَة وَ ضعف النّفوذ المجري. وَ لم يكن الخطر الخارجيّ هو السّبب الوحيد لاستنجاد الأمراء بالْعُثْمَانِيِّينَ وَ إنّما سلك سكان الْبُوسْنَة أنفسهم هٰذِهِ الخطوات ذاتها فِي النّزاعات وَ الاخْتِلَافات الَّتِي كانت تقع بينهم. وَ قد استجاب الْعُثْمَانِيُّونَ لِهٰذِهِ الدّعوات لِأنها كانت تحقّق لهم الكثير من المزايا العسكريّة وَ الفوائد الاقتصادية من جرّاء هٰذِهِ الاضطرابات الداخلية فِي الْبُوسْنَة.

وَ لمّا تولّى زمام الحكم الْعُثْمَانِيّ السّلطان مُحَمَّد الفاتح سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م كانت الْبُوسْنَة منهارة انهيارًا سياسيًا و اجتماعيًا. فلما قضٰى السّلطان مُحَمَّد الفاتح عَلٰى البقيّة الباقية من دولة صَرْبيا سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م لمْ يبقَ أمامه سوٰى الْبُوسْنَة. وَ لقد أدرك ملك الْبُوسْنَة هٰذَا الخطر الْعُثْمَانِيّ وَ بدأ يطلب عونًا عسكريًا من العالم المسيحيّ حيث أرسل وفده إلٰى البابا فِي روما مستنجدًا بِهِ فِي ضوْء بعض المقترحات، منها:

١- أن ملك الْبُوسْنَة يهتمّ بأمور العالم المسيحيّ، وَ لٰكنه لَا يستطيع أن يدافع عن مصالحه وحده.

---

[٧١] Orbini, Mavro (1968.) *Kraljevstvo Slovena*,... p. 150-160..

ملك السّلافيِّين، أورْبِينِي ماوْرو، ص ١٥٠-١٦٠.

٢- من الواجب عَلٰى الدول الأوروبية الأخرٰى أن تقدّم له المساعدة فِي الحرب ضدّ الْعُثْمَانِيِّينَ.

٣- أن البوسنة ليست الهدف الوحيد لِلْعُثْمَانِيِّينَ، وَ إنّما هِيَ محطّة صغيرة فِي طريقهم إِلٰى أوروبا.

أمّا البابا پيپه الثّاني (Pije II) فقد كان يدرك العلاقات العدائيّة بين ملك البوسنة وَ ملك المجر فحاول أن يصلح بينهما. و نجح البابا فعلًا فِي هٰذِهِ المحاولة إذْ عقد الملكان حلفًا ضدَّ الْعُثْمَانِيِّينَ[٧٢]. وَ عَلٰى هٰذَا الأساس رفض ملك الْبُوسْنَة سْتفان توماشيفيتْش (Stefen Tomašević) إعطاء الجزية السّنويّة[٧٣] لِلسُّلطان الْعُثْمَانِيّ وَ بِهٰذَا أعطٰى له سببًا مباشرًا لشنّ الهجوم العسكريّ عَلٰى الْبُوسْنَة.[٧٤]

---

[٧٢] وَ لٰكن الملك ستفان توماشيفيتْش لمْ يستفدْ من هٰذَا الحلف، كما سنرٰى من موقف المجر أثناء الحرب سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م. كما لم يستفدْ من وعود بابا روما وَ من ملوك أوروبا، لِأنّه لمْ يتلقَّ أية مساعدة منهم.

[٧٣] الپاشالق الْبُوسْنَوِيّ، حازم شعبانوفيتْش، ص ٣٦-٣٨.

[٧٤] وَ مع أن أكثر المصادر التّاريخيّة تعتبر هٰذَا الرّفض سببًا مباشرًا لهجوم الْعُثْمَانِيِّينَ عَلٰى الْبُوسْنَة فإنّ هناك أسبابًا أخرٰى وَ نحن ندرجها فيما يلي:

- الدّافع الاقتصاديّ، فلقد جذبت الْبُوسْنَة الغزاة منذ القدم بسبب ثرواتها الطّبيعيّة وَ لَا شكّ فِي أن الْعُثْمَانِيِّينَ أرادوا الحصول عَلَيْهَا.

- الدّافع الدّينيّ، وَ هو الجهاد فِي سبيل الله وَ نشر الدّعوة الإِسْلَامِيَّة حيث أصبحت الدولة الْعُثْمَانِيَّة ترعٰى أمور المسلمين فِي العالم كما كانت بيزنطيا ترعٰى أمور

وَ لقد تحركت القوّات الْعُثْمَانِيَّة نحو الْبُوسْنَة في نهاية شباط سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م، وَ لما رَأى ملك الْبُوسْنَة نفسه وحيدًا في ساحة القتال، وَ تأكّد لديْه أن البابا وَ ملوك أوروبا قد تركوه تحت رحمة الْعُثْمَانِيِّينَ حاول أنْ ينجو من هٰذِهِ الورطة بأن سأل الْعُثْمَانِيِّينَ قبول الصّلح معه لمدة خمسة عشر عامًا. وَ عَلٰى الرّغم من أن السلطان قبل مبدئيًّا هٰذَا الاقتراح إلَّا أنّه تقدّم نحو الْبُوسْنَة و اتّخذ عقد السّلم ستارًا يخفي نواياه الحقيقيّة. وَ قبل القيام بهذه الحملة قام السلطان بالاسْتعدادات الجيدة لِأنّه – حسب أقوال بعض مرافقيه[٧٥] – كان يعرف أن البوسنة منطقة جبليّة ذات حصون منيعة وَ لِهٰذَا كان جيشه كبير العدد وافر المعدات الحربية[٧٦]، وَ لقد كان يعرف أيْضًا أنّ الملك سوف يطلب العون من ملك المجر فأرسل فرقًا من جيشه إِلٰى الحدود الشّمالية في صِرْبيا تحت قيادة عليّ بك

الأرثوذكسيِّين فِي آسيا الصّغرٰى وَ جنوب البلقان وَ دولة المجر، وَ البندقية كانت ترعٰى شؤون الكاثوليكيِّين فِي البلقان وَ الدول الأوروبية.

٧٥ وَ من هؤلاء:

١- طُورسون بك، وَ هُوَ صاحب سيرة السّلطان.

تاريخ أبو الفتح، ص ١١٥-١١٨.

٢- قسطنطين الانكشاريّ (Kostantin Janičar) وَ قدْ كان قائدًا لِإحْدٰى الفرق العسكريّة فِي هٰذَا الغزو.

٧٦ المراجع المعاصرة لَا تذكر عدد هٰذَا الجيش إلّا مَا ذكره قسطنطين الانكشاريّ من أن عدد جنوده بلغ عشرين ألفًا.

ميخَائِيل أوغْلُو ('Ali-beg Mīhā'īl-oğlu) وَ أمره بأنْ يقومَ بالغارات و المناورات العسكريّة عَلٰى الأراضي المجريّة وراء نهر الدانوب (Dunav) وَ سَاوَا (Sava) وَ بذٰلِكَ يمنع تقديم مساعدة مجرية لِلْبُوسْنَةِ. أمّا الملك ستفان توماشيفيتْشْ فقد نقل حاضرته إلٰى مدينة يَايْتْسه (Jajce) المنيعة، وَ دفعه إلٰى ذٰلِكَ موقع المدينة الاستراتيجيّ، وَ كان بِهٰذَا أقرب إلٰى الغرب في حالة الانسحاب. وَ لقد وصل الْعُثْمَانِيُّونَ إلٰى حدود البوسنة الشّرقية فِي بداية أيّار سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م[٧٧] وَ دخلوا فِي إمارة الأسرة الإقطاعيّة پاولوفيتْشْ (Pavlović) وَ كَذٰلِكَ فِي إمارة الأسرة كوفاتْشيفيتْشْ (Kovačević) وَ فتحوا هاتين المنطقَتَيْنِ دون مقاومة[٧٨] و توجّه السلطان بعد ذٰلِكَ إلٰى قلب الْبُوسْنَة وَ فتح المدينة الحصينة بوبوفاتْسْ (Bobovac) الَّتِي كانت عاصمة ملوك البوسنة سابقًا وَ دخلها بعد حصار دام ثلاثة أيام فقط. وَ تذكر بعض المصادر[٧٩] أنّ الَّذِي سلّم المدينة إلٰى الْعُثْمَانِيِّينَ هُوَ رئيس الحامية وَ اسْمه رَاداك (Radak) الَّذِي كان بوغوميليًّا وَ

---

[٧٧] Mihajlović, Konstantin (1959.) *Janičareve uspomene*, Beograd, prevod: prof. Đorđe Živanović, SAN, Beograd, 1959..

ذكريات إنكشاري، قسطنطين ميخايلوفيتْشْ، ترجمة إلٰى الصّربوكُرواتيّة: جورجه ژيوانوفيتْشْ، ص ٥٠، مجمع العلم الصربيّ، بلغراد ١٩٥٩ م.

[٧٨] Šabanović, Hazim (1959.) *Bosanski pašaluk*,... p. 38.

الپاشالق الْبُوسْنَوِيّ، شعبانوفيتْش حازم، ص ٣٨.

[٧٩] Orbini, Mavro (1968.) *Kraljevstvo Slovena*,... p. 171-172..

ملك السّلافيّين، أورْبِينِي ماوْرو، ص ١٧١-١٧٢.

اعْتنق الكاثوليكيّة ظاهريًّا عَلٰى أثر الاضطهاد الَّذِي لاقته هٰذِهِ الطّائفة. وَ توجّه مُحَمَّد الفاتح بعد ذٰلِكَ نحو حاضرة مملكة الْبُوسْنَة وَ هِيَ يايْتْسه الَّتِي سلّمت نفسها دون مقاومة تذكر.

أمّا الملك فقد حاول أن ينجو بالهرب لو لَا أن لحقته طلائع الجيش الْعُثْمَانِيّ تحت قيادة محمود پاشا (Maḥmūd-paša) فِي مدينة كْلْيوتْشْ (Ključ)، وَ من الجدير بالذّكر أن محمود پاشا أمنه عَلٰى حياته[٨٠] وَ لٰكن السّلطان مُحَمَّد الفاتح لَمْ يَفِ بِوَعْدِهِ وَ إنَّما أمر أن يقتل الملك[٨١].

وَ هٰكَذَا انتهَتْ مملكة الْبُوسْنَة في بداية حزيران سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م، و دامت عمليّة الفتح شهرًا واحدًا تقريبًا، حَتّٰى ليقول المؤرّخ البيزنطي: "مرّ الْعُثْمَانِيُّونَ بالبوسنة مرور البرقِ"[٨٢]. أمّا بعض المؤرّخين الْيُوغُسْلَافيِّين[٨٣]

---

٨٠ تاريخ ابو الفتح، طورسون بك، ص ١٢٥.

٨١ وَ يزعم أن مُحَمَّد الفاتح (بعد أن أفْتٰى العالم الكبير – عليّ بستانيّ –) تمسّك بالقاعدة الَّتِي تقول أنّ "المؤمن لَا يلدغ من جحر مرتيْن" فلقد أمّن السّلطان الملك من قبل عَلٰى حياته وَ ذٰلِكَ أثناء استيلَائِهِ عَلٰى مدينة سميديريفو (Smederevo) سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م كما قدْ سبق.

٨٢ Thallóczy, dr. Lajos (1959.) *Povijest (Banovine, grada i varoši) Jajca 1450.-1527.*, Tisak kr. Zemaljske tiskare, Zagreb, p. 270.

تأريخ مدينة يايْتْسه ١٤٥٠-١٥٢٧ م، طبعة المطبعة البلديّة، ص ٢٧٠، زغرب ١٩٥٩ م.

٨٣ Ćorović, Vladimir (1925.) *Bosna i Hercegovina*, Beograd, p. 59.

فيقولون أنّ هٰذَا السّقوط السّريع يمثّل فضيحة تاريخية بالنسبة للشّعوب اليُوغُسْلَافيّة "لِأن الْبُوسْنَوِيِّينَ لم يصمدوا صمود أبطال ماريتْسا وَ كوسوفو". متناسيًا بذلك أن الدولة الْعُثْمَانِيَّة أثناء موقعة ماريتْسا (Marica) وَ حَتَّى موقعة كوسوفو (Kosovo) كانت فِي فترة نشوئِها وَ نموّها، أمّا الآن فقد أصبحت قوّة عالميّة كبرٰى هٰذَا من ناحية، وَ من ناحية أخرٰى نجد أن العالم المسيحيّ قد تخلّى عن الْبُوسْنَة وَ لم يقدم أيّة مساعدة، أمّا صِرْبيا في كوسوفو فكانت تساندها بعض الجيوش الأخرٰى وَ من بين هٰذِهِ الجيوش جيش الْبُوسْنَوِيِّينَ أنفسهم و ممّا نذهب إِلَيْهِ أن وُوكاشن[٨٤] (Vukašin) أو لَازَار[٨٥] (Lazar) وَ حَتَّى قسطنطين، لو وجدوا فِي الظّروف الَّتِي وجد فِيهَا الملك توماشيفيتْش فِي الْبُوسْنَة سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م، لمّا قدّموا للتّاريخ أكثر ممّا قدّم هُوَ.

وَ فيما يتعلّق بالمنطقة الجنوبيّة فِي الْبُوسْنَة وَ هِيَ الْهَرْسَك (Hercegovina) فقد فتحها الْعُثْمَانِيُّونَ بعد فتح البوسنة، و لٰكنّهم لم يستقرّوا فِيهَا إلّا فترة وجيزة لِأن الأمير ستفان كوساتْشا (Stefan Kosača) استردّ مناطق كثيرة بعد عودة السلطان إِلٰى إستنبول.[٨٦]

الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، تْشُوروفيتْش وْلادمير، ص ٥٩.

[٨٤] قائد الجيوش الصربية في موقعة ماريتْسا.

[٨٥] قائد الجيوش المتحالفة في موقعة كوسوفو.

[٨٦] Dinić, Mihajlo (1940.) *Zemlje Hercega od svetoga Save*, Srpska književna akademija, Beograd, p. 234.

وَ عندما سمع السلطان تفاصيل موقف الْهَرْسَك فِي قضايا الْبُوسْنَة أرسل إِلَيْهَا جيشه تحت قيادة عيسٰى بك ابن إسحاق بك (‘Īsā-beg ibn Isḥāq-beg) وَ ذٰلِكَ سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م. وَ وصل هٰذَا الأخير إِلٰى دوبروفنيك وَ استَوْلٰى عَلٰى طائفة من مدن الْهَرْسَك المهمّة. منها: لوغ (Lug)، بُوبُووُو (Bobovo)، تْرِيبِينْيَه (Trebinje)، غَاتْسْكُو (Gacko)، كما سقطت حاضرة الأمير وَ هِيَ مدينة بْلَاغَايْ (Blagaj) و ذٰلِكَ سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م.

وَ بعد وفاة الأمير ستفان كوساتْشَا (Stefan Kosača) سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م بقيت أراضي الْهَرْسَك المحدودة فِي أيدي أبنائِهِ[87] وْلَاتْكُو (Vlatko) و فْلَادِيسْلَاف (Vladislav) وَ كان الأوَّل فِي حكمه يعتمد عَلٰى "البندقيّة" الَّتِي استولت فيما بعد عَلٰى المناطق الغربيّة من الْهَرْسَك، أمّا الثّاني فكان تحت حماية المجريّين الذين كانوا في مدينة پوتْشِيتَيِلْيْ (Počitelj) حَتّٰى سقوطها فِي أيدي الْعُثْمَانِيِّينَ سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م. وَ من ثَمّ فإنّ مناطق الْهَرْسَك الَّتِي فتحها الْعُثْمَانِيُّونَ حَتّٰى سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م كانت تابعة عسكريًّا وَ إداريًّا لسنجق بك (والي الْبُوسْنَة)، وَ فِي هٰذِهِ السّنة كونّت من البلاد المفتوحة فِي الْهَرْسَك وحدة

أراضي الْهَرْسَك من القدّيس سَاوَا، ميخايلو دينيتْش، المجمع الأدبيّ الصربيّ، ص ٢٣٤، بلغراد ١٩٤٠ م.

[87] وَ من الجدير بالذّكر أن أصغر أبنائِهِ وَ هُوَ ستفان (Stefan) وقف إِلٰى جانب الْعُثْمَانِيِّينَ بعد أن أسلم في إسْطنبول و اشْتهر باسم أحْمد هرسكوفيتْش (Aḥmed Hercegović).

إداريّة جديدة وَ سمّيت بسنجق الْهَرْسَك[٨٨] (Hercegovina) وَ بعد هٰذَا التّنظيم فِي الْهَرْسَك استمرّ الْعُثْمَانِيُّونَ بفتح مَا تبقّى من مناطق الْهَرْسَك، فَفِي فترة مَا بين سنة ٨٧٦-٨٨٧ ه / ١٤٧١-١٤٨٢ م اسْتوْلوا عَلٰى مدينة پوتْشِيتَيلْي (Počitelj) سنة ٨٧٦ ه / ١٤٧١ م وَ طردوا منها المجريّين ثمّ فتحوا المدن مثل لْيوبوشْكِي (Ljubuški) وَ مُوستار و أُوستروغ (Ostrog) فِي شمال الْهَرْسَك، و أخيرًا بسقوط مدينة نُووِي (Novi) عَلٰى ساحل البحر الأدرياتيكيّ تمّ فتح الْهَرْسَك كلّها.

نعود الآن إلٰى الأحداث الّتِي وقعت فِي الْبُوسْنَة إبان الفتح، و بخاصّة في بعض مناطقها الّتِي استمرّ فتحها حَتّٰى بداية القرن السّادس عشر الميلاديّ، إذْ أنّ سقوط الْبُوسْنَة كان دون شكّ ضربة قويّة بالنّسبة لأوروبا، و خطرًا داهمًا عَلَيْهَا... فالدولة الْعُثْمَانِيَّة قد حقّقت من وراء هٰذَا الفتح فوائد جمّة، منها السيطرة عَلٰى المواقع الاستراتيجية الّتِي تمكنها من محاربة الدولة المجرية – المنافس البرّيّ القويّ – وَ جمهورية البندقيّة – المنافس البحريّ القويّ – وَ كانت قد اتّخذت كلتاهما بعض الإجراءات بتحريض خاصّ من روما لمواجهة هٰذَا الخطر الزّاحف عَلٰى أوروبا، فبدأت حملة الحلفاء ضدّ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي بداية تشرين الْأَوَّل سنة ٨٦٨ ه / ١٤٦٣ م. وَ هِيَ الحملة الّتِي نجحت في اسْتعادة بعض مناطق الْبُوسْنَة من الْعُثْمَانِيِّينَ، وَ منها مدينة يايْتْسَه الحصينة، وَ قدْ حاول مُحَمَّد الثّاني

---

[٨٨] وَ كان مقرّ هٰذَا السّنجق الْأَوَّل مدينة فوتْشَا (Foča) غير أن نشر الْعُثْمَانِيِّينَ لنفوذهم جنوبًا حَتّٰى البحر الأدرياتيكيّ جعلهم ينقلون عاصمتهم إلٰى مدينة مُوسْتَار (Mostar) وَ لقد لعبت هٰذِهِ المدينة فِي الْهَرْسَك عين الدّور الثّقافيّ و الاجتماعيّ الّذِي أدّته سراييفو فِي منطقة الْبُوسْنَة.

فتح المدينة من جديد، متّجهًا إلٰى الْبُوسْنَة في بداية صيف سنة ٨٦٩ ﻫ / ١٤٦٤ م ، بعد حصار فاشل للمدينة دام شهرًا، انسحب فِي أثره.[٨٩] وَ بقيت مدينة يايْتْسه فِي أيدي المجريّين حَتّٰى سنة ٩٣٤ ﻫ / ١٥٢٧ م حيث فتحها والي الْبُوسْنَة الشّهير غازي خسرو بك[٩٠]. وَ خلال السّنوات التّالية كثرت غزوات ولاة الْعُثْمَانِيِّينَ من داخل الْبُوسْنَة نحو شمال غربها تجاه مدينة بيحاتْش (Bihać) وَ كرواتيا (Hrvatska) وَ يَبْدُو ذٰلِكَ من نقل مقرّهم[٩١] من داخل سنجق الْبُوسْنَة من سراييفو إلٰى بانْيالوقا (Banja Luka) بعد سنة ٩٥٧ ﻫ / ١٥٥٠ م أيْ بالأحرٰى نقلوا المقرّ ليكون قريبًا من مناطق الغزوات وَ العمليّات. وَ أصبحت مدينة بانْيالوقا نقطة انْطلَاق لِلقوّات الإسْلَامِيَّة فِي أيّام حكم والي الْبُوسْنَة مالكوچ بك ابن قَره عثمان أوغلو (Malkoč-beg ibni kara-Osman-oğlu) (٩٦٥-٩٧١ ﻫ / ١٥٥٧-١٥٦٢ م). وَ نالت هٰذِهِ المدينة أوج عظمتها فِي أيّام حكم والي الْبُوسْنَة الشّهير فرهاد پاشا سوقولوفيتْش (Ferhād-paša Sokolović) وَ فِي أيّامه رفعت الْبُوسْنَة من درجة سنجق إلٰى درجة پاشالق[٩٢] و اسْتطاع الْعُثْمَانِيُّونَ في النّصف الثّاني من القرن السّادس عشر أن يستولوا عَلٰى بقيّة الحصون وَ الثّغور الْبُوسْنَوِيَّة. وَ كانت

---

٨٩ تاريخ أبو الفتح، طورسون بك، ص ١٢٢-١٢٣.

٩٠ وَ قد انْطلق هٰذَا الوالي إلٰى الفتوحة فِي الْبُوسْنَة بعد موقعة موهاتْش (Mohač) الشّهيرة الَّتِي هزم فِيهَا الْعُثْمَانِيُّونَ جيش المجر وَ كان ذٰلِكَ سنة ٩٣٣ ﻫ / ١٥٢٦ م.

٩١ وَ كانت مدينة سَرَايِيفُو نقطة الانْطلَاق وَ القاعدة العسكريّة الَّتِي تقود كلّ الحركات العثمانيّة نحو كرواتيا (Hrvatska) وَ دالماتْسيا (Dalmacija).

٩٢ "پاشالق" (pašaluk) عبارة عن عدّة السّناجق.

هٰذِهِ الثّغور قواعد نمساويّة دفاعيّة قويّة، كما كانت حاجزًا أمام التّقدّم الْعُثْمَانِيّ نحو أوروبا الوسطى. وَ فِي بداية هٰذِهِ العملية استولى القائد الْعُثْمَانِيّ مصطفى پاشا سوقولوفيتْش (Muşţafā-paša Sokolović) عَلٰى نقطة استراتيجيّة مهمة وَ هِيَ مدينة قْرُوپا (Krupa) ثمّ بعد ذٰلِكَ فتح الحصون وَ المدن مثل يِيزيرو (Jezero) وَ قْلَادُوشَا الصّغْرٰى (Mala Kladuša) و قْلَادُوشَا الْكُبْرٰى (Velika Kladuša) وَ أوسْتْروژاتْسْ (Ostrožac) و موتنيق (Mutnik) وَ غيرها. وَ عَلٰى الرّغم من هٰذِهِ الغزوات الناجحة لم يستطع الْعُثْمَانِيُّونَ الاستيلاء عَلٰى أهم مدينة من هذه المدن وهي بيحاتْشْ (Bihać). وَ لٰكن سقوط معظم الحصون قرب هٰذِهِ المدينة سهّل عَلٰى الوالي الْبُوسْنَة حسن پاشا بْرِيدُوييفيتْشْ (Ḥasan-paša Predojević) أن يفتحها أخيرًا وَ ذٰلِكَ سنة ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢ م، بعد أن حاصرها عشرة أيّام.[٩٣]

وَ بسقوط هٰذِهِ المدينة، تمّ لِلْعُثْمَانِيِّينَ فتح الْبُوسْنَة نهائيًّا وَ هُوَ الفتح الَّذِي استمرّ أكثر من مِائة و ثلاثين عامًا، لِهٰذِهِ الولاية الْعُثْمَانِيَّة الَّتِي تقع عَلٰى آخر حدود الدّولة الْعُثْمَانِيَّة فِي البلقان، وَ الَّتِي سيكون لها دور بارز في الدّفاع عن المواقع الْعُثْمَانِيَّة فِي البلقان تجاه منافسيها من الإمبراطوريّة النّمساويّة وَ جمهورية البندقيّة في الشّمال و الشّمال الغربيّ من البلقان كما ستؤدّي دورًا

---

٩٣ Lopašić, Radoslav (1889.) *Spomenici hrvatske krajine*, Zagreb, p. 165-166..

الآثار التاريخية في هرفاتسقا (كْرُواتيا)، لوپاشيتْشْ رادوسْلاف، المجمع الأدبيّ الصربيّ، ص ١٦٥-١٦٦، بلغراد ١٨٨٩ م.

بارزًا في الدّفاع عن المصالح الإسْلَاميَّة لِأن المجتمع الإسْلَامِيّ الجديد قد تمركز فِيهَا.

الفصل الرّابع:

اِنْتِشَارُ الْإِسْلَامِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

لَا أظنّ أنّنا نحتاج إِلٰى أن نعيد الحديث عن الأديان فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مَا دام ذٰلِكَ قد مرّ، لِذٰلِكَ ننقل مباشرة إِلٰى موضوع انتشار الْإِسْلَام في تلك المنطقة. و لَا بدّ من أن نشير أوّلًا إِلٰى أن هٰذَا الموضوع لم يعالج معالجة موضوعية عبر التاريخ الْيُوغُسْلَافِيّ[٩٤] حَتّٰى الْآن.

---

[٩٤] ظهرت الدّراسة الأولٰى لِهٰذِهِ المسألة منذ مِائة عام تقريبًا و لعلّنا نخطئ إذْ نسمّيها بالدّراسات لِأن غرضها لم يكن إلقاء الأضواء عَلٰى موضوع انتشار الْإِسْلَام في الْبُوسْنَة و إنما نوقشت فِيهَا مسألة القضاء عَلٰى الكنيسة الْبُوسْنَوِيَّة. غير أن الدّراسات العلميّة حول هٰذَا الموضوع قد ظهرت في بداية هٰذَا القرن و ذٰلِكَ عَلٰى أقلام بعض علماء المسلمين و منهم:

١- من أين مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ من هم دانيتْسا (Danica)، حَمْدي قْرِيشِيوْلْيَاقُوفِيتْش (Ḥamdī Kreševljaković)، تقويم لِسنة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦ م، زغرب ١٩١٥ م.

٢- إسلام "نصارٰى البوسنة"، مُحَمَّد حاجّ يِحييتْش (Muḥammed Hadžijaḥić)، أو بذور، ١٩٣٧ م.

وَ الواقع أنّ بعض الَّذِينَ كتبوا فِي هٰذَا الموضوع قدْ حادوا عن الصّواب، وَ تجافَوا عن حقائق التّاريخ لِأنهم قصدوا من وراء كتابتهم الحديث عن الأحوال السياسيّة وَ الاجتماعيّة المختلفة، وَ لعلّهم حين كتبوا تِلْكَ الدّراسات المشوّهة عن الوسائل الَّتِي انتشر بها الْإِسْلَام انما قصدوا إثارة الاشْمئْزاز في نفوس القرّاء تجاه الدّين الْإِسْلَامِيّ الحنيف. وَ بِهٰذَا ابْتعد هٰؤُلَاءِ "الباحثون" عن المستوٰى التّأريخيّ وَ العلميّ المطلوب. وَ الجدير بالذّكر أن مثل هٰذِهِ الدّراسات فِي يُوغُسْلَافيا لَا تجد لها أنصار اليوم، وَ إنّما باتَتْ تجابه نقدًا شديدًا يسلّطه عَلَيْهَا الباحثون الجدد[٩٥] الَّذِينَ يبذلون جهودهم العلميّة وَ الإنسانيّة فِي سبيل إيضاح المسألة.

٣- مُحَمَّد الخانجي، انتشار الْإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ و أصالة المسلمين الْبُوسْنَوِيِّينَ، سراييفو ١٩٤٠ م.

Handžić, Mehmed (1940.) *Širenje islama u Bosni i Hercegovini i porijeklo bosanskohercegovačkih muslimana*, Sarajevo.

٤- أفنديتْش ف. (F. Efendić) حول انتشار الْإِسْلَام، غَيْرَتْ (Gajret)، تقويم لسنة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م، سراييفو ١٩٤٠ م.

Efendić, F. (1940.) *O širenju islama*, „Gajret", Takvim za 1941./1360. h., Sarajevo.

٩٥ Mandić, Dominik (1967.) *Etnička povijest Bosne i Hercegovine*, Roma, I, p. 554.

تأريخ الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، الدّكتور دومنيك مانديتْش، ١، ص ٥٥٤، روما ١٩٦٧ م.

وَ لا ريب فِي أنّ الإِسْلَام جاء في الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك عن طريق الْعُثْمَانِيِّينَ و أن المجتمع الإِسْلَامِيّ قد كوّن بمجيئِهم، و لٰكن السّؤال الَّذِي يطرح نفسه عَلٰى دارس الموضوع هُوَ: هل اتّصل سكّان الْبُوسْنَة بِالإِسْلَامِ – بطريقة مَا – قبل مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ؟ وَ عَلٰى الرّغم من أن مثل هٰذَا السؤال يطرح نفسه كثيرًا في الدراسات الحديثة إلّا أن الإجابة عنه لا تزال غامضة، وَ هٰذَا لأنّ المصادر التركية[٩٦]، وَ هي أوثق مصادر الفترة الَّتِي ندرسها لا تشير إِلٰى هٰذَا الاتّصال. و من المعروف أن المسلمين العرب قد ظهروا في سواحل البحر المتوسّط فِي القرنيْن الثّالث و الرّابع الهجريّيْن / التّاسع و العاشر الميلاديّيْن، و لمْ يكتفوا بأعمال تجاريّة بلْ فتحوا بعض الجزر مثل ستيپان (Stipan) قرب دوبروفنيك

وَ لا بدّ أن نلاحظ أن بعض الباحثين المسيحيِّين في يُوغُسْلَافيا بدأوا يؤيّدون آراء الباحثين المسلمين، وَ ذٰلِكَ منذ بداية الخمسينات من هٰذَا القرن، وَ منهم:

١- انْتشار الإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وْلادسْلَاف سْقاريتْشْ، غيرت، تقويم لسنة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م، سراييفو ١٩٣٩ م.

Skarić, Vladislav (1939.) *Širenje islāma u Bosni i Hercegovini*, Gajret, kalendar za 1940., Sarajevo.

٢- انْقراض البوغوميل و انْتشار الإِسْلَام في الْبُوسْنَة، الإسكندر سولوفْلْييف، مجلّة جمعية مؤرّخي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، ١، ١٩٤٩ م.

Solovljev, Aleksandar (1949.) *Nestanak bogumilstva i islāmizacija Bosne*, GDI BiH, Sarajevo.

[٩٦] ذٰلِكَ لِأن هٰذِهِ المصادر التّركية لا تلقي إلّا ضوْءًا ضئيلًا جدًا عَلٰى هٰذِهِ المسألة لأن الْعُثْمَانِيِّينَ أنفسهم لم يهتمّوا بكتابة التّأريخ حَتّٰى تمّ لهم فتح الْبُوسْنَة.

(Dubrovnik) و بارْ (Bar) و أولْتْسِينْيْ (Ulcinj) عَلٰى البحر الأدرياتيكيّ وَ سْكادر (Skadar) وَ دراتْشْ (Drač). وَ من المعروف كَذٰلِكَ أن الدّولة الْبُوسْنَوِيَّة فِي ذٰلِكَ الوقت كانت لها علاقات تجاريّة قويّة مع دوبروفنيك، وَ عَلٰى هٰذَا الأساس ذهب بعض الباحثين[٩٧] فِي دراساتهم إِلٰى إمكانية اتّصال الْبُوسْنَوِيِّينَ بِالْإِسْلَامِ مباشرة عن هٰذِهِ الطريقة.

وَ مع أنّ هٰذِهِ المحاولة تستحقّ الثّناء وَ التّقدير إِلّا أنّها لَا تستند إِلٰى مصدر تأريخيّ وثيق. وَ من الطّبيعيّ أن عددًا من السّكّان المقيمين فِي المناطق الَّتِي فتحها الْعُثْمَانِيُّونَ قد أسلم، غير أنّنا لَا نجد أثرًا لِلْإِسْلَامِ فيها بعد انسحاب المسلمين من المناطق المذكورة[٩٨].

إنّ انتشار الْإِسْلَام فِي أوروبا مسألة لم يعن بها عناية علميّة كافية حَتّٰى اليوم، فما هِيَ الدولة الأوروبيّة الأولٰى بعد إسبانيا الَّتِي انتشر فِيهَا الْإِسْلَام؟ اعتمادًا عَلٰى الوثائق التّأريخيّة الموجودة نجد المسلمين الأوائل فِي أوروبا فِي منطقة قَاوْقَازْ (Kavkaz) (وَ عَلٰى الحدود السُّوفييتيّة – الإيرانيّة اليوم –) وَ ذٰلِكَ

---

٩٧ وَ من هٰؤُلَاءِ الأستاذ طيّب أوقيتْشْ (Tajjib Okić) فِي تركيا وَ الأستاذ إسْمَاعِيل باليتْشْ (Ismā'īl Balić) من النّمسا.

٩٨ وَ خير مثال عَلٰى ذٰلِكَ هُوَ جزيرة كْرِيتْ (Krit)، فإن هٰذِهِ الجزيرة قد فتحت عَلٰى أيدي بعض الملّاحين المسلمين من إسبانيا فِي بداية القرن التّاسع الميلاديّ فبقيت فِي أيديهم مدّة قرن من الزّمن حيث أسلم جميع سكّانها تقريبًا. فلمّا أصبحت الجزيرة فِي أيدي البيزنطيّين فِي القرن العاشر الميلاديّ رجع سكّان المنطقة إِلٰى المسيحيّة من جديد عَلٰى أثر الضّغط الشّديد الَّذِي لاقوه من السّلطات البيزنطيّة.

فِي القرن التّاسع الميلاديّ. فقد بدأ سكّان المنطقة يعتنقون الْإِسْلَام بنشاط خلفاء بني العبّاس، وَ نصل إِلٰى بداية القرن العاشر الميلاديّ فنجد جماعات إِسْلَامِيَّة قد استوطنت فِي وادي نهر فُولْغَا (Volga) فِي المنطقة المسماة پوفولوشقا بوغارْسْقا ((Povolška Bugarska (Волжка България))، وَ لِانْتشار الْإِسْلَامِ فِي هٰذِهِ المنطقة[٩٩] أهمّيّة كبيرة لِأن هٰؤُلَاءِ نشروا الْإِسْلَام فِي أوروبا الوسطٰى (فِي المجر).

وَ قد هاجرت جماعات إِسْلَامِيَّة كبيرة إِلٰى المجر هربًا أمام جنغس خان (Džingis-ẖān) وَ ذٰلِكَ سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م، وَ بقي هٰؤُلَاءِ المسلمون فِي المجر حَتّٰى منتصف القرن الرّابع عشر الميلاديّ حينما أمر ملك المجر كَارْلْ رُوبَرْتْ (Karl Robert) بتنصيرهم أو إخراجِهِمْ من البلاد.

[٩٩] لِأن البلغاريّين قبيلة قديمة من أهل التّركي-التّتريّ، وَ قد استوطنت فِي وادي نهر فُولْغَا (Volga) وَ دُونْ (Don) فِي القرن الخامس الميلاديّ، وَ أثناء الهجرات السّلافيّة المشهورة انقسمت القبيلة إِلٰى طائفتين: اتّجهت إِحْدٰى الطّائفتين نحو الغرب وَ استوطنت البلقان (في بلغاريا) وَ اتّجهت الطّائفة الثّانية نحو الشّمال وَ استوطنت المناطق القريبة من نهر فولغا (Volga) وَ تسمّٰى هٰذِهِ المنطقة پوفولوشقا بوغارْسْقا (Волжка България). وَ لقد أسلمت هٰذِهِ الطّائفة سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م وَ معنٰى ذٰلِكَ أن البلغاريّين الأوائل الّذِينَ اعْتنقوا الْإِسْلَام ليسوا من الّذِينَ يعيشون فِي البلقان – كما قد يعتقد – وَ إنّما عاشوا فِي الاتّحاد السّوفييتيّ.

وَ قد هاجر أكثر هٰؤُلَاءِ نحو جنوب البلقان فِي وادي نهري مُوراوَا (Morava) وَ وَارْدَارْ[100] (Vardar) وَ كَذٰلِكَ نجد إخبار مسلمي المجر فِي بعض المصادر الْعَرَبِيَّة[101] وَ يستبين لنا ممّا تقدم أن انتشار الْإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ بدأ بدءًا فعالًا بالفتوحات الْعُثْمَانِيَّة، فالاحتمال ضئيل جدًّا فِي أن الْإِسْلَام جاء إِلَيْهَا من الجنوب – بواسطة التّجّار العرب – أو من الشّمال من المجر وَ لٰكن هٰذَا لا يعني أن الْبُوسْنَة لم تعرف الْإِسْلَام قبل الفتوحات الْعُثْمَانِيَّة، كما أنّه لا يعني أن الْبُوسْنَة قد دخلت كلّها الْإِسْلَام إثر تِلْكَ الفتوحات.

وَ ننْتقل الآن إِلٰى المسألة الَّتِي لَا تزال موضع نقاش وَ اخْتِلَاف بين الباحثين، وَ هِيَ: من كان أوّل مَن أسلم مِنْ سكّان الْبُوسْنَة؟ وَ الجواب عَلٰى هٰذَا السؤال صعب لعدم وجود المصادر الَّتِي تلقي الضّوء عَلٰى هٰذِهِ المسألة[102].

---

[100] Hukić, ‘Abdur-Raḥmān (1961.) *Arapi i islām u Evropi*, „Glasnik” Vrhovnog islāmskog starješinstva (gl. VIS-a), Sarajevo, br. 4-6., p. 153..

العرب وَ إِسْلَام فِي أوروبا، عبدُالرّحمٰن حوقيتْشْ، مجلة إِسْلَامِيَّة شهريّة، تصدرها المشيخة الْإِسْلَامِيَّة فِي سراييفو، العدد ٤-٦، ص ١٥٣، سراييفو ١٩٦١ م.

[101] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، طبعة لا ينسخ، ١٨٦٦ م، ج ١، ص ٤٦٨-٤٧٠.

[102] وَ من أهمّ المصادر الَّتِي يمكن ان نعتمد عَلَيْهَا هنا الدّفاتر الْعُثْمَانِيَّة، وَ لٰكن هٰذِهِ الدّفاتر لم تنشر وَ لم تحقّق بعد، وَ لِهٰذَا فالاستفادة منها محدودة، وَ من أقدم هٰذِهِ الدفاتر الَّتِي تزودنا بمعلومات عن انتشار الْإِسْلَام فِي الْبُوسْنَة الدفاتر التالية:

- الدّفتر رقم ٧٦ من سنة ٨٨٠ ﻫ/ ١٤٧٥ م،

وَ الواقع أنّ طبيعة انتشار الْإِسْلَام فِي الْبُوسْنَة لا تختلف عن طبيعة انتشاره فِي أيّ مكان. وَ قد يكون من أوائل الَّذِينَ أسلموا فِي الْبُوسْنَة أسرٰى الحرب وَ الفلّاحون وَ خاصّة طائفة البوغوميل منهم. وَ طبيعيّ أن الْعُثْمَانِيِّينَ أثناء غاراتهم الأولٰى عَلٰى الْبُوسْنَة حصلوا عَلٰى عدد غير قليل من الأسرٰى وَ سكنوهم فِي المناطق التابعة لهم، كما أخذوا طائفة من أبناء المسيحيِّين إلٰى معسكراتهم، فلا شكّ فِي أن عددًا من هٰؤُلَاءِ قد أسلموا بعد أن تلقّوا التّربية الْإِسْلَامِيَّة.

هٰذَا يتعلّق بأسرٰى الحرب، أمّا الفلّاحون، فقد بدأوا يسلمون قبل عمليّة فتح الْبُوسْنَة. وَ نجد فِي وثيقة تاريخيّة مهمّة – وَ هِيَ وقفية عيسٰى بك[١٠٣] ذكر أسماء المسلمين الجدد مثل بَالَابَانْ (Balaban) وَ بوكتْشين (Bokčin)، وَ كَذٰلِك عثرنا عَلٰى ذكر المقبرة الْإِسْلَامِيَّة الموجودة فِي قرية تسمّٰى بُولْيِينا (Buljina) قرب سراييفو[١٠٤] وَ هٰذَا يدلّ عَلٰى أن مجموعة من الفلّاحين قد أسلمت قبل كتابة

- الدفتر رقم ٢٤ من سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م،
- الدّفتر رقم ٥٦ من سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م.

وَ النّسخ التّصويريّة لِهٰذِهِ الدّفاتر موجودة فِي معهد الاسْتشراق فِي مدينة سراييفو.

[١٠٣] الّتِي كتبت سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م.

[١٠٤] Šabanović, Hazim (1952.) *Dvije najstarije vakufnāmē u Bosni*, Sarajevo, p. 7-13.

أقدم وقفيّتيْن فِي الْبُوسْنَة، شعبانوفيتْش حازم، ص ٧-١٣، سراييفو ١٩٥٢ م.

الوثيقة المذكورة ببضع سنوات أيْ قبل سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م. وَ قد شيّدت مدينة سراييفو فِي منطقة (وْرْخ بوسنة) وَ أنشئت فيها المؤسّسات الْإسْلَامِيَّة وَ حبست الأوقاف فِيهَا وَ هٰذَا يدلّ عَلَى وجود عدد من المسلمين كانوا يحتاجون إلَيْهَا.

أمّا فيما يتعلّق بِالْإسْلَامِ نبلاء الْبُوسْنَة، فإن الرّأي السّائد أنهم لم يعتنقوا الْإسْلَام إثر سقوط الدولة الْبُوسْنَوِيَّة، وَ إنّما بقيت حالتهم معرّضة للظّروف وَ الأيّام، إلّا أن الدفاتر الْعُثْمَانِيَّة أثبتت خطأ هٰذِهِ النّظريّة[١٠٥] أخيرًا. و حَتّى سلّمنا بصواب هٰذِهِ النّظريّة فكيف نفسّر ظهور القواد السياسيّين المشهورين من أصل الْبُوسْنَوِيّ فِي زمن السّلطان مُحَمَّد الفاتح معنَى ذٰلِكَ أن الْإسْلَام فِي هٰذِهِ المرحلة الأولَى انتشر فِي بعض الدول الْبُوسْنَوِيَّة وَ قراها شاملًا طبقات الشّعب كلّها ممن النبلاء وَ الأشراف وَ الفلّاحين.[١٠٦] وَ لقد تميّزت هٰذِهِ الفترة بأن الناس دخلوا الْإسْلَام فيها جموعًا لا أفرادًا. أمّا المرحلة الثّانية لِانتشار الْإسْلَام فهي تمثّل المرحلة الَّتِي انتشر الْإسْلَام فيها انتشارًا سريعًا مبهرًا وَ شاملًا، وَ كان هٰذَا بعد

---

[١٠٥] يذكر فِي سنجق الْبُوسْنَة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م مجموعة من مِائة وَ ثلاثين سپاهي (Spahija)، يتمتعون بالإقطاع المسمّى (Timar) أصغر الإقطاعات فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ صاحبه سپاهى (Spahija) وَ كَان من بين هٰؤُلَاءِ أربعة عشر مسلمًا وَ البقيّة هم المسيحيُّون.

[١٠٦] Handžić, Mehmed (1940.) *Islāmizacija Bosne i Hercegovine*, Sarajevo, p. 19..

الْإسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، الخانجي مُحَمَّد، ص ١٩، سراييفو ١٩٤٠ م.

فتح الْبُوسْنَة مباشرة. وَ لقد عثرنا عَلٰى نص القانون الانكشاريّ الَّذِي يحتوي عَلٰى بعض المميّزات الَّتِي اتّصف بها سكان الْبُوسْنَة وَ هُوَ النّص التّالي:

"فِي حين غزا فاتح قسطنطينيّة جلالة السّلطان مُحَمَّد خان – عَلَيْهِ الرّحمة وَ الرّضوان – وَ توجه بعساكره نحو الْبُوسْنَة وَ استقبله عامّة الناس (رعايا) وَ وجهاء البلاد (برايا) وَ عندما عرفوا نفوذه وَ قوته قدّموا إِلَيْهِ الطّاعة وَ دخلوا الْإِسْلَام فورًا. وَ حينما رَأى السلطان أنهم أسلموا فورًا قال: "لا بأس بِهٰذِهِ الطائفة"، و بسبب إسلامهم الفوريّ قال لهم السلطان: "أُطلبوا منّي ما شِئْتم!"، وَ قال سكان المنطقة: "نريد أن تأخذوا أبناءَنا" (الَّذِينَ سوف يربّون فِي إسطنبول تربية خاصّة لمناصب الدولة).

وَ ليس من شكّ فِي أنّ هٰذَا الحادث كان حدثًا استثنائيًّا طارئًا[١٠٧] وَ أنّه لا يجوز أن يعتبر قاعدة عامّة لِأن الْبُوسْنَة لم تخضع للسلطان المذكور بسهولة كما لم يعتنق سكّانها الْإِسْلَام فوْرًا.

أمّا فِي منطقة الْهَرْسَك فقد دخل أبناؤها جميعا الْإِسْلَام لِأن هٰذِهِ المنطقة مشهورة بسيادة القانون القبليّ المتين حيث يرتبط الفرد بالقبيلة، وَ بالنّظام القبليّ ارتباطًا وثيقًا، فإذا ما أسلم أحد مشايخ القبيلة، أسلمت معه قبيلته بكاملها، وَ من ثمّ

---

[١٠٧] يذهب بعض المؤرّخين إِلٰى أن ستة وَ ثلاثين ألف بوغوميليّ أسلم بِهٰذِهِ المناسبة:

Bašagić, Safvet (1912.) *Bošnjaci i Hercegovci u islāmskoj književnosti*, Vlastita naklada, Sarajevo, p. 3..

البوسنويون والهراسكة فِي الأدب الإِسْلَامِيّ، باشآقيتش صفوت، ص ٣.

فإن سرعة انتشار الإسْلَام فِي هٰذِهِ الفترة لا ترجع إلٰى اسْتعمال الْعُثْمَانِيُّونَ للقوة – كما قد يزعم – بل يرجع إلٰى خلق ظروف جديدة فِي المنطقة، وَ فيما يلي نسرد بعض هٰذِهِ الظروف:

١- إعطاء الأولويّة للمسلمين فِي أمور الدولة وَ لقد نصل إلٰى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديّ فلَا نلَاحظ أية محاولة سياسية قام بها الْعُثْمَانِيُّونَ فِي سبيل انتشار الإسْلَام، ليس هٰذَا فِي الْبُوسْنَة فحسب بل فِي أوروبا كلّها. وَ لٰكن مع بداية القرن السادس عشر الميلاديّ اصبح جليًا أن الْعُثْمَانِيِّينَ يعتمدون عَلٰى العنصر الإسْلَامِيّ[١٠٨] أكثر فأكثر، ممّا جعل المسيحيّين – وَ خاصّة الأغنياء منهم – يعتنقون الإسْلَام.

٢- سقوط الدّولة البيزنطية سنة ٩٢٢ هـ / ١٥٢٦ م. وَ تشير السّجلّات الْعُثْمَانِيَّة إلٰى أن السّكّان الكاثوليكيّين قد اعْتنقوا الإسْلَام بعد هٰذِهِ الهزيمة، وَ ذٰلِكَ أمر طبيعيّ لِأن الْعُثْمَانِيِّينَ بعد تغلبهم عَلٰى أكبر منافس لهم فِي أوروبا رفع شأنهم فِي العالم، وَ بِهٰذَا فَقَدَ نصارٰى الْبُوسْنَة أملهم الأخير فِي إنشاء الحكم النّصرانيّ من جديد.

---

١٠٨ Handžić, Ādem (1962-63.) *O islāmizaciji u sjeveroistočnoj Bosni u petnaestom i šesnaestom stoljeću*, POF, sv. XVI-XVII, Sarajevo, p. 11..

حول انْتشار الإسْلَام فِي الشّمال الشّرقيّ من الْبُوسْنَة فِي القرنيْن الخامس عشر وَ السّادس عشر الميلاديّيْن، آدم الخانجي، الملاحق للدّراسات فِي اللّغات الشّرقيّة، المجلد ١٦-١٧، ص ١١، سرايفو ١٩٦٦-١٩٦٣ م.

٣- لقد ازداد عدد المدن وَ السّكّان فِي البوسنة بعد موقعة موهاتْشْ سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م، وَ قد جاء هٰؤُلَاءِ السّكّان من المناطق المجاورة المختلفة. وَ سرعان ما اعتنقوا الْإِسْلَام، حيث كانت حينذاك عمليّة انتشار الْإِسْلَام فِي أوجها، وَ بِذٰلِكَ زاد عدد المسلمين فِي الْبُوسْنَة.

وَ ممّا هُوَ جدير بالذّكر أن الْإِسْلَام لم ينتشر فِي كل مناطق الْبُوسْنَة، فِي وقت واحد أومتقارب، وَ إنّما عَلٰى مراحل زمنية متعدّدة، وَ متباعدة أحيانًا وَ من ثَمّ حقّ للباحث أن يتساءَل: كيف حدث ذٰلِكَ فِي منطقة واحدة ذات طابع جغرافيّ وَ حكوميّ واحد؟ إنّ الْإِسْلَام كما قد ذكرنا بدأ ينتشر أوّلًا فِي المدن الحصينة الَّتِي تمركز الْعُثْمَانِيُّونَ فيها، أما الأماكن التي كانت تبعد عن هٰذِهِ المراكز، فَالْإِسْلَام جاء فيها بعد الفتح[١٠٩]، وَ تأخّر مجيء الْإِسْلَام فِي بعض المناطق إِلٰى النصف الثّاني من القرن السّابع عشر. هٰذَا هُوَ السبب الْأَوّل، أمّا السبب الثّاني فهو وجود الكنيسة الْبُوسْنَوِيَّة[١١٠] و الكنيسة الكاثوليكيّة. وَ يذهب بعض الدّارسين إِلٰى أن نشاط الكنيسة الْبُوسْنَوِيَّة قد انتهٰى بمجيء الْعُثْمَانِيِّينَ، لأن أتباعها اعتنقوا الْإِسْلَام جميعًا، حَتّٰى المصادر الْعُثْمَانِيَّة لم تذكر أيّ نشاط لِهٰذِهِ الكنيسة فِي الْبُوسْنَة، لٰكن عَلٰى الرغم من أن الأكثرية الساحقة من البوغوميل قد أسلمت إِلّا أن عددًا من

---

١٠٩ Handžić, Ādem (1962-63.) *O islāmizaciji u sjeveroistočnoj Bosni u petnaestom i šesnaestom stoljeću*, p. 27..

حول انْتشار الْإِسْلَام فِي الشّمال الشّرقيّ من الْبُوسْنَة فِي القرنيْن الخامس عشر وَ السّادس عشر الميلاديّيْنِ، آدم الخانجي، ص ٢٧.

١١٠: وَ يقصد بِهَا الكنيسة البوغوميليّة.

أتباعها بقوْا عَلٰى دينهم القديم وَ كان لهم نشاط واضح فِي المناطق الجبلية فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

وَ يذكر ريكيت (Rycout) المؤلّف وَ الدّبلوماسي الإنكليزيّ فِي النّصف الثاني من القرن السّابع عشر الميلاديّ أن بوغوميل الْبُوسْنَة لم يعتنقوا الْإِسْلَام جميعًا بعد "بلْ لَا يزالون يقرأون العهد الجديد وَ يشربون الخمر فِي رمضان."[١١١]

وَ لقد نجد فِي بعض السّجلّات الْعُثْمَانِيَّة أسماء لمسلمين آباؤهم غير مسلمين، وَ معنٰى ذٰلِكَ أن انتشار الْإِسْلَام فِي وادي نيريتْفا[١١٢] (Neretva) تأخّر عن انتشاره فِي الْبُوسْنَة بعشرات السّنِين[١١٣] أمّا الكنيسة الكاثوليكيّة، فنشاطها كان

---

١١١ Rycout, Poul (1670.) *Historie de l'état présent de l'Empire Ottoman*, Amsterdam, p. 288..

تأريخ الحالة الرّاهنة للإمبراطورية الْعُثْمَانِيَّة، پول رايقوت، ص ٢٨٨، أمستردام ١٦٧٠ م.

١١٢ نيريتْفا (Neretva) هِيَ النّهر الرّئيسيّ فِي منطقة الْهَرْسَك فهي بأهمّيّتها بمثابة نهر الْبُوسْنَة (Bosna) فِي منطقة البوسنة تمامًا.

١١٣ Vuletić Vukasović, Vid (1897.) *Bilješke o kulturi južnih Slovena*, Dubrovnik, p. 112..

ملاحظات عن ثقافة السْلَافيّين الجنوبيّينَ، ويدْ وولِيتيتْشْ وُوقاسوفيتْشْ، ص ١١٢، دوبروفنيك ١٨٩٧ م.

ملحوظًا فِي بعض المناطق بعد الفتح، فِي زْفُورنِيق[114] (Zvornik) وَ سْرِيبْرِينيِتْسا (Srebrenica) مثلًا فلا ريب أن وجود هٰذِهِ الكنائس الكاثوليكيّة هُوَ الَّذِي سبّب تأخّر نشر الإسْلَام فِي هٰذِهِ المناطق.

وَ لقد حاول بعض الباحثين الْيُوغُسْلَافِيِّينَ فِي الثّلاثينات وَ الأربعينات من هٰذَا القرن إشاعة رأي مفاده بأن مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك دخلاء (من تركيا) وَ ليسوا من السّكان الأصليّين للمنطقة، وَ قصدوا من وراء ذٰلِكَ أن عنصر الأرثوذكس هُوَ العنصر الأصليّ فِي البوسنة[115]. وَ لقد وجدت هٰذِهِ النّظرية بعض الأنصار آنذاك بفضل بعض الملابسات السّياسية إلّا أنّها اختفت اليوم. فمن المعروف أن الْعُثْمَانِيِّينَ لم يكن لديهم عدد كاف من السكّان فِي أراضيهم، فمن أين لهم الزّيادة حَتَّى يسكنوا بعض المناطق فِي الْبُوسْنَة ثمّ أن السلطان مُحَمَّد الفاتح بعد فتح يايْتْسه وَ المناطق الأخرٰى فِي الْبُوسْنَة، أرسل ثلث السّكّان إِلٰى إسطنبول حَتَّى يسكن بهم المناطق الَّتِي أصبحت خالية من السّكّان، وَ خاصّة المناطق الَّتِي سكنها الإغريق.

---

[114] Handžić, Ādem (1962-63.) *Postanak i razvitak Bijeljine u XVI vijeku*, POF, p. 27..

نشأة مدينة بِيِيلْيِينا (Bijeljina) وَ تطوّرها فِي القرن السّادس عشر الميلاديّ، آدم الخانجي، الملاحق للدّراسات فِي اللّغات الشّرقيّة، ص ٤٥-٧٤، سنة ١٩٦٢ م.

[115] وَ من هٰؤُلَاءِ: غاقوفيتْش (Gaković) وَ ويدوفيتْش (Vidović) وَ غلوشاتْس (Glušac) وَ غيرهم.

وَ من المعروف كَذٰلِكَ، أنّ بعض مسلمي الْبُوسْنَة قد هاجروا إِلٰى مناطق كثيرة فِي الدولة المجريّة بعد سقوطها سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م، وَ تكلّموا فِيهَا بلغتهم الْبُوسْنَوِيَّة... وَ يشير إِلٰى هٰذِهِ الظّاهرة الرّحّالة التّركيّ الشهير أولياء چلبي (Evlija Çelebī) الَّذِي سافر إِلٰى المجر سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠ م، فهو يذكر أن اللُّغَة الْبُوسْنَوِيَّة تستعمل فِي پيچوي[١١٦] (Pečuj) وَ يقول عن أهل بُوديم (Budim) أنّهم الْبُوسْنَوِيُّونَ[١١٧]، وَ يقول عن أهل قانيژه (Kandže) وَ سيغيتْوار (Sigetvar) أنّهم يتكلّمون عدّة لغاتٍ من بينها اللُّغَة الْبُوسْنَوِيَّة[١١٨]. وَ لوْ لمْ يكنْ فِي الْبُوسْنَة عدد كبير من المسلمين ذوي الأصل السّلَافي لَمَا استطاعوا أن يسكنوا هٰذِهِ المناطق المجريّة وَ أن ينشروا لغتهم فِيهَا. وَ الحقيقة التاريخيّة الثانيّة الَّتِي تؤيّد رأينا هِيَ أن أكثر المساجد فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ شيّدت قبل حرب فينا سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م، وَ معنٰى ذٰلِكَ أنّ المسلمين كانوا كثِيرِي العددِ فِي المدن وَ القرٰى، فمن مِائة وَ أربعة مساجد، ثمان وَ تسعون منها قد بنيت قبل سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م، وَ نحن نجد الظّاهرة نفسها فِي المدن الأخرٰى فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مثل: مُوسْتارْ (Mostar)، بانْيالوقا (Banja Luka)، فوتْشا (Foča)، روغاتيتْسا (Rogatica)، تْراوْنِيق (Travnik) وَ غيرها.

---

[١١٦] Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāmē*, dio VI, p. 201.

سياحت نامه، أولياء چلبي، ج ٦، ص ٢٠١.

[١١٧] المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

[١١٨] المصدر نفسه، ص ٥٣٤.

وَ نستنتج من كلّ مَا تقدّم أنّ مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك همُ السّكّان الأصليّون لِهٰذِهِ المنطقة سواء أكانوا من البوغوميل أمْ من أتباع الدّيانة المسيحيّة، وَ أنّهم اعتنقوا الدّين الْإسْلَامِيّ بعد أن مالت قلوبهم إلٰى مبادئِهِ الإنسانيّة السّامية من دون إكراه.

وَ في السّطور التّالية نحاول أن نذكر أهمّ الأسباب الَّتِي ساعدت عَلٰى انتشار الْإسْلَام فِي تِلْكَ البقعة من العالم، فمن هٰذِهِ الأسباب:

الأسباب السّياسيّة وَ الِاجتماعيّة

سبق أن ذكرنا أن الحالة السّياسية وَ الاجتماعية فِي الْبُوسْنَة إثر مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ كانت سيّئة وَ مضطربة. وَ تغيّرت هٰذِهِ الأوضاع بعد دخول الْبُوسْنَة في حوزة الدولة الْعُثْمَانِيَّة إذْ ربطت هٰذِهِ المنطقة مصيرها بمصير الدولة الْعُثْمَانِيَّة الَّتِي بلغت أوج عظمتها فِي القرن السّادس عشر الميلاديّ. وَ هٰذَا التّغيير قد انعكس عَلٰى حياة الْبُوسْنَة الحضاريّة وَ الثّقافيّة انعكاسًا واضحًا. وَ منذ البداية برزت نتائج السّياسة السّديدة الَّتِي استعملها الْعُثْمَانِيُّونَ في الْبُوسْنَة، إذْ أخذوا تحت حمايتهم طبقات الشّعب بأجمعها، حَتّٰى النّبلاء المسيحيّين تاركين لهم

أراضيهم بشرط أن يعترفوا بالنّظام الإسْلَامِيّ الجديد وَ يخضعوا له[119]. وَ الجدير بالذّكر أنّنا نجد أكثر هٰؤُلَاءِ المسيحيّين في الْبُوسْنَة – في نهاية القرن الخامس عشر – قد أسلم[120]، ممّا يدلّ عَلٰى أن إسْلَامهم هٰذَا جاء نتيجة المعاملة الحسنة الَّتِي لقوها من الْعُثْمَانِيِّينَ، فاصبحوا يميلون لِلْإِسْلَامِ. وَ من جهة أخرٰى طمح هٰؤُلَاءِ النبلاء المسيحيّون إِلٰى المراتب وَ المناصب المختلفة فِي الدولة. وَ طبيعيّ أنّ اعتناقهم الْإِسْلَام سهّل لهم تحقيق هٰذِهِ الغايات.

هٰذَا ما يتعلّق بالنّبلاء، أمّا الفلّاحون فلا شكّ في أن عددًا منهم قد أسلم لكيْ يحتفظ بأراضيه الموروثة وَ أن يعفٰى من الرّسوم الَّتِي لم يكن يدفعها المسلمون وَ خاصّة ضريبة الجزية[121]. وَ هٰذِهِ الضّريبة كان يدفعها الذّكور من المسيحيّين أمّا نساؤهم وَ أطفالهم فقد أعفوا منها كما أعفي القساوسة وَ الرّهبان. وَ عَلٰى أيّة حال فإنّ أحوال الفلّاحين قد تحسنت بمجيء الْعُثْمَانِيِّينَ حَتّٰى الَّذِينَ لزموا

---

[119] وَ الفرق الأساسيّ بين النظام الإقطاعيّ السابق في الْبُوسْنَة و النّظام الإسْلَامِيّ الجديد هُوَ أنّه في الْأَوّل كان الإقطاع وراثيًّا، أمّا عند الْعُثْمَانِيِّينَ فهو حقّ الاستثمار فليس من حقّ صاحبه تمليك هٰذِهِ الأراضي وَ لَا يستطيع بيعها أو هبتها أو حَتّٰى حبسها لِلْأَوقافِ.

[120] وَ نلاحظ من دفتر التّدوينات لسنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م أنّ من مجموع مِائة وَ خمسة وَ ثلاثين سپاهى (spahija) فِي لواء الْبُوسْنَة كان مِائة وَ أحد عشر سپاهي مسيحيًّا، أمّا في الدفتر الثّاني المدون سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م لنفس اللّواء فكان من مجموع مِائتين وَ تسعة وَ ستّين سپاهي كان اثنان وَ ثلاثون سپاهي مسيحيًّا فقط.

[121] وَ هٰذِهِ الضّريبة كان يدفعها المواطن غير المسلم في الدولة الإسْلَامِيّة وَ ذٰلِكَ عوضًا عن حماية الدّولة لهم وَ إعفائهم من الخدمة العسكريّة.

دينهم الأصليّ، وَ طبيعيّ أنّهم بدخولهم الإسْلَام حصلوا عَلٰى مميّزات اقتصاديّة وَ اجتماعيّة فِي الدولة الجديدة. وَ لا بدّ لنا من أن نشير إِلٰى أن معظم سكّان الْبُوسْنَة رَأى في الْعُثْمَانِيِّينَ قوّة تحميهم من خطر العالم الكاثوليكيّ المجاور إذا استولٰى أنصاره عَلٰى بلادهم من جديد، وَ كانوا يعلمون عَلٰى اليَقين أنّ هٰؤُلَاءِ سينتقمون منهم وَ خاصّة من البوغوميل الَّذِينَ أَوَوْا الْعُثْمَانِيِّينَ أثناء فتحهم لِلْبُوسْنَةِ.

اَلْأَسْبَابُ الدِّينِيَّة

سبق لنا أن تناولنا هٰذَا الموضوع فِي دراستنا السّابقة حيث أشرنا إِلٰى التّنافس الشّديد بين المذاهب الْمَسِيحِيَّة الثّلاثة، لِذٰلِكَ سنكتفي الآن بإعطاء صورة وَاضِحة عن موقف هٰذِهِ المذاهب من الدّين الإِسْلَامِيّ وَ إِلٰى أيّ مدٰى انتشر الإِسْلَامُ بين كلّ من الْكَاثُولِيكِيِّينَ وَ الْأُرْثُوذُكْسِيِّينَ وَ البوغوميل.

انْتشار الْإسلَامِ بيْن الْكَاثُولِيكيِّينَ

لقد ذكرنا سابقًا أن نشاط الْكَنِيسَة الْكَاثُولِيكِيَّة لم ينته بمجيء الْعُثْمَانِيِّينَ بل استمر وَ كان حاملوه بصورة خاصة رهبان طريقة فرانيو أيْ فرانسيسكو (Franjevci) وَ هٰذَا النّشاط الْكَاثُولِيكِيّ لم يكن من داخل الْبُوسْنَة فقط بل من خارجها أيْضًا حيث ساهم فِيهِ باباوات روما وَ ملوك المجر وَ أمراء النّمسا. وَ لٰكن كلّ هٰذِهِ المحاولات باءَت بالفشل، فَالْكَاثُولِيكِيُّونَ لم ينجحوا فِي أعمالهم التّبشيريّة فِي الْبُوسْنَة قبل الفتح[١٢٢]، فكيف ينجحون الآن؟

الواقع أن الْعُثْمَانِيِّينَ تسامحوا مع الْكَاثُولِيكيّين فِي الْبُوسْنَة فِي بداية الأمر وَ سمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدِّينِيَّة، فلم يتوقف نشاط قساوستهم، كما

١٢٢ كما الْكَاثُولِيكيّون خابوا فِي محاولة تحويل البوغوميل إِلٰى الْمَسِيحِيَّة، وَ تبيّن أثناء الفتح أن البوغوميل الَّذِينَ تظاهروا بالْكَاثُولِيكِيَّة قدْ تراجعوا وَ حالفوا الْعُثْمَانِيِّينَ وَ أصبحوا من أشد الخصوم لِلْكَاثُولِيكِيَّةِ. ثمّ إن الْكَاثُولِيكيّين لم ينجحوا فِي منع انتشار الإسْلَام حَتّٰى فِي المناطق الَّتِي كانت مراكز نشاطهم مثل فوينِيتْسا (Fojnica) وَ كونْيِيتْسْ (Konjic) وَ لْيُوبوشْكي (Ljubuški) وَ سْرِيبرِينيتْسا (Srebrenica) وَ غيرها.

سمحوا لهم بتشييد كنائسهم، وَ خير دليل عَلٰى ذٰلِكَ: "عهد نامه"[١٢٣] ('Ahdi-nāmē) الَّتِي أعطاها السّلطان مُحَمَّد الفاتح سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م أثناء رجوعه من الْبُوسْنَة. وَ يتّضح لنا من نصّ "عهد نامه" أن الْكَاثُولِيكيّين كانوا يتمتّعون بِهٰذِهِ الامتيازات مَا داموا فِي طاعة السلطان، وَ لٰكن هٰؤُلَاءِ القساوسة سرعان مَا بدأوا يتجسّسون وَ يتعاملون مع الدّول الأوروبيّة ضدّ الْعُثْمَانِيِّينَ، وَ لِذٰلِكَ غير هٰؤُلَاءِ موقفهم منهم وَ اتّخذوا إجراءات ضدّهم.

انتشار الْإِسْلَام بين الأرثوذكسيّين

لَا بدّ لنا من أن نشير إِلٰى أن موقف الْكَنِيسَة الْأُرْثُوذُكْسِيَّة تجاه الدّين الْإِسْلَامِيّ قد اختلف عن موقف الْكَنِيسَة الْكَاثُولِيكِيَّة، وَ ذٰلِكَ لِأَنّ هٰذِهِ الْكَنِيسَة نالت

---

١٢٣ عهدِ نامه ('Ahdi nāmē (Ahdnama)) المترجمة من اللُّغَة التّركية هُوَ: "أنا السّلطان مُحَمَّد خان أعلن للنّاس كلّهم (العامّة وَ الخاصّة) أنّ حاملي هٰذَا المرسوم الرهبان الْبُوسْنَوِيِّينَ قد نالوا عنايتي الواسعة وَ لِهٰذَا آمر: ألّا يزعج أحد الرّهبان المذكورين وَ كنائسهم وَ ليطمئنّوا فِي أديرتهم، أمّا أولٰئِكَ الَّذِينَ لجأوا إلينا راجين أن نتركهم أحرارًا آمنين لكيْ يرجعوا وَ يستقرّوا فِي أديرتهم الموجودة فِي مملكتنا، فأنا نتعهد ألّا يسبهم أحد لا أنا وَ لا وُزراني وَ لا رجالي وَ لا رعاياي وَ لا أحد من سكّان مملكتي... وَ هٰذَا لغاية طاعتهم إليّ وَ خضوع أوامري". ميلودراژ (Milodraž) ١٠ رمضان ٨٦٨ هـ / ١٨ أيار ١٤٦٣ م.

بعض الامتيازات بعد سقوط القسطنطينيّة بفضل طاعة رجالها للسلطان الْعُثْمَانِيّ. وَ لقد ساعدته بعض العناصر الأُرْثُوذُكْسِيَّة فِي البلاد المفتوحة فِي البلقان – وَ خاصّة جماعة وْلَاسي (Vlasi) وَ ذٰلِكَ أسكنهم السّلطان عَلٰى الحدود الشّماليّة من دولته وَ كوّن منهم سدًّا قويًّا بين الْكَاثُولِيكيّين فِي الْبُوسْنَة وَ العالم الْكَاثُولِيكِيّ فِي الخارج[١٢٤]. وَ على هٰذَا لم يمثل الأُرْثُوذُكْس خطرًا كبيرًا للدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ ربما يرجع ذٰلِكَ إِلٰى أنّ رِئَاستهم كانت داخل الدولة الْعُثْمَانِيَّة وَ كانوا تحت المراقبة الْعُثْمَانِيَّة المستمرّة.

وَ تكشف الدراسات الحديثة أن الأُرْثُوذُكْسيّين فِي البوسنة مالوا إِلٰى الإِسْلَام أكثر من إخوانهم فِي الدول الأخرٰى. وَ لقد نعثر عَلٰى بعض المصادر[١٢٥] الَّتِي تشير إِلٰى أنّ عدد المسلمين فِي الْبُوسْنَة قد كثر وَ عدد الأُرْثُوذُكْسيّين قد نقص، وَ ذٰلِكَ فِي بداية القرن السّادس عشر، وَ لقد حاول الكثيرون أن يفسّروا هٰذِهِ الظاهرة بأن نقص الأُرْثُوذُكْسيّين جاء نتيجة إبادتهم وَ طردهم من هٰذِهِ المناطق، غير أن الأستاذ مُحَمَّد شُكريتْشْ الَّذِي كان من أوائل الباحثين الْبُوسْنَوِيِّينَ الَّذِينَ عارضوا هٰذِهِ النظريّة وَ ذٰلِكَ فِي رسالته المذكورة، وَ قال: "إن

---

١٢٤ نياز مُحَمَّد شُكريتْشْ (Nijaz Muhammed Šukrić)، الفتح الْعُثْمَانِيّ وَ انتشار الإِسْلَامِ وَ المؤسّسات الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي القرنين الخامس عشر وَ السادس عشر، ص ١٢٩. نوقشت الرّسالة (رسالة الماجستير) فِي بغداد فِي السّادس عشر من آذار سنة ١٩٧٢ م، وَ مع الأسف لم تنشر بعد.

١٢٥ Glušac, Vladimir (1945.) *Istina o Bogumilima*, Beograd, p. 194..

الحقّ عن البوغوميل، غلوشاتْسْ وْلاديمير، ص ١٩٤، بلغراد ١٩٤٥ م.

ازدياد سكان المسلمين فِي الْبُوسْنَة إنّما هُوَ نتيجة اعتناق عدد كبير من الْمَسِيحِيِّينَ الدين الإِسْلَامِيّ."

انتشار الْإِسْلَامِ بين البوغوميل

وَ لقد ذهب بعض الباحثِين إِلَى أنّ إقبال هٰذِهِ الطّائفة إِلَى الإِسْلَام كان لِأسباب سياسيّة وَ اجْتماعيّة، لٰكنّنا نَرٰى أنّ أَقْوٰى هٰذِهِ الأسباب هو السّبب الدّينيّ. ذٰلِكَ لِأنّ البوغوميل استطاعوا أن يحصلوا عَلٰى المساواة السِّيَاسِيَّة وَ الاجتماعيّة فِي ظل الْكَنِيسَة الْأُرْثُوذُكْسِيَّة وَ الْكَاثُولِيكِيَّة بشرط أن يتحوّلوا إِلَى الْمَسِيحِيَّة، لكنهم رفضوا ذٰلِكَ. وَ لقد وَ جد البوغوميل حماية دينيّة عند الْعُثْمَانِيِّينَ بعد أن هوجموا من الدّاخل وَ من الخارج طوال القرون. وَ من أهمّ الأسباب الَّتِي أدّت بالبوغوميل إِلَى الإِسْلَام هو طبيعة الدّين الإِسْلَامِيّ نفسه، فهو يمنع عبادة الأوثان وَ الأيقونات وَ الأسرار الدِّينِيَّة وَ النّواقيس وَ الطقوس المقدسة الأخرٰى، وَ قد وَجد البوغوميل شبهًا بين بعض تعاليمهم وَ تعاليم الدّين الإِسْلَامِيّ. وَ كل تِلْكَ الملَابسات قد أدّت بدورها فِي اعتناقهم السريع لِلْإِسْلَامِ.

وَ بعد هٰذَا كلّه لَا بدّ أن نقول شيْئًا عن سرعة انتشار الإِسْلَام فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ أحسن طريقة لتتبّع سرعة هٰذَا الانتشار هِيَ مراقبة عدد المسلمين الجدد خِلَال هٰذِهِ الفترة، وَ من الصّعب جدًّا تحديد عدد سكّان المسلمين فِي القرن الخامس عشر لعدم وُجود إحصائيّات وَ خاصّة فِي سنجق زْفُورْنيق (Zvornik)

وَ لواء الْهَرْسَك، أمّا فِي لواء الْبُوسْنَة – حسب التّدوينات من سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م – فكان عدد المسلمين فيها ٢٤،٧٧٤ نسمة (أو ١٩,٩٣ بالمِائة) من مجموع السّكّان.[١٢٦] وَ لَئِنِ افْتقرنا إِلٰى هٰذِهِ المعلومات فِي القرن الخامس عشر، فإن القرن السّادس عشر جعلها موفورة. وَ الظّاهر أن انتشار الإسْلَام فِي هٰذَا القرن كان فِي أوج قوّته فِي مناطق الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك جميعها، وَ ذٰلِكَ لِأن الإحصاءات الَّتِي جاء بها الأستاذ لُطفي بركان، المأخوذة من تدوينات سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٨ م، تشير إِلٰى أن عدد المسلمين بحسب السّناجق، كان كما يلي:

	اسم اللّواء (السّنجق)	عدد بيوت المسلمين
١	الْبُوسْنَة	١٦،٩٣٥
٢	زْوورْنيق	٢،٦٥٤
٣	الْهَرْسَك	٧،٠٧٧

الجدول رقم ١

وَ إذا مَا قدّرنا سكّان هٰذِهِ البيوت الَّتِي بلغ عددها ٢٦،٦٦٦ بخمسة أفراد لكلّ عائلة فإن عدد المسلمين يبلغ ١٣٣،٣٣٠ نسمة.

---

١٢٦ Filipović, Nedim (1959.) *Historija naroda Jugoslavije*, Zagreb, p. 121.

تأريخ الشّعوب اليوغسلافيّة، نديم فيليبوفيتْشْ، ص ١٢١، زغرب ١٩٥٩ م.

وَ من المؤكّد أن العدد المذكور لم يحصل نتيجة تكاثر (تناسل) أُولٰئِكَ الَّذِينَ أسلموا فِي القرن السّابق وَ إنّما لإقبال الْمَسِيحِيِّينَ أنفسهم عَلٰى اعتناق الإِسْلَام. وَ أصبحت الْبُوسْنَة فِي هٰذَا الوقت سدًّا عثمانيًّا منيعًا يحميها من منافسيها النّمسا وَ البندقيّة فضلًا عن أنها أصبحت مركزًا حيويًّا للدعوة الإِسْلَامِيَّة فِي أوروبا. وَ نرٰى كذٰلك أن انتشار الإِسْلَام فيها لم يكن حادثًا فوريًّا بل استمرّ قرنين من الزمن حَتّٰى ثبت جذوره الَّتِي لا تزال قائمة حَتّٰى يومنا هٰذَا.

وَ نختم دراستنا لموضوع انتشار الإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، بإلقاء الضّوء عَلٰى طبيعة هٰذَا الانتشار الَّذِي أحيط بالإشاعات وَ الافتراءات، وَ لم يقتصر ذٰلِكَ عَلٰى الْبُوسْنَة وَحْدها، وَ إنّما امتدّ إِلٰى كلّ مكان سطع فيه ضياء الإِسْلَام، غير أن الكتّاب الأوروبيّين يزعمون بأن انتشار الدين الإِسْلَامِيّ كان نتيجة استخدام الْعُثْمَانِيِّينَ للقوّة، منهم فرضوه بحدّ السّيف... إلخ. وَ إنّه لمن الطبيعيّ أن تضعف هٰذِهِ الأصوات – مهما بلغت كثرتها – أمام الواقع التاريخيّ العالميّ. وَ لقد استعمل الْعُثْمَانِيُّونَ سياسة التسامح مع الديانات الَّتِي كانت قائمة فِي الأراضي المفتوحة، وَ هُوَ موقف استمدّوه من الْقُرْآن الكريم وَ الشّريعة الإِسْلَامِيَّة الَّتِي تعترف بالأديان السّماويّة كلّها. وَ لذلك تحاشينا الأهواء وَ الأكاذيب وَ استعملنا الموضوعية فِي الكتابة خلافًا لبعض كتاب الغرب. وَ ها نحن أوّلًا نستعمل الأمثلة الحية الواردة فِي التأريخ لكي يستبين لنا عدالة الوسائل الَّتِي استعملها الْعُثْمَانِيُّونَ فِي نشر الإِسْلَام خلَال فتوحاتهم فِي أوروبا.

لقد الْتقٰى الْعُثْمَانِيُّونَ بالْكَنِيسَة الأُرْثُوذُكْسِيَّة أوّل مرّة عند سقوط الدولة البيزنطيّة. وَ الواقع أنّهم إذا قضوا عَلٰى الدولة البيزنطيّة، فإنهم لم يقضوا عَلٰى الْكَنِيسَة الأُرْثُوذُكْسِيَّة وَ إنّما راحوا يعلنون احترامهم الكامل لحقوق الْكَنِيسَة. وَ لقد

أعطى الْعُثْمَانِيُّونَ "عهدِ نامه" (‘Ahdi nāmē) لِرَئِيس الْكَنِيسَة الأُرْثُوذُكْسِيَّة آنذاك وَ هُوَ غيناديه الثّاني (Genadije II) تضمن فِيهَا حقوقهم الدِّينِيَّة. أمّا السلطان مُحَمَّد الفاتح فقد سلّم شخصيًّا عصا ذهبيّة إِلَى غيناديه وَ وهب له فرسًا ليركب عَلَيْهِ متّجهًا إِلَى كنيسة "القدّيس آپوستول"[١٢٧] (Sv. Apostol).

أمّا من الْكَنِيسَة الأُرْثُوذُكْسِيَّة فقد التقَى الْعُثْمَانِيُّونَ أثناء فتح الْبُوسْنَة ٨٦٨ ﻫ / ١٤٦٣ م، وَ تصرّف مُحَمَّد الفاتح مع الْكَاثُولِيكيّين هُناك كما تصرف مع الأُرْثُوذُكْسيّين فِي إِسْطَنْبُول وَ أعطَى "عهد نامه" إِلَى رئيس القساوسة وَ هُوَ فْرَا آنجيلو (Fra Angel) وَ ذَٰلِكَ فِي منطقة ميلودراژ (Milodraž) فِي ٢٨ أيار سنة ٨٦٨ ﻫ / ١٤٦٣ م، ضامنًا فِيهَا حقوقهم الدِّينِيَّة وَ الإنسانيّة.[١٢٨] وَ الحقّ أن السّلطان الْعُثْمَانِيّ لم يكنْ يمثّل سلطة دنيويّة فحسب وَ إنّما كان رمزًا للسلطة الدِّينِيَّة العليا فِي العامل الإِسْلَامِيّ كلّه. وَ ذَٰلِكَ لِأن سليم الأول (٩١٨-٩٣٢ ﻫ / ١٥١٢-١٥٢٥ م) بعد أن فتح مصرَ وَ الأماكن الإِسْلَامِيَّة المقدّسة – مكّة المكرّمة وَ المدينة المنوّرة – اتخذ سنة ٩٢٤ ﻫ / ١٥١٨ م لقب "الخليفة" فِي العالم الإِسْلَامِيّ، وَ لِذَٰلك كان موقف الدولة الْعُثْمَانِيَّة تجاه النصارَى وَ الأديان

---

[١٢٧] Radonjić, Jovan (1950.) *Rimska kurija i južnoslovenske zemlje od šesnaestog do devetnaestog vijeka*, Beograd, 154.

باباوات روما وَ الدّول السّلافيّة الجنوبيّة من القرن السّادس عشر حَتَّى القرن التّاسع عشر، نديم فيليبوفيتْش، ص ١٥٤، بلغراد ١٩٥٠ م.

[١٢٨] فاتح الْبُوسْنَة السّلطان مُحَمَّد الثّاني وَ طريقة فرانيو – فِي الْبُوسْنَة، غوبيتْش قاسم، زغرب ١٩٣٥ م.

الأخرٰى موقفًا إسلاميًا منبعه الشّريعة الْإِسْلَامِيَّة وَ الْقُرْآن الكريم. وَ إِلٰى هٰذَا التسامح تشير الكتب الْأُرْثُوذُكْسِيَّة وَ الْكَاثُولِيكِيَّة الموجودة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

وَ أخيرًا نودّ أن نشير إِلٰى أن الْعُثْمَانِيِّينَ حكموا بلغاريا وَ صربيا مدة طويلة، وَ لٰكن اعتناق الإِسْلَام فِي تِلْكَ المناطق كان قليلًا جدًّا قياسًا عَلٰى الْبُوسْنَة. وَ ذٰلِكَ خير دليل عَلٰى عدم اسْتعمال الْعُثْمَانِيِّينَ للقوّة فِي نشر الدين الْإِسْلَامِيّ. وَ لو اسْتعملوا القوّة فعلًا لما وَجدَ القرن التّاسع عشر أيّ أثر للمسيحية فِي البلقان!

الباب الثاني

انتشار الثّقافة الْإسْلَامِيَّةِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

الفص الأول:

المُؤَسّسات الإسْلَامِيَّة
فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

الوقف الإسْلَامِيّ وَ دوره فِي بناء هٰذِهِ المُؤسّسات

قبل أن نتكلّم عن الوقف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ نرٰى من الضّروري أن نشير إِلٰى دور الوقف فِي المجتمع الإسْلَامِيّ العربي عامّة وَ المجتمع الإسْلَامِيّ التركي خاصّة. أمّا فِي المجتمع الإسْلَامِيّ، فأوّل وَقْف هُوَ وَقف الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ –، وَ هُوَ مسجد قبَاء الَّذِي بناه رسول الله – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ – حين قدومه مهاجرًا إِلٰى المدينة[129]، ثمّ المسجد النّبويّ فِي المدينة المنوّرة الَّذِي بناه – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – فِي السّنة الأولٰى للهجرة. وَ فيما يتعلّق بالمستغلّات الخيريّة وَ حبسها لأمور خيريّة عامّة، فإن الرسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ – قد سبق المسلمين جميعًا فِي ذٰلِكَ، بوقفه المعروف "سبعة حوائط" فِي المدينة المنورة. أمّا الصّحابة الكرام، فعمر بن الخطاب هُوَ أوّل من تبع

[129] الدّليل لإصلَاح الأوقاف، مُحَمَّد أحمد العمر، ص ٣٠، بغداد ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م.

الرّسول فِي ذٰلِكَ حينما جاء له قائلًا: "يا رسول الله! أصبت مالًا بخيبر لم أصب أنفس منه، فبِمَ تأمرني؟"، قال له رسول الله – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ –: "إن شئت حبست أصلها وَ تصدّقت بثمرها." فجعلها عمر رضي الله عنه لَا تباع وَ لا توهب وَ لا تورّث وَ تصدّق بثمرها عَلٰى الفقراء وَ المساكين وَ ابن السبيل وَ في الرّقاب وَ الغزاة وَ في سبيل الله وَ الضّيف.[١٣٠] ثمّ حبس فِي الأوقاف بعد ذٰلِكَ الصّحابة الآخرون، منهم: عثمان بن عفّان، عليّ بن أبي طالب – عَلَيْهِ السّلام –، الزّبير بن العوّام، معاذ بن جبل، زيد بن ثابت، عائشة وَ أختها أسماء، سعد بن أبي وَقّاص، خالد بن الوليد، جابر بن عبدالله، عبد الرّحمٰن بن الزبير وَ غيرهم، بحيث لم يخل عصر من العصور إلّا وَ حبس فِي أناس شيئًا من أموالهم عَلٰى جهات خيريّة مختلفة.

وَ لما كان الإِسْلَام، خاتم الدّيانات السماويّة وَ أتمّها، وَ أكثرها توخّيًا لمصلحة المسلم فإنّنا نرٰى أن الوقف فِي الإِسْلَام قد بدأوا يؤدّي دورًا جديدًا يختلف عن الدور الَّذِي أدّاه فِي الأمم السابقة، وَ أصبح للوقف الإِسْلَامِيّ غرض أوسع وَ أعمّ ممّا كان عَلَيْهِ من قبل، إذْ لم يبقَ محصورًا عَلٰى أماكن العبادة وَ وسائلها بل ابْتغٰى بِهِ منذ عصر الرسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – مقاصد الخير العامّ فِي المجتمع.

---

[١٣٠] كتاب أحكام الأوقاف، الشّيباني (ابو بكر بن عمرو المعروف بالخصاف)، الطّبعة الأولٰى، ص ٣٢-٣٣، القاهرة ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م.

وَ يستبين لنا من ذٰلِكَ أن المؤسّسات الإسْلَامِيَّة الأولٰى قد أنشئت فِي ظلّ نظام الوقف الَّذِي أدّٰى دوره الكبير فِي حياة المجتمع الإسْلَامِيّ الأوَّل. وَ نستطيع أن نقسّم هٰذِهِ المؤسّسات – عَلٰى اخْتِلَافهَا – إلٰى ثلاثة أنواع هِيَ:

١- المؤسّسات الدِّينِيَّة (المساجد وَ المدارس وَ المكتبات)،

٢- المؤسّسات الاجتماعيّة (دور المسافرين، العمارات... إلخ)،

٣- المؤسّسات الاقتصاديّة (الطّرق وَ الجسور وَ الدّكاكين... إلخ).

وَ هُناك من يعتقد أن الوقف فِي الدولة الإسْلَامِيَّة قد ظهر باعتباره مؤسّسة أهليّة وَ أنّه أنشِئَ بإرادة فرديّة وَ دوافع شخصيّة، لا تربطه علاقة قويّة بسياسة الدولة الَّتِي كانت فِي وَادٍ، وَ الوقف فِي وَادٍ آخر! وَ يبقٰى هٰذَا الرأي غالطًا عَلٰى الرّغم من أن له أنصارًا كثرين، لِأن الوقف كان ينمو وَ يزدهر فِي أحضان الدولة الإسْلَامِيَّة الَّتِي كانت تحث عَلٰى إنشائه. فلقد كان رؤساء المسلمين وَ أولوا الأمر منهم من الَّذِينَ سبقوا فِي إنشاء الأوقاف. لِذٰلِكَ كانت العلاقة وَطيدة بين الدولة وَ الأوقاف لِأنّهما تخضعان لقانون وَاحد، هُوَ الْقُرْآن الكريم.[١٣١]

---

[١٣١] وَ دليلنا عَلٰى هٰذَا أن الأوقاف بدأت تفقد أملَاكها فِي حين أصبحت الدولة تهمل امورها، أيْ فِي حين بدأت الدولة تنفصل عن الدّين، فنرٰى اليوم أن أملَاك الأوقاف الواسعة أصبحت فِي حالة خراب، وَ السّبب فِي ذٰلِكَ عدم كفاءة القائمين بإدارة تِلْكَ الأوقاف وَ تبذيرهم وَ متاجرهم بإملاك الأوقاف أحيانًا! أما الدّولة، فهي لم تنفصل عن الدين فحسب بل انفصلت عن نفسِها، لِأنها بعد نبذها القانون الْقُرْآنِيّ أصبحت طاغوتًا!

أمّا الوقف فِي المجتمع الإسْلَامِيّ التّركي فقد لقي عين العناية الّتِي لقيها فِي الدّولة الإسْلَامِيَّة العربية من قبل[١٣٢]، فهذا أمر طبيعيّ لأن الْعُثْمَانِيِّينَ تعلموا الدين الإسْلَامِيّ عَلٰى أيدي العرب، وَ فتوحاتهم الكبرٰى ليست إلّا امتدادًا للفتوحات الإسْلَامِيَّة الْعَرَبِيَّة المجيدة.

وَ لَا نتجاوز الحقّ إذا قلنا أن المدن الْعُثْمَانِيَّة الكبرٰى مثل إسْطَنْبُول (Istanbul) وَ بورصة (Bursa) وَ أديرنه (Edirne) قد نمتْ وَ ازْدهرت بفضل الأوقاف الَّتِي لم يكن السّلَاطين وَ وزراؤهم وَ حدهم الَّذِينَ شاركوا فِي إنشائها، وَ إنّما كان معهم آخرون ليس لهم علَاقة بالعائلة الحاكمة فِي إسطنبول. وَ نجد فِي إحدٰى الإحصائيّات الرّسميّة من سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م أنّ عدد الأوقاف الَّتِي أنشأها هٰؤُلَاءِ الأشخاص يبلغ ألفين وَ خمسمِائة وَ سبعة عشر وقفًا[١٣٣]، وَ ذٰلِكَ فِي مدينة إسْطَنْبُول وَحْدها.

أمّا الأوقاف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، فيرجع إنشاؤُها إلٰى بداية النّصف الثّاني من القرن التّاسع الهجري / الخامس عشر الميلاديّ، أيْ بتعبير أدقّ، بسقوط هٰذِهِ البلاد فِي أيدي الْعُثْمَانِيِّينَ وَ اعتناق أهلها الإسْلَام. وَ لقد أدت هٰذِهِ

[١٣٢] Inalžik, Halil (1974.) *Osmansko carstvo*, SKZ, Beograd, p. 198-199.
الإمبراطورية الْعُثْمَانِيَّة، خليل إينالجيق، ص ١٩٨-١٩٩، بلغراد ١٩٧٤ م.

[١٣٣] Inalžik, Halil (1974.) *Osmansko carstvo*, p. 198.
الإمبراطورية الْعُثْمَانِيَّة، خليل إينالجيق، ص ١٩٨.

الأوقاف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ دورًا حاسمًا فِي إنشاء وَ تطوير المدن[١٣٤]، وَ خاصة فِي القرنين الخامس عشر وَ السّادس عشر الميلاديّين، لِأن أكثر المؤسّسات الثَّقَافِيَّة وَ الدِّينِيَّة أنشئت من أموال الأوقاف.

وَ بدأ مسلمو الْبُوسْنَة منذ البداية يحبسون فِي الأوقاف النّقود وَ الدّكاكين وَ الحدائق وَ الأرض الزّراعية مما جعل ثروة الأوقاف تتزايد باستمرار، وَ يقول أحد المؤرّخين الْبُوسْنَوِيِّينَ[١٣٥]، فِي حديثه عن السّوق القديم فِي سراييفو أنّه لا يعرف شبرًا من هٰذِهِ الأراضي إلّا أنّها ملك إحدى الأوقاف الأربعة الكبيرة آنذاك وَ هي:

١	وَقْف عيسٰى بك	Vakuf ʻĪsā-bega
٢	وَقْف آياس بك	Vakuf Ājās-bega
٣	وَقْف فيروز بك	Vakuf Fejrūz-bega
٤	وَقْف الْغَازِي خسرو بك	Vakuf Gazi Ḫusrev-bega

الجدول رقم ٢

---

١٣٤ لا تزال بعض المدن فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك تسمّى باسم الوقف، نذكر منها: دونْيِي وَقْف (Donji Vakuf) وَ غُورْنْيِي وَقْف (Gornji Vakuf)، سكندر وَقْف (Skender Vakuf)، كولن وَقف (Kulen Vakuf)، وارتْشار وَقْف (Varcar Vakuf)، الوقف التّركيّ (Turski Vakuf)، الوقف الصِّرْبِيّ (Srpski Vakuf).

١٣٥ حمدي قْريشوْلْياقوفيتْش (Ḫamdija Kreševljaković).

وَ الواقع أنّ الأوقاف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي فترة نشوئها لم تقتصر عَلٰى أداء دورها الدِّينِيّ وَ الاجتماعيّ وَ إنّما أدّت دورها السّياسيّ، وَ أحسن مثال لِذٰلِكَ منشآت الأوقاف لمؤسّس سراييفو وَ هُوَ عيسٰى بك ابن إسحاق، وَ لقد جعل مؤسّساته من سراييفو مركزًا سياسيًّا أوّلًا ثمّ مركزًا دينيًّا وَ ثقافيًّا ثانيًا.

وَ لقد قلنا أنّ أكثر الأوقاف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ يرجع إنشاؤُها إِلٰى القرن العاشر الهجريّ / السّادس عشر الميلاديّ، فهٰذه الفترة تميّزت بنشاطات حربية بارزة ثبّت الْعُثْمَانِيُّونَ خلَالها حكمهم فِي البلقان، وَ لم تكن هٰذِهِ الانتصارات الْعُثْمَانِيَّة وَ خاصّة فِي المناطق الَّتِي كانت مراكز هٰذَا النّشاط الْعُثْمَانِيّ مثل مدينة سراييفو وَ غيرها. أمّا الانتصارات الَّتِي أحرزها الْعُثْمَانِيُّونَ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ – فِي أكثر الأحيان – كانت بفضل ولَاتها من أصل بُوسْنَوِيّ، فَهٰؤُلَاءِ الولاة، الَّذِينَ آمنوا باللهِ وَ عملوا الصالحات وَ أخبتوا إِلٰى ربّهم قد بدأوا ينشِئُون المؤسّسات المختلفة وَ يحبسون الأوقاف من الأموال المتمركزة من غنائم الحرب وَ الغزوات، وَ بِذٰلِكَ وَ طدوا الحكم الْعُثْمَانِيّ وَ الإِسْلَام فِي هٰذِهِ المناطق، كما أدّوا فِي الوقت نفسه وَاجِبهم نحو وَ طنهم الأصليّ – الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك – وَ أشهر هٰذِهِ الشخصيات الَّتِي قامت بحبس الأوقاف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ هم:

١- عيسٰى بك ابن إسحاق (ʿĪsā-beg ibn Isḥāq) (٨٤٤-٨٦٨ هـ / ١٤٤٠-١٤٦٣ م).

وَ قد قام بإنشاء مدينة سراييفو قبل سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م كما سبق الذّكر، وَ من المؤسّسات الَّتِي أقامها فِي سراييفو، جامع السّلطان (أهداه إِلٰى السّلطان مُحَمَّد الفاتح)، ثم بنٰى خَانًا (خَان قولوبارا

(Kolobara)) كما حبس من أملاكه الحقول وَ المزارع وَ الدّكاكين... إلخ.

٢- يعقوب پاشا (Ja‘qūb-paša) (٨٩٦-٩٠٠ هـ/ ١٤٩٠-١٤٩٤ م).

كان أحد ولاة الْبُوسْنَة، بنى فِي حيّ ماغودا (Magoda) مسجدًا وَ مكتبًا وَ حبس ضمنها عقاراته الَّتِي كانت تعطي موارد قدرها – حسب تدوين الأوقاف من سنة ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م – تسعمِائة وَ اثنين وَ خمسين درهمًا سنويًا.[١٣٦]

٣- فيروز بك (Fejrūz-beg)

كان بُوسنَوِيّ الأصل، دخل بلَاط بايزيد الثّاني وَ شغل المناصب المختلفة فِي الدولة حَتّى عيّن وَاليًا عَلى الْبُوسْنَة سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م، وَ بقي يدير أمورها حَتّى سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م. وَ لقد أنشأ فِي الجهة الشّماليّة من سوق سراييفو مسجدًا وَ مدرسةً وَ حمّامًا للرّجال وَ آخر للنّساء،[١٣٧] كما حبس للأوقافِ عددًا من البيوت وَ الدّكاكين وَ البساتين.

---

١٣٦ تاپو دفتري (الدّفاتر الْعُثْمَانِيَّة القديمة)، دار محفوظات الرّناسة الحكوميّة، رقم ٢١١، نسخة مصوّرة، المعهد الشّرقيّ فِي سراييفو، رقم ٣٩٠.

١٣٧ Kreševljaković, Hamdija; *Ḥammāmi u Bosni i Hercegovini.*
الحمّامات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ حمدي قْريشوْلِياقوفيتْش.

٤- الْغَازِي خسرو بك (Gazi Husrev-beg)

والي الْبُوسْنَة الشّهير، وَ هُوَ بلا شكّ أشهر الولاة الَّذِينَ حبسوا الأوقاف فِي الْبُوسْنَة وَ أسّس المنشآت المتنوّعة فِيهَا. وَ هُوَ بُوسْنَوِيّ من طرف أبيه الأصل وَ عُثْمَانِيّ من جهة أمّه، فإنّ وَالدته بنت السّلطان بايزيد الثّاني وَ كان اسمها سلجوقة (Seldžūqa)، نشأ غازي خسرو بك فِي البلاط الْعُثْمَانِيّ شاغلًا المناصب المختلفة حَتّى عيّن وَاليًا عَلَى الْبُوسْنَة سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م، وَ لقد اشترك فِي غزوات الْبُوسْنَة جميعها، كما شارك السّلطان سليمان القانوني فِي موقعة موهاتْشْ (Mohač) سنة ١٥٢٦ م وَ لم يكتفِ – أثناء حكمه للبوسنة – بممارسة النّشاط السّيَاسِيّ وَ العسكريّ فقط وَ إنّما مارس نشاطًا ثقافيًا وَ حضاريًا أيْضًا. وَ لقد بقي اسمه خالدًا فِي نفوس الْبُوسْنَوِيِّينَ بفضل انتصاراته العسكريّة وَ خيراتها الكثيرة، وَ هم لَا يزالون يفتخرون بِهِ وَ يعتبرونه من أكبر وَ أعزّ أبنائِهم. وَ نذكر من منشآته:

أ- الجامع – الَّذِي يعتبر من أروع المساجد فِي أوروبا بأكملها. بناه سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م.

ب- المكتب – دار التّعليم، بناه فِي الجانب الشّرقيّ للجامع المذكور.

ت- الخانقاه (Hanikah) وَ هِيَ المدرسة الصّوفيّة الوحيدة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

ث- المدرسة، وَ قد تمّ بناؤُها سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م.[١٣٨]

ج- الخانانِ، عرف أحدهما باسم چلبي خان (Çelebi han) أيْ الخان العتيق، وَ الثّاني باسم موريتْشا خان (Morića han) أيْ الخان الجديد.

ح- بزستان (Bezistan) وَ كان فيه اثنين وَ خمسين دكّانًا.

خ- الحمّام.

فلَا مرية فِي أن لِهٰذِهِ المؤسّسات دورًا كبيرًا فِي نموّ مدينة سراييفو وَ ازْدهارها اقتصاديًّا وَ حضاريًّا وَ ثقافيًّا.

٥- مُحَمَّد بك المعروف بـ"قَره گوز بك" (Karađoz-beg)

وَ هُوَ صاحب الخيرات المعروفة فِي منطقة الْهَرْسَك، إذْ أدّت أوقافه فيها دور أوقاف الغازي خسرو بك فِي الْبُوسْنَة تمامًا. وَ من أوقافه:

---

[١٣٨] وَ هٰذا مَا يبدو من نقش الأبيات التّالية عَلٰى بابها:

قــد بنــي هٰذا الـبـنـاء لـلطّـالـبين	حـسـبـة لِلّٰهِ مـعطـي السّـائـلـيـن
غازي خسرو بك أمير ذي الجهاد	مـنـبـع إحـسـان فـخـر الـعـادلـين
قـال فـيـض الـرّب تـاريـخًـا لـه	مـجـمـع الأبـرار دار الكـامـلـين

٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م.

أ- الجامع، وَ هُوَ من أجمل الجوامع فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، بني سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م،

ب- المدرسة، وَ تمّ بناؤُها سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م،

ت- المكتبة[١٣٩]،

ث- الإمارة وَ دار المسافرين.

وَ كانت هٰذِهِ إشارة قصيرة إِلٰى الأوقاف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ إِلٰى دورها الدِّينِيّ وَ الاجتماعيّ وَ الثَّقَافِيّ عبر القرون.[١٤٠] وَ نَرٰى كَذٰلِكَ من الضّروريّ أن نشير إِلٰى أهمّيّة الوقفيّات (وَقْف نامه (Vakuf nāmē)) الَّتِي كتبت بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، فهٰذِهِ الوثائق لَا تساعدنا فِي دراستنا عن الأوقاف فحسب، وَ إنّما تفيدنا كمصادر تاريخيّة من الدّرجة الأولٰى فِي دراسة المجتمع الإِسْلَامِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ. وَ نجد فِي هٰذِهِ الوقفيّات معلومات قيّمة عن تاريخ المدن وَ تطوّرها، كما نتعرّف إِلٰى طبقات الشّعب وَ مهنها المختلفة، وَ نتعرّف إِلٰى التّنظيم السِّيَاسِيّ وَ الاقتصاديّ فِي زمن الْعُثْمَانِيِّينَ فِي هٰذِهِ المناطق، أو نتعرّف إِلٰى قيمة

---

[١٣٩] وَ لَا نعرف بالضّبط عدد الكتب الموجودة فِيهَا – لِأن جزءًا كبيرًا من هٰذِهِ الكتب قد ضاعت عَلٰى مرور الأيّام – وَ لَا شكّ فِي أن هٰذَا العدد كان كبيرًا وَ نقلت كتب هٰذِهِ المكتبة إِلٰى مكتبة الغازي خسرو بك فِي سراييفو فِي السّتّينات من هٰذَا القرن.

[١٤٠] وَ أكثر هٰذِهِ الأوقاف ليس لها وُجود فِي الوقت الحاضر. وَ يقوم اليوم بإنشاء المؤسّسات الإِسْلَامِيَّة الجماهير الإِسْلَامِيَّة فِي المنطقة.

النّقود وَ أنواع الضّرائب وَ غير ذٰلِكَ. وَ الفرق الأساسيّ بين هٰذِهِ الوثائق وَ كتب التّأريخ هُوَ أنّ كتبَ التّأريخ تتناول الأحداث السِّيَاسِيَّة الحربيّة من حياة العظماء وَ الملوك وَ مغامراتهم، أمّا الوقفيّات فتحدّثنا عن الحياة نفسها، عن حياة النّاس العاديّين من التّجّار وَ الفلّاحين، وَ من خلال قراءَتِها نَرٰى أمامنا مجتمعًا بأكملِهِ.
وَ فيما يتعلّق عن قدم هٰذِهِ الوقفيّات فأقدم وَقْفيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ هِيَ الَّتِي كتبها عيسٰى بك ابن إسحاق[١٤١] وَ وَقفية آياس بك بن عبدِالحقّ[١٤٢]، وَ هما من أقدم الوثائق الَّتِي تعطينا معلومات عن الحكم الْعُثْمَانِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ المرجع الْأَوَّل وَ الأساس لإنشاء مدينة سَرَايِيفُو.

---

[١٤١] كتبت هٰذِهِ الوقفية فِي جمادى الأولٰى سنة ٨٦٦ هـ / كانون الثّاني ١٤٦٢ م.

[١٤٢] يرجع تاريخها إلٰى منتصف ربيع الأوّل سنة ٨٨٢ هـ / الثّالث وَ العشرين من حزيران سنة ١٤٧٧ م.

الفصل الثاني:

المُؤسّسات الدِّينِيَّةُ وَ الثَّقَافِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

الجوامع وَ المساجد وَ دورها فِي نواحي الحياة المختلفة

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾.[١٤٣]

قبل أن نتكلّم عن الجوامع وَ المساجد فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ دورهما الثَّقَافِيَّ وَ العلميَّ فِي حياة سكّان المنطقة، لَا بدّ أن نقول شيئًا عن دور هٰذِهِ المؤسّسات فِي حياة الأمم الإسْلَامِيَّة منذ نشأة الإسْلَام حَتَّى اليوم. وَ المسجد كما هو معروف، ليس مكانًا للعبادة فقط، كما قد يفهم من إطلاق هٰذِهِ الكلمة فِي وَقْتنا

---

[١٤٣] الْقُرْآن الكريم، سورة التّوبة، الآية ١٨.

الحاضر، بلْ كانت المساجد منازل وَحْي وَ مجالس شورٰى وَ معاهد علم، وَ ذٰلِكَ فِي المجتمع الإِسْلَامِيّ الأَوَّل.

وَ لمّا فتح المسلمون مكّة لم يكن البيت الحرام مقرّ عبادتهم فحسب وَ إنّما كانوا يتعلّمون فِيهِ التّفسير وَ الحديث وَ الفقه وَ الأدب. وَ لا نخطئُ إذْ نقول أن المسجد النّبويّ فِي المدينة المنوّرة كان المسجد القيادي الأوّل فِي التّاريخ الإِسْلَامِيّ، وَ فِيهِ كان ينزل الوحْي عَلٰى سيّدنا محمد – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ – وَ فِيهِ كان يتلقى التّوجيه الإِلٰهي ممّن لا ينطق عن الهَوٰى، وَ فِيهِ تتعلّم وَ تتفقّه النّخبة المختارة من الصّحابة الكرام. ثمّ بعد ذٰلِكَ أ لَمْ يكنْ هٰذَا المسجد مركزًا للخلافة فِي أهمّ عصر من عصور الإِسْلَام، أيّام أبي بكر وَ عمر وَ عثمان وَ عليّ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –؟ وَ معنٰى ذٰلِكَ أن جامعة الإِسْلَام الأولٰى كان مقرّها المسجد النّبويّ فِي المدينة المنوّرة.

وَ لما تمّ للمسلمين فتح العِراق[١٤٤] أصبحت مساجد البصرة وَ الكوفة المدرسة الأولٰى لنشأة النّحو الْعَرَبِيّ، وَ فيها اكْتمل وَ أصبح علمًا مستقلًّا، رائده الخليل بن أحمد المتوفّٰى سنة ١٧٠ ﻫ / ٧٨٦ م الَّذِي كان يلقي دروسه فِي مسجد البصرة. وَ قد تخرّج من هٰذِهِ المدرسة صفوة مختارة من أعلام العلماء مثل سِيبِوَيْهْ (المتوفّٰى نحو سنة ١٨٠ ﻫ / ٧٩٦ م) وَ أبو الأسود الدُّؤَلِيّ (المتوفّٰى سنة ٧٠ ﻫ / ٦٨٩ م) وَ الحسن البصريّ (المتوفّٰى سنة ١١٠ ﻫ / ٧٢٧ م) وَ أبو عُبيدة (المتوفّٰى سنة ٢١٠ ﻫ / ٨٢٥ م) وَ الجَاحظ (المتوفّٰى سنة ٢٥٤ ﻫ / ٨٦٨ م) وَ

---

١٤٤ تمّ ذٰلِكَ بقيادة سعد بن أبي وَقّاص فِي العام الرّابع عشر الهجريّ.

الأخفش (المتوفَّى سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م) وَ الأصْمعيّ (المتوفَّى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) وَ غيرهم. وَ لَا نريد أن نطيل فِي حديثنا عن دور مساجد بغداد فيما بعد، إذْ أصبحت هٰذِهِ المدينة فِي زمن الرشيد من أكبر مدن العالم سكّانيًّا وَ حضاريًّا فأصبح كلّ مسجد بمثابة جامعة تتألّف من عدة كلّيات، فخصّصت بعض زوايا المسجد لتدريس علم الكلَام وَ بعضها لتعليم الفقه أو لرواة الحديث، وَ كان المسجد الواحد يشتمل عَلٰى حلقات كثيرة لعلوم مختلفة، مَا بين شرعيّة وَ لسانيّة وَ كونيّة. وَ الَّذِينَ تلقوا العلم فِي مساجد بغداد قد خدموا الإنسانيّة خدمات شريفة نكتفي منها بذكر أسماء مثل: مُحَمَّد بن جرير الطَّبريّ (توفّي سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) وَ أحمد بن حنبل (توفّي سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) وَ أبي الحسن بن عمر الدَّارقطنيّ (توفّي سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) وَ مُحَمَّد بن زكريّا الرّازيّ (توفّي سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٢ م) وَ غيرهم كثير. وَ إلٰى جانب ذٰلِكَ ظهرت الكتب الأدبية الَّتِي تعتبر الآن من أمهات الكتب مثل:

- "البيان وَ التبيين" للجاحظ،
- "عيون الأخبار" لِابْن قتيبة،
- "الكامل" للمبرّد،
- "الأمالي" لِأبي عليّ القالي،
- "الأغاني" لِلْأصفهانيّ... إلخ.

وَ حدث مثل ذٰلِكَ فِي الشّام، لما فتحها المسلمون أصبحت مساجدها – وَ عَلٰى رأسها الجامع الأمويّ الكبير – مركزًا للإشعاع الثَّقَافِيّ فِي تِلْكَ البلاد وَ

خارجها، فلا ريب فِي أن مساجد دمشق وَ حمص وَ حلب كانت تزخر بكبار العلماء[145] وَ بمِئات الطّلّاب منذ أوّل نشأتها.

أمّا فِي تونس فقد أدّى جامع الزيتونة[146] دوره العلميّ وَ الثّقافِيّ منذ نشأته، وَ لا يزال حَتّى اليوم يؤدّي الدّور نفسه، وَ إن كان قد أصبح يعرف باسم جامعة الزّيتونة. وَ هِيَ جامعة تشتمل عَلى كلّيّتين، إحداهما هِيَ كلّيّة العوم الشرعيّة، وَ الأخرى كلّيّة علوم اللُّغة الْعَرَبِيَّة. وَ هي بِذٰلِكَ تعتبر أقدم جامعة إسْلَامِيَّة قدّر الله لها البقاء حَتّى اليوم.

وَ إذا كان المسلمون قد فتحوا ديار الأنْدلس بجنود كانوا رهبانًا فِي اللّيل وَ فرسانًا بالنهار – إلّا أنّهم فتحوا قلوب أهْلها من الأوروبيّينَ بمساجدهم الَّتِي قاموا بإنشائها منذ وطأوا بأقدامهم أرض الأندلس، وَ ذٰلِكَ لِأن تِلْكَ المساجد – إلى جانب كونها دورًا للعبادة قد أصبحت – فِي الوقت نفسه – دورًا للعلمِ وَ نشر المعرفة للمسلمين وَ غير المسلمين عَلى حدّ سواء، وَ لِهٰذِهِ المساجد تدين أوروبا بنهضتها وَ ازْدهارها فيما بعد. وَ هِيَ المساجد الَّتِي تخرج فِيهَا نخبة ممتازة من العلماء المسلمين، مثل ابن رشد (المتوفّى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م) وَ الطّيّب أبي

---

[145] مثل ياقوت الحمويّ (المتوفّى سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م) وَ أبي الفدا (المتوفّى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) وَ ابن واصل (المتوفّى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م) وَ ابن حجّة (المتوفّى سنة ٩٣٨ هـ / ١٤٣٤ م) وَ غيرهم كثيرون.

[146] تمّ بناؤه سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م.

العلاء بن زهد (المتوفّى سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م) وَ ابن باجّه (المتوفّى سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م) وَ ابن زيدون (المتوفّى سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م) وَ غيرهم.

وَ كذٰلك حدث فِي مصرَ[١٤٧]، حيث أصبحت المساجد، منذ أوّل يوم مكانًا للتّدريس.[١٤٨] وَ ليس من موضوعنا أن نتكلّم عن هٰذِهِ المساجد الكثيرة بلْ نكتفي بذكر جامع الأزهر[١٤٩] الّذِي أدّى دورًا ثقافيًا وَ سياسيًا[١٥٠] فِي حياة مصرَ خاصّة وَ في حياة الأمّة الإسْلَامِيَّة عامّة، حيث ظلّ الحصن الحصين للعلوم الدِّينِيَّة وَ الشّرعيّة وَ علوم اللُّغَة الْعَرَبِيَّة، وَ ذٰلِكَ من أكثر من ألف سنة، كان خلالها أكبر جامعة إسْلَامِيَّة فِي الشّرق بل فِي العالم كلّه.

وَ لقد رأينا من هٰذِهِ الدّراسة السّريعة أن المساجد كانت مراكز دينيّة وَ اجتماعيّة وَ ثقافيّة وَ سياسيّة طوال القرون، إلّا أنّها بمرور الزّمن فقدت بعضًا من وَظائِفِهَا، وَ لَا سيما السِّيَاسِيَّة وَ الثَّقَافِيَّة. وَ مع ذٰلِكَ بقي المركز الدِّينِيّ الأَوَّل

---

[١٤٧] دخل الإسْلَام مصرَ سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م علَى يد عمرو بن العاص.

[١٤٨] أوّل مسجد بني فِي مصرَ هُوَ مسجد عمرو بن العاص فِي الفسطاط، وَ قام ببنائِهِ سنة ٢٦ هـ / ٦٤٢ م، وَ كان أوّل من درس فِيهِ ابنه عبدالله، وَ لقد عيّنه عمر بن الخطّاب ليقوم بتعليم الدّين الإسْلَامِيّ فِي البلاد الّتِي فتحها أبوه.

[١٤٩] أنشأه القائد الفاطميّ الشهير جوهر الصّقلي فِي الفترة مَا بين سنة ٣٥٩-٣٦١ هـ / ٩٦٩-٩٧١ م.

[١٥٠] وَقف رجال الأزهر دائمًا فِي وَجه الاحتلال الفرنسيّ وَ الإنكليزيّ.

عند المسلمين، يجتمعون فِيهِ لِأداء الصّلوات الخمس وَ صلاة الجمعة وَ صلاة العيدين.

أمّا الدولة الْعُثْمَانِيَّة فلم يؤدِّ المسجد فِيهَا الدّور الَّذِي أدّاه عند المسلمين العرب، أوْ كان ذٰلِكَ فِي فترة وَجِيزة جدًّا، لأنّ الدولة الْعُثْمَانِيَّة كانت دولة عسكريّة منذ نشأتها. وَ مع ذٰلِكَ فقد اهتمّ الْعُثْمَانِيُّونَ ببناء المساجد اهتمامًا بالغًا[١٥١]، سواء أ كان ذٰلِكَ فِي وَطَنهم الأصليّ أم فِي البلاد المفتوحة. وَ تعتبر بعض مساجدهم من أجمل وَ أكبر الأعمال الهندسيّة وَ الفنيّة عَلٰى وَجْهِ الأرضِ[١٥٢].

أمّا الْبُوسْنَةُ وَ الْهَرْسَكُ، فالمساجد الأولٰى فيها أقامها الْعُثْمَانِيُّونَ فِي معسكراتهم فِي المناطق المفتوحة كما حثّوا المسلمين الجدد عَلٰى إنشائها وَ فعلًا

---

١٥١ وَ بلغ عدد هٰذِهِ المساجد فِي النصف الثّاني من القرن السّابع عشر فِي إسطنبول وَحْدها مِائة وَ اثنين وَ خمسين مسجدًا.

خليل إينالجق، الإمبراطوريّة الْعُثْمَانِيَّة، ص ١٩٨.

١٥٢ وَ نذكر من هٰذِهِ الجوامع:

- جامع السّلطان سليم الثّاني فِي أديرنة – بني سنة ٩٧٨-٩٨٢ ﻫ / ١٥٧٠-١٥٧٤ م،
- جامع السّلطان بايزيد فِي إسطنبول – بني سنة ٩٠٦-٩١١ ﻫ / ١٥٠١-١٥٠٥ م،
- جامع سليمانيّة فِي إسْطَنْبُول – بني سنة ٩٥٧-٩٦٥ ﻫ / ١٥٥٠-١٥٥٧ م،
- جامع السّلطان أحمد فِي إسْطَنْبُول – بني سنة ١٠١٨-١٠٢٥ ﻫ / ١٦٠٩-١٦٠٦ م،
- جامع مُحَمَّد پاشا سوقولوفيتْشْ فِي إسْطَنْبُول – بني سنة ٩٢٣ ﻫ / ١٥١٧ م،
- جامع مراد الأوّل فِي بورصة – تمّ بناؤه سنة ٨٢٣ ﻫ / ١٤٢٠ م.

قام هٰؤلاءِ المسلمون ببناء المساجد منذ دخلوا الإسْلَام[١٥٣]، وَ لم يشترك فِي ذٰلِكَ الوزراء وَ الولاة فقط وَ إنّما المواطنون من التّجّار وَ الفلّاحين وَ سواهم. وَ طبيعيّ أن هٰذِهِ المساجد الأخيرة لم تتميّز بضخامتها وَ فخامتها لٰكنّها تميّزت ببساطتها وَ كثرتها. وَ يغلب عَلٰى الجوامع وَ المساجد فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ الطابع المعماريّ الْعُثْمَانِيّ متمثّلًا فِي القبّة الرّئيسيّة مع قبّتين أو ثلاث فوق مدخل الجامع وَ مِئْذنته رفيعة. وَ نودّ أن نشير إِلٰى أن مساجد الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك كثيرة جدًّا، وَ من الممكن أن تكتب البحوث الخاصّة عن أهمّيّتها التّاريخيّة أو هندستها المعماريّة أو نقوشها الفنّيّة، وَ لٰكن هٰذَا ليس موضوع بحثنا، لِذٰلِكَ سوف نكتفي بذكر أكبر هٰذِهِ المساجد.

١- جامع الغازي خسرو بك[١٥٤] فِي سراييفو:

لَا شكّ فِي أن سراييفو فاقت جميع مدن أوروبا بكثرة مساجدها. وَ يذكر لنا الرّحّالة التّركي أولياء چلبي (Evlija Çelebi) أن عدد هٰذِهِ الجوامع وَ المساجد فِي سراييفو سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م كان مِائة

---

[١٥٣] وَ نلاحظ أنّ عند سكّان الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك مفهومًا خاصًّا للجامع وَ مفهومًا خاصًّا للمسجد، فالمسجد يكون أصغر من الجامع، وَ لَا يوجد فِيهِ منبر وَ لا مِئْذنة، فيؤدّي الصّلوات الخمس وَ صلاة التّراويح خلَال شهر رمضان وَ تعليم الأطفال المبادئ الإسْلَامِيَّة، أمّا صلاة الجمعة وَ صلاة العيدين فتؤدّى فِي الجامع.

[١٥٤] هٰذَا ليس أوّل جامع بني فِي سراييفو، كما قد يعتقد، بلْ بنيت قبله جوامع وَ مساجد كثيرة مثل الجامع العتيق (سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م)، وَ جامع مُحَمَّد آياس بك سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م، وَ مسجد يحيٰى بك سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م وَ غيرها.

وَ سبعة وَ سبعين[١٥٥]. وَ قد قام الغازي خسرو بك بإنشاء هٰذَا الجامع سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م[١٥٦]، وَ عيّن وَقفيّته الموظّفين فِيهِ وَ اشترط كفاءَتهم وَ مقدرتهم العلميّة وَ الخلقيّة[١٥٧].

٢- جامع عليّ پاشا[١٥٨] ('Ali-paša) فِي سراييفو:

أنشئ هٰذَا الجامع سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م أيْ بعد موت الواقف بخمس سنوات، وَ نجد تاريخ البناء منقوشًا فوق باب الجامع[١٥٩]. أمّا وَقفيّته فقد كتبت سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م[١٦٠].

---

١٥٥ نظنّ أنّ الرّحّالة المذكور قد بالغ فِي عدد هٰذِهِ المساجد وَ الجوامع، وَ ذٰلِكَ لِأنّ سراييفو فِي ذٰلِكَ الوقت لم يكن فِيهَا أكثر من مِائة وَ أربع محلّة.

١٥٦ Redžić, Husrev (1960.) *Ko je graditelj Gazi Husrev-begove džamije u Sarajevu*, Radovi ND XIII, Sarajevo, p. 117-150..

من الّذِي بنى جامع الغازي خسرو بك فِي سراييفو، خسرف ريجيتش، الأبحاث المجمع العلمي فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسك، ١٣، ص ١١٧-١٥٩، سراييفو، ١٩٦٠ م.

١٥٧ الوقفيّة الأولٰى، وَرقة ١١-١٤، مكتبة الغازي خسرو بك فِي سراييفو.

١٥٨ كان بُوسْنَوِيّ الأصل، أخذ فِي الانكشاريّة، دخل البلاط الْعُثْمَانِيّ وَ نال شهرة وَاسِعة، عيّن وَالِيًا عَلٰى الْبُوسْنَة سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م. دفن فِي حرم جامعه.

١٥٩ Kemura, Sejfud-dīn (1909.) *Sarajevske džamije i druge javne zgrade turskog doba*, GZM, XI, Sarajevo, p. 20.279.

٣- جامع السّلطان أو جامع العتيق فِي سراييفو:

وَ هُوَ أوّل جامع أسّس فِي سراييفو، وَ أنشئت حوله أوّل محلّة إسْلَامِيَّة، بناه مؤسّس سراييفو عيسٰى بك ابن إسحاق وَ ذٰلِكَ قبل سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م وَ أهداه إِلٰى السّلطان مُحَمَّد الفاتح وَ سمّي لِذٰلِكَ هنگارية (Hungarija) أيْ جامع السّلطان، وَ سمّي فيما بعد – جامع العتيق –. وَ هٰذَا الجامع لا يزال فِي حالة جيّدة.

٤- جامع المزركش (Šarena džamija) فِي مدينة تْراوْنِيق[١٦١]:

عزمنا أن نذكر هٰذَا الجامع عَلٰى الرّغم من أنّه ليس من الجوامع الأولٰى الَّذِي بني فِي هٰذِهِ المدينة[١٦٢] وَ لٰكنّه من أروع الجوامع فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ من حيث الضّخامة وَ الفنّ المعماريّ الْإِسْلَامِيّ.

جوامع مدينة سراييفو وَ المباني العامة الأخرى فِي زمن الْعُثْمَانِيِّينَ، سيف‌الدّين كَمورا، مجلة المتحف البلدي لمدينة سراييفو، ٢١، ص ٢٧٩،٢٠، سراييفو ١٩٠٩ م.

١٦٠ سياحت نامه، أولياء چلبي، فقرات عن الأراضي اليوغسلافيّة، التّرجمة اليوغسلافيّة للدّكتور حازم شعبانوفيتْشْ، الطّبعة الثّانية، ص ١٠٧، سراييفو ١٩٦٧ م.

١٦١ تقع المدينة فِي وَادِي نهر لَاشْوَا (Lašva) أحد فروع نهر الْبُوسْنَة فتحها الْعُثْمَانِيُّونَ سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م، وَ أصبحت فيما بعد من أهمّ المراكز العسكريّة وَ الثَّقَافِيَّة فِي الْبُوسْنَة.

١٦٢ أوّل جامع فِي هٰذِهِ المدينة هُوَ جامع السّلطان فاتح بني سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م.

وَ لا نعرف شيئًا كثيرًا عن مؤسّسِهِ وَ لا عن تأريخِ إقامتِهِ، وَ نجد أوّل ذكر له فِي المصادر سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ م.

٥- جامع آلاجا[١٦٣] (Aladža) فِي مدينة فوتْشَا[١٦٤] (Foča):

وَ لقد اشتهرت هٰذِهِ المدينة بكثرة مساجدها. وَ يعتبر آلآجَا من أروع المساجد فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ. بني المسجد حسب تخطيط المهندس الْعُثْمَانِيِّ الشهير رمضان آقا[١٦٥] (Ramaḍān Āġā) وَ عَلٰى بابه النّقش التّالي بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة:

قـد بنـي هٰذَا الـجـامـع الـشّـريـف

وَ الـمـسـجد المنيف صاحب الخيرات

وَ الـحـسـنـات حـسـن بـن يُـوسُـف

حسبة لِلهِ – تعالٰى – وَ طلبًا لمرضاتِه

---

١٦٣ آلاجَا (Aladža) كلمة تركيّة، معناها: المزركش، الملوّن.

١٦٤ تقع المدينة فِي الجزء الشّرقيّ من الْبُوسْنَة، وَ مع أنّها معروفة من القرون الوسطٰى إلّا أن تقدّمها التّجاريّ وَ السِّيَاسِيّ بدأ يظهر بعد فتح عُثْمَانِيّ لها حتّٰى أصبحت مركزًا لسنجق الْهَرْسَك سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٩ م.

١٦٥ وَ كان أحد تلاميذ المهندس التّركيّ المعروف معمار سنان (Sinān).

وَ ألقٰى هـاتـف الـغيب تـاريـخـه

يــا قيّوم، تـقبّل بـقبـول حـسنها"[١٦٦]

حـسنها"[١٦٦]

وَ قد بني هٰذا الجامع سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م، وَ نعرف عن مؤسّسِهِ أنّه توفّي سنة ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م، وَ أنّه من أهل فوتْشا وَ كان من رجال الدّولة بلقب چلبي[١٦٧] (Çelebi/Čelebi).

٦- جامع فرهاد پاشا سوقولوفيتْشْ[١٦٨] فِي بانْيالوقا[١٦٩] (Banja Luka):

---

[١٦٦] Mujezinović, Mehmed (1960.) *Turski natpisi XVI vijeka u Bosni i Hercegovini*, POF, III-IV, Sarajevo, p. 462.

النّقوش التّركيّة فِي القرن السّادس عشر فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، مُوَذّنوفيتْش مُحَمَّد، الملاحق للدّراسات فِي اللّغات الشّرقيّة، ٣-٤، ص ٤٦٢، سرايفو ١٩٦٠ م.

[١٦٧] وَ كان يطلق هٰذا اللّقب عَلٰى العالم الفقيه.

[١٦٨] فرهاد پاشا سوقولوفيتْشْ (Ferhad-paša Sokolović) هُوَ أوّل – أمير الأمراء – (بَغْلر بك (begler-beg)) فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ. فهُو من أسرة سوقولوفيتْشْ الّتِي أعطت للدولة الْعُثْمَانِيَّة عددًا من الشّخصيّات البارزة وُلد فِي مدينة رُودُو (Rudo) قرب ويشيغراد (Višegrad) وَ كان له سمعة حسنة فِي بلَاط السّلطان مراد الثّالث (٩٨٢-٩٩٩ هـ / ١٥٧٤-١٥٩٠ م)، وَ أصبح سوقولوفيتْشْ وَالِيًا عَلٰى الْبُوسْنَة سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م، وَ عيّن بوظيفة بغْلر بك سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م.

هٰذَا الجامع من أشهر المؤسّسات الَّتِي أقامها مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْش هُوَ – يشبه جامع الغازي خسرو بك فِي سراييفو من النّاحية الهندسيّة تمامًا. زين الجامع بقبّة كبيرة وَ مِئْذنة رفيعة وَ اشتهر فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ باسم "فرهاديّة" (Ferhadija) نسبة لبانيه. وَ يذكر أولياء چلبي الَّذِي مرّ ببانْيالوقا فِي النّصف الثّاني من القرن السّابع عشر أن فِيهَا خمسة وَ أربعين مسجدًا.[١٧٠]

٧- جامع مصطفٰى قزلر آقا (Muṣṭafā Kızlar-aga) فِي مدينة مْرْقونْيِيتْش غْرَاد[١٧١] (Mrkonjić grad):

وَ يقدّم لنا تاريخ هٰذِهِ المدينة صورة حقيقية عن أهمّيّة الأوقاف وَ دورها فِي إنشاء المدن وَ تطويرها. وَ لم تكن لِهٰذِهِ المدينة أيّ وُجود فِي نهاية القرن العاشر الهجريّ / السّادس عشر الميلاديّ، حَتَّى قام

---

[١٦٩] تقع المدينة فِي وَادي نهر وْرْبَاسْ (Vrbas) الخصبة، وَ بفضل موقعها الجغرافيّ الممتاز زادت قيمتها فِي القرن الوسيط، وَ لٰكن المدينة ازْدهرت أيّام حكم الْعُثْمَانِيِّينَ عندما فتحوها سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م. وَ أصبحت المدينة منذ سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م مركزًا لِبِغْلر بك (begler-beg) الْبُوسْنَة.

[١٧٠] Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāmē*, p. 211.

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٢١١.

[١٧١] نمت المدينة فِي بداية القرن السّابع عشر وَ هٰذَا بفضل المنشآت الوقفيّة الَّتِي أقامها مصْطفٰى آقا قزلر.

أحد أصحاب الخيرات وَ هو مصطفى قزلر آقا بإنشاء مؤسّساتها الشّهيرة سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م، وَ سرعان مَا نشأت هناك مدينة كان لها أهمّيّة اقتصاديّة وَ ثقافيّة كبيرة. أمّا المسجد المشار إِلَيْهِ فقد شيّد سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م، وَ تعتبر هٰذِهِ البناية من أجمل المنشآت ذات الطّراز الْعُثْمَانِيّ فِي القرن السّادس عشر.

٨- جامع سنان بك[١٧٢] فِي مدينة تْشَايْنِيتْشَه[١٧٣] (Čajniče):

بني الجامع فِي نهاية القرن السّادس عشر وَ تتميّز بمئْذنة حجريّة رفيعة.

٩- جامع الحاجّ مُحَمَّد بك (قَره گوز بك) فِي مدينة موسْتار[١٧٤]:

يذكر الرّحّالة أولياء چلبي الَّذِي مرّ هٰذِهِ المدينة فِي النّصف الثّاني من القرن السّابع عشر أن فيها خمسة وَ أربعين مسجدًا[١٧٥]، وَ لٰكن

---

١٧٢ فهو أحد أبناء الْبُوسْنَة كَذٰلِكَ، كان وَالِيًا عَلٰى عدّة ولايات عُثْمَانِيَّة، عيّن وَالِيًا عَلٰى لواء الْهَرْسَك سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ م.

١٧٣ ازْدهرت المدينة فِي النّصف الثّاني من القرن السّادس عشر.

١٧٤ تقع هٰذِهِ المدينة فِي قلب منطقة الْهَرْسَك، أنشئت فِي القرون الوسطى لٰكنّها نمت وَ ازْدهرت فِي العهد الْعُثْمَانِيّ حَتّٰى أصبحت مركزًا دينيًا وَ سياسيًا وَ اقتصاديًا لسنجق (Sandžak) الْهَرْسَك فيما بعد.

هٰذَا العدد قد يكون مبالغًا فِيهِ، لأنّه لم تنشأ فِي موسْتار خلّال الحكم الْعُثْمَانِيّ أكثر من ستّ وَ ثلاثين مسجدًا[١٧٦]. وَ يعتبر جامع قَره گوز بك أعظم وَ أجمل الجوامع فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ اشتهر باسم "ملكة الْهَرْسَك" تمّ بناؤه سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م وَ إِلَى جانب هٰذَا الجامع نود أن نذكر الجوامع التّالية فِي موستار:

- جامع كوسكي مُحَمَّد پاشا (Koski Mehmed-paša) بني سنة ١٠٢٦ هـ / ١٦١٧ م،
- جامع نصوح آقا وُوتْشْيَاقوفيتْش (Nesuh-aga Vučjaković) بني سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م،
- جامع گيوان كهايا (Ćejvan Ćehaja) بني سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م،
- جامع إِبْرَاهِيم شاريتْش (Ibrāhīm Šarić) بني سنة ١١٤٧ هـ / ١٦٣٧ م،

---

١٧٥ Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāma*, p. 456.

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٤٥٦.

١٧٦ Hasandelić, Hifzi (1961.) *Kulturno-istorijski spomenici u Mostaru iz turskog doba*, Sarajevo, p. 149-178.

الآثار الإِسْلَامِيَّة فِي مدينة موستار أيّام الحكم الْعُثْمَانِيّ، حسن دمديتْش حفظي، ص ١٤٩-١٧٨، سراييفو ١٩٦١ م.

- جامع تدبيغيّة (Tabačica) بني فِي النّصف الثّاني من القرن السّادس عشر،

- جامع درويش پاشا بايزيد آقيتْش (Derviš-paša Bajezidagić) بني سنة ١٠٠٢ ﻫ / ١٥٩٣ م.

وَ كلّ هٰذِهِ الجوامع لا تزال قائمة حَتّٰى اليوم.

١٠- جامع عليّ بن موسٰى فِي مدينة پوتْشيتيلْيْ[١٧٧] Počitelj:

يذكر أولياء چلبي فِي وَصْفِهِ لِهٰذِهِ المدينة الّتِي زارها سنة ١٠٧٥ ﻫ / ١٦٦٤ م أن فيها "مَا عدا مسجد القلعة وَ المكتبة وَ المدرسة وَ الإمارة جامعًا"[١٧٨] وَ عَلٰى بابه تاريخ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة هٰذَا نصه:

"قد بني هٰذَا المسجد الشريف لمغفرة العصاة صاحب الخيرات وَ أجير الحسان الحاجّ عليّ بن موسٰى سنة ٩٧٠ ﻫ / ١٥٦٣ م."

---

[١٧٧] تقع المدينة فِي الجانب الأيسر من نهر نيريتفا (Neretva) اهتمّ الْعُثْمَانِيُّونَ بِهَا اهتمامًا ملحوظًا وَ ذٰلِكَ لأهمّيّتها الاستراتيجيّة الكبيرة، فهي تقع فِي الطّريق إسطنبول – دوبروفنيك (Dubrovnik) – وَ لقد فتحها الْعُثْمَانِيُّونَ سنة ٨٧٦ ﻫ / ١٤٧١ م كما سبق أن ذكرنا.

[١٧٨] Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāma*, p. 457-458.

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٤٥٧-٤٥٨.

وَ لقد ذكرنا فِي هٰذِهِ الدّراسة الخاطفة عشرة جوامع فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فقط، وَ لم نشر إِلٰى هٰذِهِ الجوامع لأهمّيّتها الهندسيّة وَ الفنية فحسب، بل لدورها الدِّينِيّ وَ الثَّقَافِيّ الَّذِي لعبته فِي حياة مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ لا تزال هٰذِهِ الجوامع محل التجمع الإِسْلَامِيّ، وَ عَلٰى الرّغم من التكهنات الحديثة الَّتِي تزعم "أنّ هٰذِهِ المؤسّسات قد أدّت دورها فِي التّأريخ، وَ أنّها فِي المستقبل القريب سوف تصبح من متاحف الماضي" فإنّ مسلمِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك يتوقّعون نهضتهم الإِسْلَامِيَّة الجديدة من هٰذِهِ المساجد. وَ ذٰلِكَ لأن إنسان القرن العشرين بدأ يشعر بضرورة رجوعه إِلٰى الدين، وَ ذٰلِكَ بعد أن جرب وَ أحسّ مرارة الحياة المادّيّة الملحدة، فلا مرية فِي أنّ استيقاظ الجوامع وَ الكنائس يأتي باستيقاظِ الْقُلُوبِ!

التّكايا أو الزّوايا

وَ لقد انتشرت الأفكار الصّوفيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ بانتشار الإِسْلَام، وَ ذٰلِكَ لأن حاملي الإِسْلَام إِلٰى تِلْكَ المناطق هم الْعُثْمَانِيُّونَ. وَ الصّوفية، كما هُوَ معروف، أدّت دورها السِّيَاسِيّ وَ الاجتماعيّ وَ الثَّقَافِيّ فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة. وَ مع أن الحركات الصّوفية فِي تركيا ظهرت عَلٰى اعتبار أنها حركات دينيّة إِلّا أنها كانت فِي حقيقة الأمر حركات سياسية قبل كل شيء وَ كان لها صلة قويّة

بالحركات المماثلة فِي إيران. وَ نلاحظ كَذٰلِكَ أن تعاليم الطّرق الصّوفية فِي تِلْكَ الفترة كانت تقتصر عَلٰى التّعاليم الشّيعيّة المتطرّفة. وَ لذٰلك نستطيع أن نقسم الطّرق الصّوفية فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة إِلٰى قسمين:

١- قسم كان يحارب الدولة وَ النظام وَ الحاكم.[١٧٩]

٢- قسم اعترف بالدّولة وَ النّظام السّائد.[١٨٠]

هٰذَا مَا يتعلّق بالدور السِّيَاسِيّ للصّوفيّة فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة، أما الدور الاجتماعيّ، فلا يمكن إغفاله وَ إنكاره لأن الأفكار الصوفية وَ جدت أنصارها فِي الطبقات الشّعبيّة من التّجّار وَ الفلّاحين وَ في الطبقات الحاكمة من الوزراء وَ

---

١٧٩ وَ أشهر هٰذِهِ الطّرق كانت حيدريّة (Ḥajderijje) وَ قلندري (Kalenderi) وَ بابانية (Bābā'ijje) وَ حمزويّة (Ḥamzewijje)، أمّا طريقة حمزويّة فمؤسّسها أحد أبناء الْبُوسْنَة، حمزة بالي (Ḥamza Bālī) الَّذِي أعدم فِي إِسْطَنْبُول سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م. وَ كان له أتباع كثيرون فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة وَ خاصّة فِي الْبُوسْنَة. وَ الجدير بالذّكر أن بعض قوّاد حمزويّة لم يكونوا مجرّد دراويش بل كان من بينهم بعض العلماء مثل الشّيخ بدر الدّين الَّذِي كان عالمًا فِي الشّريعة الإِسْلَامِيَّة، وَ لقد تأثّر بِابن الْعَرَبِيّ وَ كتب شرحًا عَلٰى نصوصِهِ.

١٨٠ وَ أشهر هٰذِهِ الطّرق نقشبندي (Naqšibendijje) وَ مَوْلَوِيّ (Mewlewijje) وَ خَلْوَتِيّ (Ḥalwetijje) وَ هٰذِهِ الطّريقة الأخيرة كانت أكثر انتشارًا فِي الْبُوسْنَة.

السّلاطين[181]. أمّا من النّاحية الأدبيّة وَ الثّقَافِيّة، فلا بدّ أن نذكر أن عددًا من تكايا الدولة الْعُثْمَانِيَّة أصبح بمثابة مراكز أدبية وَ فنّية، وَ ذٰلِكَ لأن الدراويش عنوا عناية بَالِغَةً بِاللُّغَةِ الْفَارِسِيَّةِ وَ آدابها. وَ نستطيع أن نقول بأن المتصوّفة الْعُثْمَانِيِّينَ قد تأثّروا بأعمال اثْنين من المتصوّفة المسلمين وَ هما: محيِي‌الدّين بن عَرَبِيّ (المتوفّٰى سنة ٦٣٨ ﻫ / ١٢٤٠ م)، وَ جلَال‌الدّين الرّوميّ (المتوفّٰى سنة ٦٧٢ ﻫ / ١٢٧٣ م). فبينما نجد أن لمحيِي‌الدّين بن عَرَبِيّ أعداء كثيرين فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة نرٰى أن جلال‌الدّين الرّومي كان من كتّاب المتصوّفة المحبوبِينَ حيث ترجمت آثاره إِلٰى اللُّغَة التّركية، وَ خاصّة منظومته "المَثْنَوِي"[182].

وَ طبيعي بعد ذٰلِكَ أن يبنٰى فِي تركيا عدد كبير من التّكايا، وَ يذكر لنا أولياء چلبي أنّه قد أنشئَت فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة سبعمِائة زاوية وَ ذٰلِكَ لطريقة

---

[181] وَ كان من هٰؤُلَاءِ كلّ من السّلطان مراد الثّاني، وَ بايزيد الثّاني، وَ سليم الْأَوّل وَ مراد الثّالث.

[182] وَ قد كتب عدد من الشّروح عَلٰى "المثنوي" وَ أشهر من كتبوها:

- رسوخي إِسْمَاعِيل دمده (Resūhi Ismā'īl) من أنقرة المتوفّٰى سنة ١٠٤١ ﻫ / ١٦٣١ م.
- ساري عبدالله (Sari 'Abdullāh) الْبُوسْنَوِيّ المتوفّٰى سنة ١١٧١ ﻫ / ١٦٦٠ م. وَ شروحهما مكتوبة بِاللُّغَةِ التّركيّة.

صوفيّة فقط، هِيَ الطّريقة البَكتاشيّة[183]. وَ هٰذَا العدد قد يكون مبالغًا فِيهِ، وَ لٰكنّه لَا يخلوا من دلالة مفادها أن عدد هٰذِهِ المؤسّسات فِي تركيا كان هائلًا جدًّا. تعتبر زاوية جلَالالدّين الرّوميّ فِي مدينة قونْيه (Konya) من أكبر هٰذِهِ الزّوايا وَ أشهرها، وَ إذا كان هٰؤُلَاءِ قد اشتغلوا بالعلم وَ الفلسفة فعلًا إِلَّا أن الأجيال التّالية وَجَدت فِي التّصوّف وَسِيلة رابحة للرّزق، فأصبح أكثر هٰؤُلَاءِ المتصوّفة متصوّفين بالشّكل لا بالرّوح، فِي المظهر لا فِي العقيدة.[184]

وَ كان هٰذَا من أهمّ الأسباب الَّتِي أدت إِلٰى ضعف هٰذِهِ الحركة فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة، بل ضعفها فِي كلّ مكان، فالتّكايا الَّتِي كانت فِي يوم من الأيام مراكز للعلم وَ الفلسفة أصبحت فِي القرن الثامن عشر مكانًا للشّرك وَ الرقص وَ الكسل!

وَ من الطّبيعيّ بعد ذٰلِكَ أن تعاليم الصّوفيّة وجدت فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ منذ النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلاديّ، وَ ربّما قبل ذٰلِكَ بقليل.[185]

---

١٨٣ ظهرت الحركة فِي النّصف الثّاني من القرن الثّالث عشر وَ سميّت بِهٰذَا الاسْم نسبة إِلٰى مؤسسها الحاجّ بكتاش (El-Ḥādždž Bektaš).

١٨٤ وَ هٰذَا هُوَ الفرق بين المتصوّفة الحقيقيّين الَّذِينَ ارادوا بالتّصوّف الوصول إِلٰى الحقيقة وَ بين المتصوّفة المزوّرين الَّذِينَ أرادوا من وَرَائِهِ الحصولَ عَلٰى المالِ.

١٨٥ Kreševljaković, Hamdija; *Hanikah*, p. 57.

خانقاه، حمدي قْريشوْلْياقوفيتْش، ص ٥٧.

كما رأينا أن بعض أبناء الْبُوسْنَة كانوا من مؤسّسِي الطّرق الصّوفيّة[١٨٦]. وَ مع ذٰلِكَ فالصّوفيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ لم تؤدِّ دورًا ملحوظًا وَ لم تنتشر أفكارها انتشارًا وَاسِعًا[١٨٧]. وَ قد يكون السّبب فِي ذٰلِكَ أن الْبُوسْنَوِيِّينَ بطبيعتهم مالوا إِلٰى الْإِسْلَام الحيّ المتطور، وَ كانوا دائمًا يعتقدون، بأن الَّذِينَ يشتغلون فِي الحقول وَ المزارع أو يعملون فِي التجارة هم أقرب إِلٰى الله من الَّذِينَ لبسوا لباسًا صوفيًّا وَ أغلقوا عَلٰى أنفسهم أبواب التّكايا آكلين أموال الأوقاف! وَ ليس معنٰى ذٰلِكَ أن الْبُوسْنَوِيِّينَ لم يعتنقوا أفكارًا صوفيّة، بالعكس، لٰكنّهم كرهوا المتاجرة بالدّين الْإِسْلَامِيّ أو قبول بعض المعتقدات الدخيلة عَلَيْهِ. وَ لا ريب فِي أن أكثر الطّرق الصّوفيّة الموجودة حينذاك فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كانت مليئة بِهٰذِهِ الأفكار.[١٨٨] كما كره الْبُوسْنَوِيُّونَ أن تتفرّق كلمة المسلمين أو أن تتمزّق وَحْدتهم، وَ اكتفوا بأن يكون كلّهم من أهل السّنّة وَ الجماعة، عَلٰى مذهب فقهيّ وَاحِد هُوَ المذهب الحنفيّ وَ بقوا كذٰلك حَتّٰى اليوم.

---

[١٨٦] راجع الصّفحة ١١٨ وَ ١٤٠.

[١٨٧] وَ لقد انتشرت هٰذِهِ الأفكار فِي جنوب يوغسلافيا (بمقدونيا) (Makedonija) أكثر من انتشارها فِي الْبُوسْنَة.

[١٨٨] Handžić, Mehmed (1934.); *Pitanje tekija u Jugoslaviji*, Glasnik, VIS-a, Beograd, br. 4., p. 197.

مسألة التّكايا فِي يُوغُسْلَافِيَا، مُحَمَّد الخانجي، غلَاسنيق، العدد الرّابع، ص ١٩٧، بلغراد ١٩٣٤ م.

وَ لقد أسّست أوّل زوايا الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قبل فتح الْبُوسْنَة بقليل، وَ كان من ولاة الْبُوسْنَة من اهتمّ بأمور الدّراويش وَ عَلٰى الخصوص الوالي الغازي خسرو بك (٨٨٥-٩٤٨ هـ / ١٤٨٠-١٥٤١ م). وَ لقد أراد هٰذَا الوالي أن يساعد هٰذِهِ الطّائفة (طريقة خَلْوَتي) وَ كان يحثهم عَلٰى طلب العلم وَ المعرفة، وَ لِهٰذَا الغرض أقام المدرسة الصّوفيّة الأولٰى (الوحيدة) فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ ذٰلِكَ فِي مدينة سراييفو، وَ سوف نتكلّم عن هٰذِهِ المدرسة فِي الفصل القادم، إن شاء الله. بقي لنا أن نذكر أن عددًا من ا لزّوايا الَّتِي أقيمت فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ لَا يزال موجودًا إلَّا أنّه مغلق للجمهور وَ تشرف الحكومة اليوغسلافيّة عَلَيْهِ الْآنَ. وَ أشهر هٰذِهِ التّكايا توجد فِي سراييفو (Sarajevo) وَ فوينِيتْسا (Fojnica) وَ زْفورْنيق (Zvornik) وَ فوتْشا (Foča) وَ بْلَاغايْ[189] (Blagaj).

اَلْمَدَارِسُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

لقد ذكرنا أن تاريخ التّربية الإسْلَامِيَّة يرتبط ارتباطًا وَثِيقًا بالمسجد، وَ أن المساجد كانت تمثّل المراكز الدِّينِيَّة وَ السِّيَاسِيَّة وَ الثَّقَافِيَّة زمنًا طويلًا. بينما تعود نشأة المدارس الأولٰى فِي العالم الإسْلَامِيّ إلٰى النّصف الثّاني من القرن الحادي

---

[189] مدينة صغيرة قرب موسْتار.

عشر الْمِيلَادِيّ، وَ ذٰلِكَ نتيجة للظّروف الجديدة فِي المجتمع الإِسْلَامِيّ الَّذِي انتشرت حدوده وَ أزداد عدد أتباعه. وَ من ثمّ فقد أصبح المسجد، الَّذِي كان مكانًا للعبادة وَ الدراسة عدّة قرون عاجزًا عن أن يؤدّي وَ حده هٰذَا الدّور فِي هٰذِهِ الظّروف الجديدة الَّتِي شهدت فِي الوقت نفسه تطورًا فِي العلوم وَ تقدمًا كبيرًا فِي المعارف حَتّٰى أصبح فِي المسجد الواحد، عدّة حلقات دراسية لعلوم مختلفة بعضها تستدعي دراسته الكثير من الجدل وَ المناقشة وَ الحوار، الأمر الَّذِي استحالت معه إقامة شعائر الصّلاة وَ إلقاء مثل هٰذِهِ المحاضرات، فِي آن وَاحد، حَتّٰى غدا المسجد مكانًا غير ملَائم للقيام وَ حده بِهٰذَا الدور[١٩٠]. وَ من ثمّ ظهرت الحاجة ماسّة إِلٰى التّوسع فِي إنشاء دور جديد لتلقّي العلم وَ نشره، وَ ليس معنٰى ذٰلِكَ أن المسجد بدأ يفقد دوره الثَّقَافِيّ بظهور هٰذِهِ المدارس فِي حياة الجماعة المسلمة، بل أدّٰى معها دورًا مشتركًا عَلٰى مرّ العصور، وَ نستطيع أن نَقول أن صلة المسجد بالمدرسة تشبه صلة العلم بالعبادة فِي الدّين الإِسْلَامِيّ، فهما كما نعرف شَيْآنِ لا ينفصلَان أبدًا. وَ لِهٰذَا لا غرو فِي أن تنشأ المدارس الأولٰى فِي الإِسْلَام إِلٰى جانب المساجد، وَ أن يكون منشِئُو المساجد، عادة، هم منشئِي المدارس فِي الوقت نفسه.

لقد فتحت أولٰى المدارس فِي الإِسْلَام سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م فِي بغداد عَلٰى يد الوزير التّلجوقي الشّهير نظام الملك[١٩١] (٤٠٩-٤٨٥ هـ / ١٠١٨- ١٠٩٢

---

١٩٠ تأريخ التّربية الإِسْلَامِيّة، أحمد شلبي، الطّبعة الثّالثة، ص ١١٣، القاهرة ١٩٦١ م.

١٩١ فتح السّلاجقة العراق وَ دخلوا بغداد فِي الخامس وَ العشرين من محرّم سنة ٤٤٨ هـ / فِي الثّالث عشر من نيسان سنة ١٠٥٦ م.

م) الَّذِي بنٰى مدارس كثيرة[192] فِي بغداد وَ بلخ وَ هرات وَ أصفهان وَ الموصل وَ أمدّها بالأساتذة وَ الأموال وَ الكتب، حَتّٰى لمْ نجد مدينة أو قرية إلّا وَ فيها مدرسة[193]. وَ لم يتوقّف هٰذا النّشاط فِي أيام الشّاهات وَ الأتابك الَّذِينَ أقاموا الإمارات عَلٰى أنقاض السّلاجقة، وَ من أشهر الأشخاص الَّذِينَ قاموا ببنائها فِي هٰذِهِ الفترة – وَ خاصّة فِي سوريا – كان البطل نورالدّين زنكي[194] الَّذِي أنشأ مدارس كثيرة فِي دمشق وَ حلب وَ حماة وَ حمص وَ غيرها. وَ ظهرت المدارس فِي مصرَ فِي زمن الأيّوبيّين[195] الَّذِينَ أقاموا كثيرًا منها فِي مصرَ[196] وَ دمشق وَ القدس. وَ تتميّز هٰذِهِ الفترة بإقبال الأمراء وَ الأميرات وَ التّجّار وَ غيرهم من الأهليّين فِي بناء هٰذِهِ المدارس وَ رعاية العلم[197].

---

[192] تاريخ التّربية الإسلاميّة، أحمد شلبي، ص ١١٦.

[193] وَ عرفت هٰذِهِ المدارس باسم "المدارس النّظاميّة".

[194] آلَتْ إلَيْهِ سوريا ثمّ مصر بعد ذٰلِك.

[195] استمرّ عهد الأيّوبيّين من سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م حَتّٰى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م.

[196] أحمد شلبي، تاريخ التّربية الإسلاميّة، ص ١١٧.

[197] Ćurić, Hajrud-dīn (1965.) *Školske prilike muslimana u Bosni i Hercegovini (1800-1878.)*, Sarajevo, p. 102.

تْشوريتْش خيرالدّين، الظّروف المدرسيّة لمسلمِي الْبوسْنَة وَ الْهَرْسَك من سنة ١٨٠٠-١٨٧٨ م، ص ١٠٢، سراييفو ١٩٦٥ م.

أمّا المدارس فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة فيرجع إنشاؤها إِلَى بداية القرن الرّابع عشر الْمِيلَادِيّ[198]، إِلَّا أنّ ظهورها بشكل ملحوظ بدأ بعد فتح القسطنطينيّة (٨٥٥ ه / ١٤٥٣ م) فِي أيّام مُحَمَّد الفاتح الَّذِي كان يشكو من أن دولته عَلَى الرّغم من اتّساعها الكبير، ينقصها رجال العلم، وَ أنها قد تأخّرت عن الدّول الْإِسْلَامِيَّة الأخرى فِي هٰذَا الميدان. وَ لمّا بنى السّلطان جامعه المشهور فِي إِسْطَنْبُول (في الفترة مابين سنة ٨٦١-٨٧٥ ه / ١٤٥٦-١٤٧٠ م) أقام حوله ثماني مدارس، عرفت باسم سمانية[199] (Semanije). وَ قام بعد ذٰلِكَ السّلاطين وَ الوزراء وَ الولاة بإنشاء المدارس الأخرى[200] فِي إِسْطَنْبُول وَ بروصة وَ أدرنة وَ غيرها من المناطق، وَ أشهر هٰذِهِ المدارس:

- مدرسة أسكي عليّ پاشا فِي بورصة – Bursa

---

[198] أنشئت المدرسة الأولى فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة سنة ٧٣٢ ه / ١٣٣١ م، فِي نِيكِيَا (Nikeja) زمن السلطان أورخان (Orhan).

[199] كانت هٰذِهِ المدارس فِي ذٰلِكَ الوقت أعلى مدارس فِي الدّولة. أمّا المدرسة الَّتِي كانت من الدرجة الثّانية فهي تِلْكَ المدرسة الَّتِي أنشأها مراد الثّاني (٨٢٤-٨٥٥ ه/ ١٤٢١-١٤٥١ م) فِي أدرنة.

[200] كان عدد هٰذِهِ المدارس كبير جدًّا، فكان عددها فِي إِسْطَنْبُول وَحْدها فِي القرن السّادس عشر خمسًا وَ تسعين مدرسة، وَ بلغ هٰذَا العدد فِي القرن التّاسع عشر مِائَة وَ سبعين مدرسة.

İnalcık, Halil (1974.) *Osmansko carstvo*, p. 239.

الإمبراطورية الْعُثْمَانِيَّة، خليل إينالجق، ص ٢٣٩.

- مدرسة شهابالدّين فِي پْلوفدف – Plovdiv

- مدرسة إسحاق بك[٢٠١] فِي سْكوپيه – Skopje

أمّا مَا يتعلّق بمنهج هٰذِهِ المدارس وَ مستواها العلميّ، فيمكن تقسيمه إِلٰى قسمين:

١- المدارس الخارجيّة – وَ كان يدرس فيها علوم النّحو وَ الصّرف وَ الفلك وَ المنطق وَ علم الكَلَام. وَ يتدرّج تحت هٰذَا القسم من المدارس ثلاثة أنواع:

أ- تجريد[٢٠٢] المدارس – أي المدارس من عشرين أقچه[٢٠٣].

ب- "مفتاح"[٢٠٤] المدارس – أي المدارس من ثلاثين أقچه،

ت- المدارس من أربعين أو خمسين أقچه.

---

٢٠١ مُؤَسّسُ مدينةِ سَرَايِيفُو.

٢٠٢ وَ سمّيت بِهٰذَا الاسم نسبة إِلٰى كتاب "التّجريد" لنصرالدين الطّوسيّ (٥٩٨-٦٧٣ ﻫ / ١٢٠١-١٢٧٤ م) وَ كان كتابًا مقرّرًا فِيهَا.

٢٠٣ أقچه (Akça) العملة الْعُثْمَانِيَّة القديمة وَ كانت تستعمل منذ أيّام السّلطان أورخان.

٢٠٤ نسبة إِلٰى الكتاب "مفتاح العلوم" للسّكاكيّ.

وَ هٰذَا النّوع الأخير من المدارس كان مستواه أعلٰى من مستوٰى النّوعين الآخرين، حيث كانت تدرس فِيهَا – إِلٰى جانب مفتاح العلوم – دروس فِي علم الكَلَام[205] وَ علوم الشّريعة وَ الفقه[206].

٢- المدارس الدّاخليّة – وَ تعتبر هٰذِهِ المدارس مدارس عليا فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة، وَ الرّاتب الشّهريّ لمدرسيها كان يتراوح مَا بين أربعين أقچه فما فوق. وَ تتنوّع هٰذِهِ المدارس كذٰلك إِلٰى ثلاثة أنواع:

أ- المدارس الابْتدائيّة الداخليّة – وَ كانت تدرس فِي صفوفها الأولٰى "الهداية" وَ في الوسطٰى مبادئ العلوم الشرعية اعتمادًا عَلٰى كتاب "التلويح" للتّفتازاني (٧١٢-٥٣٩ ه / ١٠٧٤-١١٤٤ م). وَ فِي صفوف العليا كان تدرس علوم التّفسير وَ كان الكتاب الرّئيسيّ لِهٰذِهِ الدّراسة "الكشّاف" للزّمخشريّ (٤٦٦-٥٣٩ ه / ١٠٧٤-١١٤٤ م).

ب- مدارس التّتمّة (Tetimme)، وَ هِيَ المدارس الَّتِي أسّسها السلطان مُحَمَّد الفاتح، وَ كانت تعتبر من المدارس المتوسطة فِي الدولة.

---

[205] وَ لقد عرفنا أن هٰذَا الكتاب المقرر لِهٰذِهِ الدّراسة كان كتاب "المواقف فِي علم الكلام" لعضدالدّين الإيجي (ʻAḍudud-dīn El-Idžī) (٦٧٩-٧٥٦ ه / ١٢٨٠-١٣٥٥ م).

[206] وَ كان الكتاب المقرر فِي الفقه كتاب "الهداية" لِمارْغيني (Margīnī) المتوفّٰى سنة ٥٩٤ ه / ١١٩٧ م.

ت- المدارس (Sema'ijje) وَ كانت أعلٰى المدارس فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة كما قلنا وَ كان يدرس فيها علوم الشريعة وَ علوم الْقُرْآن وَ علوم علم الكلام وَ علم المنطق وَ غيرها من العلوم.

وَ بعد هٰذَا العرض السريع لأنواع المدارس فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة نستطيع أن نقول بأن التّربية المدرسيّة فيها مرت بثلاث مراحل أساسية هي:

١- المرحلة الأولٰى: وَ تشمل الفترة مَا بين سقوط القسطنطينيّة وَ نهاية القرن السّادس عشر، وَ هي الفترة الذهبيّة فِي التاريخ الْإسْلَامِيّ الْعُثْمَانِيّ وَ تتميّز هٰذِهِ الفترة بفتوحات وَاسعة فِي قارات ثلاثة، إذْ بلغت الدولة الْعُثْمَانِيَّة فيها أوجهها السِّيَاسِيّ وَ الاقتصاديّ وَ الثّقافيّ. وَ هٰذِهِ الفترة لا تشتهر بكثرة مدارس فحسب، بل حاول السّلاطين، وَ خاصّة مُحَمَّد الفاتح وَ سليمان الثاني، تحسين مستواها العلميّ وَ العمل عَلٰى رفع شأنها بين المدارس الأخرٰى فِي العالم الْإسْلَامِيّ.
٢- المرحلة الثّانية: وَ تبدأ هٰذِهِ المرحلة بعد فشل فتح فيينا (Wien) (سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣ م) حيث بدأ العملاق الْعُثْمَانِيّ يتراجع أمام التّيار الأوروبيّ المسيحيّ. وَ تتميز هٰذِهِ الفترة بالضّعف العسكريّ وَ الاقتصاديّ للدولة الْعُثْمَانِيَّة، فِي الوقت الَّذِي أخذت فيه الدول الأوروبيّة تزداد قوة، بفضل الاكتشافات الجغرافيّة وَ العلميّة، إلٰى جانب استغلالها لثروات هائلة من دول الشّعوب المغلوبة. وَ لا بدّ أن نعترف أن الْعُثْمَانِيِّينَ فِي هٰذِهِ الفترة أصبحوا بعيدين عن الأحداث

العالميّة الكبرٰى، وَ أن هٰذَا الضّعف السِّيَاسِيّ وَ الاقتصاديّ الَّذِي أصيبت به أدّى بها إلٰى الضّعف الثَّقَافِيّ وَ التربوي أيْضًا.

٣- المرحلة الثّالثة: وَ تتميّز هٰذِهِ المرحلة بمحاولة إنقاذ الدولة الْعُثْمَانِيَّة من المأزق السِّيَاسِيّ وَ الاقتصاديّ وَ الثقافيّ، وَ قد قام بهذه المحاولة السّلطان سليم الثّالث (١٢٠٤-١٢٢٢ هـ / ١٧٨٩-١٨٠٧ م) حين حاول أن يستفيد من النّظم السِّيَاسِيَّة العالميّة الحديثة، وَ لٰكنه وَجَد معارضة شديدة من أنصاره وَ جنده، وَ انتهٰى به الأمر إلٰى أن ثار عليه الانكشارية وَ خلعوه من الحكم، وَ أجلسوا مكانه مصطفٰى الرّابع (١٢٢٢-١٢٢٣ هـ / ١٨٠٧-١٨٠٨ م)، وَ أهمّيّة موضوع المدارس فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة – بالنسبة إلٰى موضوع بحثنا – هُوَ أن الْعُثْمَانِيِّينَ هم الَّذِينَ نقلوا هٰذَا الشكل المستقل من المدارس من السّلاجقة إلٰى بلاد البلقان، وَ من بينها الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

وَ قبل أن نتكلم عن المدارس فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ دورها الكبير فِي نشر الثّقافة الإِسْلَامِيَّة فيها، لَا بدّ من أن نتكلّم عن الكتاتيب الَّتِي أنشئت قبل المدارس بكثير[٢٠٧]. وَ لمّا كان الدّين الإِسْلَامِيّ يهتمّ اهتمامًا بالغًا بتعليم الأطفال

---

[٢٠٧] وَ يذهب أكثر الباحثين إلٰى أن هٰذِهِ الكتاتيب قد ظهرت فِي العهد الإِسْلَامِيّ المبكّر. وَ يخالف هٰذَا الرّأي الدكتور أحمد شلبي الَّذِي يرٰى أنها ظهرت أول مرة فِي زمن الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ المتوفّٰى سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م. أحمد شلبي، تاريخ التربية الإِسْلَامِيَّة، ص ١٩، بيروت ١٩٥٤ م.

الْقُرْآن الكريم[٢٠٨] فقد خصّصت الدّولة، لهم أجنحة خاصّة، أو بنايات خاصّة، ألحقتها بالجوامع وَ المساجد أو جعلتها مستقلّة عنها[٢٠٩] – ليتعلّم – فيها هٰؤُلَاءِ الأطفال الكتابة وَ القراءة، وَ تمثّل هٰذِهِ الكتاتيب فِي الحقيقة المدارس الابتدائية الأولٰى فِي تاريخ التّربية الإِسْلَامِيَّة. وَ يشير إِلٰى هٰذِهِ الكتاتيب فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة أحد الرّحّالة الفرنسيّين، عندما مرّ بتركيا فِي منتصف القرن السّادس عشر، وَ يقول فيما يقول: "إن الْعُثْمَانِيِّينَ (وَ يقصد بهم المسلمين طبعًا) يبذلون جهودًا كبيرة فِي تعليم أطفالهم اللُّغَة الْعَرَبِيَّة وَ أنهم يبنون لهم المباني الخاصّة لِهٰذَا الغرض، وَ ليس ذٰلِكَ فِي المدن فحسب وَ إنما فِي القرٰى أَيْضًا."[٢١٠] وَ طبيعيّ أنّ هٰذَا الوصف – يشمل الْبُوسْنَة – كذٰلك لأن الْبُوسْنَوِيِّينَ قد عرفوا بتمسكهم الشّديد بالدين الإِسْلَامِيّ وَ حرصوا قبل غيرهم عَلٰى تعليم أطفالهم أداء الصّلاة وَ قراءة القرآن الكريم. وَ لقد استطاع هٰؤُلَاءِ الأطفال أن يتعلموا قراءة الْقُرْآن بعد سنتين

---

٢٠٨ أكثر الشّخصيّات الإِسْلَامِيَّة اللّامعة حفظت الْقُرْآن الكريم قبل بلوغ سنّ الرّشد.

٢٠٩ التّربية عبر التّاريخ (من العصور القديمة حَتّٰى أوائل القرن العشرين)، عبدالله عبدالدّائم، الطّبعة الأولٰى، ص ١٤٦، بيروت ١٩٧٢ م.

٢١٠ Samardžić, Radoje (1961.) *Beograd i Srbija u spisima francuskih savremenika XVI-XVII veka*, Beograd, p. 321.

بلغراد وَ صِرْبيا فِي مؤلّفات المعاصرين الفرنسيّين من القرن السّادس عشر وَ السّابع عشر، سامارجيتْش رادويه، ص ٣٢١، بلغراد ١٩٦١ م.

قضوهما فِي المكتب، وَ كانت تقام بهذه المناسبة حفلات خاصة فِي بيوت هؤلاء الأطفال[٢١١].

أمّا فيما يتعلّق بعدد هٰذِهِ الكتاتيب فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ – فِي الفترة الَّتِي ندرسها – فليس أمامنا من المصادر مَا يوثق بها فِي هٰذَا الصدد، وَ قد يكون المصدر الوحيد الَّذِي يمكن أن نثق به هو سالنامه[٢١٢] (Sālnāmē) من سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م، وَ عدد الكتاتيب – حسب هٰذِهِ السّالنامِه كان أكثر من تسعمِائة كتاب، موزعة عَلٰى السّناجق عَلٰى النّحو التّالي:

اسم السّنجق		عدد الكتّاب
١	سرايِيفو	١١٤
٢	زْفورنيق	٢٠٩
٣	بيهاتْشْ	٢٤١
٤	تْراوْنِيقْ	٩٧
٥	الْهَرْسَك	٩٩
٦	بانْيالوقا	٧٥
٧	نووي بازار	٧٠
المجموع		٩٠٥

الجدول رقم ٣

[٢١١] فهٰذِهِ العادة لا تزال موجودة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

[٢١٢] سالنامه (Sālnāmē) كلمة فَارِسِيَّة وَ معناها: التّقويم السّنويّ.

وَ مع أنّ هٰذِهِ السّالنامات لا تعطينا إحصائيّات دقيقة دائمًا، إلّا أنّنا نأخذ هٰذَا العدد بغير قليل من الحذر وَ الاحْتياط. وَ عَلٰى الرّغم من أن عدد الكتاتيب كان أكبر من عدد الجوامع وَ المساجد، وَ أن العدد المذكور قد يكون مبالغًا فِيهِ بعض الشّيء، إلّا أنه يمثّل رأي أكثر الباحثين الْيُوغُسْلَافِيِّينَ، الَّذِينَ يتفقون عَلٰى أن عدد الكتاتيب إبّان انسحاب الْعُثْمَانِيِّينَ (سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ م) قد زاد عن خمسمِائة كتّاب[٢١٣]. وَ أن مدينة سرايِيفو – وَ حدها – قد أقيم فيها أكبر عدد من هٰذِهِ الكتاتيب، إلٰى جانب مَا وَجد فِي سائر مدن الْبُوسْنَة وَ قُرَاها كما ذكرنا.

وَ سوف ننتقل الآن إلٰى موضوع المدارس[٢١٤] فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ نكتب أوّلًا نبذة عن أشهر المدارس، ثمّ نتكلّم عن مستواها العلميّ وَ التّربويّ. وَ من أشهر هٰذِهِ المدارس:

١- مدرسة فيروز بك[٢١٥] (Fejruz-beg) فِي سرايِيفو:

ليس لدينا معلومات عن أوّل مدرسة بنيت فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ إلّا أنّنا نعتقد أن هٰذِهِ المدرسة هي الأولٰى، لِأنّنا لم نجد ذكرًا لِأيّ مدرسة

---

٢١٣ سرايِيفو منذ أقدم العصور حَتّٰى الاحتلال النّمساويّ، سكاريتْش وَلاديسْلَاف، ص ١٤٧، سرايِيفو ١٩٣٧ م.

٢١٤ وَ يقصد بِالْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بكلمة "مدرسة" مرحلة التّعليم الثّانويّ فقط.

٢١٥ وَالي الْبُوسْنَة الشّهير، بُوسْنَوِيّ الأصل، دخل بلاط السّلطان بايزيد الثّاني وَ تولّٰى مناصب مختلفة فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة حَتّٰى عين وَالِيًا عَلٰى الْبُوسْنَة سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م.

أقيمت قبل هٰذِهِ. وَ لقد أنشئت هٰذِهِ المدرسة فِي الفترة مَا بين سنة ٩١١-٩١٩ هـ / ١٥٠٥-١٥١٣ م، وَ نعرف أنّها هدمت أو أحرقت أثناء غزو البرنس أُوْغِينْ النّمساويّ (Princ Eugen) – لمدينة سراييفو سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م.

٢- مدرسة الغازي خسرو بك فِي سراييفو:

وَ هٰذِهِ المدرسة هِيَ الثّانية من حيث البناء، لٰكنّها أشهر مدرسة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الماضي وَ الحاضر[٢١٦]. ثمّ بناؤها سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م، وَ من أهمّ الوثائق التّاريخيّة الَّتِي تتعلّق بِهَا هِيَ وَقْفِيَّة الواقف الَّتِي حررت فِي السّادس وَ العشرين من رجب سنة ٩٤٣ هـ / اليوم الثّامن من كانون الثّاني سنة ١٥٣٧ م[٢١٧]، وَ نفهم من تِلْكَ الوثيقة أن الواقف أراد أن يجعل من مدرسته هٰذِهِ مركزًا إسلاميًّا ثقافيًّا عاليًا، إذ ينصّ فِي وَقفيّته "ألّا يتوقف برامج مدرسته عَلٰى العلوم الَّتِي ذكرت فِي وَقفيّته (علم البيان وَ المعاني، وَ علم الأصول

---

٢١٦ هِيَ المدرسة الوحيد الَّتِي لا تزال قائمة من مدارس الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك. أمّا المدرسة الإسْلَامِيَّة الثّانية فِي يوغسلافيا الَّتِي لمْ تغلقْ أبوابها بعد هي مدرسة علاءِالدّين (‘Alā’ud-dīn) فِي مدينة پريشتينا (Prishtinë) فِي منطقة كوسوفو (Kosovë).

٢١٧ أصل هٰذِهِ الوقفيّة قد فقد، لٰكن توجد نسخة لها محفوظة مؤيّدة من المحكمة الشّرعيّة فِي سراييفو بتأريخ ٨ جماذى الأولٰى سنة ١٢٧٣ هـ / ٤ يناير سنة ١٨٥٧ م.

وَ الأحكام، وَ علم التّفسير وَ علم الكلام..."[218] إلخ) بل يوصي بأن تتقدّم وَ تتطوّر، لتشمل العلوم الأخرٰى حسب متطلبات الحياة وَ الزمان[219] وَ لمْ يهتمّ الواقف بالجانب الرُّوحي من حياة الطّلبة فحسب بلِ اهْتمّ كَذٰلِكَ بالجانب المادي حيث عين لهم فِي الوقفية مبلغًا قدره درهمين يوميًّا وَ بنٰى مطعمًا بقرب المدرسة وَ قد تحقّقت أماني الواقف هٰذِهِ إذْ مشتِ المدرسة مع الزمن وَ كانت تمثّل مركزًا إسلاميًّا وَ ثقافيًّا كبيرًا أدّٰى دوره الشّريف فِي حياة الجماعة المسلمة فِي يوغسلافيا، وَ لا تزال تؤدي هٰذَا الدور حَتّٰى الآن.

٣- خانقاه[220] (Hanikah) الغازي خسرو بك فِي سراييفو:

لقد أشرنا فِي أحد الفصول السابقة بأن الغازي خسرو بك كان يهتمّ بأمور الدّراويش[221]، وَ بنٰى لِهٰذَا الغرض المدرسة الصّوفيّة الوحيدة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، تمّ بناء المدرسة سنة ٩٣٨ هـ / ١٥٣١ م، وَ نفهم من نصّ وَقفيّتِهِ أنّ شيخ هٰذِهِ المدرسة هُوَ أحد شيوخ طريقة

---

[218] وَقفيّة الغازي خسرو بك، وَرَقة رقم ٥، المكتبة غازي خسرو بك فِي سراييفو.

[219] السّابق، وَرقة رقم ٥.

[220] الخانقاه (Hanikah) هِيَ المدرسة المتخصّصة لتعليم الدّراويش.

[221] راجع الصّفحة ١٢٠.

خَلْوَتيّ[٢٢٢]. وَ لقد أخطأ كثيرًا من الباحثين حينما اعتبروا هٰذِهِ المدرسة مجرّد زاوية من زوايا الدّراويش، وَ الحقيقة أنّها لم تكن كذٰلك، فالواقف الَّذِي كان مؤمنًا بأفكار الصّوفية، وَ ربّما كان هو نفسه صوفيًا كان يدرك أن الصّوفية ليست زيًّا خاصًّا يرتديه الصّوفي، بل هي فِي اعتقاده دراسة روحيّة طويلة تتأتّى عن طريق التّبحر فِي العلم وَ المعرفة. وَ كان الخانقاه مدرسة بمعنًى الكلمة فِي بداية الأمر، فلما أصبح بمرور الزّمن تكّية من التكايا أغلقت أبوابه[٢٢٣]. وَ يجدر بنا أن نذكر أن هٰذِهِ المدرسة قد تخرج منها عدد من الشّخصيّات الإسْلَامِيَّة الكبيرة الَّذِينَ قدموا لِلْإِسْلَامِ وَ الجماعة المسلمة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ خدمات جليلة[٢٢٤].

٤- مدرسة فرهاد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ فِي بَانْيَالُوقَا:

لسنا ندري متًى أنشئت هٰذِهِ المدرسة، لِأن فرهاد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ لا يذكرها فِي وَقفيّته من سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م، وَ لٰكن يبدو أنها

---

[٢٢٢] وَقفيّة الغازي خسرو بك، وَرَقة رقم ١٣-١٤، سراييفو.

[٢٢٣] حدث ذٰلِكَ سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م.

[٢٢٤] كان أشهر هٰؤُلَاءِ الأشخاص المدرس مُحَمَّد ياماقوفيتْشْ (Muḥammed Jamaković) كان شيْخًا فِي الخانقاه من سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م حَتَّى سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م، وَ كان من أكبر المجاهدين ضدّ الاحتلال النّمساويّ للبوسنة وَ الْهَرْسَك، أعدم سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م فور دخول جيش الاحتلال.

بنيت بعد ذٰلِكَ الوقت بقليل. وَ يذكر هٰذِهِ المدرسة الرّحّالة التّركي أوْلِيَاء چلَبِي الَّذِي مرّ بِبَانْيالُوقَا (Banja Luka) سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م[٢٢٥]. وَ لا نعرف شيئًا كثيرًا سِوٰى أنّها كانت من طراز المدارس الْعُثْمَانِيَّة الأخرٰى المعاصرة.

٥- مدرسة قَره گوز بك (Karađoz-beg) فِي موستار[٢٢٦]:

بعد أن أشرنا إِلٰى أربع مدارس أنشئت فِي الْبُوسْنَة نودّ أن نذكر أهمّ وَ أكبر مدرسة أنشئت فِي منطقة الْهَرْسَك، بنيت هٰذِهِ المدرسة قبل سنة ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م بقليل، وَ نفهم ذٰلِكَ من وَقفية الواقف الَّتِي

---

[٢٢٥] Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāma*, p. 212.

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٢١٢.

[٢٢٦] مدرسة درويش پاشا بايزيد آقيتْش (Derviš-paša Bajezidagić) بنيت سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م.

مدرسة روزنامهجي إِبْرَاهِيم أفندي (Roznamedži Ibrāhīm) بنيت سنة ١٠٢١ هـ / ١٦٢٠ م.

مدرسة كوسكي مُحَمَّد پاشا (Koski Mehmed-paša) بنيت سنة ١٠٣٠ هـ / ١٦٢٠ م.

مدرسة كيوان پيوُودَا (Ćejvan Pivoda) بنيت سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م.

مدرسة الحاجّ بالي (El-Ḥādždži Bālī) بنيت سنة ١٠٢١ هـ / ١٦٠٢ م.

حرّرت فِي السّنة نفسها. وَ هٰذِهِ المدرسة لا تزال قائمة، وَ إن كانت أبوابها قد أغلقت أبوابها منذ زمن بعيد.

أمّا عن هٰذِهِ المدارس فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فمن الصّعب معرفته. وَ كلّ مَا نستطيع أن نعرف – وَ لو بوجهٍ تقريبيٍّ – هُوَ عدد هٰذِهِ المدارس أثناء انسحاب الْعُثْمَانِيِّينَ من هٰذِهِ المناطق وَ ذٰلِكَ سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م، وَ نجد فِي "سالنامه" من سنة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م أن عدد هٰذِهِ المدارس – حسب السّناجق – كان كَالْآتِي:

اسم السّنجق	الاسْم بالحُروف اللّاتينيّة	عدد المدارس
سراييفو	Sarajevo	١٠
تْراوْنِيقْ	Travnik	٤
زْفورنيق	Zvornik	٦
بانيالوقا	Banja Luka	٦
بيهاتْشْ	Bihać	٥
الْهَرْسَك	Hercegovina	١٠
نووي بازار	Novi Pazar	٣
المجموع		٤٤

الجدول رقم ٤

وَ يبدو أن هٰذَا العدد هُوَ الصّحيح إذْ يتّفق مع أبحاث بعض الباحثين وَ منهم وْيِيكوسْلَاف كْلَايِيتْشْ (Vjekoslav Klaić) الَّذِي يقول أنّ عدد هٰذِهِ

المدارس سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م كان ثلَاثًا وَ أربعين مدرسة[٢٢٧]. وَ قد أغلقت أبواب أكثر هٰذِهِ المدارس فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ منذ البدايات الأولٰى من هٰذَا القرن حَتّٰى بداية الحرب العالميّة الثّانية.

أمّا العلوم الَّتِي كان الطّلّاب يتلقّونها فِي مدارس الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، فهي نفس العلوم الَّتِي كانت موجودة فِي مدارس الدولة الْعُثْمَانِيَّة فِي إِسْطَنْبُول وَ بورصة وَ أدرنة وَ غيرها. وَ تذكر وَقفيّة الغازي خسرو بك – كما مرّ بنا – بعض هٰذِهِ العلوم مثل علم المعاني وَ البيان، وَ علم الأصول وَ الأحكام وَ علم التّفسير وَ علم الحديث وَ علم الكَلام، وَ ممّا لَا شكّ فِيهِ أنّ عدد هٰذِهِ العلوم قد ازْداد بمرور الزّمن وَ كان يدرس فِي هٰذِهِ المدارس علم اللُّغَة وَ علم البلاغة وَ النّحو وَ المنطق وَ التّأريخ وَ الفلسفة وَ علم الهيئة وَ الحساب وَ الهندسة وَ الجغرافية وَ غيرها من العلوم. وَ يبدو كذٰلك أن أكثر هٰذِهِ الدّروس كان يلقيها أستاذ وَاحد[٢٢٨] وَ ربّما يساعده معيد أو معيدين، وَ نستنتج ذٰلِكَ من نصّ وَقفيّة الغازي خسرو بك (وَ من الوقفيّات الأخرٰى كذٰلك) حيث يشترط عَلٰى أساتذة المدرسة أن يكونوا ملمّين بالعلوم المذكورة.

---

[٢٢٧] Klaić, Vjekoslav (1907.) *Školski vjesnik*, Sarajevo, p. 612..

المخبر المدرسيّ، وَيِيقوسْلاف ڤْلائيتْش، ص ٦١٢، سراييفو، ١٩٠٧ م.

[٢٢٨] وَ عندما نعرف أن هٰذَا الأستاذ كان يتولّٰى عدّة وَظائف أخرٰى فِي البلد كإمام مسجد أو مفتي المدينة، يظهر لنا بوضوح أنّه لم يكن لديه من الوقت متّسع حَتّٰى يؤلّف الكتب وَ يهتمّ بالدّراسة وَ مستواها.

أمّا مَا يتعلق بالكتب المدرسيّة الَّتِي اعتمد عليها الطّلّاب فِي دراستهم فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فلا نعرف عنها شيئًا كثيرًا[229]، لَٰكن بما أن الدّراسة فِي تِلْكَ المدارس كانت تقتصر عَلَىٰ العلوم الدِّينِيَّة الإِسْلَامِيَّة وَ اللُّغَوِيَّة وَ الأدبيّة، فلا شكَّ فِي أنّه كان هُناك عدة كتب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، وَ لقد استطعنا أن نعرف بعض هَٰذِهِ الكتب وَ هي:

	اسم الكتاب	المؤلّف
١	حلية النّاجي	الشّيخ مصطفٰى قز الحصاريّ المتوفّٰى سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م
٢	مختصر القدريّ	أحمد القدريّ المتوفّٰى سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م
٣	ملتقٰى الأبحر	إِبْرَاهِيمُ مُحَمَّد الحلبيّ
٤	أمثلة	كتاب فِي النّحو لمؤلّف غير معروف
٥	بناء	كتاب فِي النّحو لمؤلّف غير معروف
٦	مقصد	كتاب فِي النّحو لمؤلّف غير معروف
٧	عزي	كتاب فِي النّحو لِعبدالله وَاحِد عزّالدّين الفرجاني المتوفّٰى سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م
٨	شرّاح الأرواح	كتاب فِي النّحو لِأحمدَ بنِ عليّ بن مسعود
٩	عوامل	مُحَمَّد البركويّ

[229] لأنّنا لم نعثر عَلَىٰ كتاب يعطينا معلومات عن هَٰذِهِ الكتب.

١٠	إظهار الأسرار	مُحَمَّد البركويّ
١١	الكافية	جمالالدين بن الحاجب
١٢	الفوائد الضّيائيّة	ملا عبدالرحمٰن جامي المتوفّٰى سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م
١٣	الفوائد الضّيائيّة	كتاب فِي المنطق لِأثيرالدّين الأبحريّ المتوفّٰى فِي القرن الثّالث عشر المِيلادِيّ
١٤	القاموس المحيط	مُحَمَّد مجدالدّين الفيروزآباديّ
١٥	شرح العقائد النّفسيّة	سعدالدّين التّفتازانيّ
١٦	شرح هداية الحكمة	حسين قدمير المبادي
١٧	المطول	سعد الدين التّفتازانيّ
١٨	ولدية	مُحَمَّد سجقلي زاده
١٩	الطّريق المحمّديّة	مُحَمَّد البركويّ
٢٠	الجامع الصحيح	مُحَمَّد البخاريّ
٢١	مقامات الحريريّ	القاسم الحريريّ المتوفّٰى سنة ٥١٦ هـ / ١١٢١ م
٢٢	مختصر المعاني	سعدالدّين مسعود التّفتازانيّ
٢٣	العروض	مُحَمَّد الأنْدلسيّ
٢٤	بديع الأمالي	عُثمان الفرغانيّ

الجدول رقم ٥

وَ نودُ أنْ نقول أن هٰذِهِ الكتب، عَلٰى الرّغم من أنّها ألّفت بعناية وَ دقّة فقد استعملت خلال عشرات بلْ مئات السّنين، عَلٰى الرّغم من أن أحدًا لم يعد صياغتها أو يقوم بتبسيطها، وَ إذا صلحت هٰذِهِ الكتب للدراسة فِي وَقْت ما، فلا شكَ أنّها لا تصلح لكلّ الأوقات، وَ لِأجل ذٰلِكَ أصبحت الاستفادة منها عسيرة وَ من ثمّ لا غرو أن يصيب هٰذِهِ المدارس نوع من الجمود.

بقي لنا أن نذكر أنّه فِي نهاية القرن التّاسع عشر الْمِيلَادِيّ ظهر فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ نوع جديد من المدارس عرف باسم: "رشديّة"[٢٣٠] (Rušdijje) وَ هي أوّل المدارس الحكومية. وَ كان الفرق الأساسيّ بين المدرسة وَ بين الرّشديّة، أن الأخيرة كانت مفتوحة لجميع الطّلبة من دون اعتبارات دينيّة، وَ لم تقتصر مناهجها عَلٰى المواد الدّينيّة وَ الفلسفة وَ الأدبية – كما كان شأن المدارس – بل درس فيها موضوعات دنيوية كثيرة. وَ تستغرق الدراسة فِي هٰذِهِ المدارس أربع سنوات فقط، وَ معنٰى ذٰلِكَ أنّها لم تكن عَلٰى المستوٰى الثانوي بل عَلٰى مستوٰى المتوسط.[٢٣١] وَ لا نعرف بالضّبط كم رشديّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، لٰكن عددها كان أقل بكثير من عدد المدارس أو الكتاتيب. وَ قد أنشئت أولٰى هٰذِهِ

---

[٢٣٠] ظهرت هٰذِهِ المدارس فِي تركيا سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م.

[٢٣١] Ćurić, Hajrud-dīn (1965.) *Školske prilike muslimana u Bosni i Hercegovini (1800-1878.)*, Sarajevo, p. 139.

الظّروف المدرسيّة لمسلمِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك من سنة ١٨٠٠-١٨٧٨ م، تْشوريتْش خيرالدّين، ص ١٣٩، سراييفو ١٩٦٥ م.

المدارس (الرّشدية) فِي سراييفو سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م، ثم أنشئت بعد ذٰلِكَ فِي المدن التّالية فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ:

	المدينة	المدينة بالحروف اللّاتينيّة	سنة الإنشاء
١	نووي بازار	Novi Pazar	١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م
٢	پلْييوْليا	Pljevlja	١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م
٣	حليوْنو	Hlivno	١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م
٤	پروساتْس	Prusac	١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م
٥	وِيسوقو	Visoko	١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م
٦	پرِييِيدور	Prijedor	١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م
٧	فوتْشا	Foča	١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م
٨	نِيوِيسِينْيه	Nevesinje	١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م
٩	سْتولاتْس	Stolac	١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م
١٠	ماغْلَايْ	Maglaj	١٢٩٠ / ١٨٧٣ م

الجدول رقم ٦

وَ بقي لنا بعد ذٰلِكَ أن نقول شيئًا عن دور هٰذِهِ المدارس فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ طوال تِلْكَ القرون. حيث يذهب بعض الباحثين إِلٰى أن هٰذِهِ المدارس الَّتِي لم تخرج عن القوالب الدِّينِيَّة (يعني الإِسْلَامِيَّة!) وَ أنّها كانت تخدم النّظام الإقطاعيّ الْعُثْمَانِيّ وَ مصالح السياسة الْعُثْمَانِيَّة، وَ من ثمّ فهي لم تؤد دورًا إيجابيًّا فِي تثقيف الناس أو النهوض بالعلم فِي تِلْكَ المناطق!

وَ حَتَّى لو سلمنا بصحّة هٰذِهِ النظرية فالسّؤال الَّذِي يطرح نفسه: مَا دامت هٰذِهِ المدارس هي الوحيدة طوال تِلْكَ القرون، فمن ذا الَّذِي قام بِهٰذَا الدور العلميّ وَ الثقافيّ؟ أمّا نحن، فلا نقول أن هٰذِهِ المدارس كانت مثاليّة أو أن التربيّة المدرسيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ قد بلغت المنزلة الَّتِي وصلت إِلَيْهَا التّربية الإِسْلَامِيَّة العربية[٢٣٢]، وَ لٰكنّنا نقول بأن هٰذِهِ المدارس قد أدّت دورًا بارزًا فِي الحياة العلميّة وَ الثَّقَافِيَّة وَ الدِّينِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ ذٰلِكَ فِي حدود تِلْكَ البيئة وَ مَا أحاط بها من ظروف وَ ملابسات تاريخيّة إبان تِلْكَ الفترة... وَ غاية مَا يمكن قوله: إنّ هٰذِهِ المدارس كان لها من المساوئ مثلما لها من المحاسن، وَ سوف نلمّ بِهٰذِهِ المحاسن وَ المساوئ معًا بغية أن نعطيَ صورة تاريخية عن حقيقة هٰذَا الدور الَّذِي لعبته تِلْكَ المدارس... فنبدأ بذكر المحاسن:

١- تخرج فِي هٰذِهِ المدارس عدد كبير من العلماء فِي مختلف الميادين. الَّذِينَ قاموا بدورهم بتأليف الآثار الأدبيّة وَ العلمية الكثيرة وَ هي آثار لاتزال غير مدروسة، بل هي "مدفونة" فِي زوايا المكتبات أو البيوت أو تحت الثرٰى. وَ لم يتم هٰذَا الدفن إِلَّا بطريقة بربرية همجية. وَ لا تزال هٰذِهِ الآثار تنبض بالحياة، وَ علينا أوّلًا أن ندرسها وَ نرٰى مَا فِي بطونها ثمّ بعد ذٰلِكَ نقبلها أو نرفضها.

---

[٢٣٢] الجدير بالذّكر أن التّربية المدرسيّة فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة عَلٰى الرغم من المجهودات الكبيرة وَ المحاولات الكثيرة لم تصعد القمة الَّتِي تألقت فيها التّربية المدرسيّة فِي الدول الْعَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة، وَ ذٰلِكَ لأن الدولة الْعُثْمَانِيَّة قبل كلّ شيء وَ بعد كلّ شيْء كانت دولةً عسكريةً.

٢- نودّ أن ننبه إِلٰى حقيقة مهمّة بالنسبة لِهٰذِهِ المدارس هي أنها شرعت منذ بدأت الدراسة فيها باستنتاج الكتب الأدبية وَ الفلسفية الكثيرة الَّتِي أُلّفت بإحدٰى اللّغات الشرقية، وَ لِهٰذِهِ الكتب أهمّيّة تأريخية وَ علمية عظيمة، وَ خاصّة فِي مجال الدراسات الحديثة.

٣- نستطيع أن نقول أن هٰذِهِ المدارس حافظت عَلٰى الدّين الإِسْلَامِيّ وَ على اللُّغة الْعَرَبِيَّة فِي هٰذِهِ المناطق. أمّا الإِسْلَام، فقد كان يربّي دعاته فِي هٰذِهِ المدارس جيلًا بعد جيلٍ. أمّا اللُّغة الْعَرَبِيَّة، فقد كانت تدرس فيها منذ إنشائها، وَ بفضل هٰذِهِ المدارس بقيت هٰذِهِ اللُّغَة حيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ إِلٰى يومنا هٰذَا.

وَ نذكر الْآن بعض مساوِئ تِلْكَ المدارس:

١- عدم الاهتمام بتربية المرأة. وَ لا نستطيع أن نزعم أن المرأة فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة قد أهملت كلّ الإهمال، كما كان شأن المرأة فِي الغرب مثلًا، لِأنّها قد حصلت عَلٰى التّربية المدرسيّة، شأنها فِي ذٰلِكَ شأن الرّجل، وَ لٰكنها حصلت عَلٰى التّربية البَيْتِيّة الَّتِي لا يستهان بها فِي الدين الإِسْلَامِيّ. ثمّ بعد ذٰلِكَ كان لِهٰذِهِ المرأة تقدير وَ شأن فِي المجتمع، خلَافًا للمرأة فِي الغرب، فإنها لم تتلقّ تربية لا فِي البيت وَ لا خارج البيت وَ لم يكن لها شأن فِي المجتمع. إنّ المرأة فِي الدولة العثمانية (وَ كذٰلك فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ) حصلت عَلٰى حقوق كثيرة، لٰكنّها لم تحصل عَلٰى الحقوق الَّتِي حصل عَلَيْهَا الرجل، أو تِلْكَ الَّتِي منحها إياها الْقُرْآن الكريم! وَ ليس من شكّ فِي أن حقوق التربية المدرسيّة أحد هٰذِهِ الحقوق، صحيح أنه كان هناك مدارس

خاصة للنّساء، لكن لم يعن بها العناية الكافية. وَ كلّ مَا نستطيع أن نقول هو أن المرأة المسلمة لا تزال محرومة من الحقوق الَّتِي ضمنها الْقُرْآن لها، فلماذا نعيب الْعُثْمَانِيِّينَ وَ ننسٰى أنفسنا؟! وَ علينا أن نلتزم بحدود خالق الكون وَ الحياة، فهناك نجد حقوقنا جميعًا:

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾.[٢٣٣]

٢- عدم كفاءة بعض أساتذة المدارس وَ مدرسيها فِي بعض الأحيان وَ خاص لأن هٰؤُلاءِ – كثيرًا مَا – قاموا بواجبات أخرٰى فِي المجتمع، مما أدّٰى إلٰى عدم اهتمامهم بأمور المدرسة وَ رفع مستواها العلمي.

٣- عدم الإصلَاحات وَ التّجديدات فِي هٰذِهِ المدارس. وَ لقد ذكرنا أن الكتب المدرسية لم تغير وَ لم تجدد طوال القرون. وَ لا نقول أن الإصلاحات لم يكن لها وُجُود عَلٰى الإطلاق فِي تِلْكَ المدارس، وَ إنما كان ذٰلِكَ بطيئًا، كما أن حاملي هٰذِهِ الإصلاحات وَ التّجديدات – عادة – كانوا من صفوف الطّلبة وَ نادرًا من صفوف مسؤولي المدارس. وَ نريد أن نذكر أن المدرسة الَّتِي اشتهرت بتحرير الفكر وَ الَّتِي سعت دائمًا نحو التّقدّم وَ الازدهار وَ محاربة الأفكار المضادة

---

٢٣٣ الْقُرْآن الكريم، سورة النّساء، الآية ١٣-١٤.

لِلْإِسْلَامِ، كانت مدرسة الغازي خسرو بك فِي سراييفو. وَ لذٰلك احتفظت هٰذِهِ المدرسة بكيانها وَ سمعتها وَ شخصيتها حَتّٰى اليوم، وَ نقول كذٰلك بأنها حَتّٰى الآن لم تتمتّع بالحقوق الَّتِي ضمنها له الواقف فِي وَقفيّته المشهورة، وَ لذٰلك نلاحظ أن طلّاب المدرسة لا يزالون يطالبون بِهٰذِهِ الحقوق المشروعة، حَتّٰى أنهم يقومون بإضرابات بين الحين وَ الآخر.

وَ نستطيع أن نختم هٰذَا الفصل عن المدارس فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ بالقول أن هٰذِهِ المدارس أدّت دورها الثَّقَافِيّ وَ العلمي فِي الفترة الَّتِي يتناولها البحث، كما أنّه كان لِهٰذِهِ المدارس إِلٰى جانب محاسنها، بعض المساوِئ أَيْضًا، لكن هل تخلو مدارس اليوم من تِلْكَ المساوئ، وَ هل تخلو منها غدًا؟ طبعًا لا.

المكتبات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

عزمنا أن نتكلّم عن المكتبات بعد حديثنا عن المدارس وَ ذٰلِكَ لأنّ الحديث عن المكتبات يدخل فِي إطار البحث عن معاهد التّعليم. وَ لقد عني المسلمون منذ

فجر العهد الأمويّ بالكتاب وَ نشره بين الناس، وَ إنشاء الخزائن[٢٣٤] الَّتِي تضمّ الكتب وَ الدفاتر وَ السّجلّات، وَ كانوا يزوّدون المساجد فِي كلّ إقليم بالخزائن الَّتِي تحتوي المصاحف وَ كتب العلم (وَ لقد ذكرنا أن عصر بني العبّاس لأن المكتبة باعتبارها مؤسّسة إسْلَامِيَّة وَ ثقافيّة قد ولدت فِي ذٰلِكَ العصر) وَ استمرّ المسلمون بعد ذٰلِكَ يهتمون بها فِي كلّ زمان وَ مكان، وَ نستطيع أن نقسّم المكتبات الَّتِي ظهرت فِي العالم الإسْلَامِيّ إلٰى ثلاثة أقسام تالية:

١- المكتبات العامّة: وَ قد أنشئت فِي المساجد وَ المدارس وَ كان عددها كثيرًا، لأنّنا لا نجد مسجدًا أو مدرسة إلَّا وَ هي مزودة بمجموعة من الكتب يرجع إلَيْهَا الطّلّاب وَ الراغبون فِي العلم.

٢- المكتبات بين العامّة وَ الخاصّة[٢٣٥]: فهٰذِهِ المكتبات أنشأها الخلفاء وَ الملوك، وَ جعلوا دخولها مباحًا لطبقة خاصّة من الناس وَ كان ذٰلِكَ يحتاج إلٰى إذن خاصّ.

---

[٢٣٤] أقدم هٰذِهِ الخزائن هِيَ خزانة الخليفة الأمويّ خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفّٰى سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م، وَ خزانة الوليد بن عبد الملك المتوفّٰى سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م، وَ خزانة الوليد ابن يزيد بن عبدالملك المتوفّٰى سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م.

[٢٣٥] أشهر هٰذِهِ المكتبات مكتبة الناصر لدين الله المتوفّٰى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م وَ مكتبة المعتصم بالله المتوفّٰى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م.

٣ـ المكتبات الخاصّة[٢٣٦]: انشأها العلماء وَ الأدباء لاسْتعمالهم الخاصّ وَ كانت هٰذِهِ المكتبات كثيرة وَ منتشرة بحيث لا نجد عالمًا أديبًا دون أن تكون له مكتبة.

وَ لا يتّسع المقام للحديث عن المكتبات الإِسْلَامِيَّة وَ دورها عبر القرون لأنّ هٰذَا ليس موضوع بحثنا، وَ إنما أردنا بِهٰذِهِ الإشارة الخاطفة إِلٰى تأسيس المكتبات فِي العالم الإِسْلَامِيّ أن ننبه إِلٰى حقيقة كبيرة، وَ هي أن المكتبات الَّتِي أنشئت فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة فيما بعد وَ في الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك أَيْضًا، لها علاقة قوية بتلك المكتبات فِي العالم الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ، حيث نجد كثيرًا من الكتب الَّتِي وصلت من هناك بطرق مختلفة، وَ هذا إن دلّ عَلٰى شيء فإنما يدلّ عَلٰى أنّه من المستحيل أن نتكلّم عن الثّقافة الإِسْلَامِيَّة فِي مكان دون مكان فِي زمان دون زمان، وَ ذٰلِكَ لأنّها ثقافة ذات منبع وَاحِد وَ ذات أصالة وَاحدة.

أمّا المكتبات فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة فقد ظهرت فيها منذ تأسيسها، بالمساجد وَ المدارس وَ الزّوايا وَ المنشآت الأخرٰى، ثمّ نلاحظ ظهور المكتبات الخاصّة الكثيرة، إِلَّا أن أكثر هٰذِهِ المكتبات أصبح فِي حوزة الأوقاف وَ المكتبات العامّة فيما بعد، وَ أصبحت المكتبة من أهمّ خلايا الوقف حيث رصدت الأموال لتوسيعها وَ عينت الأشخاص الَّذِينَ يحافظون عَلَيْهَا. وَ لا شكّ فِي أن المكتبات فِي تركيا، وَ خاصّة فِي إِسْطَنْبُول يعد من أغنٰى المكتبات بالمخطوطات الإِسْلَامِيَّة

---

[٢٣٦] وَ نذكر من هٰذِهِ المكتبات مكتبة الفتح بن خاقان وَ زير المتوكّل العبّاسيّ المتوفّٰى سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م وَ مكتبة جمال‌الدين القفطيّ المتوفّٰى سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م.

الّتي تجمعت لديها من الأقطار الإسلَامِيَّة المختلفة، بحيث يوجد اليوم فِي هٰذِهِ المكتبات أكثر من مائتي ألف مخطوطة إسلَامِيَّة[٢٣٧]. وَ تعدّ هٰذِهِ المكتبات من أغنَى المصادر لدراسة التّاريخ الإسلَامِيّ الثّقافيّ.

أمّا المكتبات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فقد أنشئت فيها فِي القرن العاشر الهجريّ / السّادس عشر الْمِيلَادِيّ. وَ لقد أسّست هٰذِهِ المكتبات بنفس الطّريقة وَ لنفس الغاية الّتِي أسّست بها وَ من أجلها المكتبات فِي الدّولة الْعَرَبِيَّة الإسلَامِيَّة أوّلا وَ في الدّولة الْعُثْمَانِيَّة الإسلَامِيَّة بعد ذٰلِكَ، وَ لِذَا ننتقل الآن إلَى ذكر أشهر هٰذِهِ المكتبات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ:

١- مكتبة الغازي خسرو بك فِي سراييفو[٢٣٨]:

---

[٢٣٧] İnalcık, Halil (1974.) *Osmansko carstvo*, p. 248.

الإمبراطورية الْعُثْمَانِيَّة، خليل إينالجق، ص ٢٤٨.

[٢٣٨] وَ إلَى جانب هٰذِهِ المكتبة عرفت فِي سراييفو المكتبات التالية:

- مكتبة الحاجّ إسْمَاعِيل آغا بن حسين السّري المعروف بالمصريّ. أسّست سنة ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م.
- مكتبة عبدالكريم نسيم زاده قومشيتْش، أسّست فِي منتصف القرن الثّامن عشر.
- مكتبة عثمان شهدي أفندي، أسّسها سنة ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م.
- مكتبة عبدالله أفندي قنطميريّ، أسّسها سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م.

لا تعدّ هٰذِهِ المكتبة من أقدم المكتبات فِي الْبُوسْنَة فحسب، وَ إنّما هي من أقدمها فِي شبه جزيرة البلقان عَلٰى الإطلاق، أسّست سنة ٩٤٣ ﻫ / ١٥٣٧ م، وَ يشير الواقف فِي وَقفيته إِلٰى أنها تفتح لكي يستفيد منها من يطالع من المستفيدين وَ يستنسخ من يستنسخها من المحصلين[٢٣٩]. وَ هٰذَا النصّ من الوقفيّة له أهمّيّة تاريخية كبيرة، لأنّ أكثر الباحثين الَّذِينَ كتبوا عن هٰذِهِ المكتبة زعموا بأنها كانت تسد حاجات طلبة مدرسة الغازي خسرو بك وَ لم تصبح مكتبة عامّة حَتّٰى سنة ١١٨٠ ﻫ / ١٨٦٣ م، إلّا أن هٰذَا النّصّ يعزّز رأي جماعة من الباحثين، وَ خاصّة المحدثين منهم[٢٤٠]، زعموا بأنّ المكتبة كانت مؤسّسة عامّة منذ إنشائها، وَ إن الاستفادة منها لم تقتصر عَلٰى طلّاب المدرسة وَ إنّما شملت عامّة النّاس.

وَ لسنا ندري عدد الكتب الَّتِي كانت هٰذِهِ المكتبة تحتوي عَلَيْهَا فِي البداية، وَ لا شكّ فِي أنّها كانت كثيرة العدد، وَ لو حفظت هٰذِهِ الكتب جميعها لكان لها أهمّيّة تاريخيّة كبيرة، لأنّ أكثر هٰذِهِ الكتب كان من المخطوطات القديمة الَّتِي وَصَلت إِلٰى هٰذِهِ المكتبة من أقصٰى العالم

---

[٢٣٩] وَقفيّة الغازي خسرو بك، وَرقة رقم ٤، مكتبة الغازي خسرو بك فِي سراييفو.

[٢٤٠] أسّست المكتبة العامة الأولٰى فِي الجزء الأوروبيّ من الدّولة الْعُثْمَانِيَّة فِي مدينة سْكوپيه (Skopje) بمقدونيا (Makedonija) وَ ذٰلِكَ سنة ١٠١٦ ﻫ / ١٦٠٧ م وَ هي مكتبة مُحَمَّد پاشا. وَ نلاحظ أن المكتبة الأولٰى فِي إِسْطَنْبُول قد أنشئت بعد هٰذَا التأريخ بخمسين سنة أيْ فِي سنة ١٠٧٣ ﻫ / ١٦٦١ م وَ هِيَ مكتبة كُبْرُلِنا.

الْإِسْلَامِيّ مثل بغداد وَ القاهرة وَ دمشق وَ مكّة المكرمة وَ المدينة المنوّرة وَ إِسْطَنْبُول وَ غيرها، وَ ذٰلِكَ لأنّ الْبُوسْنَوِيِّين رحلوا إِلٰى الشّرق كثيرًا سواء أكان ذٰلِكَ لأداء فريضة الحجّ أم لطلب العلم أم التّجارة. وَ نعرف أن جانبًا كبيرًا من هٰذِهِ الكتب قد ضَاعَ أو اسْتُهْلِكَ بِسَبَبِ كثرة اسْتعمالِهَا[٢٤١]، كما فقد جانب كبير منها أثناء الغارة الَّتِي شنّها البرينس أُوُوغين (Princ Eugen) النّمساويّ عَلٰى سراييفو سنة ١٠٩٩ هـ/ ١٦٨٧ م.

وَ قد نقل إِلٰى هٰذِهِ المكتبة ــ منذ سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م كتب كثيرة من المكتبات الأخرٰى، العامّة أو الخاصّة من مختلف مناطق الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك[٢٤٢]، وَ إِلٰى جانب ذٰلِكَ زوّدت المكتبة بكتب قيّمة استطاعت الحصول عَلَيْهَا عن طريق الوقف وَ الوصية وَ التّبرّع وَ الابتياع. وَ تضمّ هٰذِهِ المكتبة اليوم تسعة آلاف من المخطوطات الْعَرَبِيَّة وَ التّركية وَ الْفَارِسِيَّة، وَ تأْتي المخطوطات الْعَرَبِيَّة ــ من حيث العدد ــ فِي الدّرجة الأولٰى. وَ تضمّ هٰذِهِ المكتبة أربعة عشر سِجِلًّا[٢٤٣] للمحكمة الشرعية فِي سراييفو، وَ هي سجلّات من القرن

---

[٢٤١] قدْ أجاز الوقف باستنساخ كتب المكتبة كما ذكرنا.

[٢٤٢] فِي الأونة الأخيرة بدأ تتجمّع الكتب فِي هٰذِهِ المكتبة من جميع أنحاء يوغسلافيا.

[٢٤٣] لِهٰذِهِ السّجِلَّاتِ وَ الوثائق أهمّيّة كبيرة بالنّسبة لدراسة التّأريخ الاقتصاديّ وَ الاجتماعيّ وَ الثّقَافِيّ لبلاد الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

السّابع عشر وَ الثّامن عشر الْمِيلَادِيّ، وَ عددًا من الدفاتر الماليّة (الصّادر وَ الوارد) لوقف الغازي خسرو بك ثمّ مَا يقرب من أربعمائة وَقفية (وقف نامه (Vakuf nāma)) وَ مَا يقدر بنحو ثلاثة آلاف وَ خمسمِائة وَثيقة تأريخيّة، يرجع زمنها إِلٰى الفترة مَا بين القرن السادس عشر وَ منتصف القرن التاسع عشر، كما أن لِهٰذِهِ المكتبة أهمّيّة كبيرة فِي حقل الدراسات الإِسْلَامِيَّة لِأنّها تضمّ كثيرًا من الكتب الْعَرَبِيَّة وَ التركية وَ الْفَارِسِيَّة. أمّا بالنّسبة للكتب الْعَرَبِيَّة الموجودة فِي هٰذِهِ المكتبة، فنجد فِيهَا مخطوطات قديمة وَ نادرة حَتّٰى أن بعضها غير معروفة لأهل العلم. وَ تتناول هٰذِهِ الكتب العلوم الإِسْلَامِيَّة وَ أخصّ بالذّكر علم التّفسير وَ علم الحديث وَ علم الفقه، كما نجد فِي بطونها الكتب الَّتِي تعين عَلٰى دراسة الآداب الْعَرَبِيَّة وَ التّركية وَ الْفَارِسِيَّة الَّتِي كانت تنمو فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ. وَ سوف نتناول هٰذِهِ المخطوطات عمومًا، وَ المخطوطات الْعَرَبِيَّة خصوصًا فِي الفصل الثّاني من هٰذَا الباب، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَ نودّ أن نشير إِلٰى أن هٰذَا التّراث العلميّ وَ الثَّقَافِيّ لمْ يدرسْ دراسة علميّة وَافِية حَتّٰى الآن عَلٰى الرّغم من وُجود رغبة جامحة عند الكثيرين لمثل هٰذِهِ الدراسات، وَ ذٰلِكَ لأنّ المكتبة ليس لديها فهرس مطبوع يكشف مَا فيها من الكتب. وَ نودّ أن نشير هُنا كذٰلك إِلٰى المجهودات الكبيرة وَ المشكورة الَّتِي يقوم بها بعض علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي سبيل وَضْع هٰذَا الفهرس. فما نكاد نصل فِي العقد الخامس من هٰذَا القرن حَتّٰى نلاحظ قيام بعض المستشرقين الْيُوغُسْلَافِيِّينَ المسلمين بالعمل فِي كتابة فهرس المكتبة. وَ كان أول

من قام بهذا العمل الأستاذ مُحَمَّد الخانجيّ وَ ذٰلِكَ سنة ١٣٥٦ ﻫ / ١٩٣٧ م حيث كتب أكثر من ألفي بطاقة، وَصَفَ فِيهَا عددًا من المخطوطات وَ المطبوعات فِي المكتبة، وَ قد أراد أن يخرج فهرسًا شاملًا للمكتبةِ، وَ لكنه لم يوفّق فِي ذٰلِكَ لكثرة اشتغاله بالقضايا الإِسْلَامِيَّة المختلفة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ آنذاك، وَ من ناحية ثانية أدركه الموت فِي سنّ مبكرة من عمره حيث توفّي سنة ١٣٦٤ ﻫ / ١٩٤٤ م. وَ لقد أخذ هٰذَا الْعِبْء عَلٰى عاتقه بعد المرحوم الدكتور حازم شَعْبانوفيتْشْ[٢٤٤] (Hazim Šabanović) الَّذِي اقتصر فِي عمله عَلٰى إعداد فهرس المخطوطات الشّرقيّة فِي المكتبة، وَ قد طبع بعض نتائج عمله هٰذَا فِي الصّفحات الَّتِي ألحقت بالأعداد الصّادرة من مجلة الجماعة الإِسْلَامِيَّة – غْلَاسْنِيقْ (Glasnik) فِي سراييفو وَ ذٰلِكَ سنة ١٣٧٠ ﻫ / ١٩٥٠ م –. وَ قد توقّف هٰذَا العمل سنة ١٩٧٣ ﻫ / ١٩٥٣ م لتغييب المؤلّف من سراييفو مدّة طويلةً. وَ أخيرًا أتمّ العمل الأستاذ قاسم دوبراتْشا الَّذِي استطاع أن يتمّ الجزء الأوّل من الفهرست، وَ أن يضعه بين أيدي القرّاء فِي الداخل وَ الخارج[٢٤٥] وَ ذٰلِكَ بمساعدة بعض علماء الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَة – مثل الدكتور حازم شعْبانوفيتْشْ وَ الدّكتور آدم الخانجي(Adem Handžić) وَ مُحَمَّد

---

[٢٤٤] توفّي فِي إسْطَنْبُول سنة ١٣٩١ ﻫ / ١٩٧١ م.

[٢٤٥] هُوَ فهرس المخطوطات الْعَرَبِيَّة وَ التّركية وَ الْفَارِسِيَّة، الجزء الأوّل، سراييفو ١٩٦٣ م، وَ خلال هٰذِهِ السّنة سوف يصدر الجزء الثّاني من هٰذَا الفهرس.

پاشيتْش (Muhammed Pašić) وَ شاكر سِيقِيرِيتْش (Šakir Sikirić) وَ خالد موليتْش (Halid Mulić).

وَ سوف نتكلم الآن عن أشهر المكتبات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي المدن الأخرٰى وَ نذكر تارِيخًا موجزًا عن كلّ منها.

٢- مكتبة قَره گوز بك فِي موستار (Mostar):

لقد أسّس فِي مدينة موستار أيام الحكم الْعُثْمَانِيِّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مكتبات كثيرة وَ أقدمها مكتبة قَره گوز بك (Karađoz-beg) الَّتِي تأسّست سنة ٩٧٧ ﻫ / ١٥٧٠ م. وَ نرٰى من الوقفيّة أن الواقف حبس فيها الكتب التالية:

- سبع مصاحف مجلّدة جميلة،
- ثلاثين جزءًا مجلّدًا من الْقُرْآن الكريم،
- تفسير الْقُرْآن الكريم للزّمخشريّ "الكشّاف"،
- تفسير الْقُرْآن الكريم للبيضاويّ،
- شرح شرعية الإسْلَام لسيّد عليّ،
- القاموس الْعَرَبِيّ-التّركيّ.

وَ أصبحت هٰذِهِ المكتبة بمرور الزمن تضمّ مئات من المخطوطات الْعَرَبِيَّة كتب بعضها بأيدي علماء موستار أنفسهم. وَ لقد ذكرنا آنفًا

أن مكتبة الغازي خسرو بك قد انضمّت إِلَيْهَا باقي المكتبات العامّة وَ الخاصّة فِي منطقة الْهَرْسَك، وَ قد أدت مكتبة قَره گوز بك دورًا مماثلًا فِي منطقة الهرسك، إذْ أصبحت "المنقذ الأخير" لِلتّراث الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فِي المنطقة. وَ لقد أغلقت هٰذِهِ المكتبة سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م، وَ منذ ذٰلِكَ الوقت فقدت وَ ضاعت كتب كثيرة منها[٢٤٦]، وَ مَا بقي منها نقل إِلٰى مكتبة الغازي خسرو بك فِي سراييفو سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م، وَ نعرف أنّه إِلٰى جانب هٰذِهِ المكتبة كانت فِي موستار المكتبات التالية:

- مكتبة درويش پاشا بايزيد آقيتْش (Derviš-paša Bajezidagić)، وَ قد أسّست سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م،
- مكتبة كيوان كهايا[٢٤٧] (Ćejvan Ćehaja)، وَ قد أسّست سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م،
- مكتبة بوسنالي أحمد آقا (Bosnali Aḥmed-aga)، وَ قد أسّست سنة ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣ م،

---

[٢٤٦] أثمن مخطوطات المكتبة أصبحت خارج يوغسلافيا، وَ ذٰلِكَ لأن مسْؤُولِي المكتبة عجزوا عن المحافظة عَلَيْهَا وَ بعض موظّفِي الجمعية الإِسْلَامِيّة الجهلاء كانوا يبيعون أثمن مخطوطاتها بثمن بخس دراهم معدودة! كما أهلكت كثير من هٰذِهِ الكتب أيام الحرب العالميّة الثّانيّة حيث قضي عَلٰى الآثار الإِسْلَامِيّة الكثيرة.

[٢٤٧] وَ نلاحظ أنّها أسّست قبل مكتبة قَره گوز بك (Karađoz-beg).

- مكتبة عليّ پاشا رضوانبيغوفيتْش (Ali-paša Rizvanbegović)، وَ قد أسّست سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م.

وإلى جانب هٰذِهِ المكتبات العامّة عرفت موستار بوجود كثير من المكتبات الخاصة مثل:

- مكتبة مصطفٰى أيّوبوفيتْش (Muşṭafā Ejjubović)،
- مكتبة إبْرَاهِيم أوپياتْش (Ibrāhīm Opijač)،
- مكتبة إبْرَاهِيم وُولِيتيتْش (Ibrāhīm Vuletić)،
- مكتبة عليّ پاشا رضوانبيغوفيتْش (Ali-paša Rizvanbegović)،
- مكتبة عبدالله حسن أفندي (‘Abdullāh Hasan-efendi)،
- مكتبة حسن بك لاقيشيتْش (Hasan-beg Lakišić).

وَ قد بلغ عدد المكتبات العامّة وَ الخاصّة فِي مدينة موستار زمن الحكم الْعُثْمَانِيّ ثلاثمِائة مكتبة[٢٤٨]. وَ يظهر من ذٰلِكَ أن عدد المكتبات فِي هٰذِهِ المدينة فاق عددها فِي مدينة سرايِيفو الَّتِي بلغ عدد مكتباتها

[٢٤٨] Hasandedić, Hifzi (1972.) *Muslimānske biblioteke u Mostaru*, Anali, I, Sarajevo, p. 111..

المكتبات الإسْلَامِيَّة فِي موسْتار، حفظي حسندمديتْش، آنالي، العدد الأول، ص ١١١، سرايِيفو ١٩٧٢ م.

العامّة وَ الخاصّة فِي بداية القرن التّاسع عشر الْمِيلَادِيّ مائتين وَ خمسين مكتبة[249]، وَ هٰذا ليس أمرًا غريبًا لأن موستار كانت مركزًا علميًّا وَ ثقافيًّا كبيرًا.

وَ إِلٰى جانب هاتين المكتبتين الشهيرتين فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كانت هناك مكتبات أخرى كثيرة تأسست فِي مختلف المدن فِي الفترة الَّتِي تخصّ بحثنا، وَ نذكر مكتبتين فِي مدينة فوتْشا (Foča) هما:

- مكتبة مدرسة حسن ناظر (Hasan Nazir) الَّتِي أسّست سنة ٩٥٧ ﻫ / ١٥٥٠ م،

- وَ مكتبة مَمِش بك (Memiš-beg) الَّتِي أسّست سنة ٩٨٣ ﻫ / ١٥٧٥ م،

وَ كانت فِي مدينة تْراوْنيق (Travnik) المكتبات التّالية:

- مكتبة الحاجّ إبْرَاهِيم پاشا[250]، الَّتِي أسّست سنة ١١١٦ ﻫ / ١٧٠٤ م،

- مكتبة مُحَمَّد پاشا كوكافيتْسا، الَّتِي أسّست سنة ١١٧٣ ﻫ / ١٧٥٩ م.

---

[249] Mujezinović, Mehmed (1968.) *Gazi Husrevbegova biblioteka u Sarajevu*, Sarajevo, p. 171..

مكتبة الغازي خسروبك فِي سرايِيفو، محمد مُوَزِنُوفيتْش، ص ١٧١، سراييفو ١٩٦٨ م.

[250] وَ في سنة ١٣٦٠ ﻫ / ١٩٤١ م نقل منها إِلٰى سراييفو أكثر من ثلاثمِائة مخطوطة.

أمّا فِي مدينة غْراتْشانيتْسا (Gračanica) فاشتهرت مكتبة الحاجّ خليل أفندي الّتِي أسّست فِي النّصف الثّاني من القرن الثامن عشر وَ لسنا نعرف عدد مخطوطاتها، وَ لٰكنّها كانت غير قليلة[٢٥١].

وَ أخيرًا نودّ أن نشير إلٰى أن عددًا كبيرًا من المخطوطات الْعَرَبِيَّة قد ضاع وَ خاصّة أثناء الحرب العالميّة الثانية. وَ عندما نأخذ بعين الاعتبار عدد الكتب الموجودة فِي مكتبات الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الآن وَ نضيف له العدد الهائل من الكتب الّتِي فقدت، نستطيع، وَ لو بوجه تقريبيّ أن نكون لأنفسنا صورة عن ضخامة الإرث الإسْلَامِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ لقد ذكرنا هاتين المكتبتين فقط، وَ لٰكن هناك مكتبات أو مؤسّسات أخرٰى كثيرة فِي يوغسلافيا يضمّ عددًا غير قليل من المخطوطات الْعَرَبِيَّة نذكر بعضها:

- المعهد الشّرقيّ أو المكتبة الشّعبيّة العامّة فِي سراييفو،
- خزينة الوثائق لمدينة سراييفو،
- خزينة الوثائق لجمهورية مقدونيا فِي سكوبيا،
- القسم الشّرقيّ من المعهد التّأريخيّ التّابع لمجمع العلوم وَ الفنون اليوغسلافيّة فِي زغرب (Zagreb)،
- مكتبة الجامعة فِي بلغراد،

---

[٢٥١] نقلت المخطوطات منها إلٰى مكتبة الغازي خسرو بك سنة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م.

- خزينة الوثائق لمدينة موستار،

- مكتبة إخوان فرانو (فرانسيسكو) الكاثوليكيّين فِي مدينة موستار.

وَ لقد ذكرنا أن عددًا كبيرًا من المخطوطات أصبح خارج يوغسلافيا فِي البلدان الأوروبيّة المختلفة مثل بلجيكا (Belgija) وَ فيينا (Wien) وَ باريس (Paris) وَ هامبورغ (Hamburg) وَ برلين (Berlin) وَ براتيسلافا (Bratislava) وَ غيرها.

الفصل الثالث:

المؤسَّسَات الإِسْلَامِيَّة الِاقْتِصَادِيَّة وَ الِاجْتِمَاعِيَّة

الأسواق وَ الدكاكين

أخذت الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك عند مَجِيء الْعُثْمَانِيِّينَ فِي النمو الِاقْتِصَادِيّ وَ الازدهار الثَّقَافِيّ، حيث انتعشت التجارة فِيهَا بدخول الجيوش الْعُثْمَانِيَّة إِلى البلاد. وَ كانت لِهٰذِهِ الجيوش حاجات كثيرة وَ من الطَّبِيعِيّ أن طبقة التجار ظهرت أول مَا ظهرت فِي تِلْكَ المناطق الَّتِي تمركزت فِيهَا تِلْكَ الجيوش. وَ لما كان الْعُثْمَانِيُّونَ – بِاعْتبارِهِمْ حاملي الثَّقَافَة السلجوقيَة الْعَرَبِيَّة الَّتِي تجددت فيما بعد بالثَّقَافَة الْإِسْلَامِيَّة، قد قطعوا شوطًا حاسمًا فِي حياتهم الْحَضَارِيَّة وَ الِاقْتِصَادِيَّة أمام الدول المفتوحة فِي البلقان وَ من بينها الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك. فإِن هٰذِهِ الشعوب المغلوبة قد استفادت – وَ لَا شكّ – كثيرًا من هٰذِهِ الخبرة الْعُثْمَانِيَّة فِي عالم التجارة وَ الاقتصاد.

ولم تكن فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مدن كبيرة – قبيل مَجِيء الْعُثْمَانِيِّينَ فِيهَا – فإِذا وَ جدت هناك بعض المدن. فإِنها كانت عبارة عن القلاع وَ الثغور مثل هوديديد (Hodidjed) وَ بوبوفاتْسْ (Bobovac) وَ يايْتْسه (Jajce) وَ كْلْيوتْشْ

(Ključ) وَ بْلَاغَايْ (Blagaj) وَ غيرها. وَ لما استولى الْعُثْمَانِيُّونَ عَلَى هٰذِهِ المدن أو بالأحرى القلاع، فإنه سرعان مَا نمت هٰذِهِ المدن بفضل الظروف الإقْتِصَادِيَّة الجديدة وَ نشأت فِيهَا الصناعات المختلفة وَ بدأ ببناء الدكاكين من الحرف المتنوعة، حَتَّى تكوّنت هناك كتلة أصبحت مركز المدينة الإقْتِصَادِيّ، وَ هٰذِهِ الكتلة هِيَ "السوق". وَ كان من أقدم الأسواق التِّجَارِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ – السّوق القديم – الَّذِي بناه الْعُثْمَانِيُّونَ فِي مدينة سراييفو. وَ كان يسمى هٰذَا السوق بـ"چارشي" (Čarši)[٢٥٢]، تم بناؤه حوالي سنة ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م[٢٥٣]، وَ لقد نجد ذكرًا لِهٰذَا السوق فِي كثير من كتب الرحالة، وَ عَلَى الرغم من أن هٰؤُلَاءِ الرّحال – كثيرًا مَا – بالغوا فِي أوصافهم له، إِلَّا أن هٰذِهِ الأخبار لها أهمية كبيرة لأنها المصدر الوحيد الَّذِي يمكن أن نعتمد عَلَيْهِ فِي دراستنا لِهٰذَا الموضوع.

وَ لقد ترك لنا الرحالة كاترينوزينو (من البندقية) الأخبار الأولى عن سوق سراييفو التِّجَارِيّ وَ ذٰلِكَ سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م، إذ يذكر فِي وَصفه لمدينة سراييفو بأنها مدينة مليئة بالحدائق الجميلة، وَ بأنها المنطقة التِّجَارِيَّة الَّتِي يسكنها

---

[٢٥٢] چارشي أوْ چارسو (čāršī ili čārsū) كلمة فَارِسِيَّة، معناها: ساحة أيْ سوق. بَاش چارشي (Baš-Čarši) اسم السّوق المركزيّ فِي سراييفو، فهي كلمة تركيّة-فَارِسِيَّة، معناها: السّوق المركزيّ.

[٢٥٣] Kreševljakovićm, Ḥamdija (1958.) *Esnafi i obrti u starom Sarajevu*, Sarajevo, p. 11..

الأصناف وَ الحرف فِي سراييفو القديمة، حمدي ڤريشيوْلْياڤوفيتْش، ص ١١، سراييفو ١٩٥٨ م.

الأتراك (يقصد بهم المسلمين) وَ الصرب وَ أهل دوبروفنيك[٢٥٤] (Dubrovnik)، وَ يذكر كَذٰلِكَ أن المدينة فِيهَا كثير من المساجد وَ ثلاث كاراوان سراي (Karavan-saraj)، وَ تشبه حدائق سراييفو فِي روعتها بحدائق پادوفا[٢٥٥] (Padova) كما ترك لنا وَصفًا لِهٰذَا السوق التاجر الشهير من مدينة سْپليتْ (Split) وَ هُوَ ماركو كاوانْيِينْ (Marko Kavanjin) الَّذِي مرّ سراييفو سنة ١٠١٥ هـ / ١٦٠٦ م، وَ نراه يتحدث عن إغتناء هٰذَا السّوق بالبضائع المختلفة، وَ عن جمال بيوت سراييفو[٢٥٦]. أما آتناسية غرغيجيفيج، وَ هُوَ كَذٰلِكَ من مدينة سْپليتْ، فيقول فِي وَصفه لمدينة سراييفو سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م، أن فِيهَا مائة وَ خمسة عشر مسجدًا وَ جامعًا، وَ خمسة عشر ألف بيت، وَ اثْنيْ عشر الف دكان تجاري، وَ يذكر كَذٰلِكَ ان المدينة فيهَا أربعين بيتًا لِلْكَاثُولِيكِيِّينَ وَ منطقة يسكن

---

[٢٥٤] Matković, P.; *Putovanje po balkanskom poluostrvu u XVI vijeku*, Rad YA, LXII, p. 59..

الرّحلات فِي شِبْه جزيرة البلقان فِي القرن السّادس عشر، الدّكتور ماتْقوفيتْش، مجمع العلوم اليوغسلافيّة، ص ٩٥.

[٢٥٥] مدينة فِي شمال إيطاليا.

[٢٥٦] توجد النّسخة الأصلية لِهٰذَا الوصف فِي متحف مدينة سْپْليتْ (Split) فِي جنوب يُوغُسْلَافيا.

فِيهَا اليهود[٢٥٧]. وَ لَا شكّ فِي أن أجمل وصف للسّوق التِّجَارِيّ فِي سراييفو هُوَ الَّذِي تركه لنا روبرت سْتانهوبِس (Robert Stanhopes)، استنادًا إلِى الأقوال الَّتِي سمعها من السيد هَنريك بْلونت (Hendrik Blunt) الَّذِي زار سراييفو سنة ١٠٤٤ ﻫ / ١٦٣٤ م وَ بقي فِيهَا ثلاث أيام. وَ يقول ستانهوبس أن دكاكين سراييفو كانت تزخر بأقمشة مستوردة من انكلترا وَ إسبانيا وَ بالحرير من آسيا الصغرٰى.[٢٥٨] كما يذكر مدينة سراييفو الجغرافي التُّرْكِيّ الشهير كاتب چلبي (Katib Čelebi) الَّذِي زارها سنة ١٠٦٦ ﻫ / ١٦٥٥ م، وَ سجل أن فِيهَا أكثر من مائة جامع وَ بزستانين وَ كثيرًا من الحمامات وَ برج الساعة عند جامع الغازي خُسْرو بك، وَ يذكر أن تجارًا أوروبيين كثيرين يزورون المدينة[٢٥٩]. وَ لقد زار سراييفو الرحالة الفرنسي كوكليت (Quclet) سنة ١٠٦٩ ﻫ / ١٦٥٨ م. وَ أعجب بسوقها إعجابًا كبيرًا وَ أشار إلِى العلاقات التِّجَارِيَّة بين البوسنة وَ

---

[٢٥٧] جاء اليهود إلِى سراييفو فِي منتصف القرن السّادس عشر عَلٰى إثر الإضطهاد الَّذِي لاقوه فِي إسبانيا، فنرٰى أنهم حَتّٰى فِي أوروبا لجأوا عند المسلمين، وَ تكلم هٰؤُلَاءِ اليهود فِي سراييفو بالإسبانية حَتّٰى الحرب الْعَالَمِيَّة الأولٰى.

[٢٥٨] Kreševljaković, Hamdija; *Esnafi i obrti*, p. 28..

الأصناف وَ الحرف فِي سراييفو القديمة، حمدي قْريشيوْلْياقُوفيتْش، ص ٢٨.

[٢٥٩] Novaković, S. (1892.) *Hadždži Qalfā ili kātib Çelebi – turski geograf XVII vijeka o Balkanskom poluostrvu*, Spomenik SKA, XVLLL, p. 79..

الحاجّ قلفى (أي كاتب چلبي) الجغرافيّ التُّرْكِيّ من القرن السّابع عشر فِي وَصفه لجزيرة البلقان، نوفاقوفيتْش، مجمع الآداب الصّربيّة، ص ٧٩، سنة ١٨٩٢ م.

البندقية[٢٦٠]. وَ يقول الرحالة التُّرْكِيّ أَوْلِيَاء چلبِي (سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م) أن السوق فِيهِ أكثر من ألف دكان جميلة وَ فِيهِ بزستان (Bezistan) تزخر بالبضاعات الْعَرَبِيَّة وَ الْفَارِسِيَّة وَ الأوروبية[٢٦١]. وَ أخيرًا زار سراييفو الرحالة الإيطالي آنتونيو بينيتّي (Antonio Benetti) سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م وَ يشير إِلٰى أن التجارة فِيهَا مزدهرة جدًا وَ خاصّة بالأغذية[٢٦٢].

وَ ما دمنا قد أشرنا إِلٰى أقوال ضيفوف سراييفو من القرن السابع عشر الَّذِينَ زودونا بمعلومات قيمة عنها، فلابد أن نذكر فِي هٰذَا البحث أحد ضيوف سراييفو غير المرغوب فيهم، وَ هُوَ الَّذِي لف المدينة بأردية سوداء عدة مرات، وَ هٰذَا الضيف هُوَ – الحريق –. وَ لقد نكبت سراييفو بحرائق كثيرة أدت إِلٰى هلاك

---

٢٦٠ Truhelka, dr. Ćiro (1905.) *Opis Dubrovnika i Bosne iz godine 1658.*, Glasnik Zemaljskog muzeja (GZM), XVLL, p. 432-433..

وَصف مدينة دوبروفنيك (Dubrovnik) وَ الْبُوسْنَة من سنة ١٦٨٥ م، الدكتور تْشيرو تْروهَلْقا، مجلة المتحف البلدي فِي سراييفو، ١٧، ص ٤٣٢-٤٣٣، سنة ١٩٠٥ م.

٢٦١ Kemura, Sejfud-dīn (1908.) *Iz Sijāḥat-nāmē Evlije Čelebije*, GZM, I, p. 188..

من سياحت نامه أَوْلِيَاء چلبِي، سَيْفالدِّين كمورا، مجلة المتحف البلدي لمدينة سراييفو، ص ١٨٨، سراييفو ١٩٠٨ م.

٢٦٢ Skarić, Vladislav; *Sarajevo od najstarijh vremena do Austro-ugarske Okupacije*, p. 106..

سراييفو منذ أقدم العصور إِلٰى الإِخْتِلَال النَّمْسَاوِيّ، وْلاديسلاف سْقاريتْش. ص ١٠٦.

أملاك الأوقاف وَ مؤسساتها الكثيرة. وَ قد أجتاح سراييفو – فِي الفترة مَا بين سنة ٨٨٥-١٤٨٠ هـ / ١٢٨٧-١٨٧٩ م – أكثر من عشرين حريقًا[٢٦٣].

ومن الطَّبِيعِيّ إلَّا تكون هٰذِهِ الحرائق كلها ناشئة عن المصادفة أو عن إهمال سكّان سراييفو، وَ إنما جاءت نتيجة مؤامرات خارجية أوروبية رتبها الأجانب الَّذِينَ لم يتحملوا أن يشهدوا هٰذَا الازدهار الْإِسْلَامِيّ فِي قلب أوروبا. وَ دليلنا عَلَى ذٰلِكَ أن أكثر هٰذِهِ الحرائق قد مهد لها اليهود[٢٦٤] الَّذِينَ عاشوا فِي سراييفو. وَ كان من أكبر هٰذِهِ الحرائق الحريق الَّذِي اجتاح سراييفو سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م حينما جاء إِلَى سراييفو پرنس أُوْغِينْ سَافويسْقي (Princ Eugen Savojski) وَ كان عدد جنوده ثمانية آلاف. وَ لقد استغرق تدمير سراييفو يومين كاملين، حيث دمرت المدينة تدميرًا تامًّا وَ محيت أكثر الْمُؤَسَّسَات الْإِسْلَامِيَّة الثَّقَافِيَّة من الوجود، وَ لم يبق فِيهَا سوٰى ست جوامع تميزت بقوة

---

٢٦٣ كان عدد هٰذِهِ الحرائق – فِي الحقيقة – أكثر من هٰذَا بكثير، غير أن مَا ذكرت كان أكبر هٰذِهِ الحرائق وَ أخطرها وَ أبعدها أثرًا.

٢٦٤ وَ لقد شكا سكان سراييفو إِلَى سياووز پاشا (Sijavuz-paša) سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م من أن اليهود لا يهتمون بأمن البلد، وَ نفهم من ذٰلِكَ أن اليهود بدأوا بالمكائد وَ الدسائس وَ أخذوا يعيثون فسادًا منذ تسكينهم فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

بنيانها[٢٦٥]. أما فِي القرن الثامن عشر فأخطر هٰذِهِ الحرائق الَّتِي نكبت بها مدينة سراييفو كان الحريق الَّذِي حدث سنة ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م، وَ فِي القرن التاسع عشر سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٢ م، وَ آخر هٰذِهِ الحرائق الخطيرة وقع سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ م.

وَ لَقَد ذكرنا فِي هٰذِهِ الدراسة القصيرة الحرائق الكبيرة فقط، وَ إِلٰى جانبها – بطبيعة الحال – كانت حرائق صغيرة كثيرة لا داعي لذكرها فِي هٰذَا المكان.

---

٢٦٥ عَلٰى إثر هٰذَا الحريق أتلفت أكثر أموال الأوقاف وَ مؤسّساتها وَ نفهم من الرسالة الَّتِي أرسلها رجال سراييفو إِلٰى البلاط السّلطاني سنة ١٧٠٧ هـ / ١١١٩ م أنه لم يسلم من الحرائق إِلَّا أربعة عشر مسجدًا فِي مقابل مائة وَ أربعة مساجد، كانت فِي سراييفو فِي ذٰلِكَ الوقت.

Kreševljaković, Hamdija; *Esnafi i obrti...*, p. 36..

الأصناف وَ الحرف فِي سراييفو القديمة، حمدي قْريشيوْلْياقُوفيتْش، ص ٣٦.

بزستانات[٢٦٦] (Bezistani)

لقد اعتاد الأوروبيون أن يبنوا فِي البلدان الكبيرة محلات أو مخازن تجارية كبيرة، كانوا يسمونها – بزستان[٢٦٧] – وَ كانت تحتوي هٰذِهِ البزستانات عَلٰى عشرات او مئات من الدكاكين يضمها سقف واحد بحيث يستطيع المشتري أن يحصل عَلٰى مَا يريد من البضائع المختلفة الَّتِي جلبت من أقصٰى الشرق أو الغرب. كما كانت تتميز هٰذِهِ البزستانات بقوة البنيان وَ يحميها باب كبير من الحديد، وَ كانت البضائع التِّجَارِيَّة فِيهَا آمنة من السرقة وَ الحريق. وَ لقد قام بإنشاء هٰذِهِ البيوتات التِّجَارِيَّة الكبيرة رجال الدولة فِي الدرجة الأولٰى لأن بناءها تطلب الوسائل المادية الكبيرة، وَ مع أننا نجد فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مؤسسات اقتصادية كثيرة فِي هٰذِهِ الفترة، إلَّا ان عدد البزستانات لم يزد عن خمسة أو ستة[٢٦٨]، أشهرها:

---

[٢٦٦] بزستان: أصل الكلمة الْعَرَبِيّ-الْفَارِسِيّ: بز تعني: الحرير أو الكتان، وَ الكلمة الْفَارِسِيَّة: ستان، معناها: المكان.

[٢٦٧] İnalcık, Halil (1974.) *Osmansko carstvo*, p. 202.

الإمبراطورية الْعُثْمَانِيَّة، خليل إينالجق، ص ٢٠٢.

[٢٦٨] كان ثلاثة منها فِي سراييفو، اثنين فِي تْراوْنيق (Travnik) وَ واحد فِي بَانْيَالُوقا (Banja Luka).

١- بزستان مُحَمَّد بك بن عيسٰى بك فِي سراييفو بني فِي النصف الثاني من القرن الخامس عشر وَ ظل صالحًا للتجارة حَتَّى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م، عندما هدم عَلٰى إثر الحريق الَّذِي إجتاح سراييفو فِي هٰذِهِ السنة.

٢- بزستان الغازي خُسْرو بك فِي سراييفو – قام الوقف بإنشائه سنة ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م، وَ كان فِي داخله اثنان وَ خمسون دكانًا، وَ كان الناس يشترون منه البضائع الختلفة الَّتِي جلبت من الشرق وَ من الغرب حَتَّى سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م عندما أغلق أبوابه.

٣- بزستان خْرْوَاتْ رستم پاشا[٢٦٩] (Hrvat Rustem-paša) وَ هُوَ أحد بزستانات سراييفو أَيْضًا، بني سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م وَ كان فِيهِ ستة وَ ثلاثون دكانًا. وَ قد اشتهر هٰذَا البزستان باسم – بُورْصَة بزستان[٢٧٠] – وَ سمي ببزستان الصغير حَتَّى يميز عن بزستان الغازي خُسْرو بك الَّذِي كان يسمٰى "بزستان الكبير". وَ قد بقي بزستان هرفات رستم پاشا يؤدي التِّجَارِيّ حَتَّى الإِحْتِلَال النِّمْسَاوِيّ لِلْبُوسْنَةِ سنة ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٨ م عندما أصبح مخزنًا للجيش. وَ نود

---

٢٦٩ كان وَ زيرًا للسلطان سليمان الثاني وَ ختنه أَيْضًا.

٢٧٠ وَ ذٰلِكَ نسبة إِلٰى مدينة بُورْصَة فِي تركيا، فمن المعروف أن بُورْصَة قد عرفت بإنتاج الحرير. وَ كما نرٰى كان الحرير يأتي منها ليباع فِي بزستانات سراييفو.

أن نختم حديثنا عن البزستانات الثلاثة هٰذِهِ بالقول إنها كانت تمثل المراكز الحية للتجارة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ طوال الحكم العثماني.

الجسور فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

تبين لنا مما تقدم أن الوقف قد ساهم فِي إنشاء مؤسسات إسلامية كثيرة، وَ لٰكنه عَلٰى قوة تأثيره أصبح عاجزًا أمام إنشاء الوسائل الْحَضَارِيَّة الكبيرة مثل الجسور، لأن الدولة الْعُثْمَانِيَّة هِيَ الَّتِي كانت تقوم بإنشائها. وَ لا يمكن أن نستهين بدور الأوقاف[٢٧١] فِي هٰذَا الميدان أَيْضًا، فمن المعروف أن الأوقاف - كثيرًا مَا - أشرفت عَلٰى إصلاح الجسور فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ. وَ نذكر عَلٰى سبيل المثال أن مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ (Mehmed-paša Sokolović) عين فِي وَقفيته مبلغًا معينًا من أمواله لإصلاح وَ ترميم جسوره[٢٧٢]. وَ من الولاة وَ السياسيين الَّذِينَ قاموا ببناء الجسور وَ إصلاح فِي الْبُوسْنَةِ وَ الهرسك نذكر:

---

[٢٧١] اهتمّ عدد من الواقفين بإقامة الجسور فِي المدن وَ القرٰى. وَ طبيعي أن هٰذِهِ الجسور كانت صغيرة وَ لٰكنها أدت دورًا حيويًا للحياة الإقْتِصَادِيَّة فِي المناطق الَّتِي أقيمت بها.

[٢٧٢] كما فعل بعض الواقفين الأخرين مثل قَره گوز بك (Karđoz-beg) فِي مدينة موستار وَ فِي مدينة قونييتْسْ (Konjic).

- سْكندر بك ميخايلوفيتْش (Skender-beg Mihajlović)،

- صوفي مُحَمَّد پاشا (Sufi Mehmed-paša)،

- قباقولاق إبْرَاهِيم پاشا (Kabakulak Ibrāhīm-paša)،

- مصطفى پاشا (Muṣṭafā-paša)،

- داوود پاشا (Dāwūd-paša)،

- كيوان پاشا (Ćejvan-paša)

- أحمد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ (Aḥmed-paša Sokolović)

- مُحَمَّد غْراداشْتْشيفيتْشْ[٢٧٣] (Muḥammed Gradaščević).

وَ لا بدّ أن نذكر طائفة من النّساء المسلمات اللائي قمن بإنشاء الجسور وَ المحافظة عَلَيْهَا وَ من أشهر هاتيك النساء شمسية قادن (Šemsijje Kadin) وَ هِيَ اخت الوزير مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ، وَ أسماء مُحَمَّد پاشا محسنوفيتْشْ (Esma Muḥammed-paša Muḥsinović). أما شمسية قادن فقد بنت جسرًا فِي مدينة بَانْيَالُوقَا وَ ذٰلِكَ فِي النصف الثاني من القرن السادس عشر، وَ أقامت أسماء جسرًا

---

٢٧٣ Čelić, Džemal; and Mujezinović, Mehmed (1969.) *Stari mostovi u Bosni i Hercegovini*, Sarajevo, p. 25..

الجسور القديمة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، جمال تْشيليتش وَ مُحَمَّد مُوَذِّنوفيتْش، ص ٢٥، سراييفو ١٩٦٩ م.

فِي مدينة يايتْسه (Jajce) فِي نهاية القرن الثامن عشر. وَ نعرف فِي منطقة الهرسك عن سيدتين اللتين بنتا الجسور، فأولهما قدرية، ابنة علي بك ويلاَقيتْش (‘Ali-beg Velagić) الَّتِي جددت بناء جسر قَره گوز بك فِي مدينة بْلاغاي (Blagaj) وَ ذٰلِكَ فِي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وَ ثانيهما سارة قاشيقوفيتْش (Sara Kašiković) الَّتِي بنت جسرًا فِي مدينة ستولاج فِي نهاية القرن نفسه.[٢٧٤] وَ لا شك فِي أن المرأة المسلمة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الهرسك كانت تساهم فِي بناء الْمُؤَسَّسَات الإِسْلَامِيَّة الأخرٰى فعالة، وَ لٰكن مَا زال تنقصنا المصادر الموثوقة الَّتِي تشير إِلٰى هٰذَا النشاط وَ تؤكده.

وَ لم يكن للجسور الكثيرة وُجُود فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ قبل مَجِيء الْعُثْمَانِيِّينَ، وَ ربما لم يبالغ بعض المؤرخين حينما زعموا أن السلطان مُحَمَّد الفاتح عبر بجيشه نهر دْرينا (Drina) فِي وِيشيغْراد (Višegrad) وَ لم يكن عَلَيْهِ جسر وَاحد. وَ لقد بني أكثر جسور الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي القرن السادس عشر[٢٧٥] وَ هُوَ القرن الذهبي فِي حياة الدولة الْعُثْمَانِيَّة عَلٰى الإطلاق. وَ نلاحظ أنه فِي القرن الخامس عشر بني ثلاثة جسور فقط، وَ ارتفع هٰذَا العدد فِي القرن

---

٢٧٤ Čelić, Džemal; and Mujezinović, Mehmed (1969.) *Stari mostovi u Bosni i Hercegovini*, p. 225..

الجسور القديمة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، جمال تْشيليتش وَ مُحَمَّد مُوَذِّنوفيتْش، ص ٢٢٥.

٢٧٥ فِي هٰذَا القرن بلغت الدولة الْعُثْمَانِيَّة أوجها السّياسيّ وَ الِاقْتِصَادِيّ وَ االثَّقَافِيّ وَ الْحَضَارِيّ.

السادس عشر إلى ثلاثة وَ ثلاثين جسرًا، وَ بني فِي القرن السابع عشر عشرة جسور وَ فِي القرن الثامن عشر خمسة عشر جسرًا، أما فِي القرن التاسع عشر فقد جددت وَ أصلحت بعض هٰذِهِ الجسور.

وَ لَقَد أقيمت أكثر الجسور فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي الطرق وَ الأماكن الإستراتيجية فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ ذٰلِكَ عَلٰى أنهر كبيرة مثل درينا (Drina) وَ بوسنة (Bosna) وَ وُرْباس (Vrbas) وَ سانا (Sana) وَ أُونا (Una) وَ نيريتفا (Neretva) كما أن هناك عددًا غير قليل من الجسور الَّتِي أقيمت عَلٰى الأنهار الصغيرة وَ فِي الأماكن البعيدة عن هٰذِهِ المراكز. وَ لا بد أن نذكر أن عددًا غير قليل من هٰذِهِ الجسور قد دمر وَ خاصة أثناء الحرب الْعَالَمِيَّة الثانية. وَ سوف نذكر الآن بعض أكبر الجسور فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مشيرين إِلٰى أهميتها وَ تواريخ بنائها وَ هٰذِهِ الجسور هي:

١- جسر السّلطان (Careva ćuprija) فِي سراييفو:

هُوَ أقدم جسور مدينة سراييفو خاصة وَ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ عامة. بناه مؤسس سراييفو عيسٰى بك بن إسحاق فِي الفترة مَا بين سنة ٨٤٢[٢٧٦]-٨٦٧[٢٧٧] هـ / ١٤٣٩-١٤٦٢ م، وَ لا شك فِي أن هٰذَا الجسر قد بني من الخشب وَ لقد أعيد بناؤه مرات عديدة كلما خربته

---

[٢٧٦] فِي هٰذِهِ السنة أصبح عيسٰى بك وَالِيًا عَلٰى الْبُوسْنَةِ.

[٢٧٧] حررت وقفيته فِي هٰذِهِ السنة.

(دمرته) السيول[٢٧٨]. وَ لقد هدم هٰذَا الجسر سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م وَ بني مكانه أول جسر حديدي فِي سرايِيفو.

٢- الجسر اللّاتينيّ (Latinska ćuprija) فِي سرايِيفو:

يعتبر من أقدم الجسور أيْضًا، بني سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م وَ يتبين لنا ذٰلِكَ من أحد السجلات لسنجق البوسنة[٢٧٩]، وَ بناه حسين بن شرمد (Husejn b. Šermed) وَ مما نذهب إِلَيْهِ أن هٰذَا الجسر كان من الخشب أيْضًا، لأننا نجد فِي سجل من سنة ٩٧٣ هـ / ١٠٦٥ م أن أحد أعيان سرايِيفو – وَ هُوَ وَالي عيني بك – أقام جسرًا حجريًا مكانًا. وَ نعرف أن هٰذَا الجسر قد خرب أثناء السيل الكبير سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م، ثم أعيد بناؤه سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م وَ ذٰلِكَ

---

[٢٧٨] لقد أصيبت سرايِيفو بفيضانات كثيرة، وَ فِي سنة ١٠٢٩ هـ / ١٦١٩ م مثلًا خرب أحد الفيضانات جميع جسور سرايِيفو (و كان عددها ستة)، إلّا أن أخطر هٰذِهِ الفيضانات وَ قع فِي الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٢٠٦ هـ / الموافق الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٧٩١ م.

[٢٧٩] هٰذَا السّجلّ هُوَ من سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م.

من تركة أحد تجار سراييفو وَ هُوَ الحاجّ عبدالله بَرْغا[٢٨٠] (El-Ḥādždž ‘Abdullāh Berga)، وَ لقد عرف هٰذَا الجسر فِي المصادر التُّرْكِيَّة باسم (Frenklik Küprü) وَ أما فِي الْبُوسْنَةِ فقد عرف باسم (Latinska ćuprija) الجسر اللَّاتينيّ، وَ ذٰلِكَ لأن تِلْكَ المنطقة كانت مسكونة بالكاثوليكِيِّينَ[٢٨١]. وَ عرف هٰذَا الجسر فِي التأريخ بحادثة إغتيال وَ لي العهد النِّمْسَاوِيّ الَّتِي وقعت فوقه، وَ قام بِهٰذِهِ العملية الشاب الْبُوسْنَوِيّ غاوْريلو پْرِينْتْسِيپْ (Gavrilo Princip) وَ ذٰلِكَ سنة ٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م، وَ سمي الجسر باسمه منذ سنة ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م.

٣- جسر فرهاد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ فِي بَانْيَالُوقَا:

أسس هٰذَا الجسر فِي بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر. وَ الجدير بالذكر أن هٰذَا الجسر أعيد بناؤه فِي السنوات التالية: سنة ١٠٢٣ هـ / ١٦١٤ م وَ سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م ثم سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م. وَ لا نعرف بالضبط متٰى هدم الجسر نهائيًا.

---

٢٨٠ يتّضح من ذٰلِكَ أن الدولة الْعُثْمَانِيَّة فِي ذٰلِكَ الوقت بدأت تعاني من الأزمات الاِقْتِصَادِيَّة، فبينما نرٰى فِي القرن السادس عشر أن الدولة هِيَ الَّتِي تقوم بإنشاء الجسور وَ تصليحها، نرٰى فِي نهاية القرن الثامن عشر أن بعض أفراد المجتمع. هم الَّذِينَ يقومون بِهٰذَا الدور.

٢٨١ كانت فِي هٰذِهِ المنطقة كنيسة كاثوليكية حَتّٰى سنة ١١٩٥ هـ / ١٧٨١ م.

٤- جسر شمسيّة قادن (Šemsijje Kadin) فِي بَانْيَالُوقَا:

بنت شمسية قادن[282] هٰذَا الجسر سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٨٢ م. وَ يذهب الأستاذ حمدي قْريشيوْلْياقُوفيتْش (Hamdi Kreševljaković) إلٰى أن الجسر المذكور كان قائمًا سنة ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م وَ أنه هدم قبل سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م[283]، وَ يستنتج ذٰلِكَ من وَصف الرّحّالة لِهٰذِهِ المدينة، وَ يذكر الرحالة غيورغيتْشو (Georgiceo) سنة ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٢ م أربعة جسور فِي مدينة بَانْيَالُوقَا، أما أَوْلِيَاء چلَبِي فيذكر سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م ثلاثة جسور فِيهَا فقط.

٥- جسر السلطان سليمان عَلٰى نهر دْرينا (Drina) فِي فوجة:

بني الجسر سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م أيْ قبل موت سلطان سليمان، لأنه سمٰى باسمه[284]، وَ كان قائمًا حَتّٰى نهاية القرن السابع عشر، وَ أقام بعد ذٰلِكَ وَ الي البوسنة وَ واقفها المشهور مُحَمَّد پاشا قوقافيتْسا

---

[282] هِيَ أخت الوزير مُحَمَّد پاشا سوقولوفيتْشْ وَ زوجة سنان بك بويانيتْشْ (Sinān-beg Bojanić) الَّذِي كان سنجق بك فِي منطقة الْهَرْسَك.

[283] Kreševljaković, Hamdija; *Esnafi i obrti*, p. 29..

الأصناف وَ الحرف فِي سراييفو القديمة، حمدي قْريشيوْلْياقُوفيتْشْ، ص ٢٩.

[284] Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāmē*, p. 405-406..

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(Mehmed-paša Kukavica) جسرًا جديدًا مكانه وَ ذٰلِكَ سنة ١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م.

٦- جسر مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ فِي مدينة وَ سغراد[٢٨٥]: لقد مر بنا أن مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ أنشأ مؤسسات كثيرة فِي المناطق المختلفة من الدولة الْعُثْمَانِيَّة[٢٨٦]، إِلَّا أنه فِي الْبُوسْنَةِ لم يبق من مؤسساته سوٰى سوٰى هٰذَا الجسر الَّذِي كان يربط البوسنة بالشرق عدة قرون.

بني الجسر فِي الفترة مَا بين ٩٧٩-٩٨٥ هـ / ١٥٧١-١٥٧٧ م، وَ عَلٰى الرغم من أنه تعرض للفيضانات الكثيرة[٢٨٧]، وَ أنه قد هدم

---

٢٨٥ يعدّ مُحَمَّد پاشا سوقولوفيتْشْ من أكبر رجال السياسة فِي التأريخ الْعَالَمِيّ وَ ليس له مثيل فِي التأريخ العثماني. وَ لد فِي بداية القرن السادس عشر قرب مدينة وِيشيغْراد (Višegrad). وَ لما أتم الخامسة عشرة من عمره أخذ به فِي أعجمي أوغلو -Adžemi‘ (oğlu فِي أدرنة وَ جاء بعد ذٰلِكَ إِلٰى البلاط فِي إِسْطَنْبُول. وَ كان يتميز هٰذَا الْبُوسْنَوِيّ بموهبة فذة، تقلد المناصب المختلفة فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة حَتّٰى أصبح وَ زيرًا لها وَ بقي عَلٰى هٰذَا المنصب طوال حكم سليمان القانوني وَ سليم الثاني وَ مراد الثالث، وَ بلغت الدولة الْعُثْمَانِيَّة فِي تِلْكَ الفترة أوج عظمتها. أغتيل سنة ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م وَ دفن فِي إِسْطَنْبُول قرب جامعه.

٢٨٦ لَمْ يقمْ أحد حَتّٰى الآن بدراسة شاملة لمنشآته الَّتِي نجدها فِي أقطار العالم الْإِسْلَامِيّ مثل إِسْطَنْبُول وَ حلب وَ المدينة المنوّرة وَ أدرنه وَ غيرها.

٢٨٧ أكبر هٰذِهِ الفيضانات اجتاح ويشيغْرَاذ سنة ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م وَ سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م.

أجزاء منه أثناء الحرب الْعَالَمِيَّة الثانية، إلَّا أنه بقي عَلٰى الشكل الَّذِي أقامه فِيهِ مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْش. وَ طبيعي أنه أجرٰى عَلَيْهِ غير قليل من الإصلاحات عبر هٰذِهِ القرون، كان آخرها سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م[٢٨٨].

بقي لنا أن نقول أن هٰذَا الجسر بناه أحد أكبر مهندسي العالم وَ هُوَ قوجا معمار سنان[٢٨٩] (Kodža mimar Sinān) وَ معنٰى ذٰلِكَ أن الجسر قد اشترك فِي بنائه أكبر سياسي فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة من ناحية وَ أكبر مهندس من ناحية أخرٰى. وَ لقد فاق هٰذَا الجسر – بأهميته التاريخية وَ الثَّقَافِيَّة – بناءات أخرٰى مماثلة فِي يُوغُسْلَافِيَا وَ خارجها، فنستطيع أن نقول أن هٰذَا الجسر الَّذِي بناه معمار سنان له أهمية تاريخية وَ ثقافية كبيرة فِي تاريخ الأمم الإِسْلَامِيَّة، وَ ذٰلِكَ لأن

---

٢٨٨ كلف هٰذَا الإصلاح الحكومة اليوغسلافيّة ستّين مليون (٦٠،٠٠٠،٠٠٠,٠٠) دينار يُوغُسْلَافِيّ.

٢٨٩ قوجا معمار سنان (Kodža mimar Sinān) (٨٩٦-٩٩٧ هـ / ١٤٩٠-١٥٨٨ م) كان أحد أطفال النصارٰى جاء إلٰى إسْطَنْبُول سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م، وَ اشترك فِي الفتوحات الْعُثْمَانِيَّة أكثر من عشرين عامًا، لقب بـ "المهندس الأول" فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م وَ احتفظ بِهٰذَا اللقب حَتّٰى موته، تم تحت إشرافه بناء أكثر من ثلاثمائة عمل هندسي منها ثمانية جسور فِي مختلف أقطار الدولة. وَ كان أحد هٰذِهِ الجسور جسر مُحَمَّد پاشا سوقولوفيتْش فِي ويشيغْرَاد.

أعمال معمار سنان لا تقل عظمة وَ براعة عن آثار رواد النهضة الأوروبية أن لم يتفوق عَلَيْهَا فِي بعض الجوانب.

وَ الجدير بالذكر أن هٰذَا الجسر وَ جد مكانه فِي بعض الأعمال الأدبية وَ بخاصة فِي مجال القصة وَ الشعر وَ الحكم، وَ ملخص هٰذِهِ الأشعار[٢٩٠] وَ القصص أن القوة الغيبية تدخلت فِي بناء الجسر، إذ كان كل مَا يبنيه العمال فِي النهار، تهدمه تِلْكَ القوٰى الغيبية فِي اللّيل، فكان عَلٰى المؤسس أن يجد أخًا وَ أختًا وَ يضعهما فِي جدران الجسر وَ هم أحياء، ثم بعد ذٰلِكَ تسمح هٰذِهِ القوة القاهرة أن يقوم الجسر عَلٰى أعمدته[٢٩١]. وَ نلاحظ القصة نفسها عند بناء الجسور الأخرٰى فِي يُوغُسْلَافِيَا[٢٩٢]، وَ ذٰلِكَ يعزز رأينا أن السُّلَافين (Sloveni) مالوا إلٰى الاعتقادات الخرافية وَ الأسطوريّة.

وَ نذكر الآن بعض الأمثال وَ الحكم الَّتِي تتعلّق بِهٰذَا الجسر، تدور فِي الأوساط الشعبية حَتَّى الآن، منها:

---

٢٩٠ نقصد بها الأشعار الشعبية بطبيعة الحال.

٢٩١ تفسير هٰذِهِ الظاهرة أن السُّلوفين (Sloveni) كانوا يؤمنون بالخرافات وَ كانوا يعتقدون أن عملًا كبيرًا مثل هٰذَا لا يتم إلَّا بتقديم القرابين.

٢٩٢ كبناء جسر سكندر (Skender) عَلٰى نهر بويانا (Bojana) فِي مدينة سميديريفو (Smederevo) فِي صربيا.

أ- قويّ مثل جسر عَلٰى دْرينا.

ب- قويّ الإيمان كجسر عَلٰى دْرينا.

ت- خير – هُوَ الجسر عَلٰى دْرينا.

ث- بقي صامدًا كجسر عَلٰى دْرينا.

وَ لم يكن هٰذَا الجسر موضوعًا محببًا إِلٰى الشعراء وَ القصّاصين فِي الماضي فحسب بل عند بعض أدباء القرن العشرين وَ عَلٰى رأسهم الأديب الْيُوغُسْلَافِيّ المعروف إيفو آندريتش (Ivo Andrić) الَّذِي اشتهر بكتابه "الكبري عَلٰى نهر دْرينا" (Na Drini ćuprija) وَ حاز بفضله جائزة نوبل فِي الأدب سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م. وَ قد قيل عن هٰذَا الكتاب كلام كثير فِي يُوغُسْلَافِيَا وَ خارجها، فلا نريد تكرار مَا قيل، وَ إن كنا نلاحظ أن هٰذَا الكتاب قد تميز بالعرض القصصي الشيق، فإنه لم يكن أمينًا فِي عرض بعض عناصر القصة، لا يميز الحقائق وَ الأحداث التاريخية عرضًا صحيحًا. وَ يؤخذ عَلٰى المؤلف فِي عمله هٰذَا موقفه العدائي تجاه المسلمين، إذ يقدم لنا شخصية إسلامية تميل إِلٰى القتل وَ التعذيب وَ الهمجية وَ الإنهيار الخلقي. وَ ها نحن أولاء نلتقي مع المؤلف فِي أحد فصول

كتابه، وَ هُوَ يصور لنا تصويرًا مفصلًا مشهد تعذيب أحد المسيحيين (الصِّرْب) وَ موته عَلَى الرّحي[٢٩٣].

وَ الحقّ أنّنا لا نزعم أن الحكم العُثْمَانِيّ فِي هٰذِهِ البلاد قد مر من دون قتل أو حَتَّى تعذيبن بل نذهب عكس ذٰلِكَ تمامًا وَ لكن من الأهمية بمكان أن نشير إِلَى أن ذٰلِكَ تم فِي حدود حوادث فردية استثنائية وَ نادرة، لا كما يحاول إيفُو آندريتش أن يوهمنا فِي قصته.

وَ ها نحن أولَاء، نقرأ "الكبري عَلَى نهر درينا" فنتساءل: ماذا أراد المؤلف أن يقول من وَ راء قصته؟! الَّتِي يزعم أنها وَ اقعية بينما نراها مشوبة بالبهتان وَ الزيف فِي نظرنا، هل أراد بتسجيله موت أحد المسيحيّين أن يلقي بتبعة موته عَلَى هٰذَا النحو عَلَى المسلمين الَّذِينَ عاشوا وَ لا يزالون مع المسيحيّين عيشة تتسم بالإخاء وَ الإنسانية، الحق أننا لا ندري ماذا يرمي إِلَيْهِ من وَ راء هٰذَا العرض

٢٩٣ حَتَّى هٰذَا الوصف لم يستمده المؤلف من الواقع المحلي، بل هُوَ حاث قد وَ قع، لٰكنه لم يقع فِي الْبُوسْنَةِ بل فِي الأراضي الْغَرَبِيَّة، وَ ضحيته لم يكن مسيحًا بل مسلمًا هُوَ البطل السّوريّ سليمان بن مُحَمَّد الحلبي (١١٩١-١٢١٥ هـ / ١٧٧٧-١٨٠٠ م) وَ من المعروف أن سليمان الحلبي، لما قام بإغتيال جنرال كليبر (Kliper) فِي القاهرة سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م قبض عَلَيْهِ وَ حوكم أمام المحكمة العسكرية الفرنسية الَّتِي قضت عَلَيْهِ بالموت صلبا علَى الرّحى. وَ علق إِلَى جانبه رُؤُوس ثلاثة من علماء الأزهر. وَ من المحتمل أن آندريتش قد وَ جد هٰذَا الوصف فِي المصادر الفرنسيّة الَّتِي كان ملمًا بها.

للبينة الْيُوغُسْلَافِيَّة عَلٰى هٰذَا النحو، إلَّا دفع المسلمين بالأباطيل. بينما كان بمقدوره، لو تمسك بالحقائق التاريخية وَ العلمية أن يقدم لنا عرضًا فنيًا شائقًا، قريبًا إلٰى العلم وَ التاريخ معًا، وَ إلٰى ملايين المسلمين بل إلٰى قلوب الملايين من المسيحيين أنفسهم، لكنه إنسان وَ راء أهوانه وَ ميوله "الصّليبية" وَ أخيرًا نود أن نلخص هٰذِهِ القصة حَتّٰى يكون القارئ عالمًا بالإفتراءات وَ الأباطيل الَّتِي ترد فِي القصة:

يتناول المؤلّف فِي بداية كتابه هٰذَا موقع البوسنة الجغرافي وَ يصف بصورة خاصة مدينة ويشيغْرَاذْ (Višegrad) الَّتِي هِيَ مسرح أحداث الكتاب، وَ ينتقل بعد ذٰلِكَ إلٰى قصة بناء الجسر فيها. وَ نلاحظ أن المؤلّف فِي هٰذِهِ الأوصاف فِي تناقض دائم مع الوقائع التاريخيّة بل فِي تناقض مع نفسه هو! وَ من المعروف أن هٰذَا الجسر له أهمية اقتصادية وَ ثقافية كبيرة فِي حياة سكان هٰذِهِ المنطقة. وَ يعترف المؤلف بذلك فِي بعض مواضع كتابه لكنه يرجع فيقول أن الحياة بعد بناء الجسر أصبحت اسوأ مما كانت عَلَيْهِ من قبل، فالجسر ليس له أية أهمية فِي نظر المؤلف، وَ تعليل ذٰلِكَ يعود فِي حقيقة الأمر إلٰى أن الجسر قد بناه الْعُثْمَانِيُّونَ المسلمون! الَّذِينَ يكرههم المؤلف وَ من ثم فقد حاول أن يقدمهم لأجيال القرن العشرين، فِي أسوأ وَ أبشع صورة. وَ لما لم يجد البراهين التاريخية لتأكيد مَا يرمي إلَيْهِ فإنه يحاول أن يستقي من الخيال وَ الأساطير مَا يؤكد به غرضه الخبيث. وَ سوف نجد أن الشخصية الرئيسية فِي قصته هِيَ شخصية الفلاح راديساف

(Radisav) وَ هِيَ شخصية خيالية بحته لم تعش إلَّا فِي خياله فقط، حيث لم يرد لها ذكر فِي أي كتاب تاريخي أو أدبي سوٰى آندريتش (Andrić) نفسه. وَ يقف رادساف عَلٰى رأس الحركة الفلاحية الِاجْتِمَاعِيَّة ضد طغاة الْعُثْمَانِيِّينَ وَ يقوم بأعمال إجرامية تخريبية وَ هُوَ يدمر فِي الليل مَا بناه الْعُثْمَانِيُّونَ من الجسر بالنهار وَ يشيع فِي المنطقة أخبارًا مؤداها أن وِيلَات (Vile) لا تسمح بإقامة الجسر! وَ من ثم، فقد قبض عَلَيْهِ الْعُثْمَانِيُّونَ، وَ أخذوا يعذبونه عذابًا لم يعرفه أحد من العاملين. هٰذِهِ هِيَ قصة الجسر عَلٰى نهر ذرينا (Drina) الَّتِي حازت عَلٰى جائزة نوبل فِي أوروبا سنة ١٩٦١ م. أما نحن فلا ندافع عن الْعُثْمَانِيِّينَ لكونهم الْعُثْمَانِيِّينَ بل ندافع عن الحق وَ الحق أنهم أبرياء من الأعمال الَّتِي يقدمها آندريتش فِي كتابه، وَ خاصة فِي فترة بناء الجسر المذكور. وَ نحن لاننكر لآندريتش كفاءته القصصية وَ الأدبية، لكن كرهه للعثانيين جعلته يحيد عن العدل وَ العلم وَ التاريخ وَ جرح بذلك قلوب المسلمين ليس فِي الْبُوسْنَةِ فحسب بل فِي كل مكان.

٧- الجسر العتيق فِي مدينة موستار:

أمر ببناء هٰذَا الجسر السلطان سليمان القانونيّ[٢٩٤] فِي بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر. وَ لقد وَصف هٰذَا الجسر كثير من الرحالة وَ من بينهم الرحالة التُّرْكِيّ أَوْلِيَاء چِلَبِي إذ يذكر لنا سنة إتمامه (وهي سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م) وَ لكنه لم يذكر سنة إنشائه[٢٩٥].

وَ يقول چلبي أن الَّذِي بناه هُوَ معمار سنان[٢٩٦]، وَ هٰذَا غير صحيح فإن الَّذِي بنٰى هٰذَا الجسر هُوَ أحد تلاميذ المشهورين معمار سنان وَ كان اسمه خير الدين[٢٩٧]. وَ فيما يبدو أن معمار سنان قد أرسله إِلٰى موستار للقيام بِهٰذِهِ المهمة.

---

[٢٩٤] Čelić, Džemal; and Mujezinović, Mehmed (1969.) *Stari mostovi u Bosni i Hercegovini*, p. 185..

الجسور القديمة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، جمال تْشيليتش وَ مُحَمَّد مُوَزْنوفيتْشْ، ص ١٨٥.

[٢٩٥] لقد عاش البروفيسور عليّ نامتاق (Alija Nametak) أخيرًا عَلٰى وَ ثيقة تاريخية مهمة تتعلق ببناء هٰذَا الجسر، وَ ذٰلِكَ بين المخطوطات فِي المتحف البلدي لمدينة سراييفو، وَ تشير هٰذِهِ الوثيقة إِلٰى أن الجسر بدء فِي بنائه سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م، وَ معنٰى ذٰلِكَ أن بناءه استغرق عشر سنوات.

[٢٩٦] Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāmē*, p. 464..

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٤٦٤.

[٢٩٧] من المحتمل أن خير الدين قام ببعض الأعمال فِي مدينة موستار قبل بناء الجسر المذكور، لأنه فِي نفس الَّتِي التي بدأ فِيهَا بناء الجسر العتيق تم بناء المسجد الرئيسيّ فِي المدينة وَ هُوَ مسجد قَره گوز بك.

وَ فيما يتعلق بالإصلاحات الَّتِي حدثت لِهٰذَا الجسر زمن الْعُثْمَانِيِّينَ فيبدو أنها طفيفة. تمّت بين الحين وَ الآخر، أما الإصلاح الأخير عَلَيْهِ فقد أجرٰى سنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م. إلَّا أن الجسر ظل محتفظًا بشكله الأصلي تمامًا.

٨- جسر أرسلانا غيج[٢٩٨] فِي مدينة تْريبينْيه[٢٩٩] (Trebinje):

سبق أن ذكرنا أن الوزير العُثْمَانِيّ الشهير مُحَمَّد باشا سُوقُولُوفِيتْشْ اعتاد أن يبني جسورًا فِي الأماكن وَ المدن الإستراتيجية الكبيرة. وَ كانت مدينة تربنية مركزًا تجاريًا مهمًا من أقدم العصور، إلَّا أن أهميتها التِّجَارِيَّة برزت فِي القرن السادس عشر حيث بنٰى الوزير هٰذَا الجسر عَلٰى نهر تْريبيشْنْييتْسا (Trebišnjica) وَ ذٰلِكَ سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م. وَ نلاحظ شبهًا كبيرًا بين هٰذَا الجسر وَ الجسر العتيق فِي مدينة موستار، وَ ليس من المستبعد أن معمار خيرالدّين

---

[٢٩٨] هٰذَا الاسْم حديث العهد نسبة إلٰى قدم الجسر، وَ يرجع إلٰى بداية القرن الثامن عشر، لأن الْعُثْمَانِيِّينَ حينما فتحوا أراضي الهرسك لم يبقوا فِي تربنية بل تمركزوا فِي حاضرة الهرسك حينذاك وَ هِيَ مدينة نووي (Novi) الَّتِي تقع فِي ساحل البحر الأدرياتيكي، وَ عندما انسحب الْعُثْمَانِيُّونَ من مدينة نوفي أمام البندقية نزلوا فِي تربنية. وَ استطاع أحد التجار. وَ كان اسمه آرسلان (Arslan) أن يحصل عَلٰى الإجازة من السلطان العُثْمَانِيّ عَلٰى أن يأخذ ضرائب من القوافل التِّجَارِيَّة الَّتِي تمر بالجسر، وَ سمي الجسر منذ ذٰلِكَ باسمه.

[٢٩٩] كانت المدينة نقطة تجاريّة مهمّة لأنّها تقع عَلٰى مفترق الطّرق التِّجَارِيَّة.

(Mimar Ḫajrud-dīn) بنٰى هٰذَا الجسر أيْضًا. وَ لمّا قرّرت الحكومة الْيُوغُسْلَافِيَّة سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م بناء سد كبير فِي المنطقة الَّتِي يقع فِيهَا هٰذَا الجسر فقد أثار هٰذَا القرار ضجة كبرٰى بين الأوساط العلمية وَ الفنّيّة فِي يُوغُسْلَافِيَا. وَ لقد سمحت الحكومة الْيُوغُسْلَافِيَّة بعد ذٰلِكَ بنقل[٣٠٠] الجسر إِلَى مكان آخر، وَ وضع الجسر فِي مكانه الجديد بعد مجهودات عظيمة وَ تكاليف كبيرة.

٩- الجسر القديم عَلَى نهر ژيپا (Žepa):

يدور فِي الأوساط الشعبية روايات كثيرة وَ متناقضة أحيانًا عن هٰذَا الجسر وَ بنائه[٣٠١]. وَ نعرف أن هٰذَا الجسر أقيم بعد إتمام جسر مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ فِي ويشيغْرَاذْ مباشرة، وَ ذٰلِكَ تحت إشراف أحد تلاميذ معمار سنان.[٣٠٢] وَ كان مصير هٰذَا الجسر مصير جسر

---

٣٠٠ نودّ أن ننبّه إِلَى أن الجسور فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة بنيت من الحجر المنحوت، وَ عَلَى ذٰلِكَ كان من الممكن نقل هٰذِهِ الجسور.اما فيما يتعلق بشكل هٰذِهِ الجسور فانها كانت فِي شكل أقواس جميلة.

٣٠١ منها أن أحد تلاميذ المعلم أراد أن يفوق عمله معلّمه، فبنٰى هٰذَا الجسر. فلما رآه المعلم أمر أن تقطع أيدي تلميذه هٰذَا!

٣٠٢ Čelić, Džemal; and Mujezinović, Mehmed (1969.) *Stari mostovi u Bosni i Hercegovini*, p. 164..

الجسور القديمة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، جمال تْشيليتش وَ مُحَمَّد مُوَزِّنوفيتْشْ، ص ١٦٤.

أرسلاناغيج، إذ نقل إلى مكان مناسب سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م وَ بِهٰذَا حفظ من التخريب أو الهدم.

١٠- جسر قَره گوز بك فِي مدينة قونْيِيتْس[٣٠٣] (Konjic):

بني هٰذَا الجسر فِي نهاية القرن السادس عشر وَ بناه وَ اقف منطقة الهرسك المشهور قَره گوز بك (Karađoz-beg). وَ نجد أول ذكر لِهٰذَا الجسر فِي وَقفية الواقف من سنة ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م[٣٠٤]، وَ يبدو أن هٰذَا الجسركان من الخشب فِي البداية لأنه قد هدم سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م[٣٠٥]، وَ أقيم مكانه جسر جديد كان من الخشب كَذٰلِكَ، وَ نفهم ذٰلِكَ من أقوال أَوْلِيَاء چِلَبِي الَّذِي مرّ بقونْيِيتْسْ سنة ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٥ م، وَ يقول بأنه "تعبر فِي قونْيِيتْس عبر جسر خشبي

---

٣٠٣ تقع هٰذِهِ المدينة فِي وَ ادي نهر نيريتْفا (Neretva) عَلٰى الطريق الشّهير سراييفو-بحر الأردياتيكي، وَ بفضل موقعها الجغرافي الممتاز أدت هٰذِهِ المدينة دورًا بارزًا فِي المنطقة حَتّٰى فِي زمان الرومان، أما أيام الحكم العثماني، عَلٰى الرغم من أنها لم تصبح مركزًا عسكريًا أو ثقافيًا كبيرًا، إِلّا أنّها احتفظت بأهميتها الاِقْتِصَادِيَّة وَ التِّجَارِيَّة.

٣٠٤ لم يذكر الواقف فِي وَقفيته شيئًا عن بناء الجسر، بل عين مبلغًا لإقامته.

٣٠٥ Gujić, Kasim; *Najljepši turski mostovi u Bosni i Hercegovini*, p. 241..

أجمل الجسور التّركيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، قاسم غويِيتْش، ص ٢٤١.

كبير"[٣٠٦]. وَ نرٰى بعد ذٰلِكَ أن الجسر قد غُير بجسر حجري سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م[٣٠٧] وَ ليس لدينا معلومات عن الشخص الَّذِي قام بِهٰذَا البناء. وَ يقول بعض المؤرخين أنه كان الوزير الْبُوسْنَوِيَ أحمد پاشا سُوقُولُوفِيتْشْ (Aḥmed-paša Sokolović) وَ لقد أصيب هٰذَا الجسر بأضرار جسيمة سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٥ م إذ قصفته القوات الألمانية الَّتِي كانت تنسحب أمام جيش التحرير الْيُوغُسْلَافِيِّ وَ نوقشت قضية تصليح هٰذَا الجسر سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م، وَ كان القرار النهائي أن يهدم الجسر وَ يبنٰى فِي مكانه السّدّ الكهربائيّ، وَ هكذا قضي عَلٰى وَاحد من أجمل الآثار التاريخية فِي منطقة الهرسك.

وَ لَقَد ذكرنا فِي هٰذِهِ الدراسة القصيرة عشر جسور فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، قد تكون أشهرها. وَ تبين لنا أن مؤسسي هٰذِهِ الجسور– فِي أغلب الأحيان – كانوا من رجال الدولة الْعُثْمَانِيَّة لكنهم من أصل بوسنوي. وَ ذهب فريق من الباحثين إِلٰى أن هٰؤُلَاءِ الوزراء وَ الولاة الَّذِينَ هم من أصل بوسنوي قاموا بِهٰذِهِ الأعمال حبًا للوطن الأصلي، أو أنهم أرادوا بذلك التكفير عن ذنبهم القديم، لأنهم قد أسلموا فِي بلاط السلطان! وَ مثل هٰذِهِ الأقوال، لا يجوز أن تجد

---

٣٠٦ Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāmē*, p. 251..

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٢٥١.

٣٠٧ نفهم ذٰلِكَ من النقش عَلٰى أحد أحجار الجسر، وَ كان مقروءًا حَتّٰى هدمته السّلطات الألمانية النّازيّة.

مكانها فِي البحوث الإِسْلَامِيَّة. وَ نحن لانرٰى دائمًا مصلحة الدولة الْعُثْمَانِيَّة الإِسْلَامِيَّة. وَ نذكر عَلٰى سبيل المثال منشآت الوزير مُحَمَّد پاشا سُوقُولُوفِيتْش، فهو بنٰى جسرًا فِي مسقط رأسه – ويشيغْرَاذ – لٰكن هٰذِهِ المدينة كانت من أهم المراكز الإستراتيجية فِي الطريق: إسْطَنْبُول – أوروبا الوسطٰى، ثم بعد ذلك، قد بنٰى هُوَ نفسه – جسورًا أخرٰى فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ جميعها أقيمت – قبل كلّ شيء – فِي المناطق ذات الأهمية الاِقْتِصَادِيَّة أو السياسية بالنسبة للدولة الْعُثْمَانِيَّة الإِسْلَامِيَّة.

الخانات

لقد قام بإنشاء هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ أبناؤها الَّذِينَ حصلوا عَلٰى مناصب بارزة فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة، وَ منهم من كان يتمتع بمنصب سنجق بك (Sandžak-beg) مثل عيسٰى بك بن إسحاق وَ سْكندر بك (Skender-beg) وَ الغازي خُسْرو بك وَ قَره مصطفٰى پاشا سُوقُولُوفِيتْش (Kara Muṣṭafā-paša Sokolović) وَ منهم من كان يتمتّع بمنصب بغلر بك (Begler-beg) مثل فرهاد پاشا سُوقُولُوفِيتْش (Ferhād-paša Sokolović) وَ إبْرَاهِيم خان (Ibrāhīm-han) وَ موسٰى پاشا (Mūsā-paša) وَ غيرهم. وَ لقد عاش جميع هٰؤُلَاءِ الأشخاص فِي الفترة من القرن الخامس عشر إِلٰى النصف الثاني من القرن

السّابع عشر. وَ نستطيع أن نقسم هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات إِلٰى أنواع ثلاثة نذكرها فيما يلي:

١- الخانات المقامة عَلٰى الطرق التِّجَارِيَّة أو بالقرب منها:

وَ فِيهَا كان المسافر يستطيع أن يستريح من عناء السفر، وَ أن يبيت اللّيل إذا أدركه، وَ عادة مَا كان يقضي فِيهَا المسافر ليلة وَاحدة فقط يستأنف بعدها سفره إِلٰى البلد المقصود. وَ إن كان يسمح للمسافر أن يبقٰى فِي هٰذِهِ الخانات أكثر من ثلاثة أيام فِي الحالات الضرورية وَ خاصة فِي حالة المرض. وَ لَا شَكَّ فِي أن الأمراض كانت أخطر عدو للمسافر فِي ذٰلِكَ الوقت، وَ كثيرًا مَا أدركت المسافر المنية فِي أحد هٰذِهِ الخانات.[٣٠٨]

٢- الخانات التِّجَارِيَّة:

وَ قد أقيمت فِي المراكز التِّجَارِيَّة الكبيرة فقط. مثل سراييفو وَ موستار وَ بَانْيَالُوقَا (Banja Luka) وَ غيرها، وَ كان ينزل فِيهَا التجار الَّذِينَ تضطرهم ظروف البيع وَ الشراء إِلٰى الإقامة فترة قد تمتد إِلٰى أيام أو أسابيع أو شهور.

---

[٣٠٨] Kreševljaković, Hamdija; *Hanovi i Karavan-saraji u Bosni...*, p. 31..

الخانات وَ قراوان سراي فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، حمدي قْرِيشيوْلْياقُوفيتْشْ، ٨، ص ٣١، سراييفو.

٣- الخانات الموسمية:

وَ قد أنشئت قرب البلدان الكبيرة وَ فِي الأماكن الَّتِي عرفت بالعلاج الطِّبِيعِيّ أو إجراء الإحتفالات الدينية أو الشعبية فيها.

وَ لَقَد مرّ بمنطقة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الفترة مَا بين سنة ٩٠٥-١٢٩٥ ه / ١٤٩٩-١٨٧٨ م عدد كبير من الرحالة المحليين وَ الأجانب الَّذِينَ نجد فِي مصنفاتهم أقدم وَ أوثق المصادر الَّتِي نعتمد عَلَيْهَا فِي دراسة هٰذَا الموضوع، وَ ذٰلِكَ لأن هٰذِهِ المؤلفات عرفت فِي الفترة الَّتِي ظهرت فِيهَا هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات، وَ جميع هٰؤُلَاءِ الرحالة، سواء أكانوا من الإيطاليين أم الفرنسيين أم الأتراك قد كتبوا مؤلفاتهم هٰذِهِ بلغتهم الأصلية[٣٠٩]. وَ لابد أن نشير إِلَى أن هٰؤُلَاءِ الرحالة لم يمروا بالبوسنة حبًّا فِي السفر أو الإستطلاع أو حبًّا فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ إنما مروا بها لأغراض شتى: فمنهم من ذهب إِلَى إِسْطَنْبُول عَلَى رأس الوفود الموجهة من الدول الاوروبية إِلَى السلطان الْعُثْمَانِيّ مثل كورنيلي شيبّر[٣١٠] (K. D. Schepper) سنة ٩٤٠ ه / ١٥٣٣ م وَ بنديكيت قوريبيشيتْش[٣١١]

---

[٣٠٩] أكثر هٰذِهِ المؤلفات ترجم إِلَى اللغة اليوغسلافيّة، وَ قد قام بِهٰذِهِ المهمة كل من: الدكتور بيتر فرانكوفيتْش (Peter Franković) أستاذ الجغرافيّة وَ الإحصائيّات فِي زغرب، وَ ميخايلو دينيتْش (Mihajlo Dinić) الأستاذ بجامعة بلغراد، وَ الدّكتور جيرو ترُوهيلْقا (Ćiro Truhelka) وَ سيفالدّين كمورا (Sejfud-dīn Kemura) وَ غيرهم.

[٣١٠] كان هٰذَا الشخص مستشارً لملك النّمسا كما كان سياسيًّا ماهرًا فِي الوقت نفسه.

[٣١١] كان أحد أفراد الوفد المتّجه إِلَى السّلطان سليمان من الملك فِرْديناند (Ferdinand).

(Benedict Kuripešić) سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م، وَ منهم من ذهب إِلَى إِسْطَنْبُول فِي مهمة دينية مثل لوكا دْروپولْيِيتْشْ[٣١٢] (Luka Dropuljić) سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م، وَ منهم من جاء إِلَى البوسنة لأغراض تجسسية مثل بوژِيتْشْ[٣١٣] (Božić) وَ هُوَ الجاسوس النِّمْسَاوِيّ المشهور الَّذِي قضَى فِي الْبُوسْنَةِ ثمانية أشهر وَ ذَٰلِكَ سنة ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م. أما الرحالة التُّرْكِيّ أَوْلِيَاء چلَبِي الَّذِي هُوَ بلا شك أصدق الرحالين فِي وَصف البوسنة، فلقد مرّ بِهَٰذِهِ البلاد مرتين: سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م وَ سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م بإعتباره رسول البلاط[٣١٤]. وَ من الَّذِينَ مرّوا بالبوسنة رغبة فِي الإستطلاع يمكن أن نذكر أسماء ماتيا ماژورانيتْشْ (Matija Mažuranić) الَّذِي وَصل البوسنة سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م، وَ ميخوفيل پاوْلينوفيتْشْ (Mihovil Pavlinović) سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م.

وَ نلَاحظ كَذَٰلِكَ أن هَٰؤُلاءِ الرحالة قد اختلفوا فِي وَصف هَٰذِهِ الخانات، فبينما يصفها البعض بجمالها وَ روعتها الهندسية، يصفها بعضهم الآخر بعكس ذَٰلِكَ وَ يشكون من سوء الخدمة فِيهَا وَ فق امكانياتها، وَ هَٰذَا أمر طبيعي لأن الخانات فِي القرَٰى الجبلية البعيدة عن المراكز التِّجَارِيَّة كانت تختلف عن الخانات

---

[٣١٢] هُوَ أحد رجال الكنيسة الكاثوليكيّة وَ قد ذهب إِلَى السلطان العُثْمَانِيّ عَلَى اثر المنازعات الَّتِي قامت بين الكاثوليكيين وَ الأرثوذكسيّين.

[٣١٣] زوّد هَٰذَا الجاسوس الدولة النِّمْسَاوِيَّة بمعلومات خطيرة.

[٣١٤] وَ نجده يصف المناطق اليوغسلافيّة فِي الجزأين الخامس وَ السادس من سياحت نامه.

فِي البلدان الكبيرة. وَ نضيف إِلَى ذَٰلِكَ أن بعض الرحالة مروا بِهَٰذِهِ المناطق فِي فصل الشتاء، حيث لاقوا قساوة البرد الشديد فِي هَٰذِهِ الخانات.

أما عدد هَٰذِهِ الخانات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، فمن الصعب معرفته[٣١٥]، وَ يذكر لنا أَوْلِيَاء چلَبِي سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٥٩ م أنه رأى فِي سراييفو وَ حدها ثلاثة وَ عشرين خانًا، كما نرى من أحد سجلات سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م أن سراييفو وَ حدها كان فِيهَا خمسون خانًا[٣١٦]. وَ أشهر هَٰذِهِ الخانات فِي سراييفو كانت:

١- قولوبارا (Kolobara) أقامه مؤسّس سراييفو عيسَى بك سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م،

٢- تاشلي خان (Tašli han) وَ هُوَ خان الغازي خُسْرو بك أسّسه سنة ٩٥٠ هـ / ١٥٢٣ م،

٣- موريتْشا خان (Morića han) ملك وَقف الغازي خُسْرو بك بني فِي القرن السّابع عشر،

---

[٣١٥] نجد اليوم فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ أكثر من مائة وَ ثلاثين منطقة أو بلدًا ترتبط أسماؤها بكلمة "خان"، (فلَا شكّ فِي أن هَٰذِهِ الْمُؤَسَّسَة قد وَ جدت فِي هَٰذِهِ المناطق زمن الْعُثْمَانِيِّينَ).

[٣١٦] لم يبق من هَٰذِهِ الخانات فِي سراييفو سوَى موريتْشان خان (Morića han) أمّا الخانات الكبيرة الأخرَى فقد خربت أثناء الحريق سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ م وَ كَذَٰلِكَ سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م.

٤- گُلوڤ خان (Đulov han) ملك وَقف الغازي خُسْرو بك أُنشِئَ فِي القرن السّابع عشر.

وَ لَقَد أغلق أكثر هٰذِهِ الخانات فِي بداية هٰذَا القرن، إلَّا أن عددًا منها بقي قائمًا حَتَّى إندلاع الحرب الْعَالَمِيَّة الثانية.

كاراوان سراي

أمّا كاراوان سراي، فوظيفته تشبه تمامًا وَظِيفة الخان، من حيث استقبال التجار وَ المسافرين، وَ القائمين عَلٰى نقل البضائع، وَ توفير المسكن لهم... غير أن يختلف عن الخانات فِي أن الأخيرة كانت تتقاضٰى أجرًا من هٰؤُلَاءِ عن مبيتهم، بينما كان المبيت فِي كاراوان سراي مجانًا. هٰذَا من ناحية، أمّا من ناحية أخرٰى فقد كان كاراوان سراي عبارة عن مؤسسة ضخمة تقام فِي البلدان الكبيرة فقط، أما الخانات، كما مرّ بنا، فقد أقيمت فِي القرٰى الْبُوسْنَوِيَّة أحيانًا، وَ لِذٰلِكَ كان عدد كاراوان سراي قليلًا جدًا بالنسبة إلٰى الخانات. وَ نودّ أن نشير كَذٰلِكَ إلٰى أن أكثر الرحالة الَّذِينَ مرّوا بالْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قد خلطوا بين الخان وَ كاراوان سراي، وَ اعتبروا أنه المراد بهٰذين الاسْمين مؤسّسة وَاحدة.

دار المسافرين وَ المطابخ – مسافر خانات[٣١٧] (Musāfir-ḫāna)

وَ لَقَد ظهرت هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَة فِي الشرق أَيْضًا[٣١٨]، وَ بدأت تؤدي دورًا إجتماعيًا ملحوظًا منذ ميلَاد الدّولة الإسْلَامِيَّة فِي القرن السابع الميلادي[٣١٩].

أما عن الْعُثْمَانِيِّينَ فأول مُسَافِر خَانه تِلْكَ الَّتِي بناها السلطان أورخان (Orhan) فِي مدينة إيزْنِيق (Iznik) سنة ٧٣٧ ﻫ / ١٣٣٦ م، ثم قلده فِي ذٰلِكَ السّلَاطين من الأخرون وَ الأغنياء فِي الدولة الْعُثْمَانِيَّة، وَ نصل إِلَى القرن الثامن

---

٣١٧ مُسَافِر خَانه (Musāfir-ḫāna) كلمة من أصل عربي فَارِسِيّ، وَ هِيَ عبارة عن البناية الَّتِي يستطيع المسافر فِيهَا أن يبيت مجانًا، وَ كان يلحق بِهٰذِهِ الدور مطابخ الأكل للمسافرين وَ الطّلَاب وَ لبعض موظّفي أوقاف.

٣١٨ قبل إنشاء هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَة فِي الدولة الإسْلَامِيَّة كانت هُنَاك مؤسّسة مشابهة فِي الدولة البيزنطيّة وَ كانت تسمى هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَة بِ"كسينودوهيه (Ksenodohije) أو پاندوهيه (Pandohije) وَ كَذٰلِكَ نجد مثل هٰذِهِ الدور فِي سورية فِي القرن السادس الميلادي.

٣١٩ ظهرت دار المسافرين الأولى فِي العالم الإسْلَامِيّ فِي مصر وَ ذٰلِكَ فِي منتصف القرن السّابع الميلاديّ / فِي منتصف القرن الأوّل الهجريّ.

عشر، فنجد أنه فِي إسْطَنْبُول وَ حدها عددًا من المطابخ كان يقدم وجبات الطعام لأكثر من ثلاثين الف شخص فِي اليوم الواحد.[٣٢٠]

وَ لَقَد أشار إِلٰى هٰذِهِ المنشآت الإِجْتِمَاعِيَّة الرحالة الأوروبيون، الَّتِي سبق أن أشرنا إِلٰى مؤلفاتهم.

ونذكر الآن عددًا من هٰذِهِ المنشآت الَّتِي أقيمت فِي مختلف مناطق الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك:

١ ـ مُسَافِر خَانِه غازي عيسٰى بك فِي سراييفو:

وَ هِيَ أول هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، أسسها غازي عيسٰى بك ابن إسحاق فِي سراييفو سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م. وَ نفهم من نص وَقفيته أنه كان من حق المسافر أن يبقٰى فِي المُسَافِر خَانِه ثلاثة أيام فقط، وَ يشير إِلٰى أن الطعام المتبقي فِي مطابخها ينبغي أن يوزع عَلٰى أطفال المدينة من المساكين وَ الفقراء.[٣٢١] وَ الجدير بالذكر أنّه إِلٰى جانب هٰذِهِ المُسَافِر خَانِه بنيت زاوية أَيْضًا وَ ذٰلِكَ سنة

---

٣٢٠ Kreševljaković, Hamdija; *Hanovi i Karavan-saraji u Bosni*, p. 45-46..

الخانات وَ قراوان سراي فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، حمدي قْرِيشيوْلْيَاقُوفيتْش، ٨، ص ٤٥-٤٦.

٣٢١ Šabanović, Hazim (1952.) *Dvije najstarije vakufnāmē u Bosni*, p. 22-25..

أقدم وقفيَتيْن فِي الْبُوسْنَة، شعبانوفيتْش حازم، ص ٢٢-٢٥.

٩٣٨ هـ / ١٥٣١ م، يذكرها أوْلِيَاء چلِبِي وَ يقول بأنها "زاوية طريقة مَوْلويّ". [٣٢٢]

وَ لَقَد خربت جميع هٰذِهِ المنشآت إثر الحريق الَّذِي وقع سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م، وَ لم يتبق منها إلَّا تِلْكَ الزاوية فقط، وَ هِيَ اليوم تحت رعاية الدولة الْيُوغُسْلَافِيَّة بإعتبارها أثرًا تاريخيًا.

٢- مُسَافِر خَانِه رهبان الكاثوليك فِي فُويْنِيتْسَا (Fojnica):

بدأت الثَّقَافَة الْإسْلَامِيَّة منذ وُجُودها فِي هٰذِهِ المناطق تؤثر فِي حياة الناس، حيث نلاحظ تاثير الثَّقَافَة الْإسْلَامِيَّة – بمظاهرها المختلفة – فِي البيئات غير الْإسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، سواء أكانت هٰذِهِ المظاهر مادية أم روحية، وَ أحسن مثال عَلٰى ذٰلِكَ هُوَ وُجُود مُسَافِر خَانِه فِي مدينة فُويْنِيتْسَا (Fojnica) عند الكاثوليك وَ لقد طلب هٰؤُلَاءِ – وَ عَلٰى رأسهم قساوسة كنيستهم – من أمير سراييفو إذنًا بإنشاء مُسَافِر خَانِه وَ ذٰلِكَ فِي سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م وَ سمح لهم بذٰلك. [٣٢٣]

---

[٣٢٢] Kemura, Sejfud-dīn (1908.) *Iz Sijāḥat-nāmē Evlije Čelebije*, GZM, I, p. 187..

من سياحت نامه أوْلِيَاء چلِبِي، سَيْفالدِّينِ كمورا، مجلة المتحف البلدي لمدينة سراييفو، ص ١٨٧.

[٣٢٣] Kreševljaković, Hamdija; *Hanovi i Karavan-saraji u Bosni*, p. 39..

الخانات وَ قراوان سراي فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، حمدي قْرِيشيوْلْياقُوفيتْش، ص ٣٩.

وَ ظلت هٰذِهِ المُسَافِر خَانِه تؤدي دورها حَتّٰى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م حيث أغلقت بأمر من الكاثوليك أنفسهم، وَ لا نجد ذكرًا بعد هٰذَا التَّاريخ لِهٰذِهِ المُسَافِر خَانِه فِي المصادر التَّاريخيَّة.

٣- مُسَافِر خَانِه غازي خُسْرو بك:

بنٰى الغازي خُسْرو بك مُسَافِر خَانِه سنة ٩٣٨ هـ / ١٥٣٠ م[٣٢٤] وَ قد استمرت تؤدي دورها الإِجْتِمَاعِيّ حَتّٰى سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٧٨ م حيث أغلقت أبوابها عند مجيء النِّمْسَاوِيّين، وَ ذٰلِكَ لأسباب غير معروفة، أما المطبخ فقد ظل مفتوحًا حَتّٰى سنة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م.

٤- مُسَافِر خَانِه قَره گوز بك فِي موستار: لقد قلنا إن الْمُؤَسَّسَات الَّتِي أقامها قَره گوز بك فِي منطقة الْهَرْسَك – بأهمّيتها الإِجْتِمَاعِيَّة وَ الثَّقَافِيَّة – تقوم مقام مؤسّسات الغازي خُسْرو بك لمنطقة البوسنة[٣٢٥].
وَ لقد بنٰى قَره گوز بك أكثر مؤسساته فِي الفترة مابين سنة ٩٦٥-

---

[٣٢٤] وَ أقيمت هاتان المؤسستان فِي الجانب الغربي من الجامع الَّذِي بناه وَ لا يزال بناؤها قائمًا.

[٣٢٥] راجع الصَّفحة ١٢١.

٩٨٧ هـ / ١٥٥٧-١٥٧٠ م، وَ من بينها مُسَافِر خَانِه وَ مطبخ وَ كانتا قرب جامعه الشهير[٣٢٦].

٥- مُسَافِر خَانِه سنان بك[٣٢٧] فِي مدينة تْشايْنِيتْشَه (Čajniče):

أسّست هٰذِهِ مُسَافِر خَانِه سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٢٨ م، وَ يذكرها أوْلِيَاء چلَبِي فِي سياحت نامه[٣٢٨]. وَ أغلقت أبوابها فِي بداية القرن التاسع عشر، وَ ذٰلِكَ بعد أن استنفدت أموال أوقاف سنان بك.

٦- مُسَافِر خَانِه بايزيد الثّاني فِي فوتْشَا:

---

[٣٢٦] المُسَافِر خَانِه وَ المطبخ تمّ إنشاؤُهما قبل سنة ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م كما تدلّ عَلٰى ذٰلِكَ وَقْفِيَّة الواقف من السّنة نفسها.

Hasandelić, Hasan (1961.) *Kulturno-istorijski spomenici u Mostaru iz turskog doba*, Sarajevo, p. 174..

الآثار التّاريخيّة الثّقافِيَّة فِي موستار من زمن الْعُثْمَانِيِّينَ، حسن دمديتْشْ حفظي، ص ١٧٤، سراييفو ١٩٦١ م.

[٣٢٧] كان سنجق بك (Sandžak-beg) لمنطقة الْهَرْسَك، وَ زوجته شمسيّة قادن، كما مر بنا، كانت وَاقفة.

[٣٢٨] Kemura, Sejfud-dīn (1908.) *Iz Sijāḥat-nāmē Evlije Čelebije*, p. 308..

من سياحت نامه أوْلِيَاء چلَبِي، سَيْفُ الدِّينِ كمورا، ص ٣٠٨.

يرجع إنشاؤها إلى الفترة مَا بين سنة ٨٨٦-٩١٨ هـ / ١٤٨١-١٥١٢ م، وَ يذكرها أوْلِيَاء چلَبي أيْضًا، وَ لقد أقيمت هٰذِهِ المُسَافِر خَانِه قرب جامع آلاجا (Aladža) الشّهير.

٧- مُسَافِر خَانات فِي مدينة تْراوْنيق (Travnik):

عرفت مدينة تْراوْنِيقْ بكثرة هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات، فهي تحتل المركز الأول فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ من حيث عددها. وَ لقد بلغ هٰذَا العدد فِي القرن التاسع عشر أكثر من أربعين مُسَافِر خَانِه، وَ أشهرها مُسَافِر خَانِه مُحَمَّد پاشا قوقاويتْسا (Mehmed-paša Kukavica) أسّسها الواقف المذكور سنة ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م. وَ نعرف أن هٰذِهِ المُسَافِر خَانِه قد قضٰى عَلَيْهَا الحريق الكبير الَّذِي وقع فِي سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م. وَ لقد أغلقت آخر مُسَافِر خَانِه أبوابها فِي هٰذِهِ المدينة سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩١٨ م.

وإلٰى جانب هٰذِهِ المسافرخانات المذكورة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كان ثمة عدد كبير منها فِي مختلف مناطقها.

الحمّامات (Ḥammāmi)

من البديهيّ أنّ الإسْلَام يتطلّب من أتباعهِ النّظافة الرّوحيّة وَ البدنيّة أكثر من أيّ دين آخر. وَ سوف نكتفي فِي هٰذَا الصّدد بذكر بعض الآيات من الْقُرْآن الكريم الَّتِي تشير إلَى هٰذَا الجانب، منها:

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾، [٣٢٩]

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾، [٣٣٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا...، [٣٣١]

---

[٣٢٩] الْقُرْآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

[٣٣٠] الْقُرْآن الكريم، سورة التّوبة، الآية ١٠٨.

[٣٣١] الْقُرْآن الكريم، سورة المائدة، الآية ٦.

وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾.[٣٣٢]

وَ لقد قام مسلمو الْبُوسنْة وَ الْهَرْسَك بتطبيق الأعمال الَّتِي تقرّبهم إِلٰى الله – عزّ وَ جلّ –، وَ ها نحن أولاء نسرد بعض هٰذِهِ الأعمال فِي هٰذَا الفصل من البحث، فلِكُلّ هٰذِهِ المنشآت الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي أقامها هٰؤُلَاءِ المسلمون كانت استجابة لنداء واحد – نداء الْقُرْآن الخالد –. وَ تأخذ الحمّامات إِلٰى جانب المؤسّسات المذكورة الأخرٰى مكانًا بارزًا وَ بما أنّ إقامتها كانت تتطلّب وسائل ماديّة كبيرة قام بإنشائها الأغنياء من الواقفين فقط، وَ فيما يلي نذكر أقدم هٰذِهِ الحمّامات وَ أكبرها:

١- الحمّام السّلطانيّ (Carev ḥammām):

بناه عيسٰى بك ابن إسحاق، وَ ذٰلِكَ قبل سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م فكان أوّل حمّامٍ بني فِي سراييفو، وَ هُوَ من الحمّامات النّادرة وَ مَا زال قائمًا.

٢- حمّام لسنجق بك آياس (Ajas-beg):

أقامه الواقف قرب مسجده سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م، دمره الحريق سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م.

---

[٣٣٢] الْقُرْآن الكريم، سورة الفرقان، الآية ٤٨.

٣- حمّام لسنجق بك فيروز بك (Fejrūz-beg):

أنشئ سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وَ كان قائمًا حَتّٰى بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

٤- حمّام لسنجق بك غازي بالي بك يحيٰى پاشيتْش (Ġāzī Bāli-beg Jaḫjā Pašić) بناه الواقف قبل سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م، وَ كان قائمًا حَتّٰى بداية القرن التّاسع عشر.

٥- حمّام الغازي خُسْرو بك[٣٣٣]:

أُنْشِئَ بعد سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م، وَ هُوَ أجمل الحمامات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ أكبرها، وَ مبناه لا يزال قائمًا، لكنه مع الأسف، أغلق أبوابه منذ سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م.[٣٣٤]

وَ هٰذِهِ وَقْفة خاطفة تناولنا فِيهَا الحمامات العامة فِي مدينة سراييفو فقط، وَ لا يسمح لنا المجال حَتّٰى نتكلم عن الحمامات الأخرٰى فِي المدن الأخرٰى فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ إنما يكفي أن نقول أنه لم يكن هناك مدينة إِلّا وَ فِيهَا حمام أو أكثر. وَ الجدير بالذكر أن هٰذِهِ الحمامات العامة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كانت

---

٣٣٣ لسنا ندري هلْ أنشئ هٰذا الحمّام فِي حياة الواقف أو بعد وَفاته، لأنّنا لا نجد ذكرًا للحمّام فِي وَقفيته، وَ نستنتج من ذٰلِكَ أنه بني من أموال أوقافه بعد موته.

٣٣٤ Kreševljaković, Hamdija (1932.) *Gazi Husrev-begova banja*, Sarajevo, p. 70..

حمّام الغازي خسرو بك، حمدي قْريشيوْلْياقُوفيتْش، ص ٧٠، سراييفو ١٩٣٢ م.

تضم دائمًا جناحًا خاصًا بالرجال، وَ جناحًا آخر خاصًا بالنساء، كما أن اسْتعمال هٰذِهِ الحمامات كانت جائزًا للمسيحيين أَيْضًا.

هٰذَا مَا أردنا أن نقوله عن الحمامات العامة، أما الحمامات الخاصة، فلم يخل منها أي بيت من بيوت المسلمين. وَ لقد خصص لها هٰؤُلَاءِ المسلمون أماكن خاصّة فِي زوايا بيوتهم حيث بنوا فِيهَا حمّامًا وَ سمّوه حمّام جق[٣٣٥] (Hammamcık/Ḥammāmdžık).

أنابيب المياه وَ النافورات

الماء من أكبر نعم الله فِي الأرض إطلاقًا. وَ ترد هٰذِهِ الكلمة فِي القرآن الكريم فِي أكثر من ستين موضعًا. وَ كان دور الماء – فِي حياة بعض الأمم – يختصر عَلٰى إطفاء العطش، أما عند المسلمين، فالماء من الوسائل الأساسية للتقرب إِلٰى الله – تعالٰى –. وَ ليس من الغريب أن أهل الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك – بعد اعتناقهم لِلْإِسْلَامِ – أصبحوا كغيرهم من الأمم الْإِسْلَامِيَّة يهتمون بإقامة أنابيب

[٣٣٥] نرٰى ذٰلِكَ فِي جميع البيوت الْإِسْلَامِيَّة القديمة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

المياه وَ النافورات حيث نلاحظ وُجُودها فِي القرن السادس عشر. لا فِي المدن فحسب، وَ إنما فِي القرٰى وَ فِي الطرق أَيْضًا[٣٣٦].

وَ لَقَد أُنْشِئَ أول هٰذِهِ الأنابيب فِي الْبُوسْنَةِ فِي مدينة سراييفو عَلٰى يد عيسٰى بك ابن إسحاق وَ ذٰلِكَ قبل سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م، أما فِي منطقة الهرسك، فمن المؤكد أنه لم تكن فِيهَا أنابيب للمياه حَتّٰى النصف الأول من القرن السابع عشر، وَ أول هٰذِهِ الأنابيب قد أُنْشِئَ فِي مدينة موستار (Mostar) وَ ذٰلِكَ فِي سنة ١٠٤٥ هـ / ١٩٦٣ م[٣٣٧]، وَ قد أنشأها الواقف روزنامهجي إبْرَاهِيم (Roznamedži Ibrāhīm) الَّذِي مدّ الأنابيب إلٰى جوامع موستار وَ حمّاماته، كما يذكر لنا أَوْلِيَاء چلبي فِي "سياحت نامه" أما فِي المناطق الَّتِي ليس فِيهَا المياه جارية فقد قام أهل المنطقة بحفر آبار عميقة يحبس فِيهَا الماء خلال مواسم سقوط الأمطار الغزيرة، وَ نجد فِي منطقة الهرسك نوعًا خاصًا من هٰذِهِ الآبار المسماه بـ"تْشَاتْرْنْيَا"[٣٣٨] (Čatrnja) أما النافورات الَّتِي عرفت فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ باسم

---

[٣٣٦] وَ هٰذَا أمر طبيعي لأن الْمُؤَسَّسَات الإِسْلَامِيَّة مثل الجوامع وَ المساجد وَ الزوايا وَ الحمامات لا يمكن أن تكون بدون ذلك.

[٣٣٧] Mujić, Muḥammed (1955.) *Stari mostarski Vodovod*, Naše Starine, III, Sarajevo, p. 191..

أنبوب للمياه القديم فِي مدينة موستار، مُحَمَّد موييتْش، آثارنا، ٣، ص ١٩١، سراييفو ١٩٥٥ م.

[٣٣٨] وَ عمق هٰذِهِ الآبار – عادة – يكون من ثلاثة أمتار إلٰى خمسة أمتار. وَ لقد عرفت منطقة الْهَرْسَك بعدم وَ جود المياه الجارية بها.

شادروان[٣٣٩] (Šadrvan) فقد زينت بها الجوامع وَ المساجد وَ الحمّامات، وَ ها نحن أولاء نزور هٰذِهِ المنشآت اليوم، فنشعر وَ كأننا فِي إحدٰى الدول الشرقية الإسْلَامِيَّةِ. بقي لنا أن نذكر أن أول شادروان فِي الْبُوسنَةِ وَ الْهَرْسَكِ أقامه عيسٰى بك ابن إسحاق، وَ ذٰلِكَ فِي حمامه فِي سراييفو[٣٤٠]، أما المدن الأخرٰى فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مثل موستار وَ فوجة وَ غيرها فإنها عرفت بشادروانات جميلة أَيْضًا، وَ مَا زال عدد كبير من النافورات فِيهَا قائمًا.

---

[٣٣٩] شادروان (Šadrvan) كلمة فَارِسِيَّة، معناها: نافورة مياه مع الحوض.

[٣٤٠] Kreševljaković, Hamdija (1939.) *Vodovodi i mostovi u starom Sarajevu*, Sarajevo, p. 49-52..

أنابيب للمياه وَ الجسور فِي سراييفو القديمة، حمدي ڤريشيوْلْياكُوفيتْشْ، ص ٤٩-٥٢، سراييفو ١٩٣٩ م.

المقابر وَ الأضرحة

نودّ أن نقول أن مسألة المقابر وَ الأضرحة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ من المسائل الَّتِي لم يعن بها عناية كافية حَتَّى اليوم[٣٤١]. وَ عَلَى الرّغم من أن عددًا كبيرًا من هٰذِهِ المقابر وَ الأضرحة قد محي من فوق الأرض[٣٤٢]، إِلَّا أن هناك مقابر كثيرة، يرجع تاريخها إِلَى أيّام مجيء الْعُثْمَانِيِّينَ وَ الإسلام فِي هٰذِهِ المناطق، وَ يهمنا فِي هٰذِهِ الدراسة – بصورة خاصّة – الشواهد الَّتِي توضع عَلَى قبور الموتَى وَ كانت تسمَى فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ – نيشان[٣٤٣] وَ لِهٰذِهِ الشواهد أهمية تاريخية وَ علمية كبيرة لأنها – فِي كثيرمن الأحيان – تمثّل المصادر الوحيدة الَّتِي تفيدنا وَ تساعدنا عَلَى دراسة الظّروف الِاجْتِمَاعِيَّة وَ الدّينيّة فِي تِلْكَ الحقبة من الزمن، وَ ذٰلِكَ بفضل النقوش وَ الكتابات الموجودة عليها. وَ كلنا

---

٣٤١ وَ من الباحثين الْيُوغُسْلَافِيِّينَ الَّذِينَ اشارُوا إِلَى هٰذَا الموضوع، هم: مُحَمَّد مُوَذِّنوفيتْشْ (Mehmed Mujezinović) وَ سعيد تْرالْيِيتْشْ (Seid Traljić) وَ عليّ بَيْتِيتْشْ (Alija Bejtić).

٣٤٢ قضي عَلَى عدد من المقابر الْإِسْلَامِيَّة فِي يُوغُسْلَافِيَا فِي فترة البناء (بعد الحرب الْعَالَمِيَّة الثانية)، وَ لا شكّ فِي أنّه قضي بذٰلك عَلَى جزء من الثَّقَافَة الْإِسْلَامِيَّة بطريقة غير عادلة، وَ نذكر من هٰذِهِ المقابر المقبرة الْإِسْلَامِيَّة الكبيرة فِي مدينة موسنار الَّتِي بني مكانها السكك الحديدية سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.

٣٤٣ كلمة فَارِسِيَّة الأصل، معناها: العلامة.

يعرف أن الاهتمام بالعلم وَ الكتابة أوّل وَ أهم القواعد الْقُرْآنِيَّة، فنرٰى أن المسلمين، حَتّٰى حينما فارقوا هٰذِهِ الحياة الدنيا، كانوا يزينون مقابرهم بالكلمات الَّتِي كانت مرشدهم وَ شغلت بالهم دومًا، إِلَّا وَ هِيَ كلمات القرآن الخالدة، وَ معنٰى ذٰلِكَ أن المعلومات الَّتِي نجدها عَلٰى مقابر المسلمين فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ يرجع فضلها إِلٰى الدين الْإِسْلَامِيّ أولًا وَ أخيرًا. وَ نلاحظ عَلٰى هٰذِهِ المقابر كيف بدأ مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك يغيرون نظرتهم للحياة، إذ يوجههم الإسلام توجيهًا جديدا، وَ يأمرهم أن يأخذوا قسطًا من هٰذِهِ الحياة الدنيا الَّتِي هِيَ مزرعة الآخرة، كما يأمرهم وَ يعلمهم أن غاية الإنسان فِي الأرض هِيَ فعل الخيرات وَ التّضحية فِي سبيل الله أيْ فِي سبيل تكوين المجتمع الإنسانيّ السّعيد. وَ نرٰى هٰؤُلَاءِ الناس الَّذِينَ اهتموا فِي الماضي بِهٰذِهِ الدنيا فقط، يهتمون الآن بالدنيا وَ الآخرة فِي آن وَاحد، بل يفضلون المزايا الروحية تفضية، وَ فِي حين نراهم فِي الماضي ينحتون أحجارًا ضخمة وَ يضعونها فوق قبور موتاهم وَ ينقشوها بنقوش وَ رسوم مختلفة، نراهم الآن ينحتون أحجارًا بسيطة وَ يضعونها بدل الأحجار الثّقيلة وَ استبدلت الرسوم بالآيات الكريمة.

وَ أشار بعض الباحثين الْيُوغُسْلَافِيِّينَ فِي دراستهم عن هٰذِهِ الشواهد الْإِسْلَامِيَّة الأولٰى فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ إِلٰى أن الكتابة الْعَرَبِيَّة لم تظهر عَلَيْهَا حَتّٰى بداية القرن السابع عشر، إِلَّا أننا لا نقرّ هٰذِهِ الفكرة، لأن القرن السادس عشر الَّذِي عرف بانتشار هٰذِهِ الكتابة بين مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ جد مكانه فِي هٰذَا المجال يقينًا، وَ قد يصحّ أن الكتابات الأولٰى عَلٰى شواهد مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك كانت بلغة محليّة، وَ هِيَ بوسانتْشِيتْسَا (bosančica) وَ ذٰلِكَ أمر طبيعي لأن المسلمين لم يعرفوا الكتابة الْعَرَبِيَّة بعد، وَ كانوا مرتبطين بأقاربهم من الدّين المسيحيّ، وَ لِذٰلِكَ نجد المقابر الْإِسْلَامِيَّة من تِلْكَ الفترة تقام عادة إِلٰى

جوار المقابر المسيحيّة، وَ لسنا نعتقد كَذٰلِكَ أن هٰذِهِ الكتابة (أيْ بوسانتْشِيتْسا (bosančica)) كانت قائمة عَلٰى قبور المسلمين لمدّة قرن وَ نصف من الزمن، كما يزعم فريق من الباحثين، لأننا لم نعثر حَتّٰى الآن عَلٰى هٰذَا النوع من الكتابة باستثناء أربع مقابر[٣٤٤] فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ نجد من جهة ثانية شواهد

---

[٣٤٤] Mujezinović, Mehmed (1974.) *Islāmska epigrafika u Bosni i Hercegovini*, Sarajevo, p. 14.

إبيغرافيكا الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، مُوْذِنوفيتْشْ مُحَمَّد، ص ١٤، سَرَايِيفُو ١٩٧٤ م.

وجدت هٰذِهِ الشّواهد عَلٰى المقابر التّالية:

١- شاهد محمود بْرانكوفيتْشْ (Maḥmūd Branković) يرجع تاريخه إِلٰى سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م، نلاحظ عَلَيْهِ صورة الأسد، فقد يكون رمز العائلة، وجد الشّاهد قرب مدينة روغاتِيتْسا (Rogatica) وَ نقل إِلٰى المتحف البلديّ فِي سَرَايِيفُو.

٢- شاهد حسن راديلوفيتْشْ (Ḥasan Radilović) وجدت قرب روغاتِيتْسا أَيْضًا (Rogatica)، وَ يرجع تاريخه إِلٰى بداية القرن السّادس عشر.

٣- شاهد أحد أشراف فِي منطقة فاتْنِيتْسا (Fatnica) (وَ كان اسْمه سْكندر وَ توفّي الشّخص سنة ٩٣٥ هـ / ١٥١٩ م).

٤- شاهد سلمان أوسقوبِيتْسا (Salmān Uskopica) وجد فِي دومانْيِيتْشي (Dumanjići) قرب روغاتِيتْسا، وَ يرجع تاريخه إِلٰى بداية القرن السّادس عشر.

مكتوبة باللغة الْعَرَبِيَّة وَ يرجع تاريخها إِلٰى القرن السادس عشر[٣٤٥]، وَ نوافق عَلٰى أن هٰذِهِ الشواهد لم تنحت فِي الْبُوسْنَةِ بل جيئبها من مقدونيا (Makedonija) من سْكوبيه (Skopje) وَ تعرف هٰذِهِ الشواهد فِي الْبُوسْنَةِ باسم شواهد سكوبيه (Skopski nišani) وَ مع أن هٰذِهِ الشواهد ليست إنتاجًا محليًا إِلّا أن مسلمي الْبُوسْنَة – منذ البداية – قد زينوا شواهدهم بالحروف الْعَرَبِيَّة أي بخط القرآن الكريم.

أمّا الشّواهد المحليّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ قد بدأت الكتابة الْعَرَبِيَّة تظهر عَلَيْهَا فِي القرن السابع عشر. فهي تختلف عن شواهد سكوبيا فِي النوعية فقط. وَ فِي حين نحتت شواهد سكوبيا من مادّة مْرَامُورْ (mramor) نحتت فِي الْبُوسْنَةِ من الحجر المعروف باسم واپْنِينَاتْسْ (vapnenac) أو مولْيِيقا[٣٤٦] (muljika)، وَ أكثر هٰذِهِ الشواهد الَّتِي حفظت لنا تعود إِلٰى القرن السابع عشر إِلّا

---

[٣٤٥] من أقدم هٰذِهِ الشواهد فِي سَرَايِيفُو شاهد يرجع تأريخه إِلٰى سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م وَ أصحابه صالح وَ عباس، أبناء مُحَمَّد. وَ جد هٰذَا الشاهد فِي مقبرة قرب مسجد فِي منطقة زَاغريتْشي (Zagrići) أمّا خارج سراييفو فأقدم هٰذِهِ الشواهد بالْعَرَبِيَّة وَ جد فِي مدينة فوتْشا (Foča) قرب جامع آلاجا (Aladža) عَلٰى قبر إبراهيم بن حسن بن نذير، يرجع تأريخه إِلٰى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م. وَ نجد مثل هٰذِهِ الشواهد فِي مدن الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الأخرٰى.

[٣٤٦] هٰذِهِ الشّواهد المحلّيّة المكتوبة بالْعَرَبِيَّة توجد فِي المناطق المختلفة من الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ أشهرها فِي سراييفو وَ هُوَ الشاهد مقابلجي عثمان چلبي (Muqābeldži ʻUsmān Çelebī) من سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وَ شاهد عَلٰى بن عثمان من سنة ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م، وَ ذٰلِكَ قرب الجامع العتيق.

أننا نلاحظ وُجُودها فِي القرن الثامن عشر وَ التاسع عشرأيضًا، وَ الجدير بالذكر أن الشواهد من هٰذِهِ الفترة لا تفيدنا فِي الدلالة عَلٰى أسماء أصحابها، أو تاريخ موتهم أو وَ لادتهم فحسب، وَ إنما نتعرف من خلالها عَلٰى وَظِيفة أصحابها، فها نحن أولاء ننظر هٰذِهِ الشواهد وَ نعرف عن أصحابها هل كانوا من العلماء أو الدراويش أو التجار أو الفلاحين إلٰى غيرذلك.

إن مقابر المسلمين فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ – فِي أغلب الأحيان – كانت عبارة عن مقابر جماعية، بحيث يدفن أهل المنطقة أو المحلّة فِي مقبرة وَاحدة، وَ نادرًا مَا نجد هناك المقابر العائلية، وَ بقي علينا أن نشير إلٰى أن بعض الواقفين – وَ خصوصًا رجال الدولة – باسم تربة[٣٤٧] (turbe). وَ هٰذِهِ الأضرحة – عادة – ليست كبيرة وَ طريقة بنائها مأخوذه من المعمار العثماني، وَ لَا يزال عدد غير قليل من الأضرحة تقام حول الجوامع أو الزوايا فِي مختلف مناطق الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ من أشهرها:

١- ضريح غازي خُسْرو بك فِي سراييفو – بني فِي القرن السادس عشر.

٢- ضريح مراد بك شروج فِي سراييف – بني فِي القرن السادس عشر.

٣- ضريح إبراهيم بك فِي فوتْشا – بني فِي القرن السادس عشر.

---

[٣٤٧] وَ هُوَ الاشتقاق من الكلمة الْعَرَبِيَّة "تراب".

٤- ضريح برشان مصطفى پاشا فِي بانيالوكقا – بني سنة ٧٩٨ هـ / ١٢١٣ م.

٥- ضريح مصطفى أيوبوفيتش فِي موستار – بني سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٣١ م.

أبراج الساعات

يمنح الإسْلَام لِلْوَقْتِ أهمّيّة كبيرة فِي حياة الإنسان وَ لِذٰلِكَ قام المسلمون منذ أقدم العصور بِبِنَاءِ أبراج للسّاعات فِي الأماكن العامة[٣٤٨] فِي المدن الكبيرة، وَ كَذٰلِكَ فعل مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك حيث انبثقت هٰذِهِ البنايات إلٰى جانب الجوامع الكبيرة أو فِي الأسواق وَ أسوار المدينة، وَ بعض هٰذِهِ الأبراج لا تزال قائمة، وَ ليس بين أيدينا مصادر موثوقة تشير إلٰى أول برج للساعات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، أما أول ذكر لجهاز الساعة فيرجع إلٰى سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م، وَ هٰذَا الجهاز أرسلته جمهورية دوبروفنيك (Dubrovnik) إلٰى وَالي الْهَرْسَك

---

[٣٤٨] كانت الأبراج تقام – عادة – قرب الجوامع لكي تضبط الوقت لإقامة الصّلاة.

سليمان بك فِي مدينة فوتْشا[٣٤٩]، فلسنا ندري هل دقّت الساعة عَلٰى أحد أبراج المدينة أولًا لأن المصادر لا تشير إلٰى ذلك، إلّا أننا نجد ذكر هٰذِهِ الساعة سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م فِي وَقفية كيوان كاتخدا (Ćejvan Kathoda) فِي مدينة موستار.

ومن أقدم هٰذِهِ الأبراج، الّتِي لا تزال قائمة، برج الغازي خُسْرو بك فِي سراييفو وَ قد أقيم فِي الجانب الغربي من جامعه الكبير. وَ لسنا ندري تاريخ بنائه، لأن وقفيات غازي خُسْرو بك لم تذكر ذلك، وَ أول من ذكر هٰذَا البرج هُوَ الكاتب جلبي حيث يقول أنه يوجد برج التوقيت بقرب الجامع[٣٥٠]. أما فِي منطقة الهرسك فأقدم برج أقيم فِي النصف الأول من القرن السادس عشر، وَ لا نعرف من تاريخه سوٰى مَا ذكره لنا أوْلِيَاء چلَبِي سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م[٣٥١].

---

[٣٤٩] وَ كانت فوتْشا فِي ذٰلِكَ الوقت حاضرة لسنجق الْهَرْسَك.

[٣٥٠] Kreševljaković, Hamdija (1932.) *Sahat Kula i Muweqqit ḫānē*, Spomenica Gazi Husrevbegove četrstogodišnjice, Sarajevo, p. 63..

برج السّاعة وَ مؤقّت خانه، حمدي قْريشيوْلْياقُوفيتْشْ، ص ٦٣، سراييفو ١٩٣٢ م.

[٣٥١] Hasandedić, Hifzi (1960/61.) *Kulturno-istorijski spomenici u Mostaru iz turskog doba*; POF, X-XI, p. 174..

الآثار التّاريخيّة وَ الثّقافِيَّة فِي موسْتار فِي زمن الْعُثْمَانِيِّينَ، حفظي حسندمديتْشْ، ص ١٧٤، سراييفو ١٩٦١ م.

ويقول أوْلِيَاء چلَبِي إن صوت الجرس من البرج كان يسمع عَلٰى بعد ثلاثة ساعت من المدينة.[٣٥٢] وَ قد بنت هٰذَا البرج – حسب الرّوايات الشّعبيّة – إحْدٰى النّساء فِي مدينة موستار، وَ هِيَ السّيّدة شاريتْش قادن[٣٥٣] (Šarić-kadın).

وَ إلٰى جانب هٰذِهِ الأبراج بني فِي المدن الإسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ مراكز خاصّة لضبط الوقت وَ عيّن فِيهَا الموظفون المختصون، وَ كانوا يأخذون رواتبهم من أموال الأوقاف، وَ تسمٰى هٰذِهِ المراكز – موقّت خانة[٣٥٤] (Muweqqit-ẖāna) – وَ قد أسّس أولٰى هٰذِهِ المنشآت فاضل پاشا شريفوفيتْش (Fāḍil-paša Šerīfović) سنة ١٣٧١ هـ / ١٨٥٤ م بقرب الجامع العتيق فِي سراييفو، وَ كان يشتغل فِيهَا كموقّت عَليّ آغينوفيتْش (ʻAli Aginović) زمنًا طويلًا[٣٥٥]. أمّا الموقت خانة الثانية فِي سراييفو فقد أنشأها وقف الغازي

---

[٣٥٢] Čelebi, Evlija; *Sijāḥat nāmē*, p. 274..

سياحت نامه، أولياء چلبي، ص ٢٧٤.

[٣٥٣] عَلٰى الرّغم من أنّنا لا نستطيع أن نعتمد كثيرًا عَلٰى الرّوايات الشّعبيّة فِي الأبحاث العلميّة، فقد يكون فِي هٰذِهِ الرّواية شيْء من الصّحّة، حيث نعرف أنّ هٰذِهِ السّيّدة قد بنَتْ مسجدًا فِي موستار فِي محلّة تسمّٰى تْسَارِينَا (Carina).

[٣٥٤] *Spomenica Gazi Husrev-bogove četiristogodišnjice*, p. 64.

ذكرٰى مرور أربعمائة سنة من موت الغازي خُسْرو بك، ص ٦٤، سراييفو ١٩٣٢ م.

[٣٥٥] وَ كان عليّ آغينوفيتش آخر خطّاط كبير فِي مدينة سراييفو، توفّي سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ م.

خُسْرو بك سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩، وَ قد تولّى وَظِيفة المؤقت فِيهَا صالح حُسَيْنوفيتْش (Şāliḥ Ḥusejnović) لمدّة ثلاثين عامًا، وَ توفّي سنة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م[٣٥٦].

[٣٥٦] وَ هُوَ من المؤلّفين المعروفين، له كتاب فِي علم الفلك، وَ كتب كَذٰلِكَ "تأريخ الْبُوسْنَة" بالتُّرْكِيَّة. الَّذِي لا يزال مخطوطًا.

الباب الثّالث:

المُؤلّفاتُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

انْتشار اللُّغة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

ظهرت منذ القرن السّابع الميلادي عَلى المسرح الْعَالَمِيّ ثقافة جديدة هِيَ الثَّقَافَة الإسْلَامِيَّة. وَ مع أن هٰذِهِ الثَّقَافَة قد نشأت فِي زمان وَ مكان معينين، إلَّا أنها لا تحمل طابعًا زمنيًا أو مكانيًا، إذ تميّزت هٰذِهِ الثَّقَافَة عن غيرها بطابعٍ عالميّ[357] أبديّ[358] لا مثيل له فِي التاريخ، وَ أصبحت اللغة الْعَرَبِيَّة لغة رسمية لِهٰذِهِ الثَّقَافَةِ[359] وَ انتشرت فِي العالم بسرعة مدهشة بفضل القرآن الكريم، وَ هكذا تزيّنت هٰذِهِ الثَّقَافَة لُغَة العرب باعتبارها وَسِيلَة للتّعبير وَ لٰكنها تميزت بروح جديدة وَ قيم جديدة... قيم إسْلَامِيَّة سامية، لم يعرف عنها العرب وَ لا غيرهم، وَ لا نريد فِي هٰذَا المكان أن نخوض فِي حديث عن مفهومي، الثَّقَافَة الْعَرَبِيَّة وَ الثَّقَافَة الإسْلَامِيَّة وَ ذٰلِكَ لسببين:

أولهما: أنّنا لا نستطيع أن نصل إلٰى نتيجة نسلم بها وَ نتّفق عَلَيْهَا عَلٰى الرّغم من كثرة مَا قيل فِي هٰذَا الموضوع، وَ لا نرٰى فِي هٰذَا الجدل أية فائدة.

---

٣٥٧ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾. – الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة سبإ، الآية ٢٨.

٣٥٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴿٩﴾. – الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الحجر، الآية ٩.

٣٥٩ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٢﴾. – الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة يُوسُف، الآية ٢.

ثانيهما: أنّ هٰذَا الموضوع ليس له علاقة بموضوع بحثنا، وَ كل مَا يعنينا فِي هٰذَا المقام، أن نشير إِلٰى أن استخدامنا للمصطلحات أو التعابير، فِي تصنيف الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة عَلٰى هٰذَا النحو.

الثَّقَافَة الْعَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة، الثَّقَافَة التُّرْكِيَّة الإِسْلَامِيَّة، الثَّقَافَة الباكستانية الإِسْلَامِيَّة.. الخ. هُوَ استخدام – فِي رأينا – مجاف للحقيقة وَ الصواب أليس من الأفضل وَ الأقرب إِلٰى الحقيقة أن نقول: الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة فِي بلاد العرب، الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة فِي تركيا، الثَّقَافَة الْعَرَبِيَّة فِي باكستان أ وَ أوروبا إو غيرها؟ وَ عندما تحورت هٰذِهِ الثَّقَافَة منذ نشأتها من كل قيود الزمان وَ المكان لماذا نحاول جاهدين أن نصبغها بصبغة محلية أو زمنيّة؟

وَ ما نريد إثباته هُوَ أن أقوامًا كثيرين قد اشتركوا فِي تكوين هٰذِهِ الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة وَ ألفوا فيها[٣٦٠] معتبرين لغة القرآن الكريم لغتهم، غير أن مؤلفاتهم هٰذِهِ مازالت مجهولة أوشبه مجهولة فِي العالم الإِسْلَامِيّ وَ ذٰلِكَ أمر مؤسف حقًا. وَ لقد نجهل عدد هٰذِهِ الآثار وَ المؤلفات[٣٦١] لأنها غير مدونة وَ لا مسجلة فِي الفهارس وَ إنما هِيَ مثبوتة فِي البيوت وَ المكتبات بلا ترتيب وَ لا عناية، وَ فِي كثير من

---

٣٦٠ نتيجة لِهٰذِهِ الظَّاهرة وَ جدت مؤلفات عربية فِي الدّول غير الإِسْلَامِيَّة فِي الهند وَ الفلبين وَ أوروبا وَ غيرها، وَ لقد أثبتت هٰذِهِ الشعوب جميعًا أن رابطة الدين وَ العقيدة عندهم كانت أقوٰى من رابطة القومية وَ الإقليمية.

٣٦١ توجد فِي يُوغُسْلَافِيَا وَحدها أكثر من عشرة آلاف مخطوطة بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة فِي المكتبات العامّة، وَ لا ريب أنّ عددًا كبيرًا منها يوجد فِي المكتبات الخاصّة وَ فِي بيوت المسلمين.

الأحيان، بلا احترام! وَ مَا دمنا نجهل عدد هٰذِهِ الكتب وَ مكانها فكيف نتكلم عن نوعيتها وَ عمّا فِي بطونها؟ من أجل ذٰلِكَ نقول أنه من أكبر وَ أخطر الواجبات بالنسبة للباحثين المسلمين، سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم – تجميع هٰذَا التّراث وَ تدوينه لِأنّه – يمثل جزءًا مهمًا من ثقافتنا الْإِسْلَامِيَّة، وَ حينئذ فقط نستطيع أن نزعم أن نظرتنا إِلٰى ثقافتنا سليمة وَ شاملة. وَ إِلٰى هٰذَا العمل الَّذِي لا يجوز تأجليه يدعونا التّاريخ وَ يدعونا الضمير وَ يدعونا الله[٣٦٢].

وَ من بين هٰذِهِ الشّعوب الَّتِي ساهمت فِي بناء صرح الثَّقَافَة الْإِسْلَامِيَّة فِي جزيرة البلقان يحتل مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك مكانًا بارزًا مشرفًا، فما قدّمه هٰؤُلَاءِ للثقافة الْإِسْلَامِيَّة فِي مختلف المجالات لا يتخلف كثيرًا عن الإنجازات الْعَرَبِيَّة الأصيلة، وَ كثيرًا مَا نقرًا كتابًا مَا وَ اثقين بأن مؤلفه من بلاد العرب، حَتّٰى نعثر فِي ثناياه لقبًا "الْبُوسْنَوِيّ"، الأمر الَّذِي يؤكد أصالة البحاثة الْبُوسْنَوِيِّينَ من ناحية، وَ أصالة بحوثهم وَ دراساتهم العلمية باللغة الْعَرَبِيَّة من ناحية أخرٰى، وَ هُوَ أمر سوف نلتفت إِلَيْهِ طويلًا – بالمناقشة وَ الدراسة – خلال هٰذَا البحث، فِي محاولة متواضعة منا لنفي الزعم الَّذِي انتشر طويلًا، فِي العالم الْعَرَبِيّ، وَ غير الْعَرَبِيّ، وَ هُوَ الزعم القائل بأن الإنجازات العلمية للبوسنويين باللغة الغربية، ليست بذات قيمة.

---

[٣٦٢] إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴿٩٢﴾. – الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الأنبياء، الآية ٩٢.

وَ هٰذَا الرّأي كما سَنَرٰى، لا يستند إلٰى أيّ دليل علميّ لأنّ الدّراسات فِي هٰذَا الموضوع مَا زالت فِي بدايتها[٣٦٣]، وَ الَّذِي اكتشف حَتّٰى الآن يثبت خطأ هٰذِهِ النظرية تمامًا.

وَ يرجع انتشار اللُّغَة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ إلٰى سقوط هٰذِهِ الدّولة فِي حوزة الدّولة الْعُثْمَانِيَّة الإِسْلَامِيَّة وَ ذٰلِكَ سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م، وَ منذ ذٰلِكَ الوقت بدأ سكان هٰذِهِ المنطقة يغترفون من الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة الجديدة، وَ لقد سبق أن ذكرنا أن سكان هٰذِهِ المنطقة قد اعتنقوا الإسلام إعتناقًا جماعيًا وَ لا ريب بأن العناية باللغات الشرقية الثلاثة[٣٦٤] قد بدأت بمجيء الْعُثْمَانِيِّينَ فِي الْبُوسْنَةِ مباشرة، أما التُّرْكِيَّة فكانت لغة الدولة الرسمية وَ كانت أكثر انتشارًا فِي المنطقة، وَ تأتي فِي المرتبة الثانية من حيث لغة الانتشار اللغة الْعَرَبِيَّة الَّتِي يمكن أن نقول عنها أنها كانت لغة العلم وَ المعرفة، وَ أخيرًا تأتي فِي المرتبة الثالثة اللغة

---

[٣٦٣] لم تنشر عن هٰذِهِ الثَّقَافَة بِالْعَرَبِيَّة حَتّٰى الآن سوٰى الدراسات التالية:

١- الْجَوْهَر الأَسْنٰى فِي تراجم علماء وَ شعراء الْبُوسْنَة، لمُحَمَّد الخانجيّ، طبع الكتاب فِي القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م.

٢- حسن كافي پروشْتْشَاق (Ḥasan Kāfī Pruščak)، لعمر ناقِيتْشِيفِيتْشْ (Omer Nakičević)، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م، غير منشورة.

[٣٦٤] مَا دامت اللُّغَة الْعَرَبِيَّة موضوع بحثنا هٰذَا فإننا سوف نتناول العلماء وَ الأدباء الَّذِينَ كتبوا بِالْعَرَبِيَّة دون غيرهم، فهي محاولة أولٰى من هٰذَا النوع لِأنّ الَّذِينَ سبقوني خلطوا بين هٰذِهِ اللّغات جميعًا.

الْفَارِسِيَّة الَّتِي كانت لغة الشعر. معنٰى ذٰلِكَ أن الْعَرَبِيَّة فِي أوروبا الإِسْلَامِيَّة فِي الفترة الَّتِي ندرسها أصبحت بمثابة اللغة اللاتينية فِي أوروبا النصرانية، وَ مَا دمنا قد حكمنا بأن انتشار اللغة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ يمتد منذ بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشرإلٰى بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشرفلا بد لنا من أن نعين الفترة الَّتِي بلغت الْعَرَبِيَّة فِيهَا أوجها. وَ حين نطلع عَلٰى التراث الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فِي المنطقة. يستبين لنا أن الفترة الذهبية بالنسبة للغة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ هِيَ تِلْكَ الفترة الَّتِي وصلت الإِمْبَرَاطُورِيَّة الْعُثْمَانِيَّة فِيهَا أوج قوتها وَ عظمتها. وَ ذٰلِكَ من سنة ٩٤٥-١٠٩٤ ﻫ / ١٥٤٤-١٦٨٣ م، وَ خلال هٰذِهِ الفترة نفسها ظهرت أعظم المؤلفات الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ حين نصل إِلٰى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي لانجد عالمًا أو أديبًا إِلَّا وَ هُوَ يكتب بإحدٰى اللغات الشرقية.[٣٦٥] وَ نلاحظ أَيْضًا أن الأدب الْعَرَبِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ بدأ يضعف فِي النّصف الثّاني من القرن السابع عشر[٣٦٦] حَتّٰى كاد يضمحلّ فِي القرن التاسع عشر، وَ مع ذٰلِكَ بقيت الكتابة بالْعَرَبِيَّة حَتّٰى القرن العشرين بحيث يصح لنا أن ندرسها فِي هٰذَا البحث.

---

٣٦٥ Handžić, Mehmed (1933.) *Književni rad bosansko-hercegovačkih muslimana*, Sarajevo, p. 83..

العمل الأدبي لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَكِ، الخانجي مُحَمَّد، ص ٨٣، سراييفو، ١٩٣٣ م.

٣٦٦ معنٰى ذٰلِكَ أن الدّولة الْعُثْمَانِيَّة بعد أن ضعفت سياسيًا وَ اقتصاديًا ضعفت ثقافيًا أَيْضًا.

وَ لكي نفهم التراث الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِي فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ نرٰى من الضروري أن نلقي نظرة خاطفة عَلٰى الأحداث وَ الأوضاع العامة فِي العالم الْعَرَبِيّ خلال تِلْكَ الفترة. وَ لقد ذكرنا آنفًا أن النّصف الثّاني من القرن العاشر / النّصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي تميّز بازدهار الأدب الإِسْلَامِيّ فِي المنطقة، وَ هِيَ الفترة الَّتِي بدأت تستيقظ فِيهَا أوروبا وَ تتقدم إِلٰى نهضتها وَ عهدها الجديد، أما العالم الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فقد وَ هن العظم منه وَ لم يعد يمثّل قوة سياسية أو عسكرية، وَ هٰذَا الضعف السياسي وَ الإقْتِصَادِيّ لم ينج منه الجانب الثَّقَافِيّ أَيْضًا، وَ طوال هٰذِهِ الفترة لم تظهر أية إنجازات أدبية جديدة أو اختراعات علمية وَ إنما اكتفٰى المؤلفون بدراسة تراثهم القديم المجيد[٣٦٧]. وَ يستدعي الجانب الأدبي هنا اهتمامًا خاصًا منا وَ هُوَ جانب عنيت به الشروح وَ الحواشي عناية كبيرة، وَ عَلٰى الرغم من أن لِهٰذِهِ الأثار الأدبية وَ العملية قيمة نحوية كبيرة إِلَّا أنها – فِي رأينا – تمثّل حلقات مفرغة فِي الأدب الْعَرَبِيّ ليس فِيهَا جديد. وَ صحيح أن هٰذِهِ الشّروح كانت تزخر بقضايا الفلسفة وَ المنطق وَ الأصول، وَ لكننا لا نجد فِيهَا النقد وَ الذوق وَ الإحساس مما يتميز به الأدب الْعَرَبِيّ. وَ لعل الَّذِي وجه الأدب الْعَرَبِيّ هٰذِهِ الوجهة يومذاك أمران: الأول: موت الملكات الأدبية وَ المواهب بسبب مَا أصاب الحياة من تدهور وَ مَا نال الثَّقَافَة من جمود، وَ الثاني أن معظم الشراح كانوا معلمين يجلسون إِلٰى طلّابهم يشرحون لهم علوم الْعَرَبِيَّة، وَ لم تكن طريقتهم فِي التّدريس إِلَّا قراءة المتن وَ التّعليق عَلَيْهِ. وَ قد يسأل القارئ عن العلاقة بين الأدب الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فِي العالم الْعَرَبِيّ وَ الأدب

---

[٣٦٧] الدّكتور شوقي ضيف، الأدب الْعَرَبِيّ المعاصر فِي مصر، ص ١، القاهرة، ١٩٧٥ م.

الإِسْلَامِيّ فِي يُوغُسْلَافِيَا حَتَّى نقارن بينهما فِي هٰذَا المكان؟ نفعل ذٰلِكَ حَتَّى لا نقع فِي الخطأ العلمي وَ التاريخي الَّذِي وقع فِيهِ الباحثون عندما نسوا أو تناسوا هٰذِهِ العلاقة، فقد درسوا اللغة الْعَرَبِيَّة فِي يُوغُسْلَافِيَا دون أن يلتفتوا إِلَى منبع هٰذِهِ اللُّغَة – وَ هُوَ العالم الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ –. وَ قد أدت هٰذِهِ الدراسة إِلَى نشوء نظرية مؤداها أن اللغة الْعَرَبِيَّة وَ آدابها فِي يُوغُسْلَافِيَا كانت غريبة عن أذهان الناس وَ أنها أخرت ازدهار الأدب القومي، فهي تمثل خطوات إِلَى الوراء فِي حياة الجيل الثَّقَافِيَّة[٣٦٨]، وَ لكننا نقول أن ظهور اللغة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كان ظاهرة طبيعية تاريخية وَ ليست غريبة استثنائية، وَ إذا كانت هٰذِهِ اللغة غريبة بالنسبة لغير المسلمين فِي المنطقة فإنها لم تكن كَذٰلِكَ بالنسبة للمسلمين، لأن هٰؤُلَاءِ باعتناقهم الدين الإِسْلَامِيّ لم يُغيّروا أسماءَهم فحسب، بل غيّروا سلوكهم وَ أفكارهم وَ روحهم وَ بدأوا يعبّرون عن أفكارهم بالْعَرَبِيَّة لغة دينهم الجديد، وَ نريد أن نقول أن الْعَرَبِيَّة وَ إن كانت بالنسبة إِلَى بعض السّكّان فِي الْبُوسْنَةِ، إِلَّا أنّها لم تكن غريبة بالنّسبة للّذين ألّفوا فِيهَا وَ قرأوا بِهَا وَ لا يقتصر ذٰلِكَ عَلَى مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فحسب وَ إنما يمتد حَتَّى يشمل المسلمين فِي كل زمان وَ مكان.

---

٣٦٨ Šabanovič, Hazim (1973.) *Književnost muslimāna Bosne i Hercegovine na orijentalnim jezicima*, Sarajevo, p. 14..

أدب الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك باللّغات الشّرقيّة، الدّكتور حازم شَعْبانوفيتْش، ص ١٤، سراييفو ١٩٧٣ م.

وَ لكي نفهم مَا كتبه مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بالْعَرَبِيَّة لا بد لنا من أن نلقي نظرة عَلٰى الأنواع الأدبية الَّتِي كانت يعنٰى بها فِي ذٰلِكَ الوقت فِي العالم الْعَرَبِيّ الإسلامي، فنجد أن مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك حاكوا وَ قلّدوا معلميهم العرب فِي كل الأوقات، وَ يستبين لنا من خلال البحث أن فترة الشروح وَ الحواشي فِي العالم الْعَرَبِيّ هِيَ فترة الشروح وَ الحواشي فِي الْبُوسْنَةِ أيْضًا. وَ عندما نفهم هٰذِهِ الحقيقة نستطيع أن نأتي بحكم عادل صادق عن هٰؤُلَاءِ المؤلفين وَ أعمالهم الأدبية وَ نضعهم فِي مكان وَ مقام يتسحقونه فِي الأدب الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ – وَ هٰذَا هُوَ غرض البحث الأساسي –.

وَ أرٰى من الضّروري أن أذكر أن الاهتمام بالتراث الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ حديث العهد وَ يرجع تاريخه إِلٰى البدايات الأولٰى من هٰذَا القرن. وَ طبيعي أن أكثر الَّذِينَ اهتموا بِهٰذَا الموضوع كانوا من صفوف المسلمين، ثم أخذ يشاركهم فِي ذٰلِكَ عدد من العلماء الْيُوغُسْلَافِيِّينَ من غير المسلمين أيْضًا. وَ نعثر عَلٰى الأخبار الأولٰى عن هٰذِهِ التراث فِي نهاية القرن التاسع عشر وَ ذٰلِكَ فِي دوريات سنوية شبه رسمية مثل "سالنامه"[٣٦٩] (Sālnāmē) وَ فِي الصحف اليومية مثل "وَطَن"[٣٧٠] (Vatan) وَ غيرها. وَ أوّل

---

[٣٦٩] سالنامه (Sālnāmē) مجلّة كانت تصدر فِي الفترة ١٣٠٢-١٣٠٧ هـ / ١٨٨٤-١٨٨٩ م وَ ذٰلِكَ بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّة.

[٣٧٠] كانت تصدر فِي الفترة مَا بين سنة ١٣٠٢-١٣٠ هـ / ١٨٨٤-١٨٩٧ م بالتُّرْكِيَّة.

من كتب فِي هٰذَا الموضوع إبْرَاهِيم بك باشآقيتْش[٣٧١] (Ibrāhīm-beg Bašagić) الَّذِي اشار إلٰى أربعة عشر مؤلّفًا كتبوا بالْعَرَبِيَّة وَ الْفارِسِيَّة وَ التُّرْكِيَّة، كما أشار إلٰى بعض هٰؤُلَاءِ المؤلفين مُحَمَّد توفيق أوقيتش[٣٧٢]، فِي صحيفة الوطن المذكورة، وَ لٰكن لم يستفد من هٰذِهِ الإشارات سوٰى الصّفوة المختارة من العلماء الَّذِينَ اتقنوا اللغة التُّرْكِيَّة سواء فِي يُوغُسْلَافِيَا أو فِي خارجها. وَ بما أن اللّغات الشّرقيّة قد اضمحلّت منذ بداية القرن العشرين فِي حياة النّاس عامّة كان من الصّعب صياغة فكرة عن هٰذَا الموضوع إلّا باللغة المحلية الْيُوغُسْلَافِيَّة الَّتِي يفهمها الناس جميعًا لذلم لا نخطئ إذ نقول أن مسلمي الْبُوسْنَة – بصورة عامة – لم يعرفوا عن أدبهم الإِسْلَامِيّ شيئًا حَتّٰى بداية القرن العشرين وَ أول من ألف فِي هٰذَا الموضوع بالْيُوغُسْلَافِيَّة هُوَ صفوت بك بَاشآقيتْش[٣٧٣] (Şafwet-beg Bašagić) وَ ذٰلِكَ سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م فِي رسالته القصيرة – المرشد القصير فِي ماضي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك[٣٧٤] – مشيرًا فِيهِ إلٰى سبعة وَ عشرين مؤلّفًا كتبوا باللّغات الشّرقيّة وَ لا يزال هٰذَا الكتاب – المصدر الوحيد الَّذِي يمكن الإعتماد عَلَيْهِ فِي دراسة التأريخ السياسي وَ الثَّقَافِيّ لمسلمي البوسنة. وَ لقد اهتم بَاشآقيتْش بالجانب الثاقافي

---

[٣٧١] إبْرَاهِيم بك باشآقيتْش ١٨٤١-١٩٠٢ م، اشْتهر بكتابة القصائد بالتُّرْكِيَّة.

[٣٧٢] مُحَمَّد توفيق أوقيتْش (Muḥammed Tewfīq Okić).

[٣٧٣] صفوت بك باشآقيتْش (Şafwet-beg Bašagić) وَ هُوَ ابن إبراهيم بَاشآقيتْش.

[٣٧٤] المرشد القصير فِي ماضي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك ١٤٦٣-١٨٥٠ م، صفوت بك بَاشآقِيتْش، سراييفو ١٩١٠ م.

لمسلمي البوسنة طول حياته، فنراه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م يقدم رسالة دكتوراه في جامعة فينا (Wien) عنوانها الْبُوسْنَوِيُّونَ وَ الهراسكة فِي الأدب الإسلامي[٣٧٥] وَ ذكر فِي كتابه هٰذَا مائة وَ عشرين رجلًا من الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الفوا باللغات الشرقية[٣٧٦]. وَ لم يكتف بَاشَاقِيتْش بالإشارة إِلَى الأدباء وَ العلماء فقط وَ إنما أضاف القواد وَ السياسيين المشهورين وَ ذٰلِكَ فِي كتابه الثاني وَ عنوانه: الكرواتيون وَ الْبُوسْنَوِيُّونَ وَ الهراسكة المشهورين فِي الإِمْبَرَاطُورِيَّة التُّرْكِيَّة[٣٧٧] – وَ قد ذكر فِي كتابه هٰذَا مائة مؤلف كتبوا بالْعَرَبِيَّة وَ التُّرْكِيَّة وَ الْفَارِسِيَّة مضيفًا بعض الحقائق الجديدة عنهم.

---

[٣٧٥] مجلة غْلَاسنيق (Glasnik) كان يصدرها المتحف البلدي فِي سراييفو ١٩١٢ م، ج ٣-٤، ص ١-١٨٤.

[٣٧٦] وَ هٰذَا العمل كان حين ظهوره كشفًا عظيمًا فِي هٰذَا الموضوع وَ يعتبر إِلَى يومنا هٰذَا مصدرًا رئيسًا اعتمد عَلَيْهِ كم من كتب فِي هٰذَا الموضوع.

[٣٧٧] Bašagić, Safvet (1931.) *Poznati Hrvati, Bosanci i Hercegovci u turskoj carevini*, Zagreb.

الكرواتيون وَ الْبُوسْنَوِيُّونَ وَ الهراسكة المشهورين فِي الإِمْبَرَاطُورِيَّة التُّرْكِيَّة، صفوت بَاشَاقِيتْش، زغرب ١٩٣١ م.

وَ أوّل من استفاد من هٰذِهِ النتائج التاريخية وَ العلمية الَّتِي جاء بها بَاشاَقيتْشْ المؤرخ الْيُوغُسْلاَفِيّ مِيلاَن پريلوغ[٣٧٨] (Milan Prelog) الَّذِي ذكر فِي كتابه "تأريخ الْبُوسْنَة زمن الحكم العثمانيّ" خمسة وَ عشرين من هٰؤُلاَءِ المؤلفين، وَ إذا كان بَاشاَقيتْشْ المؤلف الوحيد الَّذِي اهتم وَ خدم هٰذَا الموضوع إلى مَا بعد الحرب الْعَالَمِيَّة الأولى، فقد بدأ يشترك بعد ذٰلِكَ التوقيت فِي هٰذِهِ الدراسة عدد من الباحثين. فنجد أن المستشرق التشيكي الدكتور يان ربكا (Jan Rupka) كتب دراسة قصيرة وَ قيمة[٣٧٩] عن ثابت أوژِيتْشانِينْ[٣٨٠] (Ṣābit Užičanin) وَ ذٰلِكَ سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م، وَ لم يمض إلّا ثلاث سنوات من هٰذَا التّأريخ حَتّٰى مُحَمَّد طيب أوقيتْشْ (Muḥammed Tajjib Okić) فِي جريدة "غيرت" (Gajret) دراسة شائقة عن عمل حسن كافي[٣٨١] (Ḥasan Kāfī) وَ حياته تعتبر هٰذِهِ الدّراسة من أحسن الدّراسات عن هٰذَا الباحث.

---

[٣٧٨] Prelog, Milan (1912.) *Povijest Bosne za vrijeme Turske (1739-1878.)*, Sarajevo,

تأريخ الْبُوسْنَة زمن الحكم العُثْمَانِيّ (١٧٣٩-١٨٧٨ م)، ميلان پرلوغ، سراييفو ١٩١٢ م.

[٣٧٩] Rypka, Jan (1924.) *Beiträge zur Biographie, Charakteristik und Interpretation des türkischen Dichters Sabit*, I, Prag.

[٣٨٠] ثابت أوژِيتْشانِينْ (Ṣābit Užičanin) اشهر مؤلف بالْفَارِسِيَّة فِي يُوغُسْلاَفِيَا.

[٣٨١] حسن كافي پْروشْتْشاق (Ḥasan Kāfī Pruščak) أشهر علماء الْبُوسْنَة فِي القرن الحادي عشر الهجريّ / السابع عشر الميلاديّ.

وَ ننتقل الآن إِلى أبرز شخصية كتبت فِي هٰذَا الموضوع ليس فِي الْبُوسْنَةِ وَحدها وَ إنما فِي أوروبا كلها، وَ هُوَ مُحَمَّد الخانجي الْبُوسْنَوِيّ[٣٨٢]. وَ قدْ بدأ بكتاباته هذ حينما كان طالبًا فِي الأزهر الشريف إذ انتهز فرصة وجوده فِي البيئة الْعَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة ليتعرف إِلى التراث الإِسْلَامِيّ فِي وَطنه – الْبُوسْنَة – وَ لِذٰلِكَ ألف كتابًا من مائة وَ اثنتين وَ أربعين صفحة عنوانه: "الْجَوْهَر الأَسْنٰى فِي تراجم علماء وَ شعراء البوسنة" وَ ذٰلِكَ سنة ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م. وَ لقد ذكر الخانجي فِي كتابه هٰذِهِ مائتين وَ ثلاث وَ عشرين عالمًا وَ أديبًا من البوسنة، وَ إلَّا أنه لم يستطع أن يقدم للعالم الْعَرَبِيّ نماذج من آثار هٰؤُلَاءِ العلماء وَ الأدباء لأن إطلاعه عَلٰى هٰذِهِ الآثار كان غير كاف وَ إنما ذكر أسماء الَّذِينَ وَ جدهم عند بَاشَآقِيتْشْ وَ غيره. وَ مهما يكن من أمر هٰذَا الكتاب كان ايذانًا للباحثين الجدد بالإهتمام بِهٰذَا الموضوع[٣٨٣]. وَ لما رجع الخانجي من القاهرة ألف كتابه الشهير باللغة الْيُوغُسْلَافِيَّة الَّذِي يحمل عنوانه: "العمل الأدبي لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك"[٣٨٤]. وَ قد أضاف فِي هٰذَا الكتاب أسماء علماء وَ أدباء لم يذكروا من قبل وَ إنما اكتشفهم فِي أبحاثه الخاصة.

---

[٣٨٢] أكبر علماء الْبُوسْنَة فِي هٰذَا القرن.

[٣٨٣] وَ مع ذٰلِكَ لم تبدأ هٰذِهِ الدراسات إلَّا فِي السّتينات من هٰذَا القرن.

[٣٨٤] الخانجي مُحَمَّد، العمل الأدبيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، مجلّة المشيخة الإِسْلَامِيَّة "غلَاسْنيق"، سراييفو ١٩٣٣ م، أعداد ١-٣ وَ ٦-١٢، وَ سنة ١٩٣٤ م، أعداد ١-٦.

وَ الجدير بالذكر أن الخانجي عَلٰى الرغم من قصر حياته (توفي فِي التاسع من شعبان سنة ١٣٦٣ هـ / فِي التّاسع وَ العشرين من يوليو سنة ١٩٤٤ م) قد ألف إِلٰى جانب الكتابين المذكورين أكثر من عشرين بحثًا وَ رسالة تتعلق بِهٰذَا الموضوع نشرها فِي المجلات وَ الدوريات الَّتِي كانت تصدر حينذاك. وَ لَقَد توقفت هٰذِهِ الدراسات خلال الحرب الْعَالَمِيَّة الثانية وَ مَا بعدها فلا نجد أية محاولة ناجحة أو جادة تتناول هٰذَا الموضوع فِي هٰذِهِ الفترة. وَ يرجع ذٰلِكَ إِلٰى الظروف الَّتِي أحاطت بيوغسلافيا فِي تِلْكَ الفترة. وَ بعد أن نال مسلمو الْبُوسْنَة حرياتهم الدّينيّة الكاملة بدأت تظهر هٰذِهِ الدّراسات من جديد وَ ذٰلِكَ فِي العقد السابع من هٰذَا القرن وَ نتيجة ذٰلِكَ تمّ إصدار بعض الابحاث باللغة الْعَرَبِيَّة وَ الأخرٰى بالْيُوغُسْلَافِيَّة تتناول ثقافة مسلمي البوسنة وَ تاريخهم[٣٨٥].

وَ يستبين من هٰذَا العرض السريع أن بَاشَاقِيتْشْ وَ الخانجي (Bašagić and Handžić) قد مهدا طريقًا للباحثين فِي موضوع التراث الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فِي يُوغُسْلَافِيَا عامة وَ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ خاصة، وَ هٰذَا الطريق قد سكله

---

[٣٨٥] نذكر منها:

١- العمل الأدبيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك (Književnost muslimana BiH na orijentalnim jezicima)، لِحازم شعبانوفِيتْشْ، سرايففو ١٩٧٣ م.

٢- المؤلّفون اليُوغُسْلَافِيُّونَ بالْعَرَبِيَّة، كامل البوحي، رسالة الدّكتوراه وَ هِيَ مَا زالت محفوظة فِي مكتبة جامعة بلغراد.

٣- ثقافة البوشنْياق إِسْمَاعِيل باليتش (Kultura Bošnjaka).

الكثيرون لكنهم لم يضيفوا شيئًا جديدًا فِي هٰذَا الموضوع وَ سبب ذٰلِكَ أنهم اهتمّوا بحياة المؤلفين وَ سيرهم أكثرمن اهتمامهم بانتاج هٰؤُلَاءِ العلماء.

وَ من ثمّ فقد حاولت فِي هٰذَا البحث أن أسلك مسلكًا أو منهجًا مغايرًا لهٰؤُلَاءِ الباحثين وَ الدارسين، وَ هُوَ مسلك أوضح وجهت فِيهِ جلّ عنايتي إِلٰى الاهتمام بالنتاج وَ العلمي لأدباء وَ علماء وَ مؤلفي البوسنة، لا إِلٰى تراجم حياتهم – الأمر الَّذِي فرض عليّ أن أقف عَلٰى آثارهم الَّتِي أمكن الإطلاع عَلَيْهَا، وَ قراءة أهمّها وَ بيان مقاصدها وَ غاياتها وَ توضيح ميزاتها وَ مناهجها، مبرهنًا أو مستدلًا – فِي ذٰلِكَ كله – بنصوص وَ شواهد من مؤلفاتهم، غير مهمل – فِي الوقت نفسه – الإشارة إِلٰى حياتهم أَيْضًا دونما تطويل وَ حاولت كَذٰلِكَ أن أنبه إِلٰى الأخطاء الَّتِي شاعت حول بعض المؤلفين وَ أعمالهم[٣٨٦]. وَ بما أن موضوع البحث وَاسع، وَ عدد الأعمال الْعَرَبِيَّة كبير فقد قسمت هٰذَا الباب إِلٰى فصلين كبيرين تاليين:

- الفصل الأول: درست فِيهِ العلوم الدّينيّة وَ يشتمل عَلٰى سبعة أجزاء.
- الفصل الثاني: يتناول العلوم اللُّغوِيَّة وَ الأدبيّة وَ يقع فِي ثمانية أجزاء.

---

[٣٨٦] أذكر عَلٰى سبيل المثال الكتاب- أنفع الدلائل – الَّذِي كثيرًا مَا ينسب إِلٰى زياء الدين أحمد بن مصطفٰى الموستاري، مع أن صاحب الكتاب هُوَ أحمد بن مصطفٰى الموستاري وَ كلاهما من مدينة موستار لكن الفرق الزمني بينهما قرن تقريبًا.

وَ لَقَد اخترت هٰذَا التّقسيم لأنّ العلوم الدّينيّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كانت أكثر انتشارًا عَلٰى الرّغم من أنّ العلوم اللُّغَوِيَّة وَ الأدبيّة ظهرت قبلها.

الفصل الأول:

اَلْعُلُومُ الدِّينِيَّةُ

المؤلّفاتُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ

اهتمّ مسلمو الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك بالعلوم الدّينيّة أكثر من أيّ علم آخر، وَ هٰذَا أمر طبيعيّ لأنّ اعتناقهم الدّين الإِسْلَامِيّ كان منبثقًا من حبهم لِهٰذَا الدين وَ اعتزازهم به. وَ قبل أن ندخل فِي هٰذَا الموضوع نودّ أن ننبّه إِلٰى حقيقة مهمة وَ هِيَ أن قراءة القرآن الكريم شيء وَ تفسيره شيء آخر. أقول ذٰلِكَ لأن بعض أصدقائي بجامعة الكويت وَ منهم بعض الأساتذة الأفاضل، حينما ذكرت لهم عدد المفسرين فِي الْبُوسنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي الفترة الَّتِي ندرسها اندهشوا مّما قلته! وَ صحيح أن الأكثرية الساحقة من الْبُوسنَوِيِّينَ قد أتقن قراءة القرآن الكريم فِي تِلْكَ الفترة وَ قرأوه كثيرًا وَ عاشوا عَلٰى مبادئه العظيمة لكن أين هٰؤُلَاءِ من تفسير القرآن الكريم، وَ إِلٰى جانب ذٰلِكَ كان عدد كبير من المسلمين، وَ هٰذِهِ ظاهرة فِي جميع الدول غير الإِسْلَامِيَّة، قد تعلموا الكتابة الْعَرَبِيَّة وَ تعلموا قراءة القرآن

الكريم[٣٨٧] دون أن يفهموه فهمًا عاليًا، أي أنهم فهموا القرآن الكريم قلبًا لكن لم يفهموه عقلًا، فهم هٰؤُلَاءِ القرآن فهم المعجب المحب، دون أن يتذوقوه بعقولهم، وَ لنترك الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ أمثالها. وَ لنلق نظرة عَلٰى العالم الْإِسْلَامِيّ وَ نعد مفسريها الحقيقيين طوال هٰذِهِ القرون الطويلة وَ سوف نلاحظ أن عددهم ليس كبيرًا وَ لكنه ليس بصغير أَيْضًا، لأن تفسير القرآن الكريم –عل حسب رأينا – يتطلّب إِلٰى جانب الموهبة الْإِلٰهِيّة إِلَّا معان فِي العلوم المختلفة، فليس صدفة أن المفسرين الكبار كانوا عادة من صفوف العلماء وَ الفلاسفة، وَ لنذكر رأي السيوطي فِي هٰذَا الموضوع:

قال: "اختلف النّاس فِي تفسير القرآن، هل يجوز أحد الخوض فيه؟" قال قوم: "لا يجوز لِأحد أن يتعاطٰى فِي تفسير شيء من القرآن وَ إن كان عالمًا أديبًا متّسعًا فِي معرفة الأدلّة وَ الفقه وَ النّحو وَ الأخبار وَ الأثار، وَ ليس له إِلَّا أن ينتهي إِلٰى مَا روي عن النبيّ – صَلّٰى الله عَلَيْهِ وَ آلِهِ – فِي ذٰلِكَ."، وَ منهم من قال: "يجوز تفسيره لمن كان جامعًا للعلوم الَّتِي يحتاج المفسر إِلَيْهَا، وَ هِيَ خمسة عشر علمًا: اللُّغة وَ النّحو وَ التّصريف وَ الاشتقاق وَ المعاني وَ البيان وَ البديع وَ القراءات وَ أصول الدّين وَ أصول الفقه وَ أسباب النّزول وَ القصص وَ النّاسخ وَ المنسوخ وَ الفقه وَ الأحاديث المبينة لتفسير المجمل وَ المبهم، وَ علم الموهبة."[٣٨٨]

الموهبة."[٣٨٨]

---

[٣٨٧] تعلّم اللُّغَة الْعَرَبِيَّة فِي الحقيقة لم يكن إِلَّا بغرض قراءة القرآن الكريم فهو الباعث الأوّل وَ الأساسيّ لِانتشار اللُّغَة الْعَرَبِيَّة فِي المنطقة.

[٣٨٨] الاتّفاق فِي علوم القرآن، ج ١١، ص ٢٢٥، القاهرة ١٩٦٠ م.

وَ عندما ننظر إِلَى هٰذَا الموضوع من هٰذِهِ الزّاوية، نقول أن عدد المفسرين ليس قليلًا لا فِي الْبُوسْنَةِ وَ لا غيرها، وَ سوف نذكر فِي هٰذَا الفصل فِي هٰذَا الفصل أشهر المفسرين الْبُوسْنَوِيِّينَ، وَ نتكلّم بشيء من التّفصيل عن طائفة منهم.

وَ لا شكّ فِي أن أول من كتب فِي علم التفسيرفي البوسنة كان مَوْلَى عبدُالكريم (Mewlā ‘Abdul-Kerīm) الَّذِي نعرف عنه أن السلطان مُحَمَّد الفاتح قد عيّنه أستاذًا فِي إحدٰى المدارس فِي إِسْطَنْبُول بعد الفتح، وَ تولّى بعد ذٰلِكَ وَظِيفة "قاض عسكر" ثمّ وَظيفة المفتي وَ قد توفي فِي أدرنة (Edirne) سنة ٩٧٩ ه / ١٥٧١ م. وَ يقول طائفة من الباحثين[٣٨٩] أن مولى عبد الكريم من أوائل الَّذِينَ الَّذِينَ ألفوا بالْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ يقول كاتب چلبي[٣٩٠] (Kātib Çelebī) أنه كتب "حاشية عَلَى شرح مثال الأنوار"[٣٩١]. للجرجاني وَ كَذٰلِكَ "حاشية عَلَى التّلويح" للتّفتازاني، وَ كَذٰلِكَ "حاشية عَلَى شرح الشّريف الجرجاني للكشّاف" وَ هٰذِهِ المؤلّفات تشير إِلَى معرفته الواسعة فِي العلوم المختلفة، وَ هِيَ ضروريّة للمفسّر كما سبق أن ذكرنا. وَ لو استطعنا أن نطلع عَلَى هٰذَا الكتاب لزاد علمنا بأسلوب الكاتب وَ مستواه العلميّ، غير أن ا لمؤسف

---

٣٨٩ غلاسنيق، صفوت بَاشاَقِيتْشْ، مجلّة المتحف البلديّ، ص ٩، ١٩١٢ م.

Bašagić, Safvet (1912.) *GZN*, p. 9..

٣٩٠ كشف الظنون، ١، ١٩٧ – ٢، ١٧١٧.

٣٩١ مثال الأنوار فِي المنطق – لمُحَمَّد بن أبي بكر العرماويّ.

كونها مفقودة وَ لم يكشف النقاب عنها بعد. وَ لَقَد نجد هناك عددًا من الَّذِينَ كتبوا فِي هٰذَا الموضوع مثل علاء الدين الموستاريّ[٣٩٢] وَ عَبْدالله البُوسْنَوِيّ وَ مُحَمَّد نور العرابيّ[٣٩٣] وَ زياء الدين أحمد بن مصطفٰى الموستاريّ[٣٩٤]. وَ لكن هٰؤُلَاءِ جميعًا فسّروا القرآن عَلٰى الطريقة الصوفية، وَ لِذٰلِكَ اكتفيت بذكر أسمائهم فِي هٰذَا الفصل، وَ سنرجع إليهم حينما نتناول علماء التصوف وَ فيما يلي سنتناول مفسّرًا من البوسنة يستحق بكفاءته العلمية أن يوضع اسمه فِي النخبة المختارة من المفسّرين العرب وَ الفرس وَ الأتراك عَلٰى السواء وَ هُوَ مُحَمَّد بن مُوسٰى البُوسْنَوِيّ (Muḥammed bin Mūsā El-Bosnewī) الَّذِي وَجدنا له الأثار التّالية:

١- حاشية عَلٰى تفسير البيضاويّ – من بداية القُرْآن إلٰى سورة الأنعام.

٢- حاشية عَلٰى تفسير البيضاويّ – يشمل تفسير الكهف.

٣- حاشية عَلٰى سورة النّبإ.

---

٣٩٢ وَ نراه فِي كتابه "خواتم الحكم" يفسّر بعض الآيات من القُرْآن الكريم.

٣٩٣ كتب تفسيرًا عَلٰى سورتي الفاتحة وَ الفتح، كشف الظنون، ١، ص ٣٠٦-٣٠٧.

٣٩٤ فسّر الآيات من القُرْآن الكريم فِي كتابه "أنيس الواعظين"، وَ نتكلّم عنه فِي فصلنا عن الوعظ.

٤- تفسير لِلآيةِ الكريمةِ: ﴿وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[٣٩٥]

وَ لْنبدأ بكتابه الأوَّل الَّذِي درس فِيهِ أنواع التّنزيل وَ أسرار التّأويلِ، وَ يشمل كما ذكرنا من أول سورة الفاتحة حَتَّى نهاية سورة الأنعام[٣٩٦]. وَ لَسْنَا نَدْرِي بالضّبط متَى ألف الْبُوسْنَوِيّ هٰذِهِ الحاشية لأنّنا لا نجد تأريخ كتابتها فِي النّسخة الوحيدة المذكورة. كل مَا وَ دنا فِي الصّفحة الأولى منها هُوَ تاريخ استكتابها، وَ هٰذَا نصّه:

"هٰذِهِ حاشية العلامة مُحَمَّد أفندي الْبُوسْنَوِيّ عَلَى تفسير القاضي البيضاوي وَ هِيَ من أول سورة الفاتحة إِلَى غاية سورة الأنعام وَ قد عني باستكتابها لنفسه العبد الفقير إِلَى الباري، نجم الدين بن مُحَمَّد الأنصاري – عفي

---

[٣٩٥] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة التّوبة، الآية ٦.

[٣٩٦] المخطوطة الوحيدة من هٰذِهِ الحاشية توجد الآن فِي دار الكتب المصريّة تحت رقم ٣٤١ تحتوي من ٣٢١ وَرقة / ٦٤٢ صفحة. وَ فِي هٰذِهِ المخطوطة تفسير لسورتي الفاتحة وَ الأنعام وَ سورة الكهف وَ سورة النبإ. وَ لقد وَ جدنا لِهٰذِهِ الحاشية (وَ لٰكن فقط سورة الفتح) فِي المكتبة (Svetozar Marković) الجامعيّة فِي بلغراد.

اللهُ عنهما، آمين ـ، وَ ذٰلِكَ سنة خمسة وَ أربعين بعد الألف حين كان قاضيًا ـ رحمه الله تعالى ـ."[397]

كما نجد فِي آخر هٰذِهِ الحاشية[398] تأريخ إتمام استكتابها وَ هُوَ الثّامن من ذي القعْدة سنة ١٠٤٥ هـ / الرّابع عشر من إبريل سنة ١٦٢٦ م وَ نحن نعرف أن مؤلف الحاشية توفي فِي هٰذِهِ السنة نفسها وَ نفهم من مقدّمتها أسباب كتابتها أيْضًا، وَ يقول المؤلف فِي ذٰلِكَ!

"وَ بعد... فيقول العبد الضّعيف الفقير إِلٰى رحمة ربّه القويّ أقلّ النّاس وَ أفقرهم مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ، لما تشرفت بتدريس تفسير العلامة القاضي، وَ شاهدت اجتماع بعض الخواطر بقضاء النّظر الماضي أحببت أن أديم منها بالتحرير مَا كنت أصدع بِهِ فِي التّقرير وَ لا أدعي أن جميع مَا أوردته وَارد لا يجاب، وَ لا يظن مثله من يعلم أن العلم سؤال وَ جواب، كيف فِي أني قليل البضاعة، عديم الاستطاعة، غير ملحق بإرباب التّفوّق وَ البراعة، وَ لا شيء عندي من حواشي هٰذَا التّفسير وَ لا حرف من تفسير تأخر عن هٰذَا التّفسير."[399]

وَ نفهم من هٰذَا النّصّ أنّ الْبُوسْنَوِيّ درّس تفسير البيضاويّ فِي إحدٰى المدارس فِي إسطنبول، لٰكنّه لم يذكر اسم المدرسة وَ لا وَقت تدريسه فيها، وَ

---

[397] وَرقه رقم ١٨.

[398] وَرقة رقم B ١٢١.

[399] وَرقة رقم B ١ من المخطوطة.

اغرب من ذٰلِكَ أنّه لم يطلع عَلٰى أيّة حاشية ألفت عَلٰى تفسير البيضاويّ وَ لا عَلٰى أيّ تفسير كتب بعد تفسير البيضاويّ، مع العلم أن كتب التفسير فِي ذٰلِكَ الوقت كانت متوافرة فِي إسْطَنْبُول! وَ سوف نرٰى كَذٰلِكَ أنه اطلع عَلٰى كتب التفسير حينما ألف كتابين آخرين نقف عندهما فيما بعد.

أمّا حاشيته الثّانية، كما قد ذكرنا، فهي الحاشية عَلٰى سورة الكهف وَ لها أهمّيّة خاصّة لأنّها تكشف عن جوانب من حياة موسٰى الْبُوسْنَوِيّ كنا نجهلها. وَ قد ألّف هٰذِهِ الحاشية فِي سبعة وَ عشرين يومًا، بدأها فِي منتصف شهر محرم سنة ١٠٣٧ هـ / في السّادس وَ العشرين من سبتمبر سنة ١٦٢٧ م، وَ أتمّها فِي الثالث عشر من صفر/ فِي الرابع وَ العشرين من اكتوبرمن نفس السنة، كما يشير المؤلف نفسه فِي آخر الحاشية. وَ يذكر المؤلّف فِي مقدمة كتابه الظروف وَ الأوضاع الَّتِي سادت فِي تركيا حينذاك وَ قدم الْبُوسْنَوِيّ هٰذِهِ الحاشية إِلٰى السلطان مراد الرابع (Murād IV) ١٠٢١-١٠٥٠ هـ / ١٦١٢-١٦٤٠ م، طالبًا منه تعيينه موظفًا فِي بعض المدارس، وَ شاكيًا له الظروف الَّتِي وَ جد فِيهَا العلماء. وَ فعلًا وَ ظف المؤلف فِي هٰذِهِ السنة نفسها فِي مدرسة حسن زاده (Ḥasan-zādē) وَ بفضل علمه الغزير شق لنفسه الطريق إِلٰى أعلٰى الدوائر العلمية فِي إسْطَنْبُول[٤٠٠]. وَ معنٰى ذٰلِكَ أن هٰذِهِ الحاشية إِلٰى جانب قيمتها العلمية لعبت دورًا حاسمًا فِي حياة المؤلف المادية وَ نعتقد أنه حقّق هٰذِهِ الرخاء المادي بعد كتابته لِهٰذِهِ الحاشية الَّذِي أتاح له أن يكتب المؤلّفات الأخرٰى.

---

[٤٠٠] Bašagić, Safvet (1912.) *GZM.*

غْلَاسنيق، صفوت بَاشاَقِيتْش، مجلّة المتحف البلديّ، ١٩١٢ م.

وَ يبدأ الْبُوسْنَوِيّ حاشيته عَلَى تفسير سورة الكهف[٤٠١] بالكلمات التّالية:

"وَجهنا إِلَى رفيع بابك، وَ توكلنا عَلَى عالي جنابك، يا مفيض الخيروالجود، وَ يا صاحب كلّ موجود."

وَ فِي مقدمة الحاشية الَّتِي تقع فِي ثلاث صفحات يقول شاكيًا حاله:

"وَ بعد... فيقول العبد المتمسّك بلطف ربّه القوي أفقر الناس إِلَيْهِ مُحَمَّد بن موسَى الْبُوسْنَوِيّ... لما خرجت من أقصَى بلاد الْإِسْلَام وَ دخلت قسطنطينيّة مقسم أرزاق الأنام وَ جدت الجهل فِي هَٰذِهِ مشهورًا، وَ العلم كأن لم يكن شيئًا مذكورًا، وَ رأيت الجهلَاء محمولين عَلَى الحذق، وَ العالم مهانًا مطروحًا فِي الطّرق، يبغضون العلم وَ أهله، وَ يتعصّبون من العوام سهله، إن التمس رغيف من أعيانهم، يجعلون أصابعهم فِي آذانهم، مَا الفيتهم عَلَى الحق إِلَّا قليلًا، ﴿وَ مَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾[٤٠٢]، وقعدت فِي مقعد الذل وَ الهوان، صابرًا عَلَى الكيد وَ كدّ الزمان، وَ متسليًا بأن الله لطيف بعبده فعسَى أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، إِلَّا أنه اضطرب أمري فِي تِلْكَ المرة، وَ اشتد فقري فِي هَٰذِهِ الحدّة، فعزمت عَلَى السير إِلَى مَا شاء الله من بلاده وَ الخروج من هَٰذِهِ الديار ابتعادًا للرحماء من عباده، وَ قد فعل مثل ذَٰلِكَ فِي تِلْكَ الأيام بعض

---

[٤٠١] وَجَدْنَا مخطوطة لِهَٰذِهِ الحاشية فِي مكتبة- سفيتوزار ماركوفيتْش الجامعيّة (Svetozar Marković) فِي بلغراد، رقم الكاتالوغ ٤٣،٦٢٦، رقم ١٧٦، يحتوي من ١٥٢ وَرقة.

[٤٠٢] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الإسراء، الآية ٧٢.

الرجال، فارتحلوا مشيرين بضيعهم إلٰى فضيلة الرحال، وَ لكن انتقص عزمي، وَ تأخر فهمي بما سمعت أن سلطان سلاطين العالم.... سلطان مراد خان بن السلطان السيد أحمد خان يختص بمزيد عنايته من رفع الله درجاته، وَ لا يرضٰى بسوء حالة... فاخترت شرح تفسير سورة الكهف من القرآن وَ اتيت فِيهِ بتحقيقات ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ﴿٧٤﴾﴾[403]... وَ المأمول من إحسان كماله، وَ كمال إحسانه وَ إفضاله، أن يشرف عبده الحقير بنظرة العميم وَ ينصبه مدرسًا باحدٰى المدارس الخارجية للشغل وَ التعليم وَ الله الهادي وَ عَلَيْهِ توكلي وَ اعتمادي."[404]

وَ لا يمكن أن نقول أن الْبُوسْنَوِيّ قد مدح السّلطان وَ اشتكٰى حاله عَلٰى غراء، فالْبُوسْنَوِيّ ليس شاعرًا أوّلًا وَ لم يكن مادحًا ثانيًا، بل اشتكٰى الأوضاع السّيّئة فِي العاصمة التُّرْكِيَّة حينذاك، و هُوَ صادق فِي وَصفه، وَ الحقائق التاريخية تشير إلٰى أن بلاط السلاطين كان زاخرًا بالذين لم يتسلحوا بالعلم وَ المعرفة بل بالجهل وَ المكائد وَ القدرة عَلٰى التآمر، وَ هٰذَا السّلاح الأخير اسْتعملون ليحافظوا عَلٰى مناصبهم بقرب السّلطان، وَ الْبُوسْنَوِيّ الَّذِي جاء من أقصٰى بلاد الإسلام من البوسنة إلٰى مقر الثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة لم يتوقع أن يجده فِي هٰذِهِ الحالة، وَ يشيع فِي كلماته قدر كبير من المرارة وَ التشاؤم وَ الألم، إلٰى جانب

---

[403] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الرّحمٰن، الآية ٧٤.

[404] وَرقة رقم B ١-٣٨.

نقده للظروف القائمة، وَ هُوَ أمر طبيعي، لأن هٰذِهِ الكلمات موجّهة من شخص يحب إِسْطَنْبُول وَ أهلها، وَ هٰذَا الحب كان سببًا لزيارته لها.

أمّا الأسلوب الَّذِي استعمله فِي الحاشية فهو عين الأسلوب الَّذِي سلكه فِي حاشيته عَلٰى شرح الجرجاني عَلٰى مفتاح العلوم، وَ سوف نقف عندها فِي فصل علم البيان، وَ كَذٰلِكَ فِي حاشيته عَلٰى شرح ملاجامي عَلٰى الكافية لابن الحاجب فِي النحو. وَ حينما تناولنا حاشيته الأولٰى فِي هٰذَا الفصل ذكرنا أنه لم يستند فِي كتابته لها عَلٰى أي مصدر غير تفسير البيضاويّ[٤٠٥]، أما فِي هٰذِهِ الحاشية، فهو يناقش النقاط الَّتِي وقع فِيهَا الاختِلَاف وَ يصحح الأخطاء الَّتِي وقع فِيهَا بعض كتاب الحواشي عَلٰى تفسير البيضاوي وَ كَذٰلِكَ يشير إِلٰى كتب التفسير الأخرٰى الَّتِي ظهرت بعد تفسير البيضاوي، كما يدخل الْبُوسْنَوِيّ فِي الحاشية فِي المسائل الإعتقادية البحتة كالخلاف بين أهل السنة وَ المعتزلة، وَ نرٰى مصداق ذٰلِكَ فِي تفسيره التّالي لِلآيَتَيْنِ الكريمتَيْنِ:

﴿وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسٰى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾[٤٠٦].

وَ يذكر الْبُوسْنَوِيّ رأي البيضاويّ حول تفسير الآيتين الكريمتين، لٰكنه يذكر رأي الزّمخشريّ أيْضًا، وَ من المعروف أن البيضاوي من أهل السّنة وَ

---

[٤٠٥] راجع الصفحة ٢٥٤.

[٤٠٦] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الكهف، الآية ٢٣-٢٤.

الزمخشري من أهل الاعتزال، وَ يستغرق هٰذَا الكلام ستّ صفحات من الحاشية، وَ يقول فيما يقول:

"قوله بمعنٰى أن يأذن لك فيه، قيل هٰذَا التفسير يناسب مذهب أهل الإعتزال من أن الأمر هُوَ الإرادة خلاف مذهب أهل السّنة، وَ لِذٰلِكَ أخره المصنف وَ قدّمه الزمخشري."[407]

وَ لا يتّبع الْبُوسْنَوِيّ البيضاويّ فِي آرائِهِ جميعها وَ إنّما يختلف مَعَهُ فِي مواطن كثيرة فِي الحاشية، مثال ذلك: يقول الْبُوسْنَوِيّ معلّقًا عَلٰى تفسير البيضاوي للآية الكريمة من سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۜ (١)﴾[408]، وَ مَا ذكره المُصن[409] لا ينافي مَا قاله صاحب الكشاف، لقّن عباده وَ فقّههمفي كيفية الثناء عَلَيْهِ وَ حمده عَلٰى مَا أبذل من نعمائه عليهم، وَ من نعمة الْإِسْلَام وَ مَا أنزل عَلٰى عبده – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – من الكتاب الَّذِي هُوَ سبب نجاتهم.[410]

وَ عندما عرض الْبُوسْنَوِيّ هٰذَا الرأي جاء برأي مخالف له قائلًا:

---

[407] وَرقة B ٣٣.

[408] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الكهف، الآية ١.

[409] أي المصنّف.

[410] وَرَقة رقم B ٣.

"فلا يلتفت إلى مَا قيل: تخصيص هٰذِهِ النعمة من بين سائر النعم دالًا عَلى أنها أشرف وَ إلّا لزم ترجيح المتساويين أو ترجيح المرجوح، وَ لا يخفى أن نعم الله جميعها يستحق أن يحمد عليها، وَ تعيينها موكول إلى الفاعل المختار، وَ بذلك ظهر مَا فِي القول المصنّف، تنبيهًا عَلى أنه أعظم نعمائِهِ."[411]

وَ هٰكذا نجد أن الْبُوسْنَوِيّ لا يتفق مع البيضاوي فِي أن النّعمة الواحدة تستحق أعلى المديح، وَ نراه بعد ذٰلِكَ يدافع عن البيضاوي معترضًا عَلى رأي أحد كتاب الحواشي عَلى تفسير البيضاوي الّذِي يفهم قول البيضاوي فِي قصة آدم وَ ابليس عَلى أن ابليس له ذرّية كما لبني آدم، فيقول:

"فلا عبرة بقول قتادة: "هم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، وَ ليس ممّا يلتفت إِلَيْهِ فإن هٰذَا العمل شنيع لا يتصوّر مثله من المصنف."."[412]

وَ يقول الْبُوسْنَوِيّ فِي هٰذَا النّصّ أن البيضاويّ قد ذكر رأي قتادة فِي هٰذَا الموضوع وَ هُوَ يخالفه فيه. وَ نَرٰى الْبُوسْنَوِيّ فِي بعض الأحيان يخالف رأي أشهر المفسرين مثل فخر الدين الرازي، وَ ذٰلِكَ حول كلمة "الفتى" فِي قوله –

---

[411] وَرقة رقم A ٤٨.

[412] وَرقة B ٦٣ – A ٦٤.

تعالٰى -: ﴿وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾[413]، فيقول:

"وَ فِي الكبير: هٰذَا يدل عَلٰى أنهم كانوا يسمّون العبد "فتًى" وَ الأمة "فتاة"، وَ لا يذهب عليك أن دلالة الحديث[414] عَلٰى خلاف ذلك، وَ إِلَّا لما أحتيج إِلٰى النهي"[415].

وَ يسرد الْبُوسْنَوِيّ فِي حاشيته هٰذِهِ أقوال المفسّرين القدماء وَ المحدثين وَ يضيف الأشياء الَّتِي لم يذكرها البيضاويّ، وَ هُوَ صاحب رأي حر، يتعمّق فِي الموْضُوع إِلٰى أقصٰى الحدود، فلَا يريد أن يترك صغيرةً وَ لا كبيرةً إِلَّا يحصيها، فَهُوَ عَلٰى سبيلِ المثالِ حينما يتناوَل فِي الحاشية قصّة موسٰى مع الرجل الَّذِي أعطاه اللهُ العلم، يتناول حادثة مقتل الغلام من جميع الوجوه، وَ يأتي بالإفتراضات مثل: هل كان الغلام بالغًا أو غير بالغ، فإذا كان غير بالغ فهو غير مسْؤُول أمام القانون، وَ يسرد بعد ذٰلِكَ أقوال الَّذِينَ يقولون بأنه كان بالغًا وَ أقوال

---

[413] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الكهف، الآية ٦٠.

[414] الحديث الَّذِي يقصد هُوَ الحديث الَّذِي يوصي النّبيّ – صلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – فِيهِ بعدم استعمال كلمة "العبد".

[415] وَرقة رقم ٨٥-٨٨.

الَّذِينَ يذهبون إِلَى العكس، وَ لكنه يضيف أن غير البالغين كانوا مسئولين فِي شريعة الخضر[٤١٦].

وَ عندما يتناوَل قصّة ذِي القَرْنَيْنِ فِي السّورة نفسها يناقض رأي المفسّرين الَّذِينَ يزعمون أن شخصيّة ذي القرنين هُوَ الاسكندر المقدونيّ، وَ من بينهم البيضاويّ أيْضًا، فالإسكندر المقدوني كان تلميذًا لأرسطو أما ذو القرنين القرآني فقد كان رجلًا مسلمًا لله وَ صالحًا وَ لم يكن فيلسوفًا. وَ هٰذَا التعمق العلمي فِي الموضوع وَ معرفته الواسعة للقرآن الكريم وَ رأي المفسرين الآخرين فيما يكتب وَ يشير إشارة وَاضِحة إِلَى أن الْبُوسْنَوِيّ كان مستعدًا لِهٰذِهِ الكتابة قبل أن يبدأ التأليف، وَ لقد توافرت عنده كل الشروط اللازمة للمفسر، وَ إِلَّا فكيف نسلم بأنه ألّف هٰذِهِ الحاشية فِي سبعة وَ عشرين يومًا فقط؟

أمّا حاشيته عَلٰى تفسير سورة النبإ[٤١٧]، فقد ألّفها قبل حاشيته عَلٰى تفسير سورة الكهف بخمس سنين، وَ لقد تمّ تأليفها فِي شهر محرّم سنة ١٠٣٢ هـ / فِي شهر سبتمبر سنة ١٩٢٢ م، وَ أسلوب المؤلّف فِي هٰذِهِ الحاشية لا يختلف عن أسلوبه فِي آثاره الأخرٰى، فهو يذكر الحواشي الأخرٰى عَلٰى تفسير البيضاويّ، وَ يصحّح الأخطاء وَ يبدي رأيه فِي المَوْضُوعات. وَ عَلٰى سبيل المثال نقف عند

---

[٤١٦] وَرقة رقم ٧٣٨.

[٤١٧] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة النبإ، الآية ٣.

قوله حول الآية الكريمة ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾[418]، حيث وَقع الاخْتِلَاف بين المفسرين فِي مسألة البحث:

"يجزم النّفي وَ الشّكّ فِيهِ عَلٰى تقدير أن يكون الضّمير لِأهلِ مكّةَ، فَإن بعضهم أنكره جزمًا قائلًا: ﴿وَ قَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾[419]. وَ بعضهم شاكّ يقول: "مَا ندري مَا السّاعة إن نظنّ إلَّا ظنًّا وَ مَا نحن بمستيقنين"[420]، قوله (قول البيضاويّ): "أو بالإقرار وَ الإنكار إن كان الضّمير للنّاس فإن المؤمنين يقرّون بِهِ وَ حال الكافرين مَا عرف."[421]

وَ نراه بعد ذٰلِكَ يعترض عَلٰى قول صاحب الإرشاد[422] فِي هٰذِهِ المسألة، فيقول: "قال صاحب الإرشاد: "وَ الَّذِي يقتضيه التحقيق، وَ يستدعيه النّظر الدقيق أن يحمل اخْتِلَافهم عَلٰى مخالفتهم للنبي – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –. فإن الإفتعال وَ التفاعل صيغتان متآخيتان كَالإستباقِ وَ التّسابق وَ الإفتضال وَ التفاضل إِلٰى غير ذٰلِكَ يجري فِي كل منهما مَا يجري فِي الأخرٰى لا عَلٰى مخالفتهم لبعض من

---

[418] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة النبإ، الآية ٣.

[419] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الأنعام، الآية ٢٩.

[420] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الجاثية، الآية ٣٢.

[421] وَرقة رقم A ١١٧.

[422] وَ هُوَ شيخ الإسْلَام أبو السّعود.

الجانبين لأن الكلّ وَ إن استحقّ الرّدع وَ الوعيد لٰكن استحقاق كلّ جانب لهما ليس لمخالفة للجانب الآخر، أن لا حقيقة فِي شيء منهما حَتّٰى يستحقّ من يخالفه المؤاخذه بلْ لمخالفتهم له – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –، وَ هٰذَا كلَامه وَ هُوَ تحقيق عجيب وَ تفرد غريب يستدعي الحذف فِي النّظم الجليل، وَ يأباه قوله ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ كما يعرف بأدنٰى تأمّل، وَ معنٰى كون الإفتعال بمعنٰى التّفاعل أن يكون لمشاركة أمرين أو أكثر فِي أصله فيقال: "اجْتوروا وَ اختصموا" وَ يراد بهما معنٰى: تجاوروا وَ تخاصموا، هٰكذا فِي المثالين اللَّذَيْنِ أوردهما كما صرح به فِي محله، وَ أمّا كون الإفتعال كالمتفاعل فِي جميع مواقعه وَ مجال اسْتعماله حَتّٰى يصح كونه بِهٰذَا المعنٰى الَّذِي يدعيه مكلاً، ثم ان مجيء التفاعل بمعنٰى المفاعلة غير ثابت، وَ كذا مجيء الإفتعال بمعناها محل كلام[٤٢٣].

وَ نرٰى من هٰذَا النص أن الْبُوسْنَوِيّ، لما عرض راي البيضاوي فِي تفسير كلمة الاخْتِلَاف يجيب عَلٰى كتاب الحواشي وَ يناقشهم مستعملًا علم البيان وَ علم النحو، ليبرهن عَلٰى أن الكلمات فِي الآية لا تسمح بالمعنٰى الَّذِي يزعمونه. وَ الجديربالملاحظة أنه يذكر فِي الحاشية آراء لم يذكرها البيضاوي فِي تفسيره، بل ذكرها المفسرون الآخرون، وَ لم يكتف بذلك بل يذكر السبب الَّذِي جعل البيضاوي يحيد ذكر بعض الأمثلة فِي تفسيره.

---

[٤٢٣] وَرقة رقم B ١١٧.

وَ إِلٰى جانب الحواشي المذكورة وَ جدنا للبوسنويّ بعض الدّراسات الخاصّة فِي هٰذَا الموضوع، وَ هُوَ تفسير بعض سور وَ آيات من القرآن الكريم، وَ لقد اطلعنا عَلٰى التفاسير التالية له:

١- تفسير الآية الكريمة: ﴿وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[٤٢٤]. وَ هُوَ تفسير نحويّ وَ يدور عمومًا حول الكلمة "حَتّٰى" فِي الآية المذكورة، أي هل هِيَ مستعملة لِلغاية أو للتّعليل، يبدأ فِي تفسيره لِلْآيَةِ بالكلمات التّالية:

"قيل "حتّٰى" سواء أ كانت للغاية أم للتّعليل متصلة بما عندها لا بقوله "استجارك" لأنّه يؤدّي إِلٰى أعمال حَتّٰى المضر وَ ذٰلِكَ ممّا لا يكاد يرتكب فِي غير ضرورة الشعر... وَ لا محمل لِذٰلِكَ سوٰى القصد إِلٰى أنه يلزم أن يكون التقدير، فإن أحد من المشركين استجارك حَتّٰى يسمع كلام الله فأجره حتاه – أي حَتّٰى السّمع.".

وَ من هٰذَا المقطع تبين لنا طريقة عرض الْبُوسْنَوِيّ وَ أسلوبه الَّذِي أشرنا إِلَيْهِ من قبل، وَ هُوَ يهتم بالقواعد النحوية وَ ينقد وَ يصحح وَ يبرز دائمًا ثقافتة الواسعة.

---

[٤٢٤] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة التّوبة، الآية ٦.

٢- تفسير سورة الفتح: لقد أشرنا سابقًا أن المقدمة الّتِي كتبها الْبُوسْنَوِيّ فِي حاشيته عَلٰى تفسير سورة الكهف كانت سببًا مباشرًا فِي أن يعيّن أستاذًا فِي احدٰى المدارس فِي إسْطَنْبُول، أما مقدمته الّتِي كتبها عَلٰى تفسير سورة الفتح فإنها جعلته أعلٰى قضاة مدينة حلب، وَ الأهمية الثانية لِهٰذِهِ المقدمة أنها تكشف عن شخصية موسٰى الْبُوسْنَوِيّ وَ تؤكد أنه تزين بالصفات الّتِي أشرنا إِلَيْهَا خلال دراسة مؤلفاته وَ لنر مَا يقول فِي هٰذِهِ المقدمة!

"فيقول أقلّ عبيد الله المتمسّك بلطفه القويّ، الفقير الحقير مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ أن حضرة السلطان أحمد خان... لما توجه إِلٰى الجهاد فِي سبيل الله المتعالي وَ لزمن الإشتغال بالدعاء وَ قراءة سورة الفتح فِي الأيام وَ الليالي، أحببت تفسير هٰذِهِ السورة الكريمة من بين السور للإهتداء إِلٰى سدته السنيّة وَقْت الرجوع بالفتح وَ الظفر، لعله ينعم عَلٰى عبده الفقير قضاء حلب، وَ حاشاه أن يجعلني محرومًا من ذٰلِكَ الطلب، ثم إني ظفرت بما كتبه عَلٰى تِلْكَ السورة المولٰى الشّرواني (Mewlā Eš-Šerwānī) الشهير بصدرالدّين زاده[٤٢٥]، انا له الهنا الرحمن إِلٰى جميع مَا أراده، فوجدته محتويًا عَلٰى أنواع الخطأ وَ الخطل، وَ مشتملًا عَلٰى أصناف الخبط وَ الزلل وَ لما رأيت أبناء الزمان يعتنون بشأنه وَ يعتقدون بعلو مكانته،

---

[٤٢٥] مُحَمَّد أمين الشّرواني المعروف بصدرالدّين زاده (١٠٢٥ هـ / ١٦٢١ م) وَ هُوَ صاحب حاشية غير مكتملة عَلٰى تفسير البيضاويّ، كشف الظّنون، ١، ص ١٩٢.

أردت أن أتعرض لبعض مَا أتى من الكلام، ليتبين نور الحق، وَ ينكشف عنه ظلمات الأوهام، وَ ذٰلِكَ لأنه كان رحمه الله ممّن صرف حاصل عمره فِي تحصيل العمل وَ الكمال، وَ كان قد بلغ فِي حفظ متون الفنون وَ ضبط مَا زاد القوم عَلَيْهِ إِلٰى غاية عزيزة المنال، وَ لٰكنه مَا كان مرزوقًا بذهن وَ قّاد وَ ممنونًا بطبع نقاد، وَ عليهما مدار الإمتياز وَ الإرتقاء إِلٰى معاني الفضيلة باتفاق الآراء، وَ لذا قيل منهم حرفين خير من حفظ وَ قرين، وَ المراد بالوقر قدر مَا يحمله الإبل من الكتب وَ الأسفار"[٤٢٦]

ومن بقية المقدّمة نفهم أنه وصل إِسْطَنْبُول وَ هُوَ فِي السابعة عشر من عمره وَ أنه درس عَلٰى علماء إِسْطَنْبُول وَ يذكر أحدهم مادحًا فيقول:

"أفضل الأقوياء وَ أكمل الأذكياء مولانا المعروف بـ"غني زاده" (Ġani Zādē) وَ وجدت عنده مَا كنت أردته من لذّة الإرادة وَ الإجادة، وَ كان رحمه الله مع مَا بي من الحقارة ينزلني منزلة الشريك الغالب، بل كان يعاملني كما يعامل أستاذه الطالب، وَ قد كان منصفًا غاية الإنصاف، بعيدًا من أن يحوم حوله شائبة الإعتساف، فلما أراد نشر مَا كتبه عَلٰى تفسير العلامة القاضي، أمرني أن أنظر فِيهِ من الأول إِلٰى الآخر بالنظر الماضي، وَ كان يصلّح مَا أشير إِلَيْهِ

---

[٤٢٦] ورقة رقم B ١ – A ٢ من المخطوطة.

من مواضع الخطأ علنًا وَ جهارًا، وَ قد تعجب يومًا وَ أمال رأسه يمينًا وَ يسارًا، ثم قال: إنما تعجبت لأني كنت أعتقد هٰذِهِ المواضيع مقررة بسبب مطالعتي فِيهَا كسورًا، وَ مباحثتي مع العلماء الَّذِينَ يعتني بشؤونهم فِي تِلْكَ المواضع مرارًا[٤٢٧].

ويتّضح من هٰذَا النّصّ أن الْبُوسْنَوِيّ قد ظهرت موهبته فِي مرحلة مبكرة من حياته حيث نال شهرته وَ احترام أساتذته له، كما أن السلطان اعترف بقيمة العمل العلمية وَ منحه عَلَى إثرها وَظيفة القاضي فِي حلب وَ المؤسف أنّنا لم نعثر عَلَى تفسير سورة الفتح وَ إنما كان كل مَا حصلنا عَلَيْهِ هُوَ المقدمة. وَ لا ريب فِي أن الأوراق الَّتِي تلت المقدمة قد فقدت من المخطوطة المذكورة.

وَ إِلَى جانب هٰذِهِ المؤلفات في علم التّفسير الَّتِي وَصفها مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ عثرنا عَلَى الأثر الثاني فِي هٰذِهِ الموضوع وَ هُوَ لإبراهيم أوپياتش (Ibrāhīm Opijač) الَّذِي ألّف حاشية عَلَى ديباجة تفسير البيضاويّ[٤٢٨].

وَ لم يعثر عَلَى هٰذِهِ الحاشية حَتَّى سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م حينما اكتشفها مُحَمَّد الخانجي (Mehmed Handžić) فِي مكتبة قَره گوز بك (Karađoz-beg) فِي مدينة موسْتار[٤٢٩]. وَ يفسر أوپيَاتْش فِيهَا كلمة كلمة معتمدًا

---

[٤٢٧] وَرقة رقم B ٢ من المخطوطة.

[٤٢٨] مكتبة الغازي خُسْرو بك، رقم المخطوطة ٤٠٠٦، يحتوي عَلَى ٢١ وَرقة.

[٤٢٩] مجلّة غلاسنيقْ – العدد ١٢، ص ٦٢٤، ١٩٣٥ م.

عَلٰى المصادر المختلفة وَ ذاكرًا آراء علماء التفسير وَ اخْتِلَافاتهم، وَ نضرب مثلًا وَاحدا من هٰذِهِ الحاشية: حينما يبدأ البيضاوي ديباجته بالبسملة وَ الثناء عَلٰى النبي – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ يأتي بالآية الكريمة:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ①﴾[430]. وَ يفسر أُوپِيَاتْش ذٰلِكَ بالكلمات التالية:

"وَ تفسير الْعَالَمِيْن بالثّقلين، إذ ليس له إنذار الملك، وَ إمّا الجنّ فقد وَقع الإتفاق عَلٰى أنهم مكلّفون بالشّرائع وَ أن الكافر منهم يعذّب بجهنم لقوله – تعالٰى -: ﴿وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ⑬﴾[431] ، وَ إن اخْتلف فِي دخول المؤمنين منهم الجنة."[432]

وَ قليلًا مَا يعرض إبراهيم أُوپِيَاتْش رأيه الشخصي فِي المسائل المختلفة بل يكتفي بعرض آراء العلماء وَ الرأي الراجح فِي موضوع ما، وَ هُوَ يمدح البيضاوي، وَ خاصة فِي المقدمة، وَ حين يقول البيضاوي: عدم كفاءتي تمنعني أن أقوم بِهٰذَا العمل[433]، يعلق أُوپِيَاتْش عَلَيْهِ قائلًا.

---

[430] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة الفرقان، الآية ١.

[431] الْقُرْآنُ الكريمُ، سورة السّجدة، الآية ١٣.

[432] وَرقة B ٣ – A ٤.

[433] وَرقة B ١.

"وَ هٰذَا غاية التواضع لنفسه النفيسة، كما هُوَ دأب أولي الفضائل الجليلة وَ الكمالات الجزيلة من العلماء الفضلاء وَ الفحول الصلحاء، لا العجب وَ الحسد وَ التصدر بالهينة كما نشأ فِي عصرنا هٰذَا من بعض فضلاء الجهال، وَ إلَّا فهيهات مثل البيضاوي بيّض الله – تعالٰى – وجهه فِي التحقيق وَ بيان طريقة اليقين وَ التدقيق."[٤٣٤]

وَ يتبيّن لنا أن المؤلّف لم يكتب هٰذِهِ الحاشية بدافع النّقد أو بغرض المناقشة أو تصحيح الأخطاء، وَ إنّما يكتبها إعجابًا بتفسير البيضاوي محب، وَ يقول فِي المقدمة أنه قرأ تفسير البيضاوي عَلٰى طلابه ابتداءًا من العاشر من شهر محرّم سنة ١١٢٤ ﻫ / في الثامن عشرمن فبراير ١٧١٢ م وَ منذ ذٰلِكَ الوقت بدأ يفكر فِي كتابة هٰذِهِ الحاشية.[٤٣٥]

وَ سوف نكتفي بِهٰذَا القدر من دراستنا للّذين ألفوا فِي علم التفسير فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ خلَال الفترة الّتِي ندرسها، وَ لقد ذكرنا خلَال هٰذِهِ الدّراسة السّريعة القصيرة شخصيتيْن فقط كتبًا فِي هٰذَا الموضوع، وَ ليس معنٰى ذٰلِكَ انه لم يكن هناك من مفسرين سواهما وَ لكن هٰؤُلَاءِ قد مزجوا بين علم التفسير وَ علم التصوف وَ لِذٰلِكَ أرجأنا ذكرهم إِلٰى دراستنا لعلم التصوف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

---

[٤٣٤] وَرقة B ١٨.

[٤٣٥] وَرقة B ١.

التأليف فِي علم الحديث

لَا بدّ لنا من أن نقرّر، فِي بداية هٰذَا الفصل، أن التّأليف فِي علم الحديث قد بقي نادرًا بين علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فلسنا نعرف فِي هاتين المنطقتين أكثر من خمسة مؤلّفين، وَ فِي هٰذَا الفصل نتناول بالتّفصيل أحد هٰؤُلَاءِ الكتّاب وَ آثاره فِي الموضوع وَ هُوَ مُحَمَّد الخانجي الَّذِي يستحقّ أن نعدّه بين المحدثين، أمّا الباقون، فسوف نكتفي بذكر أسمائهم وَ مؤلّفاتهم لأنّهم عنوا بالعلوم الأخرٰى أكثر من عنايتهم بعلم الحديث.

وَ أول كتاب عثرنا عَلَيْهِ يتناول الأحاديث الشّريفة هُوَ "خواتم الحكم" لِعلاءالدّين عَليّ دمده (‘Alā’ud-dīn ‘Ali Dede) الَّذِي ألّف هٰذَا الكتاب سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ م، لٰكنّه اختار الاحاديث الصوفية وَ لوّنها بألوان الصوفية لِذٰلِكَ أرجأنا دراسته وَ الحكم عَلَيْهِ إِلٰى الفصل الخاص بالتصوف الإسلامي، وَ كثيرًا مَا يعثر الباحث فِي أحاديث كثيرة مفسّرة فِي كتب الوعظ مثل "المنيرة" لحسن كافي پْروشْتْشاق، وَ "أنيس الواعظين" لزياء الدين بن مصطفٰى الموستاري، وَ لٰكن الحديث ليس موضوعًا أساسيًا فِي هٰذِهِ الكتب بل هُوَ وَسِيلَة إِلٰى الغاية المبتغاة وَ هِيَ وَ الوعظ وَ الإرشاد، وَ سوف نتناول هٰذِهِ الكتابين فِي حديثنا عن الوعظ.

وَ لَقَد اشتهر فِي علم الحديث حسن الْبُوسنَوِيّ وَ ابنه أمين وَ لٰكن مؤلّفاتهما لم تكشف عنها النّقاب بعد وَ إنّما نجد ذكرها فِي المصادر فقط. وَ معنٰى ذٰلِكَ أن المؤلّف الْبُوسنَوِيّ الوحيد الَّذِي ألف فِي هٰذَا الموضوع، هُوَ المرحوم مُحَمَّد الخانجي الَّذِي صنّف أربعة كتب فِي هٰذَا الموضوع[٤٣٦]، وَ سوف ندرس كلًّا منها عَلٰى حدة:

١- شرح تيسير الوصول إلٰى جامع الأصول:

وَ هٰذَا الكتاب كما يتّضح من عنوانه يمثّل شرحًا عَلٰى تيسير الوصول إلٰى جامع الأصول للشيخ عبد الرحمن بن عَلٰى المعروف باسم السرايي الشيباني. وَ كتاب الشيباني هُوَ الصورة المختصرة لكتاب "جامع الأصول لأحاديث الرّسول" لِابْن الأثيرِ. وَ لقد جمع ابن الأثير فِي كتابه هٰذَا أحاديثه من كتب السنة المشهورة. وَ كان هٰذَا الكتاب سببًا فِي ظهور مؤلفات كثيرة وَ أفضلها – فِي رأينا – كتاب تيسير الوصول إلٰى جامع الأصول للشيباني. وَ يبدأ الخانجي كتابه. بمقدمة يتناول فِيهَا كلمة "الحديث" وَ مَا تدل عَلَيْهِ من معان، يليها تفصيل لصنوف المحدثين الَّذِينَ يمكن الإعتماد عليهم وَ أوْلئك الَّذِينَ لايمكن الإعتماد عليهم. وَ انقسم كتابه حسب ترتيب الحروف الْعَرَبِيَّة وَ ذٰلِكَ حسب الموضوعات، مثلًا: تحت حرف الألف نجده يتناول

---

٤٣٦ إلٰى جانب ذٰلِكَ كتب بِاللُّغَةِ اليوغسلافيّة عدّة أبحاث فِي هٰذَا الموضوع نشرها فِي الصّحف وَ المجلّات الإِسْلَامِيَّة كانت تصدر حينذاك.

الموضوعات مثل امام، السلام، أمر بالمعروف، وَ تحت حرف الباء يتكلم عن البخل، وَ البنيان، وَ البر... إلخ.

وَ إنّنا لَنجد من الضّروريّ أن نشير إلٰى ضخامة هٰذَا العمل الَّذِي قصد الخانجي اتمامه، فالجزء الأَوّل من "تيسير الوُصُول" يحتوي عَلٰى أربعمائة وَ ست صفحات، لكنه لم يكمل فِي الأحاديث الَّتِي تبدأ موضوعاتها بحرف الألف[437]، بل نقل شيئًا منها فِي الجزء الثاني من تيسيره حيث بدأ فِيهِ بحرف الهاء ثم أدركه الموت قبل أن يتمّه.

وَ عندما يتناول الخانجي موضوعًا من هٰذِهِ الموضوعات فهو يوّضحها وَ يفسّرها من جميع الوجوه، وَ هُوَ يتناول مفهومي – الإمام وَ الإِسْلَام – ثمّ يقارن بينهما وَ يدخل فِي المسائل الإعتقادية مستندًا دائمًا إلٰى الأصول الشرعية المتينة، مثال ذٰلِكَ قوله فِي "تيسير الوصول": "عن عائشة رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –: "من عمّر أرضًا ليست لأحد فهو أحق بِهَا"، قال عدوة: "قضٰى به عمر فِي خلافته رضي الله عنه، أخرجه البخاري".

---

[437] فِي الجزء الأَوّل من كتابه تناول خمسة وَ ثلاثين وَ مِائة من الأحاديث. وَ فِي الجزء الثّاني (غير مكمل) ذكر سبعة وَ تسعين من الأحاديث الشّريفة، وَ مجموع الأحاديث المذكورة (٢٣٢)، وَ فِي مكتبة الغازي خُسْرو بك وَ جدنا مخطوطتين من هٰذَا الكتاب: الأولٰى تحت رقم ٢٠٣ يحتوي عَلٰى ٢٠٣ صفحة وَ الثّانية تحت رقم ١٦٢ يحتوي عَلٰى ١٣٢ صفحة.

وَ يفسّر الخانجيّ بعد ذٰلِكَ هٰذَا الحديث فيقول:

"الكلام عَلَيْهِ من وَ جوه: الْأَوَّل: سلف ذكر عائشة فِي الفصل الثاني من الباب الثاني من كتاب الإيمان وَ سبق ذكر عمر فِي الفصل الثّاني من الباب الْأَوَّل من كتاب الإيمان، وَ أمّا عدوة فهو أبو عبدالله عدوة بن الزبير بن العوّام بن خويلد بن الأسد القرشيّ التّابعيّ الجليل أحد فقهاء المدينة الستّة المشهورين، قال ابن شهاب: "كان عدوة بحرًا لا يكدر"، قال بن سعد: "كان ثقة كثير الحديث فقيهًا عالمًا ثبتًا مأمونًا"... الرّابع[٤٣٨]: فِي حل معناه: فِيهِ دليل عَلٰى مشروعية إحياء الموات وَ أن المحيي يملكه كما يملك الرّجل مَا اشتراه وَ ظاهره أنه لا يشترط فِي ذٰلِكَ إذن الإمام، وَ إِلَيْهِ ذهب الجمهور، وَ قال أبو حسنينه رضي الله عنه: "لَا بدّ من إذن الإمام مطلقًا."، وَ خالفه فِي ذٰلِكَ صاحباه أبو يوسف وَ مُحَمَّد، وَ قال مالك: "لا يشترط إذن الإمام فِي فيافي الأرض وَ مَا بعد من العمران، فإن قرب فلا يجوز إحياؤه إِلَّا بإذن الإمام."، وَ قال أشهب وَ كثير من المالكيّة: "يحييها من شاء بغير إذنه." وَ استحبّ أشهب إذنه لِئَلَّا يكون فِيهِ ضرر عَلٰى أحد، وَ الظّاهر مع من لا يشترط إذن الإمام، وَ هُوَ قول الشّافعي وَ أحمد وَ داوود وَ إسحاق وَ غيرهم، وَ استدلّ الجمهور أَيْضًا بالقياس عَلٰى ماء البحر وَ النهر وَ مَا صيد من طير وَ حيوان فإنه لا يشترط فِي ذٰلِكَ

---

[٤٣٨] انتقلنا إِلٰى هٰذِهِ النقطة الرّابعة لِأَجْل أهمّيّتها الخاصّة بالبحث، وَ تكلّم فِي نقطتي الثانية وَ الثّالثة عن مصدر الحديث وَ عن كلمات نادرة الاستعمال.

إذن الإمام اتفاقًا. قال أبو يوسف فِي كتاب الخراج: "كلّ من أحيا أرضًا مواتًا فهي له"، وَ قد كان أبو حنيفة رحمه الله تعالٰى يقول: "من أحيا أرضًا مواتًا فهي له إذا أجازه الإمام، وَ من أحيا أرضًا مواتًا بغير إذن الإمام فليست له وَ للإمام أن يخرجها من يده..." قيل لأبي يوسف: "مَا ينبغي لأبي حنيفة أن يكون قد قال هٰذَا إلَّا من شيء لأن الحديث قد جاء عن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – أنّه قال: "من أحيا أرضًا مواتًا فهي له.". فبيّن لنا ذٰلِكَ الشيء فإنّا نرجو أن تكون قد سمعت منه فِي هٰذَا شيئًا يحتجّ بِهِ."، قال أبو يوسف: "حجّته فِي ذٰلِكَ أن يقول الإحياء لا يكون إلَّا بإذن الإمام، أ رأيت رجلين أراد كلّ منهما أن يختار موضعًا وَاحدًا وَ كلّ وَاحد منهما منع صاحبه أيهّما أحق به؟ أ رأيت أن أراد رجل أن يحيي أرضًا بفناء رجل وَ هُوَ مقرّ أن لا حقّ له فِيهَا فقال لا تحييها فإنها بفنائي وَ ذٰلِكَ يضرني، فإنما جعل أبو حنيفة إذن الإمام فِي ذٰلِكَ لفهمنا فصلًا بين الناس."[439]

وَ من هٰذَا النص يظهر لنا قيمة هٰذَا العمل وَ مكانته المرموقة بين كتب الحديث وَ لم يكتف الخانجي بجمع الأحاديث النبوية الشريفة وَ ذكر أسنادها وَ درجة ثقتها، بل يستعمل علمه الغزير فِي جميع العلوم فِي معالجة الموضوع، أما كتابه الثاني فِي الحديث، فهو:

[439] وَرقة رقم B ١٣٧ – A ١٣٩ من المخطوطة.

٢- رسالة بستان المحدثين[٤٤٠]:

وَ موضوعها: التعريف بالمحدثين وَ أعمالهم، وَ قد بدأها بالحديث عن الموطّإ وَ حياة صاحبه وَ رأي العلماء المتقدمين فِي قيمتها، وَ يقول الخانجي: أن عدد المستمعين حينما ألقى مالك محاضرة من هٰذا الكتاب كان يبلغ ألفًا من المستمعين وَ من بينهم علماء الحديث وَ الفقه وَ التصوف. وَ يتكلّم بعد ذٰلِكَ عن مدرسة مالك وَ انتشار مذهبه فِي المغرب الأندلسي، لٰكن هٰذِهِ الرسالة غير كاملة مع الأسف، مثل سابقتها فلا نعرف تأريخ كتابتها لأن التأريخ، عادة، يأتي فِي آخر الكتاب. وَ لسنا ندري هل أراد الخانجي أن يترك رسالته هٰذِهِ عملًا مستقلًا أو يضمها كتابًا كبيرًا هُوَ "مجمع البحار فِي تاريخ العلوم وَ الأسفار" وَ يبدو لنا من خلال قراءتها أن المؤلف أراد أن يدخلها فيه، لأن الشبه ظاهر بينها وَ بين كتابه المذكور. أما رسالته الثالثة فِي الحديث فهي:

٣- مجموعة من الأحاديث فِي آداب المجتمع[٤٤١]: وَ هٰذِهِ المجموعة غيركاملة أيْضًا وَ فِيهَا تسعة وَ خمسون حديثًا نبويًا شريفًا وَ قد رتب

---

[٤٤٠] مكتبة الغازي خُسْرو بك (Gazi Husrev-beg)، مخطوطة رقم ١٣٨، يحتوي عَلٰى اثْنيْن وَ عشرين صفحةً.

[٤٤١] مكتبة الغازي خُسْرو بك (Gazi Husrev-beg)، مخطوطة رقم ١٣٨، يحتوي عَلٰى ست عشرة صفحةً.

المؤلف الأحاديث حسب الموضوعات، فنجد أولًا الأحاديث الّتِي تتناول الأكل، حسن السلوك وَ السفر، زيادة المرض... إلخ. وَ يذكر سندًا كاملًا لكل حديث يورده فِي الرسالة، ثم يتكلم عن درجة ثقته، لكنه لم يفسّرها كما فعل فِي "تيسير الوصول إِلَى جامع الأصول" وَ لِذٰلِكَ تنحصر أهمية هٰذَا الكتاب فِي جميع الأحاديث النبوية الشريفة وَ ترتيبها حسب الموضوعات.

وَ لا نجد فِي الرسالة تاريخ كتابتها، لكن وَ ضعها فِي المخطوطة المذكورة[٤٤٢] بعد – بستان المحدثين – مباشرة يدل دلالة وَاضِحة عَلَى أنها ألفت بعد هٰذَا الكتاب.

وَ سوف نتناول فيما يلي كتابه الرّابع فِي الموضوع، وَ هو:

٤- نقد بعض الكتب الدّينيّة وَ بيان عدم جواز الإعتماد عَلَى مَا فيها[٤٤٣] – وَ ينقد الخانجي فِي هٰذَا الكتاب مَا جاء فِي بعض الكتب الحديثة وَ ينصح الناس بعدم الإعتماد عليها، وَ يبدأ رسالته هٰذِهِ بالكلمات التالية: "هٰذِهِ فصول أكتبها إِلَى إخواني ممن تصدّى لنشر الدين بين الناس بالتعليم وَ التدريس وَ الوعظ وَ الإرشاد، أحسن الله لي فِي الحال وَ المآل! وَ رجائي منهم أن يتعلّموها بصدر رحيب، وَ أن

---

[٤٤٢] أي فِي المخطوطة رقم ١٣٨.

[٤٤٣] طبع الكتاب فِي الأعداد الأربعة السّابقة من مجلة غلاسنيق، سنة ١٩٣٤ م، يحتوي عَلَى ثلاث عشرة صفحة.

يتفكروا فِيهَا بعقلهم السديد وَ إني لا أبريء نفسي عن الخطأ وَ النسيان، فإنهما لازمان لنوع النسيان، بل مَا كان فِي هٰذِهِ الفصول صحيحًا مستقيمًا، فهو من الله – تعالٰى –، وَ مَا كان غشًا سقيمًا، فهو من نفس[٤٤٤].

وَ يتناول بعد ذٰلِكَ طريقة جمع الأحاديث النبوية الشريفة وَ حذر العلماء الأوئل فِي اختيار هٰذِهِ الأحاديث وَ قبولها، وَ مع ذٰلِكَ ظهرت الكتب الَّتِي لا يمكن الإعتماد عَلٰى مَا فيها، وَ يرٰى الخانجي ضرورة فصل هٰذِهِ الكتب عن الكتب الأصلية قائلًا:

"وَ قد كان من المهم تصنيف ذٰلِكَ وَ افراده بالتدوين مع تعداد الكتب المزيّفة وَ المنتقدة ليراجع لدٰى الحاجة من كان فِي علمه تصور أو تقصير ممن كابت طبيعتهم وَ صلحت نيتهم، فاحسنوا الظن بكل أحد."[٤٤٥]

وَ يذكر بعد ذٰلِكَ الأضرار الَّتِي تصيب من لا يفرّق بين الكتاب الأصيل وَ المزيّف منها:

---

[٤٤٤] غلاسنيق، العدد الأوّل، ص ١، بلغراد ١٩٣٤ م.

[٤٤٥] نفس المصدر، ص ٣.

- نسبة مَا لم يقل به الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – إِلَيْهِ، فيدخل القائل بذٰلك فِي زمرة الكاذبين عَلَيْهِ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –.[446]

- تشويه وَجه الدّين بالأكاذيب وَ الخرافات، مثل أن الأرض عَلٰى حوت، وَ الحوت عَلٰى قرن ثور وَ الثور عَلٰى الصخرة وَ الصخرة عَلٰى عاتك الملك وَ الملك فِي الظلمة[447]... إلخ.

- وَ منها أن الإشتغال بِهٰذِهِ الكتب الضعيفة يمنع الإنسان عن الإشتغال بالكتب الأصيلة إِلٰى غير ذٰلِكَ.

وَ يعرض بعد ذٰلِكَ بعض الأحاديث المنتقدة مثل هٰذَا الحديث:

"ذكر الله شفاء القلوب" – رواه الدّيلمي فِي مسند الفردوس بإسناد ضعيف.[448]

وَ قال الخانجي بِهٰذَا بعد أن راجع المصادر وَ ثبت له ضعف الحديث، قال:

---

[446] "من كذب علي معمّدًا فليتبوّأ مقعده من النّار!"

[447] وَ الحقيقة أن مثل هٰذِهِ الكتب قد انتشرت انتشارًا كبيرًا وَ خاصّة فِي البيئات غير الإِسْلَامِيَّة وَ لقد استعمل أعداء الإِسْلَام هٰذِهِ الطّريقة باعتبارها وَسِيلَة ناجحة إِلٰى هدم الإسلام، وَ لا شكّ أن مثل هٰذِهِ الكتب كانت كثيرة فِي الْبُوسْنَةِ لأن بقاياها لا تزال موجودة وَ قد كان الخانجي من أوائل الَّذِينَ حاربوا هٰذِهِ الكتب الدّينيّة.

[448] غْلَاسْنِيقْ، العدد الثّاني، ص ٦٧، بلغراد ١٩٣٤ م.

"قال الحافظ السّيوطي[٤٤٩] فِي مقدمة كتابه الكبير الَّذِي جمع فِيهِ من الأحاديث الوقار وَ سمّاه "جمع الجوامع" كلّ مَا عزي للديلمي فِي مسند الفردوس فهو ضعيف، فيستغنٰى بالعزو إِلَيْهِ عن بيان ضعفه."

وَ يتناول بعد ذٰلِكَ القواعد العامّة فِي اختيار الأحاديث النّبويّة الشّريفة، فيقول:

"أمّا الإعتماد فِي رواية الأحاديث عَلٰى مجرد رؤيتها فِي كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث، أو فِي خطب ليس مؤلفها كَذٰلِكَ، فلا يحل ذٰلِكَ وَ من فعله عذر عَلَيْهِ التعذير الشّديد، وَ هٰذَا حال أكثر الخطباء، فإنهم بمجرد رؤيتهم خطبة فِيهَا أحاديث حفظوها وَ خطبوا بها من دون أن يعرفوا إن كان لتلك الأحاديث أصل أم لا، فيجب عَلٰى حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذٰلِكَ."

وَ بعد ذكر الخطباء يلتفت إِلٰى الَّذِينَ لا يميّزون الحقّ من الباطل، وَ يستغرب من أكثرية النّاس الَّذِينَ يثقون بمثل هٰذِهِ الخطب وَ الأقوال، فيقول:

"وَ ألّف العلماء كتبًا مستقلة فِي التّحذير من القصاص وَ رواياتهم وَ كتبهم، فألّف الحافظ أبو الفرج بن الجوزي كتاب القصاص وَ

---

[٤٤٩] وَ يقصد به جلال الدّين السيوطي.

المذكرين، وَ ألف الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم العراقي كتابه الباعث عَلٰى الخلاص من حوادث القصاص، وَ ألف الحافظ جلال الدين السيوطي كتابه "تحذير الخواص من أكاذيب القصاص"."

وَ يحذر الخانجي بعد ذٰلِكَ من الكتب الَّتِي لا يمكن أن نتقبّل الأحاديث الواردة فيها، وَ من هٰذِهِ الكتب:

١- أربعون حديثًا لمُحَمَّد بن بكر العصفيري، الصّحيح منها ثلاثة فحسب.

٢- أربعون حديثًا لأبي نصر مُحَمَّد بن عليّ الموصليّ، وَ يقول بضعف جميع هٰذِهِ الأحاديث كَذٰلِكَ.

٣- أربعون حديثًا لابن مُحَمَّد بن زيد بن الحسن الموسَوِيّ، فجميع هٰذِهِ الأحاديث عَلٰى حدّ تعبيره غير صحيحة.

٤- مسائل عبدالله بن سلام – وَ يقول الخانجي أن هٰذَا الكتاب عَلٰى الرّغم من عدم صحّته كثير الانتشار وَ يقارنه بكتاب "كرك سؤال" (أربعون سؤالًا) بالتُّرْكِيَّة، وَ يقول أن هٰذَا الكتاب منتشر بين السّفهاء فقط.

٥- نزح المجالس وَ منتخب النّفائس – للسّنوديّ. ملأ المؤلّف كتابه بالأقوال وَ القصص الَّتِي ليس لها علاقة بأقوال الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –.

وَ يذكر الخانجي بعد ذٰلِكَ الكتب الَّتِي يجب الإعتماد عَلَيْهَا وَ هي: صحيح البخاري، وَ صحيح مسلم، وَ رياض الصالحين للنووي، الطريقة المحمدية للإمام البركوي[٤٥٠]، وَ الأحاديث الَّتِي ذكرها الغزالي فِي – إحياء علوم الدين... إلخ.

وَ كان غرض الخانجي الأساسي من كتابة هٰذِهِ الرسالة هُوَ تمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الضعيفة، وَ يتبيّن لنا من خلال أعماله أنه من العارفين فِي هٰذَا الموضوع، وَ لا غرابة فِي ذلك حينما نعرف أنه نال عدّة إجازات من علماء الحديث فِي القاهرة وَ مكة وَ المدينة المنورة.

بقي أن نشير إِلَى أن الخانجي قد ألف مجموعة كتب بالْعَرَبِيَّة وَ الْبُوسْنَوِيَّة وَ كان غرضه منها أن ينتفع المسلمون بها، وَ ذٰلِكَ لأن الأكثرية الساحقة من هٰؤُلاءِ لم يجيدوا الْعَرَبِيَّة، وَ من هٰذِهِ الكتب الَّتِي الفها لكلتا اللغتين "راحة الأرواح"[٤٥١] غير أنه مات شابًا فلم يستطع إتمام عمله الكبير.

---

[٤٥٠] يقول الخانجي أنّ هٰذَا الكتاب من أحسن الكتب فِي ميدان الوعظ وَ الإرشاد.

[٤٥١] المطبعة الكررواتيّة، زغرب ١٩٤٢ م.

التّأليف فِي أصول الفقه

ننتقل الآن إِلى موضوع آخر يتناول مدى مساهمة علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي ميدان الفقه وَ أصول الفقه، وَ الآثار الفقهية فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ ممّا هُوَ جدير بالذكر أنها كثيرة جدًا لكننا سنتناول منها أولًا مَا اختص بأصول الفقه. وَ لقد كان الرأي السائد زمنًا طويلًا أن هٰذِهِ الآثار قليلة العدد، لكن الدراسات الحديثة أثبتت خطأ هٰذِهِ النظرية، اذ اكتشفت مجموعة كتب فِي أصول الفقه، وَ فِي السطور التالية نتناول أشهر هٰذِهِ المؤلفات وَ نذكر أصحابها.

وَ أوّل كتاب عثرنا عَلَيْهِ فِي هٰذَا الموضوع هو: "سمت الوصول إِلى علم الأصول"[٤٥٢] لحسن كافي پْروشْتْشاق (Ḥasan Kāfī Pruščak)، فالكتاب فِي الحقيقة نسخة مختصرة للكتاب "منار الأنوار" للنسفي وَ يبدو من مقدمته أن المؤلف قد أتمّ تأليفه فِي نهاية سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م وَ يقع الكتاب فِي مقدمة وَ بابين وَ خاتمة، وَ فِي الجزء الأول منه يتناول مصادره، وَ فِي الجزء الثاني الأحكام وَ الواجبات، وَ يتكلم فِي الخاتمة عن الشروط وَ الأوضاع الَّتِي يمكن تطبيق الأحكام الشريعة عَلى أساسها فِي حياة الناس، وَ عَلى الرغم من أن "سمت الوصول إِلى علم الأصول" لا يتجاوز خمسًا وَ عشرين صفحة تناول المؤلف فِيهَا مسائل عَلى أصول الفقه الأساسية، وَ يتميّز الكتاب بالوضوح الكامل دونما

---

[٤٥٢] مكتبة الغازي خُسْرو بك (Gazi Husrev-beg)، مخطوطة رقم ٣٤٠٦، يحتوي عَلى خمس وَ عشرين صفحةً.

غموض أو الغاز، نادرًا مَا تخلو من مثلهما كتب الفقه، وَ يرجع ذٰلِكَ إِلٰى غاية الكتاب نفسه وَ هِيَ تسهيل هٰذَا العلم عَلٰى المبتدئين فيه، وَ قدرة المؤلف عَلٰى أن يحيط بالموضوع وَ يعرضه بأسلوب سهل من دون لبس أو تطويل، وَ يجدربنا فِي هٰذَا المكان أن ندعم حكمنا بما قال كاتب چلبي[٤٥٣]:

"وَ إن كان "منار الأنوار" أوسع الكتب فِي علم الأصول وَ أكثرها انتشارًا فإننا نجد فِيهِ الأشياء الغامضة الزائدة، وَ لقد شخّص هٰذَا الكتاب حسن كافي پْروشْتْشاق[٤٥٤] (Ḥasan Kāfī Pruščak)، وَ رتّبه أحسن ترتيب فِي كتابه المسمٰى "سمت الوصول".[٤٥٥]

وَ بقي لنا أن نذكر أن حسن كافي پْروشْتْشاق كتب شرحًا عَلٰى هٰذَا الكتاب وَ زوّده بالتوضيحات وَ الأمثلة الكثيرة، وَ قام بِهٰذَا العمل عَلٰى أثر طلب من علماء روميليا[٤٥٦] (Rumelija).

---

٤٥٣ أحد أشهر علماء الأتراك.

٤٥٤ سُمّي پروشْتْشاق نسبة إِلٰى مدينة پروساتْسْ (Prusac).

٤٥٥ كشف الظّنون، ٢، ص ١٨٢٣.

٤٥٦ روميليا (Rumelija) اسم أطلقه الْعُثْمَانِيُّونَ عَلٰى إقليم يشمل تْراكيا (Trakija) وَ مقدونيا (Makedonija) وَ غيرها من البلاد الواقعة بين البلقان وَ البحر الأسود وَ بحري مرمرة (Marmara) وَ إيغييه (Egeja) وَ سلسلة جبال اليونان.

وَ لا ريب فِي أن مصطفٰى أيّوبوفيتْش[٤٥٧] (Muṣṭafā Ejjūbović) فاق علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك جميعًا فِي هٰذَا الموضوع، وَ له ثلاثة مؤلفات فِي علم الأصول وَ سوف نقف فِي بحثنا هٰذَا عند هٰذِهِ الكتب لأهمّيّتها:

١ـ مفتاح الحصول لمرآة الأصول[٤٥٨] فِي شرح مرقاة الوصول[٤٥٩] – بدأ المؤلّف بكتابه فِي الرّابع عشر من محرم سنة ١١٠٣ هـ / في السابع عشر من اكتوبر سنة ١٦٩١ م وَ أتمّه فِي السّابع عشر من رجب سنة ١١٠٤ هـ / فِي الرّابع من ابريل سنة ١٦٩٢ م.

وَ لَقَد أخطأ بعض الباحثين الْيُوغُسْلَافِيِّين[٤٦٠] حين زعموا أنّه ألّف هٰذَا الكتاب وَ هُوَ طالب بجامعة إِسْطَنْبُول، فالحقيقة أنه ألّفه وَ هُوَ مدرس فِي إحدٰى المدارس[٤٦١] هُناك. وَ يقول أيّوبوفيتش فِي مقدمة

---

[٤٥٧] مصطفٰى أيّوبوفيتْش: أشهر مؤلف بالْعَرَبِيَّة فِي منطقة الهرسك. وُلِدَ فِي مدينة موستار سنة ١٠٦١ هـ / ١٦٥١ م. توفّي سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م.

[٤٥٨] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٨٧١، يحتوي عَلٰى ٣١٩ صفحة.

[٤٥٩] مرقاة الوصول: كتبه وَ شرحه مُحَمَّد بن فرمر بن علي ملا خرف، كشف الظّنون، ٢، ص ١١٩٩، طبع الكتاب مرّتين فِي إِسْطَنْبُول.

[٤٦٠] وَ هم أوبيياتش وَ الخانجي وَ شعْبانوفيتْش (Opijač and Handžić and Šabanović) وَ يبدو أن أوبيياتش وَقع فِي هٰذَا الخطإ أوّلًا ثمّ تبعه آخرون دون تحرّ وَ تدقيق.

[٤٦١] عيّن مدرّسًا قبل هٰذِهِ السّنة.

هٰذَا الكتاب أن غاية تأليف "مفتاح الوصول" تفسير مَا جاء فِي "مرقاة الوصول" وَ شرحه، كما أشار إِلٰى المصادر وَ المراجع الَّتِي اعتمد عليها، يقول فِي ذٰلِكَ:

"قضيت أوقاتي من الشّهور وَ السّنين بمطالعة كتب الفقه بضع سنين، وَ كان سنّي إِذْ ذاك مَا بين عشرين وَ ثلاثين فاستفدت منها فوائد تهتزّ لإدراكها الأذهان."[٤٦٢]

وَ هٰذَا الكتاب الَّذِي يحتوي عَلٰى ٦٤٨ صفحة يناقش فِيهِ أيّوبوفيتْش عمل ملّا خسرف (Mullā Ḫusref) وَ لا يسلك فِيهِ توضيح كل كلمة فِي الكتاب بل يختار منه الأشياء الَّتِي تحتاج إِلٰى مزيد من التوضيح وَ الأمثلة، كما يعرض خلاله المبادئ الأساسية لأصول الفقه.

وَ كتابه الثاني فِي هٰذَا الموضوع:

٢- فتح الأسرار[٤٦٣] – وَ هُوَ أكبر – حجمًا من الكتاب الأول، وَ يمثل شرحًا عَلٰى كتاب "المغني فِي أصول الفقه" لجلال الدّين الخبازي، وَ يعد المقدمة الَّتِي لا تستغرق أكثر من صفحتين ينتقل المؤلف إِلٰى الموضوع مباشرة وَ يتناول الواجبات وَ المحرمات وَ مَا يتعلق بهما

---

٤٦٢ مفتاح الحصول، ص ٢.

٤٦٣ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٤٠٢٧، صفحاتها ٣٧٧ وَرقة، وَ هِيَ النّسخة الوحيدة المعروفة لِهٰذَا الكتاب.

كما يدرس مصادر الشريعة الإسلامِيَّة، وَ هٰذِهِ المصادر. حسب زعمه، تنقسم إلٰى ثلاثة أقسام: القرآن الكريم، الحديث، الإجماع، أما القياس فلم يعتبره مصدرًا مستقلًا وَ إنّما عده مشتقًا من هٰذِهِ المصادر.

وَ لقد أكّد أيوبوفيتش بِهٰذَا الكتاب أنه شارح ممتاز إذ يساعد القارئ عَلٰى أن يفهم النصوص آتيا بأمثلة وَ توضيحات كثيرة، وَ يشير ذٰلِكَ إلٰى إطلاع المؤلف الواسع عَلٰى الموضوع الَّذِي يعرضه، كما كان عارفًا بأقوال العلماء حول هٰذِهِ الموضوعات، ينبّه إلٰى ذٰلِكَ فِي مقدمة الكتاب نفسه:

"ثمّ جمعت لشروحه مَا يذلّل صعابه وَ يحيط عن وَ جده فوائده نقابه، وَ أودعته فوائده نفيسه وشحت بِهَا كتب القدماء وَ فوائد شريفة سمحت بها أذهان الأذكياء."[٤٦٤]

وَ لا شكّ فِي أنه قد وَ فّق فِي ذٰلِكَ كل التوفيق وَ صدق هٰذَا الوعد إذ اضاف إلٰى الأصل توضيحات كثيرة وَ جعله بذلك أكثر وضوحًا وَ قربه إلٰى القارئ، ثم ننتقل إلٰى كتابه الثالث:

٣- منتخب الحصول فِي شرح منتخب الأصول[٤٦٥] – وَ الكتاب شرح لمنتخب مُحَمَّد بن مُحَمَّد عمر الإحسكافي حسام الدين، وَ بدأ بكتابته

---

[٤٦٤] مخطوطة رقم ٤٠٢٧، ص ٢.

فِي الأول من ربيع الأول سنة ١١٠٩هـ / فِي السابع عشر من سبتمبر سنة ١٦٩٧ م، وَ أتمّه فِي الثالث عشر من جمادي الأولٰى سنة ١١١٠هـ / فِي السابع عشر من نوفمبر سنة ١٦٩٨ م، كما يذكر هُوَ نفسه فِي آخر الكتاب[٤٦٦]، وَ لاحظنا أنه لا يعترض عَلٰى النّصوص الأصيلة، لٰكنّه يسعٰى إلّا يفوته شيء إلّا أوضحه. وَ عندما يتكلم المؤلف فِي المتخب عن حروف المعاني فِي خاتمة الكتاب، يقول أيوبوفيتش فِي شرحه:

"إنّما أُخّر هٰذَا الباب لأنّه فِي الحقيقة من النحو دون الأصول، لكنه لما تعلّق به بعض الأحكام الشّرعيّة أورده آخرًا تتميمًا للفائدة."[٤٦٧]

وَ بِهٰذِهِ الكتب الثلاثة فِي ميدان علم الأصول سجّل أيّوبوفيتْش اسْمه بالحروف الذّهبية بين علماء الْبُوسْنَة الّذِينَ ألّفوا فِي هٰذَا الموضوع، وَ السؤال يطرح نفسه: لماذا عني المؤلف بكتابة الشروح وَ لم يؤلف كتابًا مستقلًا فِي علم الأصول؟ وَ الإجابة عَلٰى هٰذَا السؤال ميسورة إذا عرفنا أن كتابة الشروح كانت ظاهرة مألوفة فِي ذٰلِكَ الزمان، وَ المؤلف عاش فِي الفترة الّتِي أجريت فِيهَا العلوم الْإِسْلَامِيَّة وَ نضب معين الإختراعات وَ الإبتكارات بل شغل المسلمون بتراثهم

---

[٤٦٥] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٨٥٨/١، يحتوي عَلٰى ١٤٩ صفحة.

[٤٦٦] منتخب الحصول، ص B ١٤٩.

[٤٦٧] نفس المصدر، ص B ١٣١.

القديم المجيد. وَ طبيعيّ أن هٰذِهِ الحالة انْعكست فِي حياة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الأدبيّة أيْضًا.

وَ من الآثار الَّتِي نشأت فِي تراب الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي علم الأصول نذكر "حداد الفصول"[٤٦٨] لأحد قضاة مدينة موستار، وَ هُوَ مصطفٰى صدقي قَره بك[٤٦٩] (Muṣṭafā Ṣidqī Karabeg) وَ الكتاب هُوَ الحاشية عَلٰى "مرآة الأصول شرح مرقاة الوصول" لملّا خسرف. وَ من الجدير بالذكر أن مصطفٰى أيوبوفيتش ألّف حاشية عَلٰى نفس الكتاب. وَ قد اختار المؤلف نصوصًا من كتاب ملّاخسرف ثم طفق يوضّحها أو يناقشها، وَ نراه تارة يدافع عما وَ رد فِي الكتاب من آراء أو يعترض عَلَيْهَا تارة آخرٰى، وَ يمضي المؤلف فِي عمله عَلٰى هٰذَا المنوال إِلٰى فصل: الحقيقة وَ المجاز، حيث أدركه الموت، وَ بقي الكتاب غير مكتمل، لكنه مع ذٰلِكَ يعطينا صورة وَاضِحة عن المؤلف وَ ثقافته الواسعة وَ مقدرتة فِي اللغة الْعَرَبِيَّة، وَ هُوَ يعلّل الكلمة من نواحيها جميعًا، يتناول تلفّظها وَ معناها الاصْطِلَاحيّ وَ اللُّغوِيّ، حَتّٰى يدخل فِي فلسفة اللُّغَة وَ لْنقرأ عَلٰى سبيل المثال كلامه عن مشكلة الكلمة وَ معناها:

---

[٤٦٨] طبع الكتاب فِي سراييفو (مطبعة دوليّة) سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م.

[٤٦٩] مصطفٰى صدقي قَره بك، تلقّٰى تعليمه الأوّل فِي موسْتار وَ تعليمه الأعلٰى فِي إِسْطَنْبُول وَ كان يدرس العلوم الدّينيّة فِي موسْتار عدّة سنين كما تولّٰى زمنًا قصيرًا وَظيفة قاضي المدينة، قتل سنة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٨ م فِي الاضْطِرابات السّياسيّة قبيل سقوط المدينة تحت الحكم النّمْساوِيّ.

"فإن المعاني بالنّظر إِلى المتكلم متقدمة عَلى الألفاظ، وَ إذا كانت بالنسبة للمخاطب متأخرة لأنه يأخذ المعاني من الألفاظ."[470]

وَ هُوَ يعين معنى الكلمة المقصودة فِي الجملة من دون اعتبار لمعناها اللغوي، وَ عَلى قول خسرف "وَ الشك لا يوجب زوال أصل اليقين" يقول المؤلف معللًا:

"المراد بالشك هنا الدليل الَّذِي يدل عَلى خلاف مَا يثبت بالدليل القطعي من غير أن يكون معادلًا له فِي القوة فيورث الشبهة فِي ثبوت مدلوله وَ لا يسقطه فِي الدلالة وَ الحجيّة لعدم مساواته إيّاه فِي القوة، وَ ليس المراد به المعنى اللغوي فإن الشك بمعنى التردد بين طرفي الحكم مناف لأصل اليقين."[471]

وَ يتّصف المؤلّف فِي الحاشية باعتداله فِي حكمه عَلى صاحب "المرقاة" وَ يعترض عَلَيْهِ فِي الأماكن الَّتِي تقتضيها الضّرورة، فبينما يقول خسرف: "فإقرار المنافق ليس إيمانًا" يعلّق قَره بك عَلى هٰذا فيقول: "الأحسن فِي التعبير أن يقول: "فالمنافق ليس مؤمنًا بإقراره."."[472]

أو عندما يتناول المؤلّف الأشياء الحسنة بذاتها وَ تفسيرها يقول:

---

٤٧٠ حداد الفصول، ص ٢٠.

٤٧١ حداد الفصول، ص ٤٢٩.

٤٧٢ حداد الفصول، ص ٣٢٧.

"كالزكاة فإنها أيْضًا ليست حسنة فِي ذاتها حقيقة." وَ يضيف قَره بَك (Karabeg) عَلٰى هٰذَا:

"هٰذَا محل بحث فإن الزكاة فِي نفسها إعطاء جزء من المال وَ تمليكه من يحتاج إِلَيْهِ فهي فِي نفسها إحسان وَ برّ وَ مساواة وَ إظهار الخلق الكريم وَ عمل بمقتضٰى الجود. وَ هٰذَا مما اتفق عَلٰى حسنة العقل وَ النقل وَ اعترف بمدح فاعله كل ذي عقل ممن لا يتدين وَ لا يتقيد بمذهب، فالظاهر أنها فِي نفسها حسنة."[٤٧٣]

لٰكن المؤلّف لا يدخل فِي مناقشة المسائل التافهة، كما فعل بعض كتاب الحواشي عَلٰى "المرقاة" بل يدافع عن المؤلف من هٰؤُلَاءِ الشرّاح وَ يعارضهم مثلما يفعل فِي هٰذَا الموضع:

"فأهل الإنصاف يعدّون مثل هٰذَا تسامحًا وَ لا يرونه محلًا للتخطئة وَ التصويب، وَ أهل التعصب ينتهزون الفرصة فِي مثل هٰذَا المقام فيرمون سهام التخطئة من قوس التعصب."[٤٧٤]

وَ سوف نكتفي بِهٰذَا القدر فِي دراستنا لعلم أصول الفقه فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ مع أنّنا نجد فِي بعض الصّحف وَ المجلّات دراسات وَ التفاتات قصيرة فِي هٰذَا الموضوع وَ قد آثرنا فِي تناولنا للموضوع أن نقف عند علماء ثلاثة من علماء الأصول وَ هم حسن كافي (Ḥasan Kāfī)، مصطفٰى أيوبوفيتْشْ

---

[٤٧٣] نفس المصدر، ص ٣٣٢.

[٤٧٤] نفس المصدر، ص ٤١.

(Muṣṭafā Ejjūbović)، وَ مصطفى صدقي قَره بَك (Muṣṭafā Ṣidqī Karabeg)، لكونهم ارْتفعوا عن الباقين بغزارة مادتهم وَ مقدرتهم فِي اللُّغَة الْعَرَبِيَّة، وَ جَوْدَة الأسلوب.

التّأليف فِي علم الفقه

ألّف علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي العلوم الفقهية أكثر من أي موضوع آخر، وَ ذٰلِكَ أمر طبيعيّ، لأن المسائل الَّتِي تناولها علم الفقه سواء أكانت تتعلق بالواجبات كالصلاة وَ الزكاة وَ الصوم، أم كانت تتعلق بأحكام الزواج أو الميراث وَ مَا يتعلق بهما، لها جذور عميقة فِي حياة الفرد وَ المجتمع معًا، وَ هٰذَا هُوَ السبب الرئيسي فيما نذهب إِلَيْهِ من أن الآثار الفقهية أكثر انتشارًا من الآثار الأخرٰى سواء أكان ذٰلِكَ فِي الْبُوسْنَةِ وَ حدها أم فِي العالم الإِسْلَامِيّ كله. وَ قبل أن نتناول الموضوع نودّ أن ننبه إِلٰى نقطة بالغة الأهمّيّة وَ هِيَ أن المؤلّفات الفقهيّة جميعها فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ألّفت فِي ضوء المدرسة الحنفيّة، وَ يرجع ذٰلِكَ إِلٰى أن مسلمي الْبُوسْنَة ينتمون إِلٰى المذهب الحنفيّ، وَ سوف ندرس فِي هٰذَا الفصل أشهر هٰذِهِ الكتب وَ الرّسائل، لأنّ الإحاطة بكلّ مَا ألّف فِي هٰذَا الموضوع يستحيل عرضه فِي هٰذَا الوضع وَ إنّما يستدعي دراسة خاصّة مستقلّة، وَ سوف نبذل جهدنا فِي أن نقدم صورة وَاضِحة عن العلماء الَّذِينَ كتبوا فِي هٰذَا الموضوع وَ

طريقة عرضهم للمادة وَ أفكارهم وَ اجتهاداتهم فِي الحالات المعينة. وَ سوف نقسّم هٰذا الفصل التقسيم التالي:

١- الآثار الَّتِي تتناول الشعائر الدينية،

٢- الآثار الَّتِي تتناول المسائل الفقهية البحتة،

٣- الآثار الَّتِي تبحث فِي الشريعة الإِسْلَامِيَّة،

الآثار الَّتِي تتناوَل الشّعائر الدّينيّة

وَ من أقدم هٰذِهِ الآثار "رسالة فِي الطّهارة"[٤٧٥] لسَلَامِي سرايليتْشْ (Selāmī Sarajlić)، فهٰذِهِ الرّسالة وَ إن كانت قصيرة إِلَّا أنها مهمة جدًا لأنها تمثل المحاولة الأولٰى لكتابة موضوع فقهي بالْعَرَبِيَّة فِي يُوغُسْلَافِيَا. وَ لا نعرف شيئًا عن حياة مؤلفها لأننا لم نعثر عل من يذكره أو يذكر رسالته، وَ أول من

---

[٤٧٥] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٢٥٦٠/٢، يحتوي عَلٰى خمسة أوراق (عشر صفحات).

ذكرها كان كامل البوحي[٤٧٦] (Kāmil El-Būhī) حينما درس بعض المخطوطات الْعَرَبِيَّة فِي مكتبة الغازي خُسْرو بك فِي سراييفو، وَ لقد تم تأليف هٰذِهِ الرسالة سنة ٩٩٨ هـ / ١٥٨٩ م، وَ يبدو أن المؤلف كتبها دفاعًا عن علماء سراييفو كما تدلّ مقدمتها:

"فاعْلم أن سبب كتابة هٰذِهِ الورقة المضبوطة، وَ تقريرها المبسوطة كلام غير مربوط وَ غير مصقول وَ هُوَ صادر عن عالم فاضل عَلٰى زعمه مجلس أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء الفخام، خليل باشا، يسر الله له مَا يشاء، فِي حالة الغضب فِي أثناء مصاحبته وَ مواظبته فِي حق علماء هٰذِهِ الطيبة (أي هٰذِهِ المدينة) أن ليس فِيهَا من العلماء فرد، بل أعلمهم وَ أكبرهم لا يعلم الطهارة، قدحًا لشأنهم، حاشا لا يقاله، فهذا الكلام منه أعجب من العجائب وَ أغرب من الغرائب، فكتبت تِلْكَ الورقة المشتملة بمسائل الطهارة المجملة[٤٧٧]".

وَ يتجلّٰى من كتابته أنه كا ن عارفًا بأمر الطقوس الإِسْلَامِيَّة وَ كَذٰلِكَ بعلم اللُّغَة الْعَرَبِيَّة عَلٰى الرّغم من أنّه وَقع فِي الأخطاء البسيطة، وَ نقرأ فِي الصفحة

---

[٤٧٦] الدّكتور كامل البوحي، كتب رسالة الدّكتوراه بِاللُّغَةِ اليوغسلافيّة عن اليوغسلافيّينَ الَّذِينَ كتبوا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، نوقشت هٰذِهِ الرسالة فِي بلغراد بعد السّتّينات، غير منشورة.

[٤٧٧] رسالة فِي الطّهارة، وَرقة B ١.

الأولٰى مثلًا "وَ فِي الفرس باك شدن"[٤٧٨]، أو فِي لساني التُّرْكِيَ[٤٧٩]، وَ لكننا نجد مثل هٰذِهِ الأخطاء لدٰى علماء العرب أنفسهم، كما نلاحظ أن المؤلف كان متمكنًا فِي اللغتين الْفَارِسِيَّة وَ التُّرْكِيَّة لأنه يعرض فِي رسالته المصطلحات الْفَارِسِيَّة وَ التُّرْكِيَّة.

وَ ها نحن أولًا نلتقي من جديد مع حسن كافي پْروشْتْشاق (Ḥasan Kāfī Pruščak) الَّذِي ألّف فِي هٰذَا الموضوع كَذٰلِكَ، وَ لقد وَ جدنا له كتابًا عنوانه "حديقة الصلاة"[٤٨٠] ألفها سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م، وَ يحتوي الكتاب عَلٰى ست وَ ثمانين صفحة[٤٨١]، وَ لقد شرح فِيهِ كتاب "شروط الصّلَاة" مشيرًا فِيهِ إلٰى أقوال العلماء الختلفة، وَ قسمه إلٰى الأبواب التالية:

- باب الفرض،
- باب الواجب،
- باب السنة،

---

[٤٧٨] وَ ينبغي: وَ فِي الْفَارِسِيَّة پاک شدن.

[٤٧٩] وَ ينبغي: وَ فِي اللّسان التُّرْكِيَ.

[٤٨٠] مخطوطة فِي المعهد الشّرقي فِي سراييفو، رقم ٥٦٦/٣، يحتوي عَلٰى ستّ وَ ثمانين صفحةً.

[٤٨١] وَ فِيهَا أربعة أوراق من "شروط الصّلَاة".

- باب المستحب،

- باب الحرام،

- باب المكروه،

- باب الجائز،

- باب المفسد.

وَ بما أن "شروط الصّلاة"[٤٨٢] لَا تتجاوَز أكثر من أربعة أوراق، موجودة ضمن المخطوطة المذكورة، يتناول فِيهَا المؤلّف مسائل الصّلاة الأساسيّة من دون تفسير أو إيضاح، أخذ حسن كافي عَلَى عاتقه أن يوضح وَ يبين مَا جاء فِي هٰذَا الكتاب. يقول كمال پاشا زاده فِي "شروط الصلاة":

"إنّها خمسة عشر بعضها خارجية وَ بعضها داخلية، أما الخارجية فثمانية: الوقت، طهارة البدن وَ الثوب وَ المكان، وَ ستر العورة، وَ استقبال القبلة، وَ النية، وَ التكبيرة الأولَى."[٤٨٣]

وَ يعلّق الكافي عَلَى هٰذَا فيقول:

---

[٤٨٢] وَ المؤلّف هُوَ كمال پاشا زاده (Kamāl-pāšā Zādē).

[٤٨٣] وَرقة رقم A ٤٦ من المخطوطة.

"وَ الرابع طهارة المكان الَّذِي يصلي عليه، ثم المعتبر فِي طهارته مَا تحت القدم، حَتَّى لو افتتح الصلاة وَ تحت قدمية نجاسة أكثر من قدر الدرهم لم تجز صلاته، وَ إذا كانت النجاسة تحت إحدٰى قدميه اختلفوا فيه، وَ الأصح المنع."[484]

وَ لم يكتف حسن كافي فِي شرحه هٰذَا بسرد آراء العلماء فِي بعض المسائل الفقهية، بل نراه أحيانًا، ينحرف إلٰى التفسير الفلسفي فِي بيان أفكار صاحب "شروط الصلاة"، مثال ذلك، تعليقه عَلٰى قول كمال پاشا فِي كتابه:

"إن العبد مبتلٰى بين أن يطيع الله – تَعَالٰى – فيثاب وَ بين أن يعصيه فيعاقب."[485] فيقول حسن كافي عن هٰذَا فِي شرحه:

"وَ فِيهِ إشارة إلٰى أن للعباد أفعالًا اختيارية يثابون بها وَ يعاقبون عَلَيْهَا وَ فِيهِ رد للجبرية حيث قالوا بأن العبد مجبور عَلٰى الكفر وَ الإيمان وَ الطّاعة وَ العصيان."[486]

وَ نلاحظ أن حسن كافي يعنٰى عناية خاصة بعناوين كتبه، فهذه العناوين تلفت الأنظار وَ تجذب القارئ لقراءتها وَ اهتمامه بها منذ أول لحظة، وَ نذكر

---

[484] وَرقة رقم ٦٧.

[485] وَرقة رقم B ٤٥.

[486] وَرقة رقم B ٥٢.

العناوين: "حديقة الصلاة"، "روضات الجنات"، "أزهار الروضات"، وَ لا شكّ فِي أن مثل هٰذِهِ العناوين تساعد فِي انتشار الكتب وَ شهرتها.

وَ سوف نلتقي الآن مع مؤلف ثان من نفس المدينة (پروساتْسْ (Prusac))، وَ هُوَ مصطفٰى بن مُحَمَّد الأقحصاريّ[٤٨٧] (Muṣṭafā bin Muḥammed El-Aqḥiṣārī) وَ هُوَ صاحب رسالة "فضيلة الجماعة" الَّتِي يتكلم فِيهَا عن أهمية صلاة الجماعة، وَ بما أن هٰذِهِ الرسالة لا تكوّن كتابًا وَ إنما هِيَ مقالة قصيرة تستحق ذكرها فِي هٰذَا المكان.

وَ يتناول المؤلف فِي هٰذِهِ المقالة مسألة أهمية الصلاة، وَ يسرد فِيهَا أقوال صحابة رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – عن الصّلاة فِي الجماعة ذاكرًا أقوال الَّذِينَ ذهبوا إِلٰى أن صلاة الجماعة فرض عين وَ أقوال الَّذِينَ ذهبوا إِلٰى أنها فرض كفاية، وَ لقد وَ جدنا فِي هٰذِهِ المقالة أقوالًا غريبة جاء بها المؤلف نذكر منها:

- يذهب الكاتب إِلٰى أن حضور المرأة فِي الجماعة أمر غير مرغوب فيه، وَ أن عدمه يفضل فِي ذٰلِكَ الزمان[٤٨٨]، وَ لكننا لا نلوم الكاتب عَلٰى هذا، لأن هٰذَا الرأي رأي أكثر العلماء فِي ذٰلِكَ الوقت، وَ هٰذَا

---

[٤٨٧] كان قاضيًا فِي مدينة بروساتس وَ توفي فِيهَا سنة ١١٦٩ هـ / ١٧٥٥ م، وَ عرفت هٰذِهِ الفترة بهجمات النّمساويّين عَلٰى حدود البُوسْنَة، وَ ألّف مصطفٰى بن مُحَمَّد كتابه "تبشير الغزاة" تشجيعًا لِلْبُوسْنَوِيِّينَ، وَ سوف نتكلّم عنه فِي حينه.

[٤٨٨] وَ الزّمان هُوَ سنة ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م.

المفهوم المغلوط فِيهِ الَّذِي يناقض نصوص القرآن الكريم، عزل المرأة المسلمة عن الحياة العام، وَ كانت بذلك محرومة من الحقوق الَّتِي أعطاها الله إياها!

- وَ من هٰذِهِ الأفكار الغريبة قوله: "وَ تصحّ إمامة الجني."[٤٨٩]

- وَ تفسير قوله – تعالٰى –: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٤٩٠]، أن كلمة ﴿الرَّاكِعِينَ﴾ يقصد بها: الَّذِينَ يصلون فِي الجماعة، وَ مع أن هٰذَا التفسير جائز من الناحية اللُّغَوِيَّة، لٰكنه تفسير غريب. وَ يتحدّث المؤلّف فِي نهاية رسالته هٰذِهِ عن الَّذِينَ لهم عذر لا يسمح لهم بحضور صلاة الجماعة، وَ يذكر منهم المرضٰى وَ الَّذِينَ يحيط بهم الخطر، وَ الَّذِينَ يشتغلون بعلم الفقه! وَ فِي الخاتمة يرجع إلٰى الآثار النقلية الَّتِي تؤيد الصلاة مع الجماعة.

وَ فيما يلي نتناول الكتب الفقهية الَّتِي درست موضوعًا خاصًا، وَ هُوَ موضوع الحجّ، وَ بطبيعة الحال نجد ذكر الحجّ فِي الكتب الفقهية جميعها وَ إنّما اخترنا الآثار الَّتِي تناقش هٰذَا الموضوع، وَ هِيَ الكتب الأربعة التالية:

---

[٤٨٩] وَرقة رقم B ١.

[٤٩٠] القُرْآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٤٣.

١- "محرّك القلوب لعبادة علّام الغيوب" لضياءِالدّين أحمد بن مصطفٰى الموستاريّ،

٢- "مناسك الحجّ" لعبدالوهّاب بن حسن الْبُوسْنَوِيّ،

٣- "مناسك الحجّ" لإبراهيم الْبُوسْنَوِيّ،

٤- "دليل المسافرين إلٰى زيارة حبيب الْعَالَمِين" لحسن الْبُوسْنَوِيّ المعروف بإمام زاده.

وَ سوف نقف فِي بحثنا عند الكتابين الأولين لأنّ الثّالث وَ الرّابع لا يختلفان عنهما لا فِي الأسلوب وَ لا فِي نوعيّة المادّة:

١- محرّك القلوب لعبادة علّام الغيوب[٤٩١]:

لقد خلط بعض الباحثين بين شخصيتين مشهورتين من مدينة موستار (Mostar) وَ هما: أحمد بن مُحَمَّد الموستاريّ وَ أحمد بن مصطفٰى الموستاري، وَ لقد اعتقد كل من الخانجي[٤٩٢] (Handžić) وَ صفوت بَاشَآقيتْش[٤٩٣] (Safvet Bašagić) أنّهما شخصيّة وَاحدة وَ هِيَ أحمد أفندي الموستاريّ، وَ لِذٰلِكَ تقتضي الضرورة أيضاح هٰذِهِ المسألة، وَ

---

٤٩١ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٧٣١.

٤٩٢ الْجَوْهَر الأَسْنٰى، ص ٣٧.

٤٩٣ غلَاسنيقْ، مجلّة المتحف البلديّ فِي سراييفو، ص ٣٥٨، سنة ١٩١٢ م.

لقد كان أحمد بن مصطفى الموستاري(المتوفى ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م) يكتب فِي الوعظ، أما أحمد بن مُحَمَّد الموستاري فقد كان يكتب بأسلوب علمي أي بالأسلوب الَّذِي يستعمل فِي الكتب الفقهية. وَ هٰذَا الفرق فِي الموضوع وَ فِي الأسلوب ليس الفرق الوحيد بينهما، بل هناك فرق فِي الزمن أَيْضًا، فاحمد بن مُحَمَّد الموستاري كان حيًا سنة ١٠٨٤ هـ / ١٧٧١ م، وَ معنٰى ذٰلِكَ ان احمد بن مصطفى سبقه بقرن من الزمن.

وَ سوف نتناول الآن ضياءالدّين أحمد بن مصطفى الموستاري وَ انتاجه، وَ سنرجع إلٰى أحمد بن مُحَمَّد الموستاري فِي موضعه. وَ كتاب "محرك القلوب لعبادة علام الغيوب" موعظة لطيفة كما سمّاها المؤلف، رسالة كانت تحتوي عَلٰى ستة عشر بابًا، وَ لم نعثر إِلَّا عَلٰى ثلاثة أبواب منها، وَ الباب الرّابع عشر الَّذِي هُوَ بين أيدينا، يبدأ المؤلف فِيهِ بنداء إبراهيم عَلَيْهِ الصلاة وَ السلام لزيارة مكة، وَ يبدأ كل باب بآية كريمة لها علاقة بالموضوع الَّذِي يعالجه. وَ لقد كان محور كلامه فِي الجزء الرابع عشر، هٰذِهِ الآيات:

وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾.[٤٩٤]

---

[٤٩٤] الْقُرْآن الكريم، سورة الحجّ، الآية ٢٦.

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾.[٤٩٥]

وَ يتحدث فِي الجزء الخامس عشر عن أوّلية مدينتي مكّة المكرّمة وَ المدينة المنوّرة وَ فضيلة السّكنى بقربهما، وَ يذكر توصية محيي‌الدين بن عَرَبِيّ بكثرة زيارة الكعبة المشرّفة[٤٩٦]. وَ يحاول فِي الجزء السّادس عشر أن يملأ نفوس النّاس بالحبّ لأداء فريضة الحجّ، وَ يعرض فِيهِ قصص الحجّاج وَ الحوادث غير الطّبيعيّة الّتِي صادفتهم فِي طريقهم إلى الأراضي المقدّسة. نضرب مثلًا وَاحدًا من رسالته:

"قال السّرّيّ السّقطي: خرجت إلى الحجّ عن طريق الكوفة فلقيت جارية حبشية فقلت: "إلى أين يا جارية؟" فقالت: "إلى مكّة."، فقلت: "إنّ الطّريق بعيد."، قالت: "بعيد عَلَى الكسلان أو ذي ملاله وَ أمّا عَلَى المشتاق فهو قريب."[٤٩٧]"

---

٤٩٥ القُرْآن الكريم، سورة الحجّ، الآية ٢٧.

٤٩٦ ذكر محيي‌الدّين بن عَرَبِيّ لم يكن صدفة لأن أحمد بن مصطفى الموستاريّ كان ينتمي إلى الطريقة الصّوفيّة "خَلْوَتي" (Ḫalwetijje).

٤٩٧ وَرقة ٩٣٨ من المخطوطة.

وَ يظنّ المؤلّف أنّه بمثل هٰذِهِ القصص يوجّه الناس لزيارة بيت الله الحرام لٰكنّه فِي الوقت نفسه يشعر بأنّه جرح قلوب الَّذِينَ لا يستطيعون الذهاب إِلٰى الحجّ وَ يحاول أن يسهل آلامهم قائلًا:

"فلما كان الحجّ من أفضل الأعمال، وَ النّفوس تتشوق إِلٰى زيارة البيت الشريف لما وَضع الله – تَعَالٰى – فِي القلوب من الحنين وَ المحبة إِلٰى ذٰلِكَ البيت العظيم، وَ كان كثير من الناس يعجز عنه وَ لا قدرة لهم عَلٰى ذٰلِكَ وَ لا سيّما فِي كل عام، شرع الله – تَعَالٰى – لعباده أعمالًا يبلغ أجرها أجر الحج فيعوض بذلك العاجزين عن الحج، منها صلاة الجمعة، روٰى عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –: إن لكم فِي كل جمعة حجة وَ عمرة فالحجة الهجيرة أي صلاة الجمعة وَقْت الظهر وَ العمرة إنتظار العصر بالجماعة."[٤٩٨]

إن المؤلّف فِي هٰذَا النّصّ لا يبيّن كيفيّة أداء مناسك الحجّ بل يهدف إِلٰى حثّ النّاس عَلٰى أداء الفريضة وَ رفع شأن هٰذَا الواجب فِي نفوسهم، وَ مع ذٰلِكَ نجد أن هٰذِهِ الرسالة تستحق أن تذكر فِي البحث.

وَ سوف نتناول الآن الكتاب الَّذِي يبحث فِي مناسك الحج وَ يعالج هٰذَا الموضوع معالجة علمية من الوجهة الفقهية. وَ هو:

---

[٤٩٨] وَرقة رقم B ٩٥.

٢- "مناسك الحجّ" لعبدالوهّاب بن حسن الْبُوسْنَوِيّ:

ولد الْبُوسْنَوِيّ فِي مدينة سراييفو سنة ١١٦٩ هـ / ١٧٥٥ م ثم رحل إِلَى مصر وَ تلقّى تعليمه العالي وَ نجده يعظ فِي مساجد القاهرة الكبرى ثم يرحل إِلَى مكة وَ يحج ثلاث مرات لكنه اختلف مع شريف مكة المكرمة فاضطر إِلَى الهرب إِلَى مصر وَ قد توفي فِيهَا سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م.

وَ يذكر هٰذَا الكتاب كل من بَاشَاْقِيتْش (Bašagić) وَ الخانجي (Handžić) لٰكنّهما أعطيا معلومات غير صحيحة عن المؤلف وَ كتابه، حيث يذكر الأوّل[٤٩٩] أن تاريخ تأليف الكتاب كان سنة ١١٩٤ هـ / ١٧٧٩ م، وَ هٰذَا خطأ لأن التاريخ الصحيح هُوَ سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٦ م، وَ قد وقع الثاني فِي الخطأ نفسه[٥٠٠] ثم زعم بعد ذٰلِكَ أن الكتاب يحتوي عَلَى ٢٨٤ صفحة وَ الصحيح هُوَ ٣٨٤ صفحة (١٩٢ وَرقة). وَ يذكر المؤلّف فِي مقدمة كتابه أسباب تأليفه له فيقول:

"فقد التمس منّي بعض الإخوان المسلمين حجّاج بيت الله الحرام عندما كنت أدرّس تجاه الكعبة الشّريفة أن أجمع لهم مسائل الحجّ وَ

---

٤٩٩ غلاسنيق، مجلّة المتحف البلديّ فِي سراييفو،ص ٣٥٨، سنة ١٩١٢ م.

٥٠٠ الْجَوْهَر الأسنَى، ص ١٠٤.

العمرة المحتاجين إِلَيْهَا، فجمعتها من كتب المناسك المعتبرة فِي مذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة النّعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه."

وَ بِهٰذَا الكتاب وَ فّٰى المؤلف بوعده وَ قد قسّم كتابه إِلٰى خمسة عشر بابًا أدرجها فيما يلي:

١- شروط الحجّ وَ عَلٰى من يجبّ،

٢- مكانة الحجّ وَ زمانه،

٣- دخول مكّة،

٤- أنواع الطّواف وَ مَا يتعلق بِهَا،

٥- السّعي بين الصّفا وَ المروة،

٦- الوقوف بعرفة،

٧- منٰى،

٨- طواف زيارة الكعبة،

٩- رمي الجمرات،

١٠- العلاقة بين الحجّ وَ العمرة،

١١- الأخطاء فِي الحجّ،

١٢- مسألة البدل،

١٣- التّضحية،

١٤- بعض الأسئلة (غطاء الكعبة، مكان صلّى فِيهِ النّبيّ... إلخ)،

١٥- زيارة قبرِ رسولِ اللهِ – صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –.

وَ يثبت هٰذا التقسيم أن المؤلف تناول مسألة فريضة الحجّ جميعها وَ فيما يلي نصّ اخترناه من الكتاب:

"فصل فِي إحرام المرأة: وَ هِيَ فِي حق الإحرام كالرجل إلّا فِي إثني عشر شيئًا، منها: يجوز للمرْأة أن تلبس المخيط المحرّم عَلٰى الرّجل غير المصبوغ بورس أو زعفران أوعصفر، وَ للمرأة أن تلبس الخفين وَ القفازين اللذين تغطي بها يديها، وَ تغطي المرأة رأسها لا وَجهها حال الإحرام وَ المستحبّ للمرأة عند الإحرام أن تسدلّ عَلٰى وَجهها شيئًا رشحًا فِيهِ عن وَجْهها، وَ لا ترفع المرْأة صوتها بالتّلبية لأن صوتها عورة، وَ لا ترمل المرأة فِي الطّواف وَ لا تضْطجع وَ لا تسعٰى الميلين الأخضرين[٥٠١] بالإسراع وَ الهرولة وَ لا تحلق رأسها، وَ لا تستلم المرأة الحجر الأسود عند المزاحمة، وَ لا تصلّي قرب مقام إبْرَاهِيم – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَ لا يلزم للمرأة طواف الوداع وَ

[٥٠١] بين الصّفا وَ المروة.

التأخير طواف الزيارة عن أيام النحر لعدم الحيض وَ النفاس وَ الخنثى المشكل فِي هٰذَا الفصل كالأنثى.

وَ هٰكَذَا يتناول الْبُوسنَوِيّ بالتّفصيل مسائل الحجّ كلّها فِي كتابه وَ لا يترك مجالًا لِلْقَارِئِ حَتّٰى يسأل عن شيْء بعد قراءَتِهِ، وَ قد كتبه بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة.

٣- أمّا الْكتاب الثّالث الّذِي يعالج هٰذَا الموْضُوع، وَ هُوَ "مناسك الحج" لإبراهيم الْبُوسنَوِيّ، وَ لا يذكر هٰذَا الكتاب باحث يُوغُسْلَافِيّ غير بَاشاَقيتْش[٥٠٢] وَ لا حاجة لتناوله فِي هٰذَا المكان لأنه لا يختلف لا فِي العنوان وَ لا فِي الموضوع عن الكتاب الّذِي وقفنا عنده.

٤- أمّا كتاب "دليل المسافرين لزيارة حبيب رب الْعَالَمِيْن" لحسن الْبُوسنَوِيّ المعروف باسم امام زاده[٥٠٣]، فقد لاحظنا أن ثمة تشابهًا وَاضِحا بين كتابه وَ بين "محرك القلوب" لأحمد بن مصطفى الموستاري، وَ الفرق الوحيد بينهما هُوَ أن الْأَوَّل، كما ذكرنا، حثّ

---

٥٠٢ غْلاسنيقْ، مجلّة المتحف البلديّ فِي سراييفو، ص ٢٨٨، سنة ١٩١٦ م.

٥٠٣ نعرف أنّه عاش فِي المدينة المنورة حيث ألّف هٰذَا الكتاب وَ أرسله إلٰى أخيه الحاجّ عليّ آقا فِي مدينة إيموتْسْقِي (Imotski) فِي جنوب الْهَرْسَك، وَ هٰذَا الأخير أهداه لإبراهيم بن إسْمَاعِيل الموستاري المعروف بأوبِياتْشْ، يذكر ذٰلِكَ مُحَمَّد الخانجي فِي مجلة غْلاسنيقْ – العدد ١٢، ص ٦٣٥.

النّاس عَلٰى زيارة مكة المكرمة، أما الثاني فيحثّهم عَلٰى زيارةِ قبرِ رسولِ اللهِ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –.

الآثار الَّتِي تتناوَل المسائِل الفقهيّة البحتة

نتناول فيما يلي المرجعين الفقهيّين الكبيرين:

١ـ أنفع الدلائل لتحسين صور المسائل،

٢ـ مجمع الأشهر لتعليل ملتقٰى الأبحر.

أما "أنفع الدّلائل لتحسين صور المسائل"[٥٠٤] فمؤلّفه أحمد بن مُحَمَّد الموستاريّ وَ هُوَ شرح لكتاب "مختصر القدوريّ"[٥٠٥] الَّذِي قد شرحه الكثيرون. وَ يظهر من هٰذَا الشرح المطوّل أن المؤلف كان متخصصًا فِي هٰذَا الموضوع وَ متمكنًا من المادة الَّتِي يعالجها فنراه يناقش كل مسألة من المسائل وَ يسرد فِيهَا

---

[٥٠٤] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة، وَ فِيهَا أخطاء فِي التّجليد، فبعد الصّفحة ٢٧٣ فِيهَا ثمانية صفحات مجلّدة بالعكس، وَ هُناك أخطاء فِي التّرقيم أيْضًا.

[٥٠٥] وَ هُوَ عليّ الحسين أحمد بن مُحَمَّد القدوريّ.

آراء علماء الفقه المشهورين ثم يستنبط منها الرّأي الرّاجح، وَ سوف نأتي بنص من كتابه يتكلم فِيهِ عن الجناية:

"الجناية فِي اللُّغَة التَّعدّي، وَ فِي الشّرع عبارة عن فعل وَ اقع فِي النفوس وَ الأطراف، يقال الجناية مَا يفعله الإنسان لغيره أو بمال غيره عَلٰى وجه التعدي، وَ هِيَ تعم الأنفس وَ الأموال إلَّا أن اسمها اختص بالأنفس فِي تعارف أهل الشرع، وَ لِهٰذَا سمّٰى الفقهاء التعدي فِي الأنفس جناية وَ التعدي فِي الأموال غصبًا وَ اتلافًا."[٥٠٦]

أمّا الكتاب الثاني "مجمع الأشهر لتعليل ملتقٰى الأبحر" فسوف نتركه لأن صاحبه، وَ هُوَ سلمان بن مُحَمَّد سعد الدين ليس من الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ إنما هُوَ من مدينة أوهريد[٥٠٧] (Ohrid).

---

[٥٠٦] مكتبة الغازي خُسْرو بك، وَرقة رقم A ٣٣.

[٥٠٧] وَ بما أن زميلي الأخ إسْمَاعِيل أحمدي يعالج هٰذَا الموضوع نفسه لٰكن فِي منطقة كُوسُوفُو وَ مَقْدُونِيَا يكون هٰذَا من ضمن بحثه.

الآثار الَّتِي تبحث فِي الشريعة الإِسْلَامِيَّة

تناولنا فِي هٰذَا الفصل الكتب الفقهية الَّتِي ألفها علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ رأينا أن أكثر هٰذِهِ الكتب يتناول مسائل الطقوس الإِسْلَامِيَّة سواء أكانت تتعلق بالصّلَاة أم بالحجّ، وَ ليس معنٰى ذٰلِكَ أن هٰؤُلَاءِ العلماء لم يكتبوا فِي موضوع الشريعة الإِسْلَامِيَّة وَ إنما الأمر عكس ذٰلِكَ تمامًا، فلقد ترك هٰؤُلَاءِ مؤلفات قيمة فِي علوم الشريعة، وَ بصورة خاصّة فِي علم الفرائض، وَ لقد عيّنا مَا تبقّٰى من هٰذَا الفصل لعرض تِلْكَ المؤلفات.

وَ من أشهر الَّذِينَ كتبوا فِي الموضوع مصطفٰى أيّوبوفيتْش (Muṣṭafā Ejjūbović) الَّذِي ألّف عدّة تصانيف فِي علم الفرائض، نذكر فيما يلي: "لبّ الفرائض" وَ "شرح الرّسالة النّسفيّة":

١ـ "لبّ الفرائض"[٥٠٨] ليس كتابًا مستقلًّا وَ إنّما هُوَ مشتّت فِي ثنايا الشّرح لنفس المؤلّف، وَ قد قسّم هٰذِهِ الرّسالة إِلٰى ستة عشر بابًا يعالج خلالها الموضوعات التالية:

١ـ وقت أخذ الميراث،

٢ـ الأشياء الَّتِي تورث،

---

[٥٠٨] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة (مكتوبة بيد المؤلّف نفسه) رقم ٣٨٦٠.

٣- الأشياء الَّتِي تمنع الإرث،

٤- بأي شيء يبدأ التقسيم فِي الإرث،

٥- أنواع الورثة،

٦- ترتيب الورثة.

٧- من يستحق الإرث،

٨- وراثة الكفاء،

٩- عصبة،

١٠- الوارث الَّذِي يسقط له حق الإرث بسبب الغير،

١١- عن النَّصيب المفروض،

١٢- عدالة التقسيم،

١٣- التَّقسيم بين الجدّ وَ الإخوة،

١٤- تصويب الإشتراك فِي التقسيم،

١٥- إلغاء الوراثة عَلٰى حساب الورثة.

وَ ينتهي الباب الخامس عشر بِهٰذِهِ الكلمات:

"فإذا تركت المرأة زوجًا وَ بنتًا..." وَ معنٰى ذٰلِكَ أن الجزء غير مكتمل وَ فقد شيء منه، لٰكن الأوراق المفقودة ليست كثيرة وَ الرّسالة كما رأينا عبارة عن القواعد البحتة، من دون أمثلة وَ توضيحات، وَ يبدو أن المؤلف نفسه لاحظ هٰذا النقص فكتب شرحًا عَلَيْهَا سمّاه "شرح لبّ الفرائض" عرض فِيهِ آراء العلماء وَ المصادر الَّتِي اعتمد عليها. وَ نسرد نصًّا من هٰذا الشرح يتحدث فِيهِ عن القسمة بين الجدّ وَ الإخوة:

"قال أكثر الصحابة وَ منهم أبو بكر وَ ابن عباس وَ أبي بن كعب وَ ابن الزبير وَ ابن عمر وَ حذيفة وَ ابو سعيد الخدري وَ معاذ بن جبل وَ أبو موسٰى الأشعريّ وَ عائشة وَ غيرهم: الجدّ بمنزلة الأب عند عدمه، يرث معه من يرث مع الأب وَ يسقط به من يسقط مع الأب، وَ هُوَ قول ابن حنيفة رضي الله عنه وَ به يُفتي."[٥٠٩]

وَ ليس من الصعب أن نلاحظ أن المؤلف يمشي فِي المسألة إلٰى أن يحللها تحليلًا تامًا، وَ لكننا نجده فِي بعض الأوقات يفترض الأحوال وَ المسائل الَّتِي يستحيل وُقُوعها، مثل: "كأربع زوجات وَ ثماني عشرة بنتًا وَ خمس عشرة جدّة وَ ستة أعمام[٥١٠]، وَ لكننا نجد هٰذا

---

٥٠٩ وَرقة رقم B ١٣ من المخطوطة رقم ٣٨٦.

٥١٠ نفس المصدر، وَرقة رقم A ١٥.

الإفتراض وَ أمثاله فِي كتب الفقه كثيرًا وَ مصطفٰى أيوبوفيتش لم يسلك طريق علماء الفقه فحسب، بل كان وَاحدًا منهم.

٢- "شرح الرّسالة النّسفيّة"[٥١١] هٰذِهِ رسالته الأخرٰى فِي الموضوع نفسه وَ لها عنوان آخر وَ هُوَ "شرح رسالة صاحب المدراك"[٥١٢]، وَ يقول المؤلف فِي مقدمة الرسالة مشيرًا إِلٰى أهمّيّة الفرائض:

"إن علم الفرائض نصف العلم، وَ أول علم ينزع وَ ينسٰى، فينبغي أن يتعلم وَ يعلم الناس، وَ قد صنف العلماء فِيهِ رسائل جمّة منثورة وَ منظومة، غير أن الإمام النّسفي تغمده الله بغفرانه وَ أسكنه وَ سط جناته، عمل فِيهِ رسالة جمع فِيهَا فوائد كثيرة، فأردت أن أشرحها تسهيلًا للطالبين وَ تيسيرًا للراغبين."[٥١٣]

وَ تتضمّن الرّسالة مسائل عَلٰى الفرائض كلها، وَ نجد فِيهَا الموضوعات الَّتِي لم نجدها فِي "لب الفرائض" وَ الشرح عليها، وَ فِي الجزء الأول من الرسالة يتبع أيوبوفيتش صاحب المدراك، يشرح أفكاره وَ يفسرها، وَ يضرب بعد ذٰلِكَ الأمثلة الَّتِي يوضح خلالها كيف وَ لماذا جاء النسفي بقاعدة مَا وَ إذ قال النّسفيّ:

---

[٥١١] مكتبة الغازي خُسرو بك، مخطوطة رقم ٣٨٦٠، يحتوي عَلٰى ١٦ وَرقة.

[٥١٢] نسبة إِلٰى "المدراك" للنسفي.

[٥١٣] وَرقة رقم B ١٦.

"وَ تسقط بنت الابن بالابن وَ بنتي الصلب"، وَ يعلّل المؤلف هٰذَا القول بالكمات التّالية:

"لأن حق البنات فِي الثلثين نّص الكتاب، وَ بنات الابن يرثن بالبنية عند عدم وَلد الصلب، فإذا استكملنا الثلثين لم يبق لجهة البنية نصيب فتسقط بنت الابن."[٥١٤]

إلّا أنّ مصطفٰى أيّوبوفيتْشْ ليس الوحيد الَّذِي ألّف فِي علم الفرائض من علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، بل اشْتهر بدراسة هٰذَا الموضوع أيْضًا سيفالدّين پْروحو[٥١٥] (Sejfud-dīn Proho)، الَّذِي ألّف ستّة كتب فِي هٰذَا الموضوع، وَ هي:

١- عمدة الفرائض،

٢- عقدة الفرائض شرح عمدة الفرائض،

٣- زبدة الفرائض،

٤- شرح زبدة الفرائض،

---

٥١٤ وَرقة رقم B ١٦.

٥١٥ مع أن المؤلّف عاش وَ صنّف حَتّٰى بعد الفترة الَّتِي هِيَ تحت الدّرس وَجدنا من الضّروريّ أن نضع مؤلّفاته فِي البحث، مثلما فعلنا مع الأستاذ المرحوم مُحَمَّد الخانجي.

٥- تسهيل الفرائض،

٦- لبّ الفرائض.

وَ لن نتناول هٰذِهِ الكتب لوجود تشابه كبير فِي محتواها وَ موْضُوعاتِهَا، وَ الفرق الوحيد بينها هُوَ قصر المادّة أو طولها، وَ لِذٰلِكَ قرّرنا أن نتناوَلَ أربعًا منها فِي هٰذَا الصدد، هي:

١- عمدة الفرائض[٥١٦]:

عرض المؤلّف فِي هٰذِهِ الرّسالة القواعد الأساسيّة الَّتِي تتعلّق بالميراث وَ رتّبها هٰذَا الترتيب:

١- أصحاب الفروض، يتكلّم عنهم عَلٰى حدة،

٢- العصبة، يفصل من هم،

٣- ذوي الأرحام.

وَ يظهر أن المؤلّف لم يرد بكتابة هٰذِهِ الرّسالة سوٰى عرض قائمة الورثة الَّذِينَ لهم نصيب معين بنصّ الْقُرْآن الكريم وَ السّنّة الشّريفة، أمّا الدّخول فِي التّفصيلات فقد تركه فِي شرح له عَلٰى الرّسالة سمّاه

[٥١٦] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٦٢٠.

"عقدة الفرائض شرح عمدة الفرائض"[517]، وَ قد حاول فِيهِ المؤلف تبيين مسائل الميراث، وَ لِهٰذَا الشرح مقدّمة طويلة يتناول فِيهَا أهمية العلم عامة وَ علم الفرائض خاصة، يقول فيه:

"وَ من بينها علم الفرائض الَّذِي حاز من مراتب الشّرف أسناها، وَ كان عند أولي الألبابِ من أعلٰى المطالب وَ أسماها، وَ كيف لا وَ قد سمّاه نبي خير الأمم نصف العلم، وَ أمر أصحاب الهدٰى بالتعليم وَ التعلم."[518]

وَ نراه بعد ذٰلِكَ يُعبر عن قلقه وَ خوفه أمام هٰذِهِ الحقيقة، فيقع عَلٰى أثر ذٰلِكَ التّفكير فِي حالة اليأس، لأنّ الإحاطة بجميع هٰذِهِ العلوم أمر مستحيل، وَ سرعان مَا يجد الراحة وَ الطمأنينة فِي قول القائل:

"إذا لم تستطع شيئًا فدعه

وَ جاوزه إلٰى مَا تستطع"[519]

وَ يشرح بعد ذٰلِكَ بِرُوحُو كتاب عمدة الفرائض كلمة كلمة وَ يتّصف الشرح بالدخول المباشر فِي الموضوع وَ وضوح الاسلوب، كما أن

---

[517] نفس المخطوطة رقم ٦٢٠، يحتوي عَلٰى ٣٠٢ صفحة.

[518] وَرقة رقم B ١.

[519] هٰذَا البيت للخليل بن أحمد قاله لِأحد طلبته وَ قد درس عَلَيْهِ علم العروض.

المؤلف يشير فِي ثناياه إِلٰى بعض الأحداث الَّتِي وقعت أثناء تأليف الكتاب أو قبله.[٥٢٠]

٢- زبدة الفرائض وَ شرح زبدة الفرائض:

وَ هٰذَا الكتاب يشبه الكتاب الأول تمامًا، فنجد فِيهِ أشياء مكررة كثيرة، وَ هٰذَا لا بدّ منه فِي كتب الفقه، وَ يعتبر هٰذَا الكتاب من أضخم الآثار فِي علم الفرائض، كما يتميز من الآثار الأخرٰى بالوضوح وَ قوّة اللُّغَة وَ سهولة الأسلوب، وَ هِيَ الميزة الأساسية لمؤلّفاته جميعًا، وَ لكي نثبت مَا نذهب إِلَيْهِ نقدّم نصًّا من الكتاب يتناول فِيهِ شروط الميراث:

"يتوقف الإرث عَلٰى أربعة أمور هي: أركانه، وَ شروطه، وَ أسبابه، وَ انتفاء موانعه، أما أركان الإرث فثلاثة، لا يتحقق ماهية الإرث عند فقد أحدها فِي مرجع الإرث وَ هِيَ الموروث وَ الوارث وَ الحق الموروث وَ هُوَ التركة غير المتخرقة بالحقوق المقدمة عَلٰى الإرث."[٥٢١]

---

[٥٢٠] يذكر فِي الصّحيفة الثّانية معلومات جديدة عن أبيه الَّذِي توفي فِي مكّة المكرّمة وَ كَذٰلِكَ عن جدّه الَّذِي توفي فِي القاهرة قبل ثلاثين سنة من وَفاة أبيه.

[٥٢١] وَرقة رقم ٧ من المخطوطة.

وَ معنٰى ذٰلِكَ أن الكتاب ليس كتابًا مدرسيًّا وَ إنّما هُوَ كتاب علميّ وَ كان مرجعًا للقضاة وَ المتخصّصين فِي علم الفرائض لأنهم وَ جدوا فِيهِ مَا لم يجدوه فِي كتب الفقه الأخرٰى، لأن المؤلف جمع فِيهِ مسائل كثيرة تتعلق بالإرث من المصادر القديمة وَ أشار، عادة، إلٰى الآراء الراجحة فيها. وَ إلٰى جانب الكتاب المذكور لسيفالدّين پْرُوحُو (Sejfud-dīn Proho) لا بد أن نذكر كتابين آخرين له وَ هُما:

١- أحسن وَسِيلَة إلٰى معرفة الوصايا وَ الوصية،

٢- كتاب النّكاح.

وَ ذٰلِكَ لأن أي أحد من علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك لم يؤلّف كتابًا خاصًّا فِي هٰذَا الموضوع وَ إنما أشاروا إلٰى هٰذِهِ المسائل ضمن آثارهم الأخرٰى.

١- الكتاب الأوَّل، يحتوي عَلٰى ١٠٧ صفحة، فقد تمّ تأليفه فِي الخامس عشر من رمضان سنة ١٣٧٧ هـ / فِي الرابع عشر من يونيو سنة ١٩١٨ م، كما يشير المؤلف فِي آخره[٥٢٢]. وَ يعرض المؤلف فِي معالجة موضوعات الوصية الآراء المختلفة حول مسألة مَا ثم يعطي الأولية إلٰى أحد هٰذِهِ الآراء، وَ نأتي بمثل من كتابه حينما يتناول الوصية فِي ثلث المال حيث يقول:

---

[٥٢٢] طبع الكتاب فِي سراييفو سنة ١٣٣٨هـ / ١٩٣٠ م.

"وَ من أوصَى بثلث ماله أو نحوه فهو ثلث جميع أمواله الموجودة عند موته بعد تجهيزه وَ قضاء ديونه سواء أكان له مال عند الوصية ثم زاد أم نقص أو لم يكن فاكتسب نوعًا من أنواع المال... وَ يدخل الدين إن قبض لأنه مَا بعد القبض عَلَى مَا فِي ردّ المختار."[٥٢٣]

وَ لَقَد أحاط المؤلف فِي كتابه بالأمور الَّتِي تتعلّق بالوصية، وَ نراه أحيانًا يأتي بأمثلة لا تتعلق بموضوع الكتاب عَلَى الوهلة الأولَى، لكن لها علاقة وَ طيدة بصلب الموضوع وَ نضرب مثلًا لِذَلِكَ من كتابه حينما يتناول الأمور الَّتِي لا يجوز فعلها لأولياء الصغير، فيقول:

"لا يملك وَاحد من الأولياء وَ الأوصياء ضرب الصّغير وَ نحوه للتأديب ضربًا غيرمعتاد... وَ لا خلاف فِي جواز ضرب المعلم بمعتاد، وَ بشرط السلامة بلا إذن الأب أو الوصي حَتَّى لو رافعه أحدهما إلَى القاضي لا يجوز له أ، يعذره أو ينهاه عن التأديب بالضرب المعتاد وَ بغير الإذن."[٥٢٤]

وَ لَقَد أشار إسْمَاعِيل حقّيّ (Ismā'īl Ḥaqqī) أحد قضاة مدينة سرايفو إلَى قيمة هَذَا الكتاب حين قال عنه:

---

[٥٢٣] وَ هِيَ الحاشية الَّتِي ألفها ابن عابدين عَلَى كتاب "الدّرّ المختار" لخقاني.

[٥٢٤] أحسن وَسِيلَة إلَى معرفة الوصايا وَ الوصية، ص ٤١-٤٢.

هٰذَا كتـاب لـو يبـاع بـوزنـه

ذهبًا لـكـان البـائع المغبـونا

أو مَا من الخسران إنّك آخذ

ذهبًا وَ معط جوهرًا مكنـونا

٢- أما كتابه الثاني وَ هُوَ "كتاب النكاح" فقد أتم تأليفه سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٤ م، وَ طبع فِي سراييفو[٥٢٥] سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م، وَ قد ألف پِرُوحُو هٰذَا الكتاب وَ ألقاه عَلٰى طلبة مدرسة الحقوق الْإِسْلَامِيَّة فِي سراييفو ليعفيهم من مراجعة كتب أخرٰى فقهية مليئة بالمسائل الزائفة[٥٢٦]. وَ لقد اعْتَمد فِي تأليفه هٰذَا عَلٰى أوثق المصادر الفقهيّة، وَ أخص الحنفية منها.

وَ نلاحظ أنه يستعمل فكره وَ اجتهاده فِي المسائل الَّتِي لم يجد لها حلًا فِي النصوص، يشير إِلٰى ذٰلِكَ فِي بداية الكتاب:

---

[٥٢٥] المطبعة الْإِسْلَامِيَّة، طبع أثناء الحرب الْعَالَمِيَّة الأُولٰى وَ فِيهِ أخطاء طباعية كثيرة.

[٥٢٦] مثل "ملتقٰى الأبحر" وَ شرحه، مجمع الأبحر، تنوير الأبصار، الدّرّ المختار، الفتاوٰى الهندي وَ غيرها.

"وَ ينبغي أن يعلم أَيْضًا أن كل مَا صدرته "بأقوال" فهو من فكري القاصد لعدم إطلاعي عَلٰى النقل الصريح فِيهِ وَ إن كان مفهومًا من كلامهم عند التأمل فِيهِ."

وَ هَا هُوَ ذَا يتناوَل مسألة المهر فيقول:

"أقول وَ أما إذا سألنا عن بيان المعجّل منه، وَ لم يكن أَيْضًا عرف فِي تعجيل بعضه وَ تأخير باقيه بل كانت العرف تأجيله كله إِلٰى الموت أو الطلاق مع الدخول بها كما هُوَ عادة مأثورة وَ شريعة معروفة لأهل خوارزم.

علٰى مَا فِي "البحر" عند الزاهدي، وَ كذا لأهل ديارنا أَيْضًا، فالظاهر من كلامهم أن ليس لها ذٰلِكَ بلا خلاف لأن المعروف كالمشروط مَا لم يشترط خلافه."[٥٢٧]

أو كلامه عن نفقة إحدٰى الزوجات:

"وَ لو خرجت عن بيته لعدم رعاية قسمها هل لها النفقة لَمْ أرَ من تعرّض له... وَ الظّاهر لا، بل يأمرها القاضي أن تعود إِلٰى زوجها وَ يأمر أن يراعي قسمها فِي المستقبل وَ يؤد به إن امتنع."[٥٢٨]

---

[٥٢٧] كتاب النّكاح، ص ٥٨.

[٥٢٨] كتاب النكاح، ص ١٥٢.

وَ نلاحظ أن المؤلّف يهتمّ بالمسائل الحيّة التّطبيقيّة أكثر مِن اهْتمامِهِ بالمسائل النّظريّة، فهو يختار النظريات الَّتِي توافق الظروف وَ البيئة الَّتِي يعيش فيها. وَ من ذٰلِكَ كلامه عن الكسوة وَ الهدايا الَّتِي يجب إعطاؤها أثناء وُقُوعِ الطّلاق:

"أقول: "أدنٰى المتعة يجاوز غالبًا تمام المهر فِي ديارنا لأن المهور عندنا رخيصة غالبًا وَ الكسوة غالية، فلا يلزم المشقة فِي ديارنا غالبًا بل نصف مهر المثل."."[529]

وَ نختتم حديثنا عن علم الفقه بِالإِلْتِفَاتِ إلٰى أقدم كتاب ألّف فِي هٰذَا الموضوع فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ هُوَ "مجمع ترجيح البيّنات"[530] لحسن بن نصوح الْبُوسْنَوِيّ (Ḥasan bin Neşūḥ El-Bosnewī) وَ من الضّروريّ أن ننص عَلٰى أنه أقدم الكتب الَّتِي وقفنا عندها، وَ إنما أرجأنا دراسته ليكون خاتمة الفصل. وَ الكتاب عبارة عن أسئلة معقدة وَ أجوبة عَلَيْهَا، فيساعد بِذٰلِكَ الحكّام وَ القضاة فِي إتيان الحكم فِي الحالات المختلفة[531]، أما طريقته فِي عرض المادّة فهي إتيان بالفائدة، ضرب الأمثلة، وَ نذكر المصادر الَّتِي اعتمد عليها، مثلًا:

---

[529] كتاب النكاح، ص ٤٨.

[530] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٤٨٩/٢، تأريخ استكتابه السّادس وَ العشرون من محرّم سنة ١٠٩٤ ﻫ / الخامس وَ العشروي من يناير سنة ١٦٨٣ م.

[531] وَ لِذٰلِكَ نؤيد زعم بعض الباحثين أن مؤلّف الكتاب كان محاميًا.

"بيّنة التأريخ الأسبق أولٰى، إذا برهن الرّجلان عَلٰى نكاح إمرأة منكرة، مثلًا رجل أقام البيّنة عَلٰى نكاح امْرأة وَ قضٰى بها، ثمّ أقام آخر مثل ذٰلِكَ، لم يحكم بها إلّا أن برهن سابقًا فالأسبق أولٰى."[٥٣٢]

أو نأتي بِهٰذَا المثل الَّذِي يدور حول القضية نفسها:

"بيّنة العقل أولٰى من بيّنة الجنون، مثلًا، إذا ادّعٰى الزّوج أنّه كان مجنونًا وَقْت خلعه معها، وَ المرأة أنّه كان كامل العقل، وَ أقاما البيّنة فبيّنة العقل أولٰى."[٥٣٣]

وَ نذكر أخيرًا قوله:

"بيّنة الحرّيّة أولٰى من بينة الرّقّ، مثلًا، إذا اجتمعت بيّنة الرّقّ وَ بيّنة الحرّيّة، الحرّيّة الأصل، فبيّنة الحرّيّة أولٰى."[٥٣٤]

وَ هٰذَا الكتاب كما قد رأينا يختلف عن كتب الفقه الأخرٰى لأنّ المؤلّف، إِلٰى جانب فائدة الكتاب العلميّة، أقام فِيهِ حوارًا مستمرًّا حول المسائل المختلفة وَ أشعر القارِئ بأنّه يشترك فِي هٰذَا الحوار، وَ بِهٰذَا نختتم حديثنا عن المؤلّفات الفقهية فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ نأمل أن المادّة الَّتِي قدمت فِي هٰذَا الفصل أحسن

---

٥٣٢ وَرقة رقم B ١.

٥٣٣ وَرقة رقم A ١٩.

٥٣٤ وَرقة رقم B ٢٢.

دليل تشير إلى أهمّيّة هٰذا الموضوع وَ ضخامته وَ هُناك مجال وَاسع للدراسات المستقلّة فِيهِ.

التّأليف فِي علمِ العقائدِ

قبل أن نبدأ بذكرِ علماءِ الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ الَّذِينَ أَلّفوا فِي هٰذَا الموضوع نحبّ أن ننبّه إلى حقيقة مهمّة هِيَ أن هٰؤُلَاءِ جميعًا وَقفوا صفًّا وَاحدًا إلى جانب علماء أهل السنة وَ الجماعة، وَ حاربوا أنكار أهل الاعتزال، معنى ذٰلِكَ أن الصّراع المعروف بين هٰذَيْنِ المذهبين وَجد صراعًا فِي مؤلّفات الْبُوسْنَوِيِّينَ أَيْضًا، لٰكن لا نجد أن أحدًا من هٰؤُلَاءِ دافع عن المعتزلة. وَ فِي هٰذَا الفصل نقدم دراسة قصيرة عن الَّذِينَ أَلّفوا فِي هٰذَا الموضوع، وَ سوف نرجع إلى آثارهم بصورة خاصّة.

وَ أوّل كتاب من هٰذَا النوع عثرنا عَلَيْهِ فِي الْبُوسْنَةِ هُوَ "روضات الجنات فِي أصول الإعتقاد"[٥٣٥] لحسن كافي پْروشْتْشاق (Ḥasan Kāfī Pruščak) تمّ تأليفه سنة ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٩ م وَ طبع الكتاب فِي إِسْطَنْبُول سنة ١٣٠٥ هـ /

---

[٥٣٥] مكتبة الغازي خُسْرو بك، وَ مخطوطة منه فِي المعهد الشّرقيّ فِي سراييفو.

١٨٨٧ م، وَ تظهر فِي هٰذَا الكتاب فكرة المؤلف الأساسية، وَ هِيَ أن العلم له غايته وَ وظيفته فِي حياة الإنسان، وَ هٰذِهِ الغاية هِيَ الوصول بِهِ إِلٰى إدراك الحقيقة وَ فَهْمِهَا، فالإنسان إذا اتّبع طريق العلم الصّحيح، لَا بدّ أنْ يُؤَدِّيَ بِهِ إِلٰى الإيمان، وَ حديث الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –: "بني الإسلم عَلٰى خمس..." كانت قاعدة بنٰى عَلَيْهَا المؤلّف بنيانه هٰذَا، بل رتّبها حسب ترتيب أقوال الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – إِلٰى جبريل – عَلَيْهِ السَّلَامُ –. وَ سوف نعرض هٰذِهِ الرّوضات كما رتّبها صاحبها:

الروضة الأولٰى – وَ يتناول فِيهَا المؤلّف مشكلة العقيدة وَ يذهب إِلٰى أن الاعتقاد بالقلب هُوَ جوهر العقيدة، أمّا الأيمان باللّسان فهو شكل فقط، وَ يقول عن ذلك:

"لا وُجُود لِشَيْءٍ إِلَّا بوُجُود ركنه وَ الإنسان مؤمن فِي جميع الأزمان وَ لا وُجُود لِلْإقرار فِي كلّ لحظة وَ كذا العمل. وَ أَيْضًا أن الإيمان محدّد مصرف، وَ هُوَ لا يحمل إِلَّا عَلٰى جميع الأجزاء الحدّ وَ إذا انتفٰى جزء منها لا يجوز الحمل عَلٰى الباقي، فلو كان كَذٰلِكَ يلزم أن يكون مرتكب الكبيرة بل الصّغيرة كافرًا لانتفاء العمل إن انتفاء الجزء يوجب الانتفاء الكل، وَ إِلَّا يكون الأخرس الَّذِي لم يتكلّم فِي عمره بكلمة الشهادتين مؤمنًا، وَ ليس كَذٰلِكَ".

أمّا الرّوضات الأُخرٰى، فقد عالج فِيهَا الموضوعات التّالية:

يتناول فِي الرّوضة الثّانية مشكلة الإيمان بِاللهِ، ثمّ يفسّر الفرق بين وَاجِب الوجود، أمكانية الوجود، وَ عدم إمكانية الوجود، وَ هٰذِهِ المسائل، كما نعرف، قد نوقشت فِي علم القصائد كثيرًا.

وَ في الروضات الأخرٰى يتناول الإيمان بالملائكة، وَ الكتب المنزّلة، وَ الرسل، وَ يوم القيامة، وَ الغيب، وَ البعث.

كما كتب المؤلّف شرحًا عَلٰى هٰذَا الكتاب سمّاه "أزهار الرّوضات فِي شرح روضات الجنات"[٥٣٦]، جاء فِيهَا بتوضيحات وَ زيادات مفيدة، نضرب مثلًا لِذٰلِكَ: يقول فِي "روضات الجنات":

"يقال: "نبي وَاحد أفضل من جميع الأولياء."، وَ يقول فِي ذٰلِكَ فِي شرحه:

"هٰذَا ردّ عَلٰى بعض الالحاديّة فِي زعمهم أن من الولاية مَا هُوَ أعظم من النّبوّة، وَ أن الأنبياء وَ الرّسل يستفيدون من الولاية وَ يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، فِيهِ أَيْضًا إبطال لقول بعض المتصوّفة الضّالّة، إن من بلغ أقصٰى درجة الولاية وَ المعرفة كان أفضل خلق الله... وَ بطلانه ظاهر."[٥٣٧]

---

٥٣٦ مكتبة الغازي خُسرو بك، مخطوطة رقم ٩٢٥/١٥١٤.

٥٣٧ أزهار الرّوضات فِي شرح روضات الجنات، وَرقة A ٤٧ – A ٤٨.

وَ يتبيّن لنا من هٰذَا النّصّ أن حسن كافي (Ḥasan Kāfī) يُفنّد مزاعم تتعلّق بمحيي‌الدّين بن عربي، وَ تجاوز فعلًا بعض معجبيه إذْ زعموا أنّه أفضل خلق الله. وَ حينما نلاحظ وَ نقارن بين أصل (متن) الكتاب وَ شرحه، نرٰى أن الكتاب الأوَّل يهدف إلٰى فهم المسائل الاعتقادية من خلَال الوجهة المعينة أو الفكرة المعينة، وَ هِيَ طريقة أهل السنة، أمّا الكتاب الثاني فيهدف إلٰى فهم هٰذِهِ المسائل من خلال وَ جهات مختلفة. وَ يعرض المؤلف فِي شرحه آراء وَ أفكارًا للمذاهب المخلتفة، لكنه دائمًا يرجح طريقة أهل السنة وَ الجماعة. وَ نستطيع أن نقول أن كتابه الأول من الكتب المدرسية أما كتابه الثاني فهو من الكتب العلمية، لٰكن أسلوب المؤلّف – وَ هُوَ الْعَرَبِيَّة – ركِيك ركَاكَة وَاضِحة.

وَ لِهٰذَا المؤلّف كتاب ثان فِي هٰذَا الموضوع، عنوانه "نور اليقين فِي أصول الدّين"[٥٣٨]، وَ هُوَ فِي الحقيقة شرح لكتاب "بيان السّنّة وَ الجماعة" لِأبي بكر حماد بن مُحَمَّد الطّهاوي، وَ نفهم من مقدّمة الكتاب أسباب كتابته وَ الظّروف الَّتِي رافقت تأليفه، وَ نمثل بِهٰذَا النّصّ منه:

"إن خير مَا كتب فِي عقائد أهل السّنّة كتاب عقائد الطّهاوي، وَ قد شرحه غير وَاحد من العلماء وَ فقهاء الفضلاء، لٰكن بعضهم مال إلٰى أهل الكلَام المذموم وَ أشهد منهم وَ عبر تعبيرهم الموهوم، وَ بعضهم سلك مسلك التّطويل وَ التّفضيل بحيث لا يكاد يضبط بالتّحصيل... فشرحته شرحًا تتسارع ألفاظه إلٰى اللّسان وَ الأذكاء، وَ تتسابق

---

[٥٣٨] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ١/١٥١٤.

معانيه إلى الأذهان وَ الأفكار... وَ لما تمّ تحريره وَ تسويده وَ كمّل تقريره وَ تجويده عند محاصرة قلعة أسْتَرْغوم[٥٣٩] (Estergom (Ostrogon)) حماها الله وَ فاتحها عن نكبات المنون قبل الفتح بيومين وَ هُوَ اليوم الثالث عشر من جماذى الأولى لسنة أربع عشرة وَ ألف من الهجرة النبوية جعلته هدية إلى حضرة الوزير الأعظم الوزير الغازي مُحَمَّد باشا[٥٤٠].

وَ كتاب الطّهاوي، كما هُوَ معروف، خال من الأسئلة، وَ نأتي بنص وَاحد من كتابه:

"نقول فِي توحيد اللهِ معتقدين بتوفيق اللهِ: إن الله لا شريك له وَ لا شيء مثله، وَ لا شيء يعجزه، وَ لا إله غيره، قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى يبيد، وَ لا يكون إلّا مَا يريد، لا تبلغه الأوهام، وَ لا تدركه الأفهام، وَ لا يشبهه الأنام، حيّ لا يموت، قيّوم لا ينام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤونة، مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقّة، مَا زال بصفاته قبل خلقه، لمْ يزدْ بكونهم شيئًا لم يكنْ قبلهم من صنعته."[٥٤١]

---

[٥٣٩] أشهر القلاع العسكرية فِي تِلْكَ الفترة، وَ اسم المدينة بِاللُّغَةِ المجريّة: Esztergom.

[٥٤٠] وَرقة B ٢، AB ٣ من المخطوطة.

[٥٤١] وَرقة رقم B ٥.

وَ يشرح حسن كافي فِي هٰذِهِ الأقوال بضرب الأمثلة الكثيرة، وَ نسرد فِي هٰذَا المكان كيف يشرح كلمة "وَ لا يكون إلَّا مَا يريد" من النَّصّ:

"هٰذَا إثبات صفة الإرادة لأن كل موجود سواه فهو بإرادته وَ تكوينه، وَ ردّ لقول القدرية وَ المعتزلة، إن الله – تعالٰى – أراد الإيمان وَ الكافر أراد الكفر، فإنّ قولهم فاسد مردود لمخالفته الكتاب وَ السّنّة وَ المعقول الصّحيح... وَ المحققون من أهل السنة عَلٰى أن الله – تعالٰى – وَ إن كان يريد المعاصي قدرًا فهو لا يحبّها وَ لا يرضاها وَ لا يأمر بها، بل يبغضها وَ يكرهها وَ ينهٰى عنها، وَ يقولون: "مَا شاء الله كان، وَ مَا لم يشأ لم يكن."[٥٤٢]

وَ لعلّ النّصّ التّالي يكون أوضح من سابقه، وَ فِيهِ يشرح حسن كافي قول الطّهاوي عن الله – عزّ وَ جلّ –، وَ هُوَ هٰذَا القول:

"وَ كرما، لا من حيث وُجُوب مراعاة الأصح كما زعمت المعتزلة، لأنه لا حاكم عَلٰى الله – تعالٰى –، وَ لأنه لو وجب شيْء عَلَيْهِ، فإن استوجب الذّمّ بتركه كان ناقصًا مستكملًا بفعله وَ هُوَ محال، وَ إن لم يستوجب لم يتحقّق الوجوب."[٥٤٣]

---

[٥٤٢] وَرقة B ٥ – A ٦.

[٥٤٣] وَرقة AB ١٣.

وَ من هٰذِهِ الأمثلة القليلة تظهر جهود المؤلف فِي طرح الأمثلة المنطقية حَتّٰى يثبت النظرية الَّتِي يسعٰى لإثباتها، وَ يميز شرحه بتوضيحات كثيرة لا نجدها فِي الكتب الأخرٰى الَّتِي تناولت كتاب الطهاوي كما يتميز بوضوح اللغة وَ سهولتها.

وَ نلتقي الآن مع عالم من علماء البوسنة التقينا به خلال البحث أكثر من مرة وَ هُوَ مُحَمَّد موسٰى الْبُوسْنَوِيّ (Muḥammed Mūsā El-Bosnewī) علامك الَّذِي ألّف كتابًا قيّمًا فِي هٰذَا الموضوع، وَ هو: "حاشية علّامك عَلٰى شرح المواقف"[٥٤٤]، وَ الكتاب، كما يظهر من عنوانه، حاشية عَلٰى شرح الجرجانيّ عَلٰى كتاب "المواقف فِي علم الكلام" لِلْإِيجي (El-Īdžī) وَ كانت الحاشية غير معروفة عنها حَتّٰى الستينات من هٰذَا القرن حينما ذكرها لأول مرة كامل البوهي[٥٤٥] (Kāmil El-Būhī) وَ قد اخْترنا من هٰذِهِ الحاشية نصّا يذكر فِيهِ المؤلّف أسباب كتابتها وَ هُوَ النّصّ التّالي:

"أما بعد، فيقول العبد المفتقر إِلٰى التّوفيق الإلٰهي وَ الإمداد النّبويّ، أحقر خلق الله مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ، قد جاءَنِي يومًا بعض أصحاب التّحصيل الطّالب للهداية إِلٰى سواء السّبيل، فقال: "قد أشكل عَلٰى الأمر وَ الحال، وَ كنت إِلٰى ترك المطالعة وَ السلوك مسالك

---

٥٤٤ مخطوطة رقم ٤٢٦٢٦، المكتبة الجامعيّة (Univerzitetska biblioteka) بلغراد، يحتوي عَلٰى ١٣ صفحة، فهي الرّسالة الأخيرة فِي المخطوطة المذكورة.

٥٤٥ آثار الْيُوغُسْلَافِيِّينَ بِالْعَرَبِيَّةِ، الدّكتور كامل البوهي، ص ٢٦٨.

الجهال، إذ كلّما قلت شيئًا لعلمائنا الأعلام من سؤال أو جواب لم يلتفتوا إلٰى، بل افتوا بعدولي عن سبيل الصّواب قائلين أن أرباب التّصنيف لا ينسبون إلٰى الخطأ وَ النّسيان وَ ليس لنا شيْء سوٰى الاقتصار عَلٰى الفهم وَ الأذهان، وَ الفهم هُوَ الموجب للزيادة وَ النّقصان، فقل لي كيف يفعل الإنسان، فلما سمع منٰى أن القائل بِهٰذَا لا يعتد بكلامه، لم يقنع بل رام مَا يهديه إلٰى مرامه، فسألته النّظر إلٰى أحوال أئمتنا المجتهدين وَ أفعال من يعتني بشأنه من المنصفين الهادين المهتدين هل يرٰى فيهم أحدًا لم يرد وَ لم يردّ، وَ هل يجد سبيلًا إلٰى كون العالم من ليس له إلّا ا لنّقص وَ الإبرام وَ القبول وَ الرّدّ، كيف وَ قد اهْتمّوا بإخراج التقليد عن تعريف العلم جزمًا، بل اختلفوا فِي صحّة إيمان مقلد القوم حتمًا، ثم قلت إن قولهم هٰذَا مخالف لحكم النّبيّ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –، بأن الإنسان قد حمل عَلٰى النقصان بل النّصّ الْقُرْآنِيّ وَ كلام الله الرحمٰن، فإن قوله – تعالٰى – علوًّا كبيرًا: ﴿أَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَۚ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[٥٤٦]، يقتضي انتفاء الكمال فِي جميع المصنفات البشرية. إلّا ترٰى أن سيد المحققين الكرام وَ سلطان المدققين العظام مع كونه أعلٰى من مشاهير المتأخرين العلامة التنفتازاني... قد أخطأ فِي كل من تصانيفه فِي غير محل، كما لا

---

[٥٤٦] الْقُرْآن الكريم، سورة النّساء، الآية ٨٢.

يذهب عَلٰى المتتبع من أصحاب العقد وَ الحلّ، فدعا لي خيرًا ثم التمس من هٰذَيْنِ النَوعيْنِ (أحدهما الصّواب المردود، وَ الآخر الخطأ المغفول عنه) فأتيت من كل منهما بمقدار مَا يتم به النصاب، فاقسم بالله ان هٰذَا لشيء عجاب، وَ اقترح أن اكتب له مَا سمعه من ذٰلِكَ الأمر الجليل، فامليته، وَ دفعته إِلَيْهِ وَ نحن فِي هٰذَا المجلس الجميل."[٥٤٧]

وَ يعرض المؤلّف بعد ذٰلِكَ اخْتِلَاف العلماء حول "البسملة" هل هِيَ جزء من إحدٰى سور الْقُرْآن الكريم أو انّها ليست جزءًا منها وَ يذكر أسماء العلماء الَّذِينَ ذهبوا إِلٰى الرَّأْيِ الأَوَّلِ وَ الثاني، وَ نراه بعد ذٰلِكَ يعارض رأي العلماء الَّذِينَ يتناولون الاخْتِلَاف بين التفتازاني وَ شرح المواقف فِي هٰذِهِ المسألة وَ يثبت أنه ليس هناك اخْتِلَاف بينهما.

وَ نرٰى من هٰذِهِ النّصوص أن المؤلّف لا يخشٰى أصحاب الأسماء الكبيرة وَ الشّهيرة حَتّٰى يغضّ البصر عن أخطائهم، وَ هُوَ لا يضع لعقله الحدود وَ القيود حين يتكلّم عنهم وَ عن آثارهم، بلْ كان يصوّب الأخطاء الَّتِي وقع فِيهَا كتّاب الحواشي علٰى "شرح المواقف" وَ بفضل نظرته السليمة المنطقية فِي الموضوع أحرز نجاحًا ملحوظًا فِي هٰذَا السبيل.

---

[٥٤٧] حاشية علاّمك عَلٰى شرح المواقف، وَرقة B ١٤٤ - A ١٤٥.

وَ من علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الَّذِينَ كتبوا فِي علم العقائد نذكر أحمد بيازي زاده[٥٤٨] (Aḥmed Bejāzī Zādē) الَّذِي عرف بكتابه "إشارات المرام من عبارات الإمام"[٥٤٩] وَ لقد قام المؤلف فِي هٰذَا الكتاب بعمل خطير وَ صعب وَ هُوَ جمع مَا كتبه الإمام أبو حنيفة فِي علم العقائد. وَ يقسم بيازي زاده كتابه هٰذَا إِلٰى مقدمة وَ ثلاثة أبواب وَ خاتمة. أما المقدمة فيأتي فِيهَا بتعريفات لعلم العقائد وَ أهميته وَ مكانته بين العلوم الأخرٰى. وَ يناقش فِي الأبواب الثلاثة مسألة وُجُود الله متناولًا صفاته الذاتية وَ الثبوتية، وَ يتحدث فِي الخاتمة عن معجزات الأنبياء صلوات الله وَ سلامه عليهم. وَ نذكر عَلٰى سبيل المثال بعض الأقوال لِلْإمام أبي حنيفة، ثم بعد ذٰلِكَ ندرس كلام المؤلف فيها. يقول الإمام أبو حنيفة فِي كتابه "فقه العبادات":

> "فما أحدث الناس من الكلام فِي الأعراض وَ الأجسام فمقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وَ طريقة السلف، وَ إياك وَ كل محدثه فإنها بدعة."[٥٥٠]

وَ يفسّر المؤلّف كلمة "البدعة" فيقول:

---

[٥٤٨] وَ هُوَ من أصل بُوسْنَوِيّ، درس العلوم الإِسْلَامِيَّة فِي كلّ من إسْطَنْبُول وَ أدِرْنه، وَ كان قاضيًا فِي حلب وَ مكّة المكرّمة وَ إسْطَنْبُول، توفّى سنة ١٠٨١ هـ/ ١٦٨٦ م.

[٥٤٩] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ١٨٩٤، تحتوي عَلٰى ٢٣٤ وَرقة وَ لِهٰذَا الكتاب مخطوطة ثانية فِي المكتبة نفسها، رقم ٣٩٩٩.

[٥٥٠] وَرقة رقم B ٢٧ من المخطوطة.

"وَ فِيهِ إشارات:

- الأولٰى: أن مَا أحدثوه فِي الكلام المخالف لأصول الإسْلَام مبني عَلٰى أوهام فِي أصولهم المختلفة الَّتِي بنوا عَلَيْهَا الأحكام، وَ إِلَيْهِ أشار بالأحداث وَ القالات،

- وَ الثَّانية: أن السّلف كانوا يطلقون الكلام عَلٰى كلام المخالفين دون كلام أهل السنة المبني عَلٰى الكتاب وَ السنة، بل يميزونه بتسميته الفقه الأكبر، وَ أصول الدين كما ذكره البيهقي وَ غيره.

وَ لم يكتف المؤلّف بسرد أقوال الإمام أبي حنيفة وَ تفسيره بل يأتي باستنتاجاته الدقيقة المنطقية حول مجموعة مسائل يناقشها، وَ نأتي بِهٰذَا النص برهانًا عَلٰى مَا نذهب إليه:

"إن خلقه وَ أفعاله متقن مشتمل عَلٰى الصنع الغريب وَ الترتيب العجيب، وَ من كان فعله كَذٰلِكَ فهو عالم، أما الصغرٰى فظاهرة لمن نظر فِي الآفاق وَ الأنفس وَ إرتباط العلويات بالسفليات، وَ مَا أعطٰى النحل وَ العنكبوت من العلم بما يفعله من البيوت بلا آلة، كما دلّ قوله – تعالٰى –: ﴿وَ أَوْحٰى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ﴿٦٨﴾﴾[551]، وَ أَمَّا الكبرٰى

[551] الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة النّحل، الآية ٦٨.

فضرورية، وَ قد تنبّه إِلَيْهَا بان من رأى حطوطًا حسنة أو سمع الفاظًا عذبة تدل عَلٰى معانٍ دقيقة جزم بأن مصدرها عالم."[٥٥٢]

وَ يتبيّن لنا من هٰذِهِ النّصوص أنّ المؤلّف كان متمكّنًا فِي الْعَرَبِيَّة وَ أنّ له أسلوبًا جميلًا، وَ نستطيع أن نقول أن هٰذَا الكتاب من أحسن الكتب الَّتِي وَ جدناها لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي هٰذَا الموضوع، وَ أنه فاق مؤلفات أخرٰى موضوعًا وَ فكرًا وَ أسلوبًا. كما أن مشكلة هٰذِهِ المؤلفات جميعها أنها غير مدروسة وَ عَلٰى هٰذَا فقيمتها العلمية غير معروفة فِي الإوساط العلمية.

وَ لَقَد ألّف مصطفٰى أيّوبوفيتْش (Muṣṭafā Ejjūbović) كتابيْن فِي هٰذَا الموضوع، هُما: "بدر المعالي فِي شرح بذء الأمالي" وَ "حاشية عَلٰى شرح القصيدة اللّاميّة للقاراباغي ((Qārābāġī (Karabagi)):

١- بدر المعالي فِي شرح بذء الأمالي:

يشير بعض الباحثين الْبُوسْنَوِيِّينَ مثل الدّكتور حازم شَعْبَانُوفِيتْش وَ مُحَمَّد موشيتْش (Muḥammed Mušić) إِلٰى وُجُود هٰذِهِ المخطوطة فِي المعهد فِي سراييفو تحت رقم ٥٧/٥٠، لٰكنّنَا وَجَدْنَا تحت هٰذَا الرّقم "شرح لاميّة لقَارَاباغي (Qārābāġī)، وَ معنٰى ذٰلِكَ أن هٰذَا الكتاب ليس "بذْر المعالي فِي شرح بذء المعالي" لمصطفٰى أيوبوفيتش كما زعم الباحثان الْبيوسنويَّان وَ إنّما هُوَ شرح لاميّة

---

[٥٥٢] إشارات المرام من عبارات الإمام، وَرقة B ١٠٢ – A ١٠٣.

لقَارَاباغي (Qārābāġī)، أما مصطفٰى أيّوبوفيتْشْ، فقد كتب حاشيته عَلٰى هٰذَا الشّرح تحت عنوان:

٢- حاشية عَلٰى شرح القصيدة اللامية لقَره باغي[٥٥٣].

وَ من المعروف أن سراجالدّين عليّ بن عثمان الإيجي الفرغاني نظم قصيدة "لاميّة" تحتوي عَلٰى أربعة وَ ستّين بيتًا، فسمّاها "بدْء الأمالي" يقول فِي أوّلها:

"يقول العبد فِي بدْء الأمالي

لتوحيد بنظم كاللّآلي"

وَ لَقَد عرض المؤلّف فِي قصيدته هٰذِهِ المبادئ العامّة فِي علم العقائد لٰكنّه لم يشرحها وَ لم يفسرها، لِذٰلِكَ نجد أن الكثيرين ألّفوا شروحًا عَلَيْهَا وَ من بينهم مصطفٰى أيّوبوفيتش الموستاريّ (Muṣṭafā Ejjūbović El-Mostarī) لٰكنّنا لم نعثر عَلٰى هٰذَا الكتاب وَ إنّما وَجَدْنَا له حاشية عَلٰى شرح قَارَاباغي الَّذِي رَأى أيّوبوفيتْشْ ضرورة كتابته عَلَيْهِ. يقول قَارَاباغي عَلٰى هٰذَا البيت:

وَ كونوا عون هٰذَا العبد دهْرًا

بذكر الخير فِي حال ابتهال

---

[٥٥٣] المعهد الشرقي فِي سراييفو، مخطوطة رقم ٥٠/٥٧.

""عون" وَ هُوَ مصدر بمعنٰى المعين وَ هُوَ مضاف إلٰى "هٰذَا" المجرور محلًّا وَ "هٰذَا" مضاف إلٰى "العبد"."[554]، وَ يقول أيَوبوفيتْشْ عَلٰى ذٰلِكَ فِي حاشيته:

"قوله: "وَ "هٰذَا" مضاف إلٰى "العبد"."، هٰذَا سهو من قلمه، وَ الصّواب: العبد صفة لِهٰذَا."[555]

وَ لٰكن، كاتب الحاشية، وَ إن اعترض عَلٰى بعض مَا ذهب إلَيْهِ شارح اللّاميّةِ، إلَّا أنه لا يخالفهفي كل مكان، فنستطيع أن نقول أنهم جميعًا كاتب القصيدة، وَ كاتب الشرح وَ الحاشية أتباع مدرسة وَاحدة وَ مذهب وَاحد، فهم متفقون فِي المبادئ الأساسية. وَ نذكر أخيرًا أن المؤلف فِي هٰذِهِ الحاشية الَّتِي تحتوي عَلٰى خمس وَ أربعين وَرقة (أي تسعين صفحة) ينتهز كل فرصة ليحارب أنصار أهل الإعتزال وَ الخوارج مثلما فعل كاتب اللّاميّة وَ شارحها.

---

[554] وَرقة رقم A ٢٨ – نلاحظ أن الشّارح نفسه ارْتكب غلطة إعرابيّة شنيعة، فقد أعرب "هٰذَا" مضافًا إلٰى العبد، وَ الصّواب أن "عون" مضافة إلٰى "هٰذَا" الَّتِي هِيَ اسم إشارة معرفة، وَ المعرفة يصحّ أن تكون مضافًا إلَيْهِ وَ هِيَ لا تضاف لِأن المضاف نكرة دائمًا.

[555] أما قوله "العبد صفة لِهٰذَا" فهو خطأ آخر أشنع لِأن الصّفة تكون كلمة مشتقّة مثل حقير وَ خطير وَ مسكين، أمّا "العبد" فهي اسم جامد وَ الاسم الجامد لا يكون صفة مطلقًا فِي النّحو.

وَ نود فِي النهاية أن نشير إِلٰى رسالتين صغيرتين فِي هٰذَا الموضوع وَ كلتاهما لمُحَمَّد الخانجي (Mehmed Handžić) وَ هما:

١- رسالة الحّق الصّحيح فِي إثبات نزول سيّدنا المسيح[٥٥٦]،

٢- صافي المرهم، الشّافي لقلب من يدعي موت عيسٰى بن مريم[٥٥٧].

أمّا الرّسالة الأولٰى، فقد قسمها إِلٰى مقدّمة وَ ثلاثة أبواب، وَ قد قال فِي مقدمتها:

"نزول سيّدنا المسيح بن مريم – عَلَيْهَا السَّلَامُ – ثابت بالقرْآن وَ السّنّة وَ إجماع الأئِمةِ، فلنعقد لِلإستدلَالِ بكلّ وَاحد من هٰذِهِ الثلاثة فصلًا."[٥٥٨]

ثمّ يمشي الخانجي وَ يعرض الأدلة، فمن القرآن الكريم يستدل بالأية الكريمة:

﴿وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾.[٥٥٩]

---

٥٥٦ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٢٦٥٠.

٥٥٧ نفس المخطوطة، وَ كتب هٰذِهِ الرّسالة فِي القاهرة سنة ١٩٣٠ م / ١٣٤٨ هـ.

٥٥٨ وَرقة رقم A ٣٨.

ثمّ يأتي بأحاديث كثيرة نتناول نزول المسيح – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَ يقول بأن الَّذِينَ لا يذهبون هٰذَا المذهب من العلماء أنّهم الفلاسفة وَ الملحدون وَ لٰكن آراء هٰؤُلَاءِ لا تقلّل قيمة الإجماع.

أمّا فِي رسالته الثانية فقد اعتمد عَلٰى الآية الكريمة:

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسٰى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلٰى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٥٥﴾﴾.[٥٦٠] يحاول الذّهبيّ أن يثبت أن موت المسيح – عَلَيْهِ السَّلَامُ – ليس موتًا حقيقيًّا بل هُوَ موت من نوع آخر! وَ هٰذَا الزّعم من الخانجي، بعد مَا سمعناه فِي الرّسالة أمر طبيعيّ، لٰكنّه لم يفسر، كما لم يفسّرْ كلّ من ذهب هٰذَا الرأي من قبله، أي نوع من الموت هٰذَا، عندما لا يعده موتًا حقيقيًّا!

وَ سوف نكتفي فِي هٰذَا الفصل بمن أشرنا إليهم من علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الَّذِينَ ألّفوا فِي علم العقائد، وَ هم:

- حسن كافي پْروشْتْشاقْ (Ḥasan Kāfī Pruščak)،

---

[٥٥٩] الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة النّساء، الآية ١٥٩.

[٥٦٠] الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة آل عمران، الآية ٥٥.

- مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ (Muḥammed bin Musa El-Bosnewī)،

- مصطفٰى أيّوبوفِيتْشْ (Muṣṭafā Ejjūbović)،

- أحمد بيازي زاده (Aḥmed Bejāzī Zādē)،

- مُحَمَّد الخانجي (Mehmed H̱āndžić).

وَ قد رأينا أن جميع هٰؤُلَاءِ العلماء قد تناوَلوا فِي مؤلّفاتهم المسائل الوطيدة بين هٰذِهِ المؤلّفات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ وَ بين المؤلّفات المماثلة فِي العالم الإِسْلَامِيّ، قد لاحظناها فِي هٰذَا الميدانِ كَذٰلِكَ.

المؤلّفات فِي علم التّصوّف

سبق أن ذكرنا أن علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك عرفوا بمؤلّفاتهم الكثيرة فِي علم التّصوّف. وَ سوف نحاول فِي هٰذَا الفصل أن نلقي نظرة قصيرة عَلٰى هٰذِهِ الآثار وَ حياة أصحابها الَّذِينَ لم يكتبوا فِي التصوف فحسب، بل عاشوا حياتهم كالمتصوفة الحقيقيين، وَ من خلال هٰذِهِ الآثار يستبين لنا صورة عن نوع التصوف وَ درجة التمسك به فِي المنطقة. وَ أولٰى هٰذِهِ المؤلفات الَّتِي نعرف عنها

فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ بل فِي يُوغُسْلَافِيَا كلّها كتاب "خواتم الحكم"[٥٦١] لِعَلَاءِالدِّينِ عَلِيّ دمده الموستاريّ (‘Alā’ud-dīn ‘Ali Dede El-Mostarī) غادر مسقط رأسه، مدينة موستار، متوجّهًا إِلَى إِسْطَنْبُول طلبًا للعلم وَ انضمّ هُنَاك إِلَى طريقة صوفيّة خَلْوَتيّ (Halwetijje)، وَ لقد عرف هٰذَا المؤلّف بكثرة سفراته وَ تنقّلاته فِي الشّرق وَ أقام أخيرًا فِي مدينة سيغت[٥٦٢] (Siget) وَ عيّن شيخًا فِي زاوية السلطان سليمان، وَ لقب بشيخ التّربة[٥٦٣] وَ عندما قام أحد القواد الْعُثْمَانِيِّينَ وَ هُوَ شاترجي مُحَمَّد (Šaturdžī Muḥammed) بحملة عسكريّة عَلَى مدينة وَاراد[٥٦٤] (Varad) دعا هٰذَا الأخير عليّ دمده ليشجّع جيشه، وَ توفّي عَلِيّ دمده أثناء رجوعه من الحملة فِي منطقة غيولا (Gijola) ثمّ نقل جثمانه إِلَى سيغت (Siget) وَ دفن هُنَاك سنة ١٠٠٧ هـ/ ١٥٩٨ م.

---

[٥٦١] طبع الكتاب فِي القاهرة (المطبعة الشرقية) سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م، يحتوي عَلَى ٢٠٤ صفحة.

[٥٦٢] سيغَتْ (Siget).

[٥٦٣] التّربة أيْ مقبرة السلطان المذكور.

[٥٦٤] إحدَى القلاع الحصينة فِي الجزء الشرقي من الْبُوسْنَة.

وَ ألّف عليّ دمده "خواتم الحكم" فِي مدينة سيغت سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ م وَ ليس فِي مكّة المكرّمة كما زعم بعض الباحثين[٥٦٥]، وَ نرٰى ذٰلِكَ من النّصّ التالي من "خواتم الحكم":

"وَ قد يسّر الله – تعالٰى – افْتِتَاحه وَ اخْتِتَامه بجمعه وَ تهذيبه فِي المشهد السليماني وَ المرقد الرّوحاني بقرب حصن سِيغتْوَار (Szigetvár) حماه الله – تعالٰى – بعين عنايته إلٰى يوم القرار."[٥٦٦]

وَ الحقيقة أن هٰذَا الكتاب عبارة عن ثلاثمائة وَ ستّين سؤالًا وَ جوابًا عَلَيْهَا وَ نجد فِيهِ الأشياء الَّتِي لا تستحق الدّراسة العلميّة لأنّها أقرب إلٰى الخرافات منها إلٰى الحقيقة، فنراه فِي الصفحة الثالثة من "خواتم الحكم" يقول:

"وَ قصدت أَيْضًا بترتيبها وَ برنامجها وَ أنوذجها افتتاح المائة الأولٰى بعد الألف الأوّل من الميزان وَ أَيْضًا افتتاح الثّاني منه وَ هُوَ الألف البرزخي نصفه من الدّنيا وَ نصفه من الآخرة، فصارت رسالتي هٰذِهِ بحمد الله الملك الفتّاح كالخاتم وَ المفتاح فِي آخر الألف وَ أول الألف الثاني."[٥٦٧]

---

[٥٦٥] غلَاسنيقْ، مُحَمَّد الخانجي، مجلّة المشيخة الإسْلَامِيَّة، العدد ٧، ص ١٣، سنة ١٩٣٣ م.

[٥٦٦] خواتم الحكم، ص ٨.

[٥٦٧] خواتم الحكم، ص ٣.

ويزعم المؤلف فِي موضع من كتابه أن هٰذَا العالم سوف يدوم حَتَّٰى سنة ١٥٠٠ هـ/ ٢٠٧٦ م، وَ أن هٰذَا التأريخ هُوَ الحدّ النّهائي لوجوده!

وَ لا شكّ فِي أن المؤلّف اطّلع فِي بعض كتب الصّوفيّة عَلٰى هٰذَا النّبإ، وَ أشباهه من نبوءات، وَ مع أنها تناقض التعاليم الإِسْلَامِيَّة إِلَّا انه كان موقنًا بصحّتها فنراه يقول:

"وَ لا يجوز الزّيادة عَلٰى خمسمِائة بعد الألف لعدم وُرُود الأخبار فِي ذٰلِكَ، وَ عدم اقتضاء البراهين وَ الشّواهد عند أهل الظّواهر وَ البواطن."[٥٦٨]

وَ يدخل المؤلّف بعد ذٰلِكَ فِي المناقشات الفلسفية الَّتِي تدور حول الحسابات الزّمنيّة وَ الفلكيّة فيقول:

"فمعرفة الزّمان وَ المكان عند العارفين من أعزّ المعارف وَ أجلّ الحقائق، فمن اطّلع عَلٰى سير الزّمان وَ المكان فقد بدا له سرّ توحيد الذّات وَ الصّفات."[٥٦٩]

وَ نرٰى من ذٰلِكَ أن المؤلّف كان تحت تأثير محييالدّين بن عَرَبِيّ الَّذِي أكثر فِي الكتابة عن سرّ الزّمان، وَ خصّص له فصلًا كاملًا فِي كتابه "الفتوحات

---

[٥٦٨] خواتم الحكم، ص ٣.

[٥٦٩] خواتم الحكم، ص ٧.

المكّيّة" وَ يذكر عليّ دمده فِي مقدمة كتابه أنّه اعتمد عَلٰى هٰذَا الكتاب[٥٧٠]. وَ يبدأ المؤلّف بعد المقدمة بطرح الأسئلة وَ الإجابة عنها وَ أولٰى هٰذِهِ الأسئلة:

"مَا الحكمة فِي أن كانت لا إلٰى إلّا الله مُحَمَّد رسول الله سبع كلمات وَ لم كانت أربعة وَ عشرين حرفًا؟"

وَ يجيب عَلٰى هٰذَا السؤال، فيقول أن الكلمات السّبعة تتناسب مع أبواب جهنم السّبعة، وَ الشّهادة يوقي قائلها من وُقوعه فِي النّار، أمّا أربعة وَ عشرين حرفًا فيربطها المؤلّف بأربعة وَ عشرين ساعة فِي يوم وَاحد فرض فِيهِ الصّلوات الخمسة. فمن المعروف أن الحروف عند الصّوفيّين لها معان عظيمة وَ مجهولة وَ لا تتّفق هٰذِهِ المعاني مع المعاني اللُّغَوِيَّة البحتة وَ يموج علي دمده فِي هٰذَا الموضوع، فنراه يجيب عن السّؤال الثّالث وَ الثّلاثين، وَ يدور حول الآية الأولٰى من سورة الإسراء[٥٧١]:

"مَا الحكمة فِي أن أدخل الله الباء فِي "بعبده"؟"

وَ يجيب المؤلّف عن هٰذَا السؤال فيقول:

---

[٥٧٠] خواتم الحكم، ص ٧-٨.

[٥٧١] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة الإسراء، الآية ١.

"قال الشّيخ الأكبر وَ المسك الأزفر – قدّس سرّه –، أدخل الباء فِي بعبده عند المحقّقين لأمرين، الأمر الواحد من أجل المناسبة بين العبوديّة الَّتِي هِيَ الذّلّة وَ التّواضع وَ كذا الباء حرف الخفض وَ الكسر، فان كلّ ذليل منكسر، وَ كذا الباء حرف وصلة الصّاق روحاني، وَ هِيَ أوّل[٥٧٢] موجود فِي المرتبة الثانية من الوجود متحققة بحقيقة الحضرة الأحمدية وَ فِيهَا سرّ الاستعانة بالله، فالباء صورة العقل الأول، وَ هُوَ الحقيقة المحمدية وَ هُوَ الباء، نقول بالحق ظهرت الأشياء لأن الباء اسم لِهٰذِهِ الحقيقة المعقولة، وَ لها اسام عند أهل الله، وَ أحسن أسمائها الباء... فالباء حرف شريف، وَ من كمال شرفه افتتح الحق به كتابه العزيز، فقال: بسم الله، فبدأ بالباء، وَ كذا بدأ بها فِي كل سورة، وَ لما أراد سبحانه أن ينزل سورة التوبة بغير بسلمة ابتدأ فِيهَا بالباء فقال: براءة من الله، فبدأ بالباء دون غيرها من الحروف... فافهم سرّ الباء فِي "بعبده"."[٥٧٣]

---

٥٧٢ يرٰى بعض المتصوّفة أن الألِفَ هُوَ رمز لِاسْمِ اللهِ – تَعَالٰى – وَ البَاءَ رمزٌ لِاسْمِ مُحَمَّدٍ – صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –.

٥٧٣ خواتم الحكم، ص ٤٩-٥٠.

وَ لَقَد تناوَل مسألة الحروف بعض علماء العرب[574] لكنهم أشاروا إِلٰى الناحية اللغوية وَ الموسيقية للحروف، لكننا نلتقي فِي هٰذَا المكان بالنظرة الصوفية حول هٰذِهِ المسألة، وَ مهما كان فهذه فكرة عجيبة وَ إن كانت غريبة وَ بعيدة عن فهم القارئ العادي إِلَّا أنها قريبة بالنسبة إِلٰى الصوفيّ. وَ لا ينظر المؤلف هٰذِهِ النظرة إِلٰى الحروف فحسب بل إِلٰى الإعداد أَيْضًا، فهو يؤمن بأن الأعداد المذكورة فِي القرآن الكريم وَ فِي الحديث النبوي الشريف لها معان رمزية غير المعاني اللغوية وَ يحاول أن يكشف سر هٰذِهِ الأرقام فيقول:

"أقول مَا اختار النَّبيّ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – استْعمال الأعداد عَلٰى قاعدة استْعمال العرب مطلقًا، بل رمٰى فِي اختياره – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – اسرارًا حكيمة وَ خواصًا جليلة[575] ربانية، لها تأثيرات الهية عن عوالمها الموضوعيّة لها من الأفلاك الرّوحانيّة حاشاه حاشاه ثمّ حاشاه من مطلق العبادة بغير أسرار وَ إشارة لأنه أعلٰى – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – جوامع الكلم لفظًا وَ معنٰى."[576]

---

[574] وَ من هٰؤُلَاءِ ابن جنّي الَّذِي ألف كتابه "خصائص الْعَرَبِيَّة" وَ فِيهِ فصل كامل تكلّم فِيهِ عن الحروف، وَ ذٰلِكَ تحت عنوان "تشابه الحروف لتشابه المعاني".

[575] يَتَجَلّٰى لنا من هٰذَا النّصّ أن المؤلّف كان ضعيفًا فِي النّحو، فهو يقول: "أسرار حكيمة وَ خواصًا جليلة" فيأتي بكلمة (خواصّ) منوّنة وَ لا يدري أنّها كلمة ممنوعةٌ من الصّرف لا تنوّنُ، وَ الصّواب أن يقول: "اسرار حكيمة وَ خواصُّ جليلة".

[576] خواتم الحكم، ص ٥٠.

وَ الواقع أننا نلتقي فِي هٰذَا الكتاب بأفكار هِيَ أقرب إلٰى الخرافات لأنها خلو من النظرة العلمية وَ الفلسفية بل خلو حَتّٰى من النظرة الصوفية وَ لنقف عند كلمة – التوحيد – فِي كتابه، فيقول:

"شبهت كلمة التّوحيد بالشّجرة الطّيّبة وَ هِيَ النّخلة خلقت من طينة آدم – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، فهي (أي النّخلة) عمّتنا."[٥٧٧]

إن مثل هٰذَا التّفسير لا يحتاج إلٰى أي تعليق، وَ لا نريد باختيار هٰذِهِ الأمثلة القليلة أن نستهين به وَ نقلل من قيمته، لكن هٰذِهِ النصوص ا لتي أوردناها تسيء إلٰى السمعة العلمية لكتب اخواننا مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك إذا أردنا أن نحكم عَلٰى مؤلفاتهم العلمية وَ الأدبية من خلال هٰذَا الكتاب. وَ الجدير بالذكر أن ناشر الكتاب أشار إلٰى هٰذِهِ الخرافات فيه، لكنه يعتقد بأنها زيدت فِيهِ وَ ليس من قول المؤلف، فيقول:

"قال طابعه من قوله: "وَ قد ورد فِي الأخبار وَ الآثار ظهور الآيات الكبرٰى عَلٰى رأس مِائة سنة"، وَ مَا بعده إلٰى قوله: "علٰى رأس المائة الثالثة بعد الألف"، هٰذِهِ وَ أضرابها مما مرّ قبلها مدروسة عَلٰى الإمام السّيوطي وَ لا شكّ وَ عَلٰى مؤلّف الكتاب أَيْضًا وَ إنما أبقيناها حرصًا عَلٰى الفاظ نسخة الأصل، لأنها وَ إن كانت محرفة إلّا أنه لا يوجد غيرها فِي جميع الاقطار، وَ مُحَمَّد بن الحنفية رضي الله عنه وَ

---

[٥٧٧] خواتم الحكم، ص ١١.

الإمام السّيوطي رضي الله عنه وَ العراف بالله سيّدي عليّ دمده حاشاهم من تِلْكَ الخرافات."[578]

وَ يختتم علي دمده كتابه هٰذَا برسالتين قصيرتين يتناول فيهما الإنسان ككل، وَ يتكلم فِي الأولٰى عن الجانب السامي فِي الإنسان يعني الروح وَ القلب، وَ يتكلم فِي الثانية عن الجاني الثانوي فِيهِ وَ هُوَ الجسم وَ يقول فِي مقدمة الرسالة الثانية:

"إنّها من علوم التّشريح عَلٰى قاعدة أهل المعرفة من الصّوفيّة، لا عَلٰى قواعد التّخمينات الحكمية الفلسفيّة الطّبِيعِيَّة، لأنّ علم التّشريح عند الفلاسفة علم يبحث عن أعضاء الإنسان وَ عروقه وَ مفاصله وَ طبائعه وَ أخلاقه وَ كيفية إتصالات الأعضاء وَ إنفصالاتها بعضًا عن بعض وَ امتزاجات الطبائع فيها، وَ كيفية سريان الأبخرة الصاعدة وَ النازلة وَ غير ذٰلِكَ مما يطول إجماله، كما ذكره أهل الفلسفة فِي كتبهم، وَ أمّا علم التّشريح عند المحققين من الصوفية فهو علم الاعتبار فِي الهياكل الإنسانية، يبحث بافطار العبرة وَ الإستبصار عن حقائق أعضاء الإنسان... ممّا لَا تدركه عقول الفلاسفة إلّا من نوّر الله بصيرته بنور العرفان."

ثم يتناول علي دمده بعد ذٰلِكَ تركيب جسم الإنسان عامة، وَ تركيب بعض أجزائه خاصة، فمن الأول قوله:

---

[578] خواتم الحكم، ص ١٩٧.

"حكمة تشريح الفم، فِيهِ عشرة عجائب[579] من الفوائد، وَ صنعه فوق البدن للتصويت لأن الصوت إذا كان من أعلٰى البدن كان أبلغ، فالمؤذن يطلب لتأذينه أرفع المواضع فيحصل الغذاء الداخل من الأعلٰى إلٰى الأسفل لأن أسهل انحدارًا منه إليه، وَ الأشجار تشرب من تحت وَ الإنسان من فوقن ليعلم عجائب صنعه، وَ يعتبر فِيهِ بان ارحية الدنيا يرحل إِلَيْهَا الماء من خارج، وَ رحاء الفم بعكس ذلك، يدور الأسفل عَلٰى الأسنان العليا، وَ الأسنان العليا لا تتحرك، وَ إنما يتحرك اللحيان، إِلَّا التمساح فانه إذا أكل يدور الأعلٰى إلٰى الأسفل[580]".

وَ هٰكذا نَرٰى أن الكتاب يشمل المواضيع المختلفة، وَ نلتقي فِيهِ بتفسير الآيات الْقُرْآنِيَّة وَ الأحاديث النّبويّة الشّريفة لٰكن بطريقة صوفية، ثمّ نلتقي بتفسير الظواهر الكونية وَ تركيب الإنسان الجسمي وَ الرّوحيّ... إلخ. وَ الواقع أن جميع هٰذِهِ التحليلات تحليلات صوفية بحتة لأن المؤلف سلك طريقة مُحْيِيالدِّينِ بن عربي وَ مدرسته وَ لم يحد عن هٰذِهِ الطريقة أبدًا. وَ عَلٰى الرّغم من ذٰلِكَ فأسلوب المتصوّفة مع مَا فِيهِ من الغموض وَ الألغاز وَ الرموز أسلوب جميل وَ شائق، وَ كم مرة اشترك المتصوفة فِي تكوين أجمل الإنتاجات الأدبية سواء أكانت نثرية أم

---

[579] أخطأ المؤلّف فِي العبارة، قوله "عشرة عجائب" العجائب جمع عجيبة فالمعدود مؤنّث وَ الصّواب "عشر عجائب".

[580] خواتم الحكم، ص ١٩٢.

شعرية، وَ زيّنوا هٰذَا التراث بمشاعر قلوبهم وَ نفوسهم، وَ من بين هٰؤُلَاءِ المتصوّفة المختارين نستطيع أن نضع هذ الْبُوسنَوِيّ وَ هُوَ عليّ دمده الموستاريّ.

وَ الأثر الثاني الَّذِي عثرنا عَلَيْهِ فِي هٰذَا الموضوع هو:

"تجليّات عرائس النّصوص فِي منصّات حكم الفصوص"[581] لِعبدِالله الْبُوسنَوِيّ (‘Abdullāh El-Bosnewī). وَ يطيب لنا أن نذكر فِي هٰذَا المكان أحد علماء الْبُوسْنَة الَّذِي كتب شرحًا عَلٰى "فصوص الحكم" وَ لحق بِهٰذَا إِلٰى مؤلّفي الشّروح الكثيرين فِي جميع أنحاء العالم، فهٰؤُلَاءِ، كما هُوَ معروف انْقسموا إِلٰى تيارين تجاه الفصوص وَ صاحبه، فبينما يمدحه أحباؤه وَ يرفعون اسمه إِلٰى أعلٰى عليين، نرٰى أعداءه يهاجمونه مهاجمة شنيعة وَ يعتبرونه ملحدًا، عادمًا للعقيدة الْإِسْلَامِيَّة. وَ فِي هٰذَا الجدل العنيف اشترك عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ الَّذِي دافع عن مُحْيِيالدِّينِ بن عربي، وَ من خلال شرحه يتبين لنا حبه الكبير لمُحْيِيالدِّينِ بن عربي وَ إيمانه بمبادئه، وَ هٰذِهِ المبادئ، كما يقول الْبُوسنَوِيّ، اسمٰى وَ أعلٰى أن يفهمها الإنسان العاديّ، وَ يقول كاتب چلبي (Kātib Çelebī) عن هٰذَا الشرح:

> "شرح هٰذَا الكتاب فِي زماننا هٰذَا الصّوفيّ عبدالله الْبُوسْنَوِيّ بالْعَرَبِيَّة وَ التُّرْكِيَّة، وَ هُوَ شرح ممتاز، وَ قد يكون من أحسن الشّروح عَلٰى الفصوص."[582]

---

[581] المخطوطة الوحيدة لِهٰذَا الكتاب نجدها فِي القاهرة، مكتبة كوديف، رقم ١٧٥٣، يحتوي عَلٰى ٦٤٢ صفحة.

[582] كشف الظّنون، ٢، ص ١٢٦٣.

وَ حكم كاتب چلبي هٰذَا لا يمثل حكمًا شخصيًّا فحسب وَ إنّما اعْترف علماء العرب بقيمة الكتاب وَ طلبوا من الْبُوسْنَوِيّ أن يؤلّفه بالْعَرَبِيَّة (لِأنّه شرحه بالتُّرْكِيَّة قبل ذٰلِكَ)، وَ لقب بالْبُوسْنَوِيّ بـ"شارح الفصوص" وَ لعلّ هٰذَا النّجاح فِي شرح الفصوص يرجع إلٰى أن الْبُوسْنَوِيّ كان ينتمي إلٰى الطريقة الصّوفيّة وَ قد استطاع أن يفهم مُحْيِيالدِّينِ بن عربي وَ أفكاره أكثر من العلماء وَ الفلاسفة الَّذِينَ لم يشتغلوا فِي التصوف وَ لم يعنوا بمذهب مُحْيِيالدِّينِ بن عربي عناية كافية، وَ يتضمن هٰذَا الشرح الموضوعات التالية:

١- مقدّمة فِي ثلاث صفحات،

٢- المدخل، يحتوي عَلٰى ٤٥ صفحة وَ يتناول فِيهِ مكانة مُحْيِيالدِّينِ بن عَرَبِيّ المرموقة وَ عظمة الفصوص، وَ عن أسماء الله وَ صفاته، تفسير معاني الكلمات وَ الحروف، عن علم الباطن وَ علم الظاهر... إلخ،

٣- وَ يشرح فِي هٰذَا الجزء أجزاء الفصوص جميعها وَ ذٰلِكَ عَلٰى ٥٨٦ صفحة،

٤- يختتم كتابه بقصيدة صوفيّة من مِائة بيت.[٥٨٣]

وَ لِكَيْ نفهم أسلوب عبدالله الْبُوسْنَوِيّ وَ طريقة شرحه نأتي ببعض الأمثلة القصيرة من كتابه، يقول فِي المقدمة:

---

[٥٨٣] نرجع إلٰى هٰذِهِ القصيدة حينما نتناوَل الشّعر الْعَرَبِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

"وَ تعلّقت الإرادة الإلٰهيّة أن يظهر– صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – من ولايته الكلّيّة المطلقة، جمعية العلوم وَ الأذواق وَ الحكم وَ الكمالات المتعلقة بالأنبياء من حيث ولَايتهم، وَ علوم الجمعية الإلهية الذاتية الكلية الكمالية الخيمية المحمدية – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – علوم ختوم الكمال من الأنبياء، وَ أذواقهم المتعلقة بالذوق المحمدي وَ المشرب الأحمدي الجمعي وَ علمه الجمعي الذاتي الحقيقي، وَ ارثه الأكمل وَ وليه الأفضل خاتم الولاية الخاصة المحمدية، حامل أمانة الصورة الآلهية، خارق الأستار وَ الحجب الغيبية، ناشر أعلام العلوم الإلهية، وَ مظهر صفوف الأرواح الإنسانية الكمالية... الشّيخ محييالحقّ وَ الدّين، أبا عبدالله مُحَمَّد بن عليّ الطّائيّ الحاتميّ الأندلسيّ الشهير بابن عَرَبِيّ – رضي الله عنه – فِي مبشره فِي صورة هٰذَا الكتاب، وَ أمره أن يخرج به إلٰى الناس المتأهبين إلٰى الحضرة الإلهية وَ الراغبين فِي الوصول إلٰى الحضرة المحمدية... فاخرج هٰذَا الكتاب عَلٰى مَا حده له رسول اللهِ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –، من غير زيادة وَ لا نقصان."[٥٨٤]

وَ من هٰذَا النّصّ نلاحظ رتاجة أسلوبه المؤلّف وَ تكلّفه: الإلٰهيّة، الذّاتيّة، الكُلّيّة، الكماليّة، الختميّة، المحمّديّة، الغيبيّة، الإنسانيّة، الغيريّة، وَ نجد كلّ هٰذِهِ الكلمات المملّة فِي فقرة وَاحدة، وَ هٰذَا يثبت أنه أسلوب سقيم متكلّف.

---

[٥٨٤] تجليات عرانس النّصوص فِي منصّات حكم الفصوص، ص A ٢.

وَ يزعم المؤلّف فِي الفصل الأول من "المدخل" أن مُحْيِيالدِّينِ بن عَرَبِيّ خاتم رسالة مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ أن فصوصه إنتاج روحي الَّذِي يمثل قبسًا من نور محمّديّ، وَ يعرض بعد ذٰلِكَ الإنتقاد الموجه إِلَى "الفصوص" فيقول:

"منشأ خلط علماء الرّسوم فِي حقّ هٰذَا الكتاب وَ غيره من كتب القوم أنّهم يرون بعض العلوم الإلٰهيّة وَ الأسرار الغيبيّة الواقعة فِي هٰذَا الكتاب وَ فِي كتب سائر الأولياء مخالفًا لبعض المسائل المقررة باجتهاد المجتهد، أو مغايرًا لبعض القصيدة من أرباب العقائد، وَ يحصرون العلم الإلهي فِي عقد خاص للمجتهد وَ المعتقد، وَ يذمون وَ يقدحون وَراءَه، سواء أكان ذٰلِكَ كلام صاحب العقد الخاص المقابل لمذهبهم أوكلامهم أهل الله، وَ لا يعرفون أن المجتهد أهل استدلال يحكم بغالب ظنه، ليس هُوَ صاحب كشف وَ العيان وَ الشهود وَ الإيقان، حَتَّى يشهد الأمر عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ عند الله وَ عند رسوله، وَ يحكم عَلَى حسب شهوده وَ لِهٰذَا عند إصابة المجتهد له أجران، أجر الإجتهاد وَ أجر الإصابة وَ عند عدم إصابته له أجر الإجتهاد فقط."[٥٨٥]

---

[٥٨٥] تجليات عرائس النّصوص فِي منصّات الفصوص، ص B ٣٥٣ – A ٣٥٤.

وَ لَقَد ذكرنا أنّ الْبُوسْنَوِيَّ من أتباع مُحْيِيالدِّينِ بن عَرَبِيّ، فقد قضٰى جزءًا من حياته فِي دمشق بقرب قبره، وَ يؤمن الْبُوسْنَوِيّ أن ابن عَرَبِيّ قد تلقّٰى مَا كتبه فِي "فصوص الحكم" من النّبيّ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ ذٰلِكَ بِلَا زيادة وَ لا نقصان، وَ نرٰى كَذٰلِكَ بأنه يؤمن بأن الأولياء يستطيعون أن يبلغوا الأسباب وَ الأسرار فِي المستقبل وَ بعد الموت كَذٰلِكَ، فهٰذه الأفكار مع أنها مناقضة للقرآن الكريم[٥٨٦] وَ الحديث الشّريف، إلّا أنّنا نلاحظها فِي كتب المتصوّفة كثيرًا، فالْبُوسْنَوِيّ يسلك هٰذِهِ الطّريقة إلٰى أقصٰى حدود.

وَ ما دام الْبُوسْنَوِيّ يتبع صاحب الفصوص فِي الأسلوب وَ فِي عرض الموضوع نقرأ هٰذَا الكتاب وَ يخيل إلينا أنّنا أمام كتاب ثان لمُحْيِيالدِّينِ بن عربي. وَ إذا قلنا أن أسلوبه اللغوي وَ مستواه ليس عاليًا، مَا أردنا أن نستهيه بكتابه وَ نقلّل من قيمته.

وَ نودّ أن نذكر أخيرًا أن عدد الَّذِينَ كتبوا فِي التّصوّف فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كبير جدًّا، وَ قد اكْتفينا بِاثْنين منهم فقط، أحدهما يمثل التّيار الصّوفيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ هُوَ عبدالله الْبُوسْنَوِيّ وَ ثانيهما يمثل تيارًا صوفيًّا

---

[٥٨٦] ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴿٦٥﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة النّمل، الآية ٦٥.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴿١٤﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة السّبا، الآية ١٤.

فِي منطقة الْهَرْسَك وَ هُوَ علاءالدّين عليّ دهده الموستاريّ ('Alā'ud-dīn 'Ali Dede El-Mostarī).

الفصل الثاني:

المؤَلّفاتُ اللُّغَوِيَّةُ وَ الْأَدَبِيَّةُ

الشّعرُ الْعَرَبِيُّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

شاع تقسيم الشّعر الْعَرَبِيّ فِي كتب التّأريخ الْأدبيّ بحسب عصوره التّاريخيّة، فِي ضوء الظّروف وَ المراحل المختلفة الَّتِي مرّ بها، وَ من ثمّ جاء تقسيمها للشّعر الْعَرَبِيّ إِلٰى شعر جاهليّ، وَ شعر إسْلَامِيّ، وَ شعر عبّاسيّ، إِلٰى آخره غير أنّنا نفضل – فِي هٰذَا المقام – تقسيمًا آخر، يمكن أن يكون أكثر ثراءً لِلْأدب الْعَرَبِيّ نفسه، عندما نشرع فِي تقسيمه بحسب مصدره، فيكون عندنا حينئِذٍ قسمان: أولهما: الشعر الَّذِي نظّمه الْعَرَب فِي البيئات الْعَرَبِيَّة وَ ثانيهما: الشعر الَّذِي نظمه غير العرب فِي البيئات الْإِسْلَامِيَّة الأخرٰى. وَ سوف يتضح لنا أن هٰذَا القسم الثاني، فِي كثير من الأحيان، لن يختلف عن الشعر الْعَرَبِيّ الأصيل بل وقف جنبًا إِلٰى جنب معه يسعٰى إِلٰى تحقيق الغاية وَ الهدف نفسيهما.

وَ ممّا لا شكّ فِيهِ أن الشّعر الْعَرَبِيّ قد بدأ منذ العصر العبّاسيّ بلِ الثَّقَافة الْعَرَبِيَّة يتأثّر بالثَّقَافَة الْعَالَمِيَّة، فهو وَ إن كان عربيًّا فِي لغته وَ أسلوبه، إِلَّا أنّه قد تجدّد بالأخذ عن الآداب الأجنبيّة أخذًا جدد روحه وَ مَا فِيهِ من فكر، وَ استمرّت

هٰذِهِ الحالة حَتّٰى فِي أيام ضعف الدولة الْعَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة وَ إبان الحكم العُثْمَانِيّ حينما بدأ عدد من الْبُوسْنَوِيِّينَ يشتركون فِي الأدب الْعَرَبِيّ.

وَ لَقَد ذكرنا بأن صفوت بَاشَاْقِيتْش (Safvet Bašagić) فِي كتابه "مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الأدب الإِسْلَامِيّ" (Bosansko-hercegovački muslimāni u islāmskoj književnosti) وَ "الكرواتيون وَ الْبُوسْنَوِيُّونَ المشهورون فِي الإِمْبَرَاطُورِيَّة التُّرْكِيَّة" (Poznati Hrvati, Bosanci i Hercegovci u turskoj carevini) ذكر عددًا كبيرًا من أبناء يُوغُسْلَافِيا الَّذِينَ أَلَّفوا بإحدٰى اللّغات الشّرقيّة لٰكنه لم يستشهد وَ لو ببيت من شعر هٰؤُلَاءِ، أمّا القصائد التُّرْكِيَّة وَ الْفَارِسِيَّة فقد استشهد بأمثلة منها، وَ يبدو من ذٰلِكَ أنه أهتم بالأدب التُّرْكِيّ وَ الْفَارِسِيّ أكثر من إهتمامه بالأدب الْعَرَبِيّ[٥٨٧]. أما مُحَمَّد الخانجي (Mehmed Handžić) فِي كتابه "الْجَوْهَر الأَسْنٰى" وَ "آثار مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الميدان الأدبيّ" (Rad bosansko-hercegovačkih muslimāna na književnom polju)، فقد اكتفٰى بملاحظة عامة مؤداها أن بعض هٰؤُلَاءِ الأدباء قد نظموا قصائد بالْعَرَبِيَّة، غير أنه لم يذكر لنا منها سوٰى بعض الأبيات لحُسَيْن البلْغْرادي (Ḥusejn El-Belġrādī) عَلٰى سبيل المثال، وَ ذٰلِكَ فِي كتابه الأَوَّل[٥٨٨]، الأمر الَّذِي يؤكد لدينا هٰذَا الإستنتاج بأن الَّذِينَ كتبوا عن

---

٥٨٧ وَ فيما نعتقد أن باشاغيج أهمل هٰذَا الجانب ليس لأن الأدب الْعَرَبِيّ فِي الْبُوسْنَةِ كان أقل إنتشارًا من الأدب التُّرْكِيّ وَ الْفَارِسِيّ، بل لأن معرفته باللغة الْعَرَبِيَّة كانت أقل من معرفته للتركية وَ الْفَارِسِيَّة.

٥٨٨ الْجَوْهَر الأَسْنٰى.

الأدب الإسْلَامِيّ فِي الْبُوسْنَةِ حَتَّى الآن لم يدرسوا هٰذَا الموضوع دراسة علمية شاملة، لكنهم عَلٰى وجه مَا وضعوا الأسس لِهٰذِهِ الدراسات. وَ لقد استطعت أن أطلع عَلٰى شعر ثلاثة من الْبُوسْنَوِيِّينَ الَّذِينَ نظموا قصائد بالْعَرَبِيَّة، وَ سوف نتناول خلال هٰذَا الفصل ظروف حياتهم عامة وَ قصائدهم خاصة، وَ ليس معنٰى ذٰلِكَ أنه لم يكن فِي الْبُوسْنَةِ أشخاص نظموا شعرًا بالْعَرَبِيَّة سواهم، لكننا لم نعثر عَلٰى أية مستندات ملموسة تؤيد وُجُود هٰؤُلَاءِ الأدباء، وَ السبب فِي قلة الشعراء بالْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ يرجع، كما يقول الخانجي[٥٨٩]، إِلٰى أن الْبُوسْنَوِيِّينَ لم يطلعوا عَلٰى الشعر الْعَرَبِيّ، بل كان اهتمامهم بعلوم اللُّغَة وَ الدين أكثر من اهتمامهم بالشّعر، وَ سوف نتناول الْآن هٰؤُلَاءِ الشّعراء:

١- عبدُاللهِ الْبُوسْنَوِيّ (ʻAbdullāh El-Bosnewī):

نجد فِي الكتب أخبارًا متناقضة عن حياة عبدِالله الْبُوسْنَوِيّ[٥٩٠]، لٰكنّنا من خلال هٰذِهِ الأخبار نستطيع أن نكوّن أمامنا صورة وَاضحة عن حياته، وَ من خلال آثاره نتعرف إِلٰى شخصيته الأدبية. وَ لقد تلقّى عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ تثقيفه الأول فِي وَ طنه البوسنة، ثمّ أتم دراسته فِي

---

٥٨٩ Handžić, Mehmed; *Kjiževni rad bosansko-hercegovačkih muslimana*, p. 65..
آثارُ مُسْلِمِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَكن، محمّد الخانجيّ، ص ٦٥.

٥٩٠ وَ نرٰى أنّه أقرب إِلٰى الحقيقة مَا كتبه عنه بورصلي مُحَمَّد طاهر (Bursalı Muḥammed Ṭāhir) عثمانلي مؤلّفلري، ١، ص ٤٣-٤٩، تَرجم إِلٰى اليوغسلافيّة، باشآقيتْش، المتحف البلدي، ص ٧٤، سنة ١٩١٢ م.

إسْطَنْبُول نراه بعد ذٰلِكَ يذهب إلٰى بُورْصَة (Bursa) وَ ينضمّ هناك إلٰى إحدٰى الطّرق الصّوفيّة[٥٩١] الَّتِي كثرت حينذاك فِي تركيا. وَ نعرف كَذٰلِكَ أنه زار بعض الدول الْعَرَبِيَّة الإسْلَامِيَّة وَ من بينها السعودية حيث أدٰى فريضة الحج (سنة ١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م) وَ زار مصر وَ دمشق حيث مكث فترة قصيرة عَلٰى قبر مُحْيِيالدِّينِ بن عربي ثم رجع من دمشق إلٰى قونيه (Konja) حيث قضٰى بقيّة حياته وَ توفي سنة ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٤ م وَ دفن قرب سعْدالدّين القونْيوي[٥٩٢] (Sa'dud-dīn El-Konjewī) وَ نجد عَلٰى قبره النّقش التّالي:

هٰذَا قبر غريب اللهِ فِي أرضِهِ وَ سماه

عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ الرّومي البيرامِيّ

وَ لَقَد ألّف الْبُوسْنَوِيّ أكثر من ستّين كتابًا أكثرها بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، وَ أشهر مؤلّفاته "شرح فصوص الحكم" وَ هُوَ يعتبر من أحسن الشروح عَلٰى النّصوص، وَ لقّب لِذٰلِكَ بشارح الفصوص[٥٩٣].

---

[٥٩١] وَ هِيَ الطّريقة المسمّاة بـ"ملامي بيرامي" (Melāmī-Bajrāmī).

[٥٩٢] وَ كان القونْيوي (El-Konyewī) أحد الطّلبة الممتازين لمُحْيِيالدِّين بن عَرَبِيّ.

[٥٩٣] راجع الصفحة ٣٤٩.

وَ لَقَد وَ جدنا له قصيدة طويلة ختم بِهَا شرحه "تجليات عرائس النّصوص فِي منصّات حكم الفصوص"[٥٩٤]، وَ عدد أبياتها مائة بيت. وَ يذكر هٰذِهِ القصيدة مُحَمَّد الخانجي[٥٩٥] لٰكنّه لم يستشهد بشيْء منها. وَ طبيعي أن قصيدته هٰذِهِ مليئة بالأفكار الصوفية وَ تظهر خلالها الصلة القوية بينها وَ بين "فصوص الحكم". وَ يتكلم الشاعر فِي بداية القصيدة عن خلق العالم، فيقول:

"وَ لاحت من حماء العزّة أنفاس رحمٰن

حماء سجر موشيّ بلؤلؤ وَ مرجان"

وَ نلاحظ أن الْبُوسْنَوِيّ يتمسّك بنظريّة ابن عَرَبِيّ فِي خلق العالم أيْ أن الله خلق هٰذَا العالم بعد أن لم يكن شيئًا، وَ يتكلم بعد ذٰلِكَ عن الرسل وَ الأنبياء، فيقول:

"فمنه اصطفٰى رسلًا أولي عزم ذوي رايات

هداةُ هم الأقوام إلٰى خير وَ غفران

وَ أعطٰى منهم الكلّ كمال رتبه وَهبا

كساهم حلّة الفضل لهم جاد بتيجان

٥٩٤ المكتبة القوميّة فِي القاهرة، مخطوطة رقم ٦٧٥٣، عدد الأوراق ٣٢١.

٥٩٥ الْجَوْهَر الأَسْنٰى، ص ١٠٠.

وَ كلّ مستمدّ من رسول مصطفٰى منهم

كروح تأخذ منه القوي فِي نَشْئِ جُثْمَانٍ"

وَ نرٰى من ذٰلِكَ أن الأولياء، عَلٰى حدّ تعبير عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ، يستمدون أفكارهم من المصدر العلوي أي من الأنبياء، وَ لكل وَ لي رسول كمصدر قوته الروحي المعنوي، وَ ينتقل الْبُوسْنَوِيّ بعد ذٰلِكَ إلٰى خاتم الأنبياء مُحَمَّد – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – معناه أنه جمع صفات الأنبياء كَذٰلِكَ، فيقول عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ:

"بجمع الخاتم جمعًا حوٰى أذواق نبا

فأذواق النّبوات له كانت كأركان

لذا ضفاء غرب ختم أحكام الولايات

وَ شمس مشرق كشف وَ توحيد وَ عرفان"

وَ يمدح الْبُوسْنَوِيّ بعد ذٰلِكَ "فصوص الحكم" وَ يدعوا الناس أن يقرأوه وَ يستفيدوا منه وَ لكنه لم يوجه نداءه هٰذَا إلٰى عامة الناس وَ إنما خاطب به الخاصة وَ هم الصوفيون، فيقول:

"وَ أمّا النّفوس المتّصفة بالصّفات الإمكانيّة وَ الأخلاق البشريّة الّتِي كانت فِي طلب المراتب السفلية الكونية وَ الأمتعة الدنيوية

الدنية فليس لها أن تطالع هٰذَا الكتاب وَ تنظر إِلَيْهِ لا يمسه إِلَّا المطهرون."

وَ لا شكَ فِي أن الْبُوسنَوِيّ قد بالغ فِي مدح هٰذَا الكتاب وَ تمجيد مبادئه الصوفية، فالمقارنة بين الأنبياء وَ الصوفيين، وَ بين كتبهم وَ القرآن الكريم يخالف نصّ القرآن الكريم. وَ لكن نبين إِلٰى أي مدٰى يمدح الْبُوسنَوِيّ مُحْيِيالدِّينِ بن عربي وَ فصوصه نذكر هٰذِهِ الأبيات:

"فصوص الحكمة كان لِهٰذَا الجمع كالمجلٰى

فحاذت صورة الجمع به من غير نقصان

كتاب وَ ارد من حضرة التقديس وَ الجمع

علٰى قلب نقشي صاحب كشف وَ وجدان

عليّ كان من القاء شيطان وَ تلبيس

عَلٰى طهر وَ تقديس من إرجاس وَ أوثان"

وَ ينتقل الْبُوسنَوِيّ بعد ذٰلِكَ فِي قصيدته إِلٰى المناقشات الحادّة الَّتِي دارت بين أهل الباطن وَ أهل الظاهر، وَ طبيعي أنه يدافع عن أهل الباطن:

"وَ عبد النّفس لم يدركْ علوم القوم بالفكر

وَ أهل العقل لم يفهمْ بانْظار وَ إمعان

علٰى قلب سليم مطلق من قيد اكوان

يفاض العلم من أنعام ربّ جود محسان"

وَ في نهاية القصيدة تناول مسألة تكلم عنها الصوفيون عامة وَ مُحْيِيالدِّينِ بن عربي خاصة، وَ هِيَ مسألة وَ حدة الوجود، وَ يقول الْبُوسنَوِيّ:

"ظهور الحقّ فِي الكلّ بأوصاف وَ اضواء

تجلّٰى فِي مرايا الكلّ من غير الوان

شؤون الحق فِي الكون شهود الوحدة حقًّا

وجود فِي الوجود وَاحد مَا فِيهِ اثنان

وجود وَاحد فرد بلا مثل وَ لا ضدّ

تعالٰى شانه عمّا يقال مَا له شان"

وَ يختتم الْبُوسنَوِيّ قصيدته هٰذِهِ بسلام عَلٰى النبي – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ أقربانه وَ أتباعه إلٰى يوم الدين، فيقول:

"سلام دائمًا دهرًا عليهم سرمدًا جمعًا

علٰى أتباعهم أيضًا وَ أنصار وَ أعوان"

وَ من خلال هٰذِهِ القصيدة تعرّفنا إلٰى شخصيّة عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ، فلا نخطئ إذ نقول أنه من غلاة المتصوفة، فهو يرفع علمه إلٰى أعلٰى عليين وَ ينظر إلٰى علم غيره (أي غير المتصوفة) نظرة الإقلال وَ الإزدراء وَ لا يحب المناقشة وَ الجدل، وَ ذٰلِكَ لأن المناقشة عَلٰى حد زعمه، لا يمكن أن تستند عَلٰى الدّلائل العقلية وَ النقلية بل عَلٰى العرفان وَ الكشف، وَ هٰذِهِ المرتبة لا ينالها غير المتصوفة. وَ لقد اجتاح العالم الْإِسْلَامِيّ جدل طويل حول فلسفة ابن عربي وَ استمر الجدل إلٰى منتصف القرن الحادي عشر الهجري/ منتصف القرن السابع عشر الميلادي، فوقف عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ فِي التيّار الَّذِي دافع عن ابن عربي محاولًا التوفيق بين فلسفته وَ الشريعة الْإِسْلَامِيَّة.

وَ ما يتعلق بمرتبته الشعرية فليس لي الحق أن احكم عَلٰى شعره وَ ذٰلِكَ لسببين، أولهما: أن معرفتي بالفلسفة الصوفية غير كافية، وَ ثانيهما: أنه لا يتاح الحكم عَلَيْهِ إلّا بعد الإطلاع وَ دراية آثاره كلها، وَ هٰذَا يتطلب دراسة طويلة، وَ لكني اعتقد أن عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ وَ أن وَ فق فِي كتابة النثر الْعَرَبِيّ إلّا أنه لم يوفّق فِي الشعر الْعَرَبِيّ، وَ كلما نستطيع أن نقول عنه هُوَ أن يجعل قصيدته من الهزج (مفاعيلن مفاعيلن) لكنه يخرج عَلَيْهَا وَ يأتي بكسور شنيعة تدلّ عَلٰى أنه ليس شاعرًا، فضلًا عن أنه يخرج إلٰى مجزوء الوافي دون انتباه.

٢- حسن الْبُوسْنَوِيّ (Ḥasan El-Bosnewī).

وَ من الْبُوسْنَوِيِّينَ القلائل الَّذِينَ نظموا قصائد بالْعَرَبِيَّة حسن بن مصطفٰى الْبُوسْنَوِيّ، وَ نحن لا نعرف تأريخ وَ لادته وَ موته، وَ كل

مَا نعرف عنه أنه عاش فِي النّصف الأَوّل من القرن الثّالث عشر الهجريّ / فِي نهاية القرن الثّامن عشر الميلاديّ، وَ أنه قضٰى أكثر حياته فِي المدينة المنوّرة[٥٩٦].

وَ لَقَد رأينا فِي حديثنا عن عَبْدالله الْبُوسنَوِيّ أنّه إلٰى جانب محاولة نظم القصائد برع فِي ميدان التّصوّف، وَ كَذٰلِكَ حسن الْبُوسْنَوِيّ فهو عَلٰى الرغم من أنه نظم طائفة من القصائد فلا يمكن أن نعده من الشعراء بل هُوَ من علماء الحديث إذ نجد اسمه فِي كتب الحديث[٥٩٧]. وَ قد جمع مؤلفاته بعد موته ابنه مصطفٰى[٥٩٨] فِي كتاب خاص سماه مُحَمَّد الخانجي[٥٩٩] "الدّيوان" وَ لقد اطلع الخانجي عَلٰى هٰذَا الكتاب أثناء زيارته للأماكن المقدسة وَ هُوَ طالب بجامعة الأزهر، لكنه برغم كلّ المحاولات لم ينجح فِي أن يأتي بنسخة منه إلٰى البوسنة.

وَ يذكر الخانجيّ قصيدتين لحسن الْبُوسنَوِيّ، الأولٰى تتناول هجوم الوَهَّابِيِّينَ عَلٰى الحجاز سنة ١٢١٨ ﻫ / ١٨٠٣ م، وَ موضوع قصيدته الثّانية وَطنه "الْبُوسنَة". وَ طبيعيّ أنّنا سوف نتناول هٰذِهِ

---

[٥٩٦] وَ لا تزال عائلة الْبُوسنَوِيّ تقيم فِي المدينة المنوّرة، فهٰؤُلاءِ هم وَرثة حسن الْبُوسنَوِيّ.

[٥٩٧] فهرست الفهارس، عبدالحيّ القطّان، ٢، ص ١٨٣.

[٥٩٨] وَ له ابْن ثَان اسْمه أمين وَ كان كَذٰلِكَ من علماء الحديث، فهرست الفهارس، ص ٩٩.

[٥٩٩] غلَاسنيق، العدد الأوّل، ص ٣٣٠، بلغراد ١٩٣٩ م.

القصيدة فِي هٰذَا البحث لأنّها تمثّل حنينًا شديدًا إلٰى الوطن، مثلما نجد عند شعراء العرب تمامًا.

وَ من الجدير بالذكر أن الخانجي لم يذكر هٰذِهِ القصيدة فِي كتابه الأوّل "الْجَوْهَر الأَسْنٰى" بل ذكره فِي كتابه الثاني "آثار مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الميدان الأوروبيّ". وَ معنٰى ذٰلِكَ أنه حينما ألّف "الْجَوْهَر الأَسْنٰى" لم يكن يعرف حسن الْبُوسْنَوِيّ هٰذَا بل اطلع عَلَيْهِ فيما بعد، أما قصيدة حسن الْبُوسْنَوِيّ الَّتِي نقدمها الآن فلسنا ندري هل هِيَ كاملة أولا، لأنه ليس بين أيدينا مصدر نعتمد عَلَيْهِ سوٰى مَا كتبه الخانجي، وَ مَا نذهب إِلَيْهِ هُوَ أن أجزاء من القصيدة قد فقدت.

وَ يبدأ حسن الْبُوسْنَوِيّ قصيدته عن الْبُوسْنَة بالبيت التّالي:

"إلٰى الْبُوسْنَة الحسنا يسير بأشواق

سلام خلّ مَا الدّهر مرّ بأذواق"

ثمّ يرسل تحيّاته إلٰى أهْل الْبُوسْنَة، فيقول:

"عَلٰى جمعهم داموا بأعلٰى وقاية

يقيهم بِهَا المولٰى وَ مَا مثله وَاقي"

وَ نراه بعد ذٰلِكَ يرسل تحيّاته إلٰى علماء الْبُوسْنَة مادحًا حياتهم الفاضلة:

"خصوصًا ذوي التّدريس لا زال فضلهم

محلّى بعقد النّفع مَا طلّ أعناق

وَ مجموع كلّ الطّالبين فوائدا

وَ أنعم بهم من أهل منهم وَ حذاق"

وَ ينتقل حسن الْبُوسنَوِيّ فِي قصيدته بعد ذٰلِكَ إلٰى أولٰى الامر من أهل البوسنة مادحًا خلقهم الكريم وَ معاملتهم الحسنة للمرؤوسين:

"وَ جمع يدور فِي سماء رئاسة

كشمس بها الدّنيا تنير بإشراق

لهم حسن أخلاق علت فتواضعوا

لنفع رعاياهم رضاء لخلاق"

ثمّ نراه بعد ذٰلِكَ يحنّ حنينًا عن الوطن فيرسل تحياته إلٰى الجسور وَ الحدائق، وَ كأننا نسمع أحد شعراء المهجر، فيقول:

"فكلّ كبير مع صغير وَ يافع

بدار غدا أو كان من أهل أسواق"

وَ ربّما يقصد حسن الْبُوسنَوِيّ فِي النصف الثاني من البيت "بدار غدا" المرأة المسلمة فِي الْبُوسنَةِ الّتِي قضت أكثر أوقاتها فِي البيت

فِي ذٰلِكَ الزّمان، وَ يصف حسن الْبُوسْنَوِيّ بعد ذٰلِكَ المدينة المنوّرة الَّتِي يعيش فِيهَا، فهي مدينة الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ يرسل منها أمنياته الحارّة وَ الطّيّبة إِلٰى الوطن:

"سلام من الأسماع للصّون دره

حوٰى حسن أصداف تصون كأحداق

له طيب عرف طاب من دار طيّب

سوق طيبها كالرّيح فِي كلّ آفاق

غدت فِي حجاز لم تنصها، حقيقة

بغير مجاز، منه أعين عشاق

وَ حقّ عَلٰى ذي الدّين من كلّ أوجه

إِلٰى أرصفها يسعٰى وَ لو فوق آماق"

وَ في ختام القصيدة يتناول حياته فِي المدينة المنورة لكنه يؤكد أن قلبه يحنّ دائمًا إِلٰى وَ طنه البوسنة، فيقول:

"يصافح من فرع بها حسن نما

لـه الْبُوسْنَة منبت أعراق

وَ مـا هُـوَ لـلعـهـد الـقـديـم بـنـاكـث

وَ لٰـكـنّـه فِـي قـلـبـه مـاكـث بـــاق

يـقـيـم دعــاء وَاثــقًـا بــإجـــابـــة

لـوعد بعـيد العـقـد من نقص ميثـــاق

بـدار شـفـيـع الـخـلـق أقبل شـافـع

إذا حـشـروا وَ التفت الساق بالســـاق"

وَ هٰذَا مَا نعرفه عن حسن الْبُوسْنَوِيّ الشاعر وَ ليس له شعر غير هٰذِهِ القصيدة وَ هِيَ تمثل تعبيرًا صادقًا وَ قويًا عن حبه العميق لوطنه الْبُوسْنَة وَ من فيها. أمّا مَا يتعلق بشاعرية حسن الْبُوسْنَوِيّ فنستطيع أن نقول أن شعره موزون فِي أغلب الأحيان لكنه ركيك، خلو من الموسيقٰى وَ الصور وَ الإبداع. معنٰى ذٰلِكَ أن حسن الْبُوسْنَوِيّ الَّذِي كان من علماء الحديث حاول أن يكتب الشعر لكنه لم يوفّق فِي ذلك.

٣- مُحَمَّد الخانجيّ الْبُوسْنَوِيّ (Muḥammed Handić (El-H̱āndžī) El-Bosnewī):

عزمت أن أكتب عن مُحَمَّد الخانجي فِي هٰذَا المكان عَلٰى الرّغم من أنّه لم يعش فِي الفترة الَّتِي أختصّ بدراستها، وَ أفعل ذٰلِكَ لسببيْن: الْأَوّل: أنّ الخانجي يأخذ مكانًا بارزًا بين علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك؛ وَ الثاني: أنّ الخانجي وَ إن عاش فِي القرن العشرين، إلّا أنّه فِي

آثاره تناول المشاكل الَّتِي ترتدّ جذورها إِلَى ماض الشعوب الإِسْلَامِيَّة، وَ لا نقول بِهٰذَا أنه قد أهمل مشاكل عصره وَ قضاياه، بل العكس، لكن الربط الدائم بين الماضي وَ الحاضر، كما يتبين لنا من آثاره، جعل ان آثاره إِلَى جانب قيمتها الفنية لها أهمية تاريخية وَ إنسانية كبيرة، وَ كل ذٰلِكَ جعله من المؤلفين المحبوبين فِي نفوس الْبُوسنَوِيِّينَ. وَ جعلتني هٰذِهِ الإعتبارات لا أحيد وَ راء الخانجي وَ آثاره فِي البحث بل أضعه فِي المكان الَّذِي يستحقه بين الَّذِينَ جربوا أقلامهم بلغة القرآن الكريم.

وُلد مُحَمَّد الخانجي فِي سراييفو (Sarajevo) سنة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م، وَ أكمل دراستة الابتدائية وَ الثانوية فِيهَا وَ هُوَ يذكر أسماء أساتذته فِي إحدٰى آثاره بِالْعَرَبِيَّة[٦٠٠]. وَ نلاحظ من هٰذِهِ الآثار أن الخانجي أحس منذ طفولته برغبة شديدة فِي الدراسة بالأزهر الشريف، وَ دخول الازهر لم يكن أمرًا ميسورًا حينذاك، لكن المثابرة الَّتِي تميز بها الخانجي غلبت جميع هٰذِهِ الظروف وَ العقبات، إذ حقق أمنيته هٰذِهِ سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م حينما رحل إِلَى مصر. وَ لعل هٰذَا البيت تعبير صادق عن حالة الخانجي النفسية قبل ذهابه إِلَى الأزهر:

---

[٦٠٠] مكتبة الغازي خُسْرو بك (Gazi Husrev-beg)، مخطوطة رقم ٢٦٥٠، ص B ٩٧ – A ٩٨.

"لأستسهلنّ الصّعب أو أدرك المنٰى

فمـا انقـادت الآمـال إلّا لصـــابر."[601]

لقد حاول الخانجيّ أن يتعرّف عَلٰى الْبيئَة الْعَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة بالبُوسْنَةِ وَ أهملها منذ أن جاء إِلٰى الأزهر، وَ لِهٰذَا الغرض ألّف كتابه "الجوهرالأسني فِي تراجم علماء وَ شعراء الْبُوسْنَة"[602]، وَ نراه فِي مقدمة كتابه ينقد الظروف الَّتِي كانت فِي الازهر فِي ذٰلِكَ الوقت، وَ لكن هٰذَا النقد وَ إن كان شديدًا، إِلَّا أنه جاء من رجل كان يحب الأزهر فوقف فِي صف الَّذِي أرادوا إصلاحه. وَ يتجلٰى حبه لمصر وَ للأزهر من هٰذَا النص الَّذِي وَ جدناه فِي كتابه "تاريخ مصر" إذ يقول فِي ذٰلِكَ الكتاب: قال بعض الشعراء:

إذا كنت فِي مصـرَ وَ لم تك ساكـنًا

علٰى نيلهـا الجاري فما أنت فِي مصـرَ

وَ إن كنت فِي مصـرَ بشاطئ نيلها

وَ مَا لك من شيْء فـمـا أنت فِي مصـرَ

---

601 لقد زعم بعض الباحثين أن هٰذَا البيت للخانجي لٰكنه خطأ فهو بيت عَرَبِيّ قديم مشهور من شواهد النّحو يستشهدون به عَلٰى إضمار (إن) بعد (أو).

602 أخطأ فِي عنوان الكتاب، وَ الصّواب: علماء الْبُوسْنَة وَ شعرائها.

وَ إن كنت ذا ألف وَ لم تـكُ مـالـكًـا

لـكيـس حـوٰى ألـفًا فـمـا أنت فِي مصرَ

وَ إن حـزت مَا قلنا وَ لم تـك هائمًا

تـمـيل لمن تهـوٰى فـمـا أنت فِي مصرَ

وَ يعلّق الخانجي عَلٰى هٰذِهِ الأبيات فيقول: "وَ عَلٰى فرض صحّة هٰذَا القول، فنحن وَ إن كنّا فِي مصر فلسنا فِي الحقيقة فيها، لكننا نقول: أن من كان فِي مصر وَ لم يكن فِي الأزهر الشريف وَ لم يغترف من علومه فهو ليس فِي مصرَ، وَ هٰذَا القول أقرب إلٰى الصّحّة.".

وَ لَقَد قضٰى الخانجي فِي مصرَ خمس سنوات ثمّ رجع إلٰى الْبُوسْنَة سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٠ م وَ عيّن أستاذًا فِي مدرسة الغازي خُسْرو بك فِي سراييفو، وَ هٰذِهِ الفترة هِيَ أثمر فتراته إنتاجًا إذ ألّف بالْعَرَبِيَّة أو ترجم منها مجموعة كتب إلٰى جانب مؤلّفاته بِاللُّغَةِ الْيُوغُسْلَافِيَّة، لٰكنّها كانت فترة قصيرة لأنّ الموت المبكر (سنة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م) منعه أن يتمّ آثاره الأخرٰى. وَ يهمّنا فِي هٰذَا المكان آثار الخانجي بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة. وَ لقد ألّف الخانجي بالْعَرَبِيَّة كثيرًا وَ لم يطبع من هٰذِهِ الآثار سوٰى "الْجَوْهَر الأَسْنٰى" وَ رسالته القصيرة "نقد بعض الكتب الدّينيّة وَ بيان عدم جواز الاعتماد عَلٰى مَا فيها"[٦٠٣]. أمّا مؤلّفاته

---

[٦٠٣] غلاسنيق (Glasnik)، العدد ١-٤، سنة ١٩٣٤ م.

الاخرٰى فهي المخطوطة وَ المحفوظة الآن فِي مكتبة الغازي خُسْرو بك فِي سراييفو. وَ لقد وَ جدنا له المؤلفات التالية بالْعَرَبِيَّة:

١- شرح تيسير الوصول إلٰى جامع الأصول،

٢- نقد بعض الكتب الدينية وَ بيان عدم جواز الإعتماد عَلٰى مَا فِيهَا،

٣- بستان المحدّثين،

٤- مجموعة من الاحاديث النبوية فِي آداب المجتمع،

٥- رسالة الحقّ الصّحيح فِي إثبات نزول سيّدنا المسيح،

٦- صافي المرهم الشّافي لقلب من يدعي موت عيسٰى بن مريم،

٧- بحث فيما يعتقده النّاس من فضل ليلة الخامس عشر من شعبان،

٨- تزييل كشف الظنون عن أسامي الكتب وَ الفنون،

٩- مجمع البحار فِي تأريخ العلوم وَ الأسْفار،

١٠- بيان الإضاء فِي حكم الإستضاء،

١١- الْجَوْهَر الأَسْنٰى فِي تراجم علماء وَ شعراء الْبُوسْنَة،

١٢- كتاب عن مصرَ وَ تأريخها،

١٣- الرّحلة إلى چلبي بازار،

١٤- شرح أصول الحكم في نظام العالم.

وَ يتّضح لنا من هٰذهِ القائمة أن الخانجيّ ليس من الشّعراء بلْ هُوَ من العلماء لٰكنّه من العلماء الَّذِينَ نظموا الشّعر وَ سوف نتناول ثلاث قصائد له ألقاها فِي مناسبات خاصّة وَ يبدو أن الخانجيّ لم ينظّم شعرًا إلَّا فِي تِلْكَ الحالات النادرة. وَ عَلٰى سبيل المثال نذكر أبياته الَّتِي ختم بها كتابه "آثار مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الميدان الأدبي"[٦٠٤]، وَ هِيَ الأبيات التالية:

"يا صاح، إن تلف عيبًا ذلّ عن قلمي

فاستره بالصّفح تصبح من ذوي الكرم

فالسهو لِلأنس ضرب لاذب أبدًا

وَ ربّنا مالك للعلم وَ الحكم

وَ قد نشرت بِهٰذَا فضلنا قدما

وَ إنّنا دائمًا نسعٰى مع الأمم

[٦٠٤] غلاسنيق، العدد السّادس، ص ٣٤٤، سنة ١٩٣٤ م.

ففضل بوسنتنا آياته ظهرت

ظهور نار القرٰى ليلًا عَلٰى علم"

وَ لَقَد أشرنا من قبل إِلٰى أن الخانجيّ كان غير راضٍ عن حال الأزهر وَ المجتمع الإِسْلَامِيّ وَ ذكرنا نقده اللّاذع الصّادق لتلك الحالة، وَ نراه فِي الدور نفسه فِي المجتمع الإِسْلَامِيّ إذ يقارن بين الماضي المجيد وَ الحاضر البائس فيقول:

"فانظر أسامي أهل العلم فِي صحفي

تجد أكابر أهل العلم وَ القلم

وَ لَا تقس يومنا بالأمس فما

وَ الله نحن لهم نعل لذي قدم

فالله يرحمهم وَ الله يجعلنا

شبهًا بأسلافنا قومًا ذوي همم"

إن هٰذِهِ الأبيات ليست تعبيرًا شعريًّا يمدح الخانجي فِيهِ أجداده وَ إنّما هِيَ حقيقة وَ اقعة، فالبوسنة بعد أن كانت مركزًا ثقافيًا إسلاميًا عَلٰى مدٰى قرون (أصبحت فِي القرن العشرين مصدر دمار هٰذِهِ الثَّقَافَة) وَ لم يبق منها سوٰى المظاهر المادية، أما التراث الروحي فاصبح فِي زوايا المكتبات العامة وَ الخاصة وَ لم يعن به إِلَّا قلة قليلة من أبنائها، وَ من بينهم الخانجي. وَ لقد اشترك الخانجي فِي حياة البوسنة الدينية

وَ حاول إعلاء الرأي الإسْلَامِيّ السّليم عَلٰى الآراء المتأخرة الَّتِي صدرت عن بعض رجال الدين الَّذِينَ ناقشوا وَ ضيعوا الأوقات حول الأشياء التافهة. وَ يشير الخانجي فِي إحدٰى مقالاته إِلٰى هٰذِهِ المناقشات الفارغة فيقول: "وَ اتّفق أن بعض القضاة وَ غيرهم من العلماء أثبتوا رمضان بحساب التقويم من دون رؤية وَ لا اكمال عدد، فكتبت فِي ذٰلِكَ مقالة باللغة الْبُوسنَوِيَّة وَ رددت عليهم، وَ نظمت أبياتًا فِي آخر المقالة."[٦٠٥]، هي:

"ألا، يا أيّها الأحباب، كفّوا

فما تبغون من جلب الفتون

تركتم قول أهل الدّين

وَ بذلتم به قول المجون

نصبتم مثل مأوٰى عنكبوت

تجاه الحقّ وَ القول اليقين

لعبتم فاتركوا قولًا لاغاه

أولوا الألباب عن شرع وَ دين

---

[٦٠٥] وَ المقالة هي: للرّسالة وَ الإجازات وَ المهمّات وَ الفتاوٰى، محفوظة فِي مكتبة الغازي خُسْرو بك، رقم ٢٦٥٠، وَرقة رقم ١٠١.

فَهٰذِهِ طريقة الخانجيّ فِي الشعر وَ فِي الحياة، وَ هُوَ ليس مجرّد ناقد وَ إنّما هُوَ مصلح ناجح، وَ بعد أن سمّى رجال الدين "بالأحباب" يعاتبهم عَلٰى ترك قول أهل الدين وَ نشرهم الفنون مقارنًا أعمالهم هٰذِهِ ببيت العنكبوت وَ يرجع إليهم أخيرًا يدعوهم إلٰى الرشد وَ الهداية.

وَ نذكر الآن إحدٰى قصائد الخانجي وَ قد نظّمها فِي مدح وَالي الْبُوسْنَة الغازي خُسْرو بك بمناسبة مرور ذكراه فِي السّادس وَ العشرين من رجب سنة ١٣٥٣ هـ / فِي الثالث من نوفمبر ١٩٣٤ م وَ تختلف هٰذِهِ القصيدة عن باقي قصائده لأنّه يمدح فِيهَا شخصًا بعينه. وَ المدح فِي الشّعر الْعَرَبِيّ، كما هُوَ معروف، له تاريخ طويل وَ دور معلوم، وَ ليس له أيّة علاقة بموْضُوعنا حَتّٰى نخوض فِي هٰذَا الكلَام، كلّ مَا نريد قوله هُوَ أن المدح قد أنتجه الخوف أو الحرص عَلٰى المال أو الجاه، أما الخانجي فِي هٰذِهِ القصيدة فقد كان بعيدًا عن هٰذِهِ البواعث، فهو يمدح رجلًا مات قبل أربعمائة سنة من نظم القصيدة لكنه كان يشعر بأن الغازي خُسْرو بك (Gazi Husrev-beg) قدم كثيرًا لِلْبُوسْنَةِ وَ أهلها وَ أنه بذلك يستحق المدح وَ الثناء. وَ يبدأ الخانجي قصيدته عن عظمة البوسنة وَ حبه العميق لها، فيقول:

"أَ يَا رَاكبًا ظهر القطار مسافرًا

إلٰى قطر بوسنة طيب الصيت وَ الذكر

لـك السـعدان وَ افدت فِي وَ سطها إلٰى

سـواي المـذاع الصيت فِي البر وَ البحـر

هـو الـدّرّ فِي عـقـد الـبلاد مـوسـط

وَ مـا مـثـلـه فِي الحسـن وَاسطــه الـدّرّ"

وَ ينتقل بعد ذٰلِكَ إلٰى الممدوح – الغازي خُسْرو بك داعيًا الله – سُبْحَانَهُ وَ تَعَالٰى – أن يجزيه بأحسن مَا كان يعمل، فيقول:

"لـه نـسـب عــالـي الســمــاء رتـبـه

وَ فـوق الثّــريــا مـجـده صــار وَ النّـســر

لـه فِـي بـنـي عثمـان أصـل مـوصل

لــه الجـدّ بــايــزيـد ذو النّـهـي وَ الأمــر

أصــول زكـيـات فـتـابـت فـروعـهـا

وَ طـيـب الفـروع مـن أصـول لها تجري"

وَ بعد ذٰلِكَ يمدح الْبُوسْنَوِيِّينَ الَّذِينَ وقفوا تحت راية الغازي خُسْرو بك وَ يتناول فِي القصيدة الشجاعة الَّتِي عرف بها هٰؤُلَاءِ فِي موقعة موهاتْش[٦٠٦] (Mohač) الشهيرة.

"فـجـاء مـن الْبُوسْنَة بـكـلّ غـضنفر

بمـاض صـقـيـل النّـصـل يـنـهـل بالقطـر

وَ قــام بــعــون الله مــتــقـبّـل الـعـدا

فـلـم يـجـدوا بـدًّا مـن الـقـتـل وَ الـقـبـر

فـولّـوا شـتـاتًـا هــاربـيـن وَ عَـلٰـى الـ

فـضـاء من القتلٰى لذٰى السّـهـل وَ الـوعـر"

وَ يذكر الخانجي بعد ذٰلِكَ إنشاء غازي خُسْرو بك للمؤسسات العلمية وَ الثَّقَافِيَّة، بعد أن مجّد اسْمه فِي ميدان القتال، فيقول:

"وَ مـعـهـد عـلـم شـاده جـنـب جـامـع

بـنـورهـا ضـاءا ضـيـاء الـشّـمـسِ وَ البـدر

---

[٦٠٦] موهاتْش (Mohač) مدينة عَلٰى نهر الدّانوب (Dunav) فِي جنوب المجر، عرفت المدينة بموقعة شهيرة هزم فِيهَا سليمان الثّاني ملك المجر لودفيغ الثاني (Ludwig II) سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م.

فــهٰــذا لــعــلــم الدِّيــن أوثــق عــروة

وَ ذاك[٦٠٧] مــحــلّ لــلــعــبــادة وَ الــذّكــر"

وَ هٰذَا نوع جديد من المدح فِي شعر الخانجي، فهو لم يمدح الغازي لأنه ينفق عَلٰى الفقراء وَ المحتاجين، مع العلم أن الغازي عرف بذلك، وَ لكن يمدحه عَلٰى إنشائه الْمُؤَسَّسَات العلمية الَّتِي يستيقظ وَ ينمو فِيهَا وَ عي الشعوب، وَ يختتم الخانجي قصيدته سائلًا الله العفو عن الغازي وَ باعترافه المتواضع أنه ليس من الشعراء وَ أنه غريب عنهم:

"فيــا ربّ، أنــت أهل جــود فــجــد لــه

بــعــفــو وَ رضــوان وَ أكــثــر مــن الأجــر

وَ يــا أيّــهــا الــغــازي، لك الفضل دائمًا

عــلــيــنــا فــدم فِي فــضــل ربّي إلٰى الــحــشــر

وَ قــد قــلــت فــيك الشّــعــر مدحًا وَ إنّــنــي

غــريب طــفــيــلــي عَلٰى النّــظــم وَ الــشــعــر"

---

[٦٠٧] وَ هِيَ المدرسة الَّتِي اشتغل الخانجي فِيهَا مدرّسًا.

وَ سوف نكتفي بِهٰذَا القدر عن شعر الخانجي الَّذِي كان أفضل الثلاثة لأن أبياته موزونة وَ الصياغة أحسن مما وَ جدنا عند صاحبيه، وَ لٰكن، هل هُوَ شاعر مديح – لَا، وَ هل يقاس بكبار الشعراء – لَا كَذٰلِكَ.

وَ خلاصة الرّأي أنّنا نجد فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ شاعرًا بالمعنٰى الحقّ، لٰكنّني كتبت هٰذَا الفصل عن الَّذِينَ حاولوا أن ينظموا الشعر، لأن هٰذِهِ المحاولة، وَ إن لم يكن موفقة تستحقّ أن يكتب عنها.

النّثر الْعَرَبِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

مَا دمنا قد درسنا الشّعر وَ الشّعراء فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فإن من الضّروري أن نقف عند الجانب الثاني وَ هُوَ النثر، لأن ثمت سؤالًا منطقيًّا وَ طبيعيًّا يطرح عَلٰى قارئ هٰذَا الموضوع حول حالة النّثر فِي هٰذِهِ المنطقة فِي تِلْكَ الفترة – وَ الإجابة عَلٰى هٰذَا السؤال ليست أمرًا عسيرًا وَ لا تتطلب من باحث هٰذَا الموضوع كثرة الوقت وَ الجهد حَتّٰى يستنتج أن الْبُوسْنَوِيِّينَ لم يعنوا عناية كبيرة بالنثر، وَ نرٰى أن ذٰلِكَ أمر طبيعي لأن الفترة الَّتِي نشأت فِيهَا المؤلفات الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ كانت خلوًا من النثر الفني، وَ ذٰلِكَ فِي العالم الْعَرَبِيّ الإسلامي، فما بال هٰذَا الفن فِي الْبُوسْنَةِ؟ وَ مع ذٰلِكَ فقد نجد فِي الْبُوسْنَةِ فِي

النصف الثاني من القرن العاشر الهجريّ / فِي النّصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي مؤلّفًا الّف فِي هٰذَا الموضوع، وَ هُوَ أحمد شمسالدّين (Aḥmed Semsud-dīn) الَّذِي ألف رسالتين شهريتين وَ هما: "الرسالة العلمية" وَ "الرسالة السيفية"[٦٠٨]. وَ لا نعرف عن أحمد شَمْسالدِّينِ شيئًا كثيرًا[٦٠٩] سوٰى أنه ولد فِي سرايبفو (Sarajevo) وَ أنه تلقٰى تعليمه الأول فِي مسقط رأسه وَ الدراسات العليا فِي إسْطَنْبُول (Istanbul) حيث اشتغل مدرسًا فِي مدرستين، هما: المدرسة الأفضلية وَ مدرسة إبراهيم باشا، ثم انتقل إلٰى مدينة بُورْصَة (Bursa) وَ درس فِي مدرسة بايزيد (Bajazid) وَ مدرسة سلطان محمود، وَ توفي فِي بُورْصَة فِي سن مبكر وَ ذٰلِكَ سنة ٩٨٣ ه / ١٥٧٥ م. وَ فيما يلي نصوص من رسالتيه المذكورتين وَ نستطيع بعد ذٰلِكَ أن نأتي بالحكم العادل عَلٰى أثره الأدبي، فيقول أحمد شَمْسالدِّينِ فِي الرسالة العلمية:

"شجرة تخرج من طور سيناء، أصلها ثابت وَ فرعها فِي السماء[٦١٠]،
إذا نزل عَلَيْهَا الماء اهتزّت، وَ كلّما آتت بثمارها تجددت، يوسف

---

[٦٠٨] كشف الظّنون، ١، ص ٨٧٣.

[٦٠٩] كتب عنه باشاقِيتْشْ (Bašagić)، الْبُوسْنَوِيُّونَ وَ الهرسكيُّون فِي الأدب الإِسْلَامِيِّ، ص ٢٧؛ وَ كَذٰلِكَ الخانجي (Handžić)، غلاسنيقْ، ٢، ص ٨٩، سنة ١٩٣٤ م.

[٦١٠] ﴿أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤)﴾ – الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، سورة إِبْرَاهِيم، الآية ٢٤.

عانقه إخوته عناق الحبّ، وَ أجمعوا أن يجعلوه فِي غيابة الجبّ[611]، قد قميصه من غير طغيان، سجن وَ ليس له عدوان، تارة تراه وَ هُوَ كباسط كفيه إِلَى الماء ليبلغ فاه[612]، وَ مرة تلقاه وَ هُوَ كالطائر يطير بجناحيه[613] عَلَى قفاه مليح شفته وَ هُوَ أحلَى امرط، لا ينجو عن القادح وَ قد ابتلي بالضرس، مفلج الثنايا مخضوب البنيان، كريم المركب يداه مبسوطتان[614]، ربما يقصد عَلَى النهر وَ يدلي رجليه

---

[611] ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٥﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة يوسف، الآية ١٥.

[612] ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴿١٤﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة الرّعد، الآية ١٤.

[613] ﴿وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿٣٩﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة الأنعام، الآية ٣٩.

[614] ﴿وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَ اللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴿٦٤﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة النّمل، الآية ٦٤.

فيه، فلما يقوم يتكلم وَ يسيل الدم من فيه... ساق يراوح بين قدميه قائمًا عَلٰى ساق، وَ قيق لا يستخدم من دون الغل وَ ليس باباق، آدم أعطٰى لسانًا وَ شفتين، وَ له قوة مودعة فِي الزاندتين الفاتنتين... إلخ."

وَ يتّضح لنا من هٰذَا النّصّ أنّ المؤلّف كان يستعمل المجاز وَ الكناية وَ السّجع فهي تحتاج إِلٰى توضيح وَ تفسير لأنّ فِيهَا معان غامضة. وَ سوف نحاول أن نوضّح ماذا قصد المؤلف بالكلمات الَّتِي عرضناها سالفًا. يتناول المؤلف فِي هٰذَا المكان قدسية القلم وَ يقارن بينه وَ بين شجرة الزيتون تخرج من طور سيناء. وَ كما أن الشجرة هٰذِهِ تهتز وَ تنمو بعد سقوط المياه الغزيرة، فكَذٰلِكَ القلم حينما يوضع فِي المداد وَ فِي اليد القوية الماهرة فيظهر قوته وَ تأثيره فِي النفوس، وَ نلاحظ بعد ذٰلِكَ مقارنة بين إمساك القلم بالأصابع وَ أما أخوه يوسف حينما القوه فِي غيابة الجب، وَ كَذٰلِكَ تمزيق قميصه من الَّتِي راودته فِي بيتها عن نفسه كما تمزق القلم من كثرة الاستعمال، كلها مجازات أكثرها مأخوذ من القرآن الكريم.

فالقلم وَ السيف كانا موضوعًا محببًا فِي الشعر وَ النثر الْعَرَبِيّين وَ قد أعلٰى بعض الأدباء الأولوية للقلم وَ بعضهم للسيف. وَ نعتقد أن القرآن الكريم هُوَ

الَّذِي الهم الأدباء أن يكتبوا فِي هٰذَا الموضوع، لأن القلم تناوله القرآن الكريم فِي أماكن كثيرة[615].

أما السّيف فسنورد فيما يلي مَا قال أحمد شَمْس الدِّينِ فيه:

"فيا سائلي عن أصل ذٰلِكَ الفضل، استمع لما يتلى عليك فِي هٰذَا الفصل أنّه نصر قاطع وَ برهان ساطع، ذو النّون[616] ذهب مغاضبًا

---

[615] وَ نذكر بعض الآيات الكريمة تذكر فِيهَا القلم:

١- ﴿نٓ وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴿٢﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة القلم، الآية ١-٢.

٢- ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴿٤﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة العلق، الآية ١-٤.

٣- ﴿وَ لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٧﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة لقمان، الآية ٢٧.

٤- ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴿٤٤﴾﴾ – الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة آل عمران، الآية ٤٤.

فالتقمه الحوت، فنادٰى فِي ظلمة فاحمة، فنبذناه وَ أنبتنا عَلَيْهِ شجرة قائمة، ذو القرنين بقبضته الشرق وَ الغرب، وَ له اليد الطولٰى فِي كلّ ضرب من الحرب سلطان مصريّ فاتح الشامات قاهر الغزوم قهرمان دمشق مالك رقاب العجم وَ الروم، عضد الدولة رونق المسلة فتح لأوليائه وَ مقت لأعدائه طالما أبعد نفسه من ان ينام، فأنام تحت ظله الأنام. خرجت من منكبيه الأفعيان فلأنه ضحاك ناسب أن ينسب إلٰى تيمور حيث أنه سفاك، حديد اللسان فِي تبيانه، وَ من لسانه علو شانه صحيح الصلب عارضه معقول، فاحل قد تعرض له ذات الجنب وَ هُوَ مسلول تارة تراه وَ هُوَ من أصحاب اليمين يتلألأ وجهه البريق بأنوار مشرقة مغرمًا، وَ مرة تلقاه وَ هُوَ من أصحاب الشمال الّذِينَ أغشيت وَ جوههم قطعًا من اللّيل مظلمًا[٦١٧]... إلخ."

إنّنا نتبيّن من هٰذَا النّصّ أن أحمد شمس‌الدّين سلك طريقته المجازيّة فِي وَصف السّيف إلّا أنّه كان أكثر وضوحًا من وَصفه للقلم فِي رسالته القلمية. وَ لقد اختلف الباحثون فِي قيمة رسالته الأدبية وَ يذهب فريق منهم يمدح أسلوب

---

٦١٦ ﴿وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴿٨٧﴾﴾ – القُرْآنُ الكَريمُ، سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

٦١٧ ﴿وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢٧﴾﴾ – القُرْآنُ الكَريمُ، سورة يونس، الآية ٢٧.

المؤلف[٦١٨] وَ يضعه بين كبار المؤلفين، وَ يذهب الفريق الثاني منهم عكس ذٰلِكَ وَ يقول أن المؤلف يحشد الكلمات وَ الاصْطِلَاحات بلا ترتيب وَ بلا معنًى[٦١٩]. وَ نحن نفهم هٰذَا الاخْتِلَاف لأن الفريق الأول ينظر إِلَى أثر شَمْسالدِّينِ بمنظار النقد الأدبي الحديث، وَ أما الفريق الثاني فيرجع مع المؤلف وَ أثره فِي القرن العاشر الهجريّ / السادس عشر الميلاديّ وَ يقيسونه بالمعيار الأدبي الموجود حينذاك، وَ لِذٰلِكَ كان حكمهم أقرب إِلَى الصواب. وَ أخيرًا نودّ أن نشير إِلَى أمرين لاحظناهُما خلَال قراءة الرّسالة القلمية وَ الرّسالة السّيفيّة، وَ هُما:

- الأمر الأول: معرفة المؤلّف للقرآن الكريم، فالاصْطِلَاحات القرآنيّة تأخذ نصّ الكتاب تقريبًا، وَ لقد حاول كثير من العلماء وَ الأدباء أن يكتبوا بِهٰذِهِ الطريقة، وَ لم ينجح فِي ذٰلِكَ منهم إِلَّا قليل، وَ أحمد شمسالدّين هُوَ أحد الَّذِينَ وَفّقوا كلّ التّوفيق فِي ذلك، فنراه يضع الكلمات القرآنية فِي مكان مناسب حَتَّى ينسجم بكلماته وَ أفكاره إنسجامًا تامًا. وَ قد رفع هٰذَا الاسْتعمال قيمة إنتاج أحمد شَمْسالدِّينِ لغويًا وَ بلاغيًا إِلَى مرتبة أدبية عالية.

---

[٦١٨] مجلّة المتحف البلديّ (GZM)، صفوت بَاشاَقِيتْش (Safvet Bašagić)، ص ٣١، سنة ١٩١٢ م.

[٦١٩] الْجَوْهَر الأسْنَى، مُحَمَّد الخانجي، ص ٣١.

- الأمر الثاني: معرفة المؤلّف للتأريخ وَ استشهاده فِي أثناء الكتاب بالأشخاص[٦٢٠] وَ الأحداث التاريخية الشهيرة. وَ هٰذَا المزج بين الحياة وَ القرآن يثير الاهتمام عند قارئ الكتاب وَ يجذب نفوسهم.

كتابة الشّروح وَ الْحواشي

ظهر فِي القرن الأوّل الهجري نوع جديد من الفن الأدبي وَ هُوَ كتابة الشروح عَلٰى الآثار الأدبية المختلفة، وَ ظهور هٰذِهِ الكتابات ظاهرة طبيعية فِي الأدب الْعَرَبِيّ لأن القصائد، وَ خاصة من العصر الجاهلي وَ إن كانت مفهومة لدٰى القلّة النادرة من الناس إلّا أنها كانت غامضة عَلٰى العام، وَ كان لابد من شرح دراسة لِهٰذَا التراث، وَ فِي كثير من الأحيان لم تحل هٰذِهِ العقد بالشروح وَ إنما تطلبت كتابة الحواشي عليها.

وَ ممّا نذهب إِلَيْهِ أن الشعر لم يكن باعثًا أساسيًا لظهور الشروح فِي الأدب الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ وَ إنما ولد هٰذَا النوع الأدبي فِي أحضان علوم القرآن

---

[٦٢٠] نذكر موسٰى وَ يوسف وَ يونس – عليهم الصّلاة وَ السّلام –، ثمّ بعد ذٰلِكَ ضحاكًا وَ تيمور وَ غيرهم...

الكريم وَ الحديث النبوي الشريف وَ علم اللغة. وَ يستلزم تفسير القرآن الكريم معرفة العلوم اللغوية وَ التاريخية، وَ معرفة أسباب النزول، وَ كَذٰلِكَ دراسة أقوال النّبيّ – صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – فلا بد من معرفة اللُّغَة وَ الرّواية وَ معرفة القرآن الكريم بصورة خاصة، لأن الأقوال الَّتِي تناقض نصوص القرآن الكريم لا يمكن أن يؤخذ بها.

وَ لَقَد سلك أدباء الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك مسلك معلّميهم العرب وَ ألّفوا فِي هٰذَا الميدان أَيْضًا، وَ سنتناول الآن أحد هٰؤُلَاءِ الكتاب لأنه يستحق أن نضعه بين الشراح المسلمين الكبار، وَ هُوَ عَلِيّ فهمي جابيتْشْ (‘Ali Fehmī Džabić) وَ هُوَ من أبرز الَّذِينَ كتبوا بالْعَرَبِيَّة فِي يُوغُسْلَافِيَا عَلٰى الإطلاق. وَ فِي القرن الثالث عشر الهجريّ / التاسع عشر الميلاديّ، حينما ضعفت الدراسات الْعَرَبِيَّة الْإِسْلَامِيَّة فِي يُوغُسْلَافِيَا وَ كادت تموت ظهر جابيتش بكتابيه[٦٢١]، وَ مدد بذلك حياة هٰذِهِ الثَّقَافَة إِلٰى حين. ولد جابيتش فِي مدينة موستار سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م وَ تلقّى تعليمه الأول عند أبيه حافظ شاكر جابيتش (Ḥāfiẓ Šākir Džabić) الَّذِي كان مفتي مدينة موستار فِي ذٰلِكَ الوقت. وَ الجدير بالذكر أن جابيتْشْ لم يذهب إِلٰى أي مركز من المراكز الْإِسْلَامِيَّة لغرض الدراسة إذ تلقاها كلها فِي

---

[٦٢١] هما:

١- طلبة الطّالب فِي شرح لاميّة أبي طالب،

٢- حسن الصّحابة فِي شرح أشعار الصّحابة.

مسقط رأسه[٦٢٢]. وَ لقد عيّن مفتيًا للمدينة سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م، وَ بقي عَلٰى هٰذَا المنصب حَتَّى سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م، وَ فِي ذٰلِكَ الوقت وقف جابيتش عَلٰى رأس حركة مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الَّذِينَ طالبوا السلطات النِّمْسَاوِيَّة بالإستقلال الذاتي لمنطقتهم. وَ من الطَّبِيعِيّ أن يكون أحد الَّذِينَ شرّدتهم السلطات النِّمْسَاوِيَّة وَ عَلٰى أثر ذٰلِكَ غادر البوسنة متوجهًا إِلٰى إِسْطَنْبُول (Istanbul) طالبًا من الأتراك التّدخّل فِي الأمر لٰكن تركيا رفضت طلبه وَ بقي جابيتْشْ هُناك حَتَّى توفّي فِي شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٦ هـ / أغسْطس سنة ١٩١٨ م.

وَ لَقَد ذكرنا أن جابيتش ألف كتابين بالْعَرَبِيَّة وَ هما: "حسن الصّحابة فِي شرح أشعار الصّحابة" وَ "طلبة الطّالب فِي شرح لاميّة أبي طالب"، أما الكتاب الأول، فقد جمع فِيهِ جابيتش أشعار صحابة الرسول وَ رتبهم ترتيبًا أبجديًا ثم شرح كل قصيدة مشيرًا إِلٰى حياة الشاعر وَ الظروف الَّتِي نظمت فِيهَا القصيدة.

وَ يقع "حسن الصّحابة" فِي ثلاثة أجزاء مع أننا لم نطلع إِلَّا عَلٰى الجزء الأول الَّذِي طبع، وَ لا نعرف شيئًا عن مصير الجزأين الثاني وَ الثالث[٦٢٣]، وَ

---

[٦٢٢] وَ من الغريب أن ينال جابيتْشْ هٰذِهِ الثَّقَافَة فِي مدينة موسْتار وَحْدها، وَ أعتقد أن هٰذَا يرجع إِلٰى سَبَبَيْنِ: الأَوَّل: إن موسْتار كان مركزًا ثقافيًا كبيرًا وَ مقرًّا للعلماء، وَ الثاني: أن جابيتْشْ كان صاحب موهِبة فذّة.

[٦٢٣] وَ يذهب الخانجي فِي كتابه "الْجَوْهَر الأَسْنٰى"، ص ١١٦، أن الجزأين الثّاني وَ الثّالث كانا مخطوطين، وَ يشكّ فِي ذٰلِكَ فِي كتابه الثّاني (أثر مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، ص ٩١).

لكننا نعتقد أن جابيتش قد أتمّ هذين الجزأين لكنهما ضاعا وَ سط الإضطهادات السّياسيّة الَّتِي لقيها جابيتْش.

وَ يقول المؤلف فِي مقدمة الجزء الأوَّل:

"فشمرت عن ساق الجد فِي تطلب أشعار الصحابة فِي غطائها وَ استخرجتها من مكانها، من كتب المتقدمين وَ زبر المتأخرين حَتّٰى كتبت لأكثر من مائتي رجل من الصحابة... وَ النية أن أجعل هٰذَا الشرح فِي ثلاثة أجزاء مرتبًا القوافي عَلٰى حروف المعجم، وَ يكون الجزء الأول من قافية الهمزة إِلٰى قافية الراء وَ الثاني من قافية الراء إِلٰى قافية اللام، وَ الثالث من قافية اللام إِلٰى قافية الياء آخر الحروف وَ أن أسمّيه: حسن الصحابة فِي شرح أشعار الصحابة."[624]

وَ طبع الجزء الأول من كتابه الَّذِي يحتوي من ٣٦٢ صفحة فِي إسْطَنْبُول سنة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م فِي مطبعة "رُشن مطبعسي" (Ruşen Matbaası) وَ ليس فِي القاهرة كما زعم بعض الباحثين[625]. معنٰى ذٰلِكَ أن الكتاب طبع فِي الوقت الَّذِي كان فِيهِ جابيتش مدرسًا فِي "دار الفنون" وَ مَا دام قد فقد وَظِيفته فِي الجامعة بسبب موقفه من السلطات النّمْسَاوِيَّة، فليس من البعيد أن بقية

---

[624] حسن الصّحابة، ص ٥-٦.

[625] غلاسنيقْ، إبْرَاهِيم مهيناَقِيتْشْ (Ibrāhīm Mehinagić)، العدد ١-٢، ص ٢٥، سنة ١٩٥٦ م.

آثاره قد ضاع لأن الباحثين[٦٢٦] عَلٰى الرغم من محاولاتهم الكثيرة لم يجدوا شيئًا منها. وَ "حسن الصّحابة" ليس مجرّد جمع القصائد من صحابة الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ عرض سير حياتهم وَ إنما يعرض المؤلف فِيهِ فكرته وَ نظرته إِلٰى الأدب وَ إِلٰى الحياة. وَ الأديب له أهدافه وَ غاياته الإنسانية، فهو لا يقيس الآثار الأدبية بالمقاييس الفنية الأدبية بل يقيسها بالمقاييس الخلقية، فنراه يعاتب بعض الشعراء الَّذِينَ يعدون زعماء الشعر الْعَرَبِيّ مثل ابن أبي ربيعة وَ ابن الرومي وَ أبي نواس وَ الفرزدق وَ جرير وَ العباس بن الأحنف، فيقول:

"لما كان الشعر ديوان الأدب وَ دستور كلام العرب، إِلَيْهِ يرجع فِي حل المشكلات وَ به يستعان فِي كشف المعضلات، وَ كان قد روٰى عن أصحاب رسول الله – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – شيْء كثير منه، وقع فِي خلدي أن أجمع منه مَا تيسر جمعه مما تفرق فِي بطون أوراق السلف وَ تشتت فِي سطور أقلام الخلق... حبًا فيهم وَ ترفيًا فِي مزيد حبهم بإحياء تِلْكَ الآثار الَّتِي يظهر بها فضلهم وَ شدة تمسكهم بالدين المبين... ليكون الأديب المتشرع قد اطلع عَلٰى كثي من أمور الدين وَ تاريخ الْإِسْلَام ممّا وقع عهده – عَلَيْهِ الصّلاة وَ السّلام – وَ عهد الخلفاء الرّاشدين من تأسيس الدّين وَ ظهور الفتح المبين فيجد نفسه كأنها تعيش فِي تِلْكَ العهود الشريفة وَ العصور الشريفة، وَ يخيل إِلَيْهِ أنه شهد بدرًا وَ أحدًا وَ حديبية مع المصطفٰى خير البرية،

---

[٦٢٦] وَ من الباحثين الَّذِينَ بذلوا جهودهم فِي كشف هٰذِهِ الآثار المرحوم حازم شعْبانوفيتْش (Hazim Šabanović).

وَ خيبر وَ الفتح وَ حنينًا فيرتاح روحه وَ يقرّ عينًا... وَ يكون مع ذٰلِكَ قد أخذ حظًّا وَافرًا من أساليب كلام العرب وَ فنون الأدب، فيغنيه عن مجون ابن أبي ربيعة وَ ابن الرّومي وَ ابن الأحنف عبّاس، وَ يكون قد أستمسك من الفضل بكلتا العروتين، وَ رفل من المجد فِي كلتا الحلتين."[627]

وَ لَقَد نجح جابيتش أن يحيي الجوّ الَّذِي تتحدّث عنه القصيدة وَ يشعر القارئ بأنّه يشترك فِي الأحداث الَّتِي تتناولها القصيدة. وَ هٰذَا الشّعور لا يساعدنا عَلٰى فهم القصيدة فحسب، بل يجعلنا نستمتع بقراءتها أيْضًا. وَ لا شك فِي أن المؤلف بذل جهدًا كبيرًا حَتّٰى وَصل إِلٰى هٰذِهِ الغاية، وَ لا نريد أن نبالغ فِي مدح كتابه هذا، لكننا نقول أن هٰذَا الكتاب يمثل محاولة ناجحة لأن الكتابة فِي هٰذَا الموضوع قد قلّت حَتّٰى عند أدباء العرب، فلا نجد من جمع هٰذَا العدد من أبيات صحابة الرسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ عنى بها هٰذِهِ العناية.

أمّا كتابه الثاني "طلبة الطّالب فِي شرح لاميّة أبي طالب" الَّذِي فرغ منه فِي التاسع من رمضان سنة ١٣٢٧ ﻫ / فِي الخامس وَ العشرين من نوفمبر ١٩٠٩ م، وَ طبع فِي تِلْكَ السنة، فهو أصغر حجمًا من كتابه الأول فلا يتجاوز أكثر من سبع وَ ثمانين صفحة وَ يتناول المؤلف فِي مقدمته ميلاد الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ رسالته حَتّٰى يصل إِلٰى الأحداث الَّتِي وقعت فِي وَادي بني يوسف وَ عَلٰى أثرها نظم أبو طالب هٰذِهِ القصيدة، وَ يشير جابيتش فِي

---

[627] حسن الصحابة، ص ٣-٤.

هٰذَا الكتاب إِلٰى قصائد أبي طالب الَّتِي القاها بمناسبات أخرٰى غير أحداث "شيت" وَ يشرحها كما "حسن الصحابة" وَ عدد أبيات هٰذِهِ القصيدة أربعة وَ تسعون بيتًا وَ ليس ثمانين بيتًا كما ذهب بعض الباحثين[٦٢٨]. وَ لكي نرٰى طريقته فِي شرح أبيات القصيدة نذكر تعليقه عَلٰى البيت التالي:

"فمن مثله فِي النّاس أي مؤمل

إذا قاسه الحكّام عند التّفاضل"

وَ يعلّق جابيتْش عَلٰى هٰذَا البيت فيقول:

"فمن مثله[٦٢٩] – مبتدأ أو خبر، وَ الإستفهام للإنكار أي ليس فِي الناس من يماثلهن وَ قوله – أي مؤمل – الإستفهام أَيْضًا للإنكار جاء تأكيدًا للإنكار السابق، أي ليس مؤمل مثله، وَ المؤمل الَّذِي يرجٰى لكل خير، وَ قوله "إذا قاسه الحكام عند التفاضل"، أيْ إذا نظروا بينه وَ بين غيرِهِ فِي التغالب فِي الفضل، وَ الحكّام جمع حاكم، وَ كانوا يتحاكمون فِي منافراتهم وَ مفاخراتهم إِلٰى من يجعلون حكمًا، كتنافر عبد المطلب بن هشام وَ حرب بن أمّيّة إِلٰى نفيل بن عبد العزٰى العدويّ، جدّ عمر بن الخطاب، وَ تنافر علقمة بن علاثة وَ

[٦٢٨] غلاسنيقْ، مُحَمَّد الخانجي، العدد الثاني، ص ٩١، زغرب ١٩٣٤ م.

[٦٢٩] وَ لقد أخطأ جابيتش فِي هٰذَا الشرح النّحويّ، وَ الصواب هو: من – اسم استفهام فِي محلّ رفع مبتدأ. مثله – خبر مرفوع بالضّمّة الظّاهرة، وَ الْهَاء فِي محل جرّ بالإضافة.

عامر بن الطفيل إلى هرم بن قطبة بن سنان، وَ كان أيضًا للعرب فِي الجاهلية حكام وَ قضاة يحكمون بينهم عرفوا وَ اشتهروا بذلك، فكام لتميم اكثم بن صيفي وَ حاجب بن زرارة وَ اقرع بن حابس."[٦٣٠]

وَ لسنا نبالغ إذ نقول بأن جابيتْش شارح ممتاز وَ بفضل معرفته لأسرار اللُّغَة الْعَرَبِيَّة وَ آدابها نقرأ كتابه وَ نكاد ننسى أن أصله غير عَرَبِيّ، لِذَلِكَ اجتذب نفوس الَّذِينَ يدرسونَ الأدب الْعَرَبِيّ جميعهم سواء أكانوا من العرب أم من غير العرب. وَ لا نقول أن جابيتش ناقد بمفهومنا العصري وَ إنما هُوَ شارح للأدب الْعَرَبِيّ، وَ هُوَ يتناول الموضوع كما فعل العرب، إذ يدرس شاعرًا من الشعراء وَ بيئته وَ الظروف المختلفة الَّتِي أحاطت به، ثم يثبت بالشعر الْعَرَبِيّ القديم حَتَّى يفسر معاني القصيدة وَ يوضحها وَ يفعل جابيتش ذَلِكَ بمهارة نادرة حَتَّى يدخل القارئ عالم الشعراء المذكورين.

وَ نختم دراستنا لشراح الأدباء فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ دون أن نطيل لأننا لم نجد أحدًا منهم خاض فِي هَذَا الموضوع سوى فهمي جابيتْشْ (Fehmī Džabić) الَّذِي أشرنا إِلَيْهِ. وَ كان يتمسك بمبادئه الأدبية وَ السياسية وَ قد بقي يطالب بحقوق المسلمين فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ المشروعة طوال حياته. وَ لقد عين أستاذًا فِي "دار الفنون" فِي إِسْطَنْبُول بفضل إنجازاته الأدبية، ثم بعد ذَلِكَ طرد من الجامعة بسبب أفكاره السياسية، لكنه لم يتزعزع وَ لم يغير عبر حياته الأدبية وَ السياسية.

---

[٦٣٠] طلبة الطّالب، ص ٧٤.

علم العرُوض

لم نـجـد بين علمـاء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك من ألّـفوا فِي عـلـم الـعـروض، وَ قـد حـفـظ التـاريـخ اسْميـن فـقـط فِي هٰذَا البـاب هـمـا: مُحَمَّد الـعـروضـيّ (Muḥammed El-‘Arūḍī) وَ مـحـمُـود بـن خـلـيل الـموسْـتـاريّ (Maḥmūd bin Ḫalīl El-Mostarī). أمّا مُحَمَّد العروضي[٦٣١] فعلٰى الرّغم من أنّه ألّف فِي هٰذَا الموضوع وَ فِي علم البيان كَذٰلِكَ[٦٣٢]، فإنّنا لم نعثرْ عَلٰى أثر له، وَ كلّ المحاوَلات الّتِي قام بها الباحثون فِي الماضي وَ الحاضر لكَي تكْشف عن كتبه هٰذِهِ باءَت بالخيبة، لِأجل ذٰلِكَ سوف نكتفي بِهٰذَا الصّدد بالحديث عن كتاب محمود بن خليل الموستاري الَّذِي هُوَ بين أيدينا.

ولد محمود بن خليل الموستاريّ فِي مدينة موسْتار وَ قد تلقّى تعليمه الأوّل وَ أتمّ دراسته العليا فِي إسْطَنْبُول، ثمّ درس فِي عدد من المدارس فِي إسْطَنْبُول وَ عيّن قاضيًا فِي حلب ((Ḥaleb (Alep)) سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م، وَ توفّي فِي السّنة نفسها.

---

[٦٣١] لقّب بِهٰذَا الاسْم بفضل تعمّقه فِي علم العروض، توفّي سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٧٣ م.

[٦٣٢] غلاسنيق (Glasnik)، العدد الثاني، ص ٣٦، سنة ١٩٣٤ م.

أمّا كتابه فِي العروض فهو شرح "العروض الأندلسيّ"[٦٣٣]، وَ هٰذَا الكتاب، كما هُوَ معروف، له ميزتان أساسيتين، هما: إختصار الموضوع وَ أن المؤلف جاء بشاهد لكل بحر من الأبحر الستة عشر، نضرب مثلًا:

قال فِي البحر الطّويل:

"طـويـل عَـلَـيَّ اللّيل إذ بـت كـالـتـنـا

جـنـوح الـدّجٰـى وَ النّـجـم ينقاد للـجـنـح"

وَ قال فِي البحر البسيط:

"ابـسـط رجـاءك بـالأيّـام مـبـتـهـجًـا

وَ اغنم من الأنس قبل الشّيب مَا متعا"

وَ يعرف الموستاريّ الاصْطِلَاحات الَّتِي جاءَ بها الأندلسيّ فِي كتابه ثمّ يشرح بالدّقّة وَ التّفصيل الأشياء الَّتِي أشار إِلَيْهَا الأندلسيّ، لٰكنه لم يطل وَ إنّما أوجز. وَ يلاحظ الموستاري أن هٰذِهِ الاصْطِلَاحات مثل: العروض، وَ القافية، وَ العلّة، وَ غيرها لا يعرفها إِلَّا المتعمقون فِي علم العروض، فهو يأتي بأمثلة من الشعر الْعَرَبِيّ فِي شرحه، مثلًا: عندما يتناول الأندلسي البحر الكامل يقول أنه يأتي عَلٰى وَزْن "متفاعلن" ستّ مرّات وَ يأتي بِهٰذَا البيت:

---

[٦٣٣] وَ هُوَ ابن عَبْدالله مُحَمَّد المعروف باسم أبي القيس الأنصاريّ الأنْدلسيّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٦٦٠، وَ عدد الأوراق ٣١.

"وَ كملت لا أحد يفوقك فانتهج

طرق السّيادة فِي علوّك فاستو"

وَ يضيف الموستاري فِي شرحه فيقول:

"فالأصل ليس قيد اختراز ها، بل هُوَ لتحقيق الأجزاء الأصليّة وَ لما كان هٰهنا ثلاثة أوضاع لِلأعاريض وَ تسعة أوضاع للضروب، أشار إِلٰى أوّل الوضعين بقوله:

"وَ كملت لا أحد يفوقك فانتهج

طرق السّيادة فِي علوّك فاستو"

فقوله "قك فانتهج" فروض أولٰى وَ هِيَ سالمة عَلٰى وَزْن "متفاعلن" وَ لها ثلاثة أضرب، الأوّل مثلها كما أشار إِلَيْهِ فِي البيت وَ شاهده قول المتنبّي:

"وَ هُوَ أجل وَ صواهل وَ مناصل

وَ زوابل وَ توعد وَ تهدد"

وَ إِلٰى الثّانية بالزيادة عَلٰى قوله:

"وَ كملت لا أحد يفوقك فِي علا

وَ طلعت فِي أفق الكمال شهابا"

فهٰذا هُوَ الضّرب الثّاني، وَ هُوَ مقطوع عَلٰى وَزْن "فعلاتن" وَ شاهده قول المتنبّي:

"وَ لـك الزّمـان من الزّمـان وقـايـة

وَ لــك الخصــام من الخصــام فـداء"

وَ مصرّع هٰذَا الضّرب قول المتنبّي:

"أمن ازديارك فِي الدّجٰى الرّقبـاء

إن حيـث أنت من الظّلام ضـيـاءُ"[٦٣٤]

وَ يشرح الموستاريّ كتاب الأندلسيّ عَلٰى هٰذَا المنوال، إذ يميّز كتابه بوضوح وَ حسن ترتيب وَ اختيار أمثلة مناسبة من الشعر الْعَرَبِيّ. بقي لنا أن نذكر أن الموستاري، إلٰى جانب كتابته فِي علم العروض عرف عالمًا فِي علم البيان، بل أعطٰى لِهٰذَا العلم أولية عَلٰى سائر العلوم، وَ نرٰى ذٰلِكَ جليًا من مقدمة كتابه المذكور حينما يزعم أن العروض يكمله علم البيان.

---

[٦٣٤] وَرقة AB ١٨ من المخطوطة المذكورة.

الدّراسات فِي علم المعاني وَ البيان وَ البديع

نذكر فِي هٰذَا الفصل عالمين من البوسنة ألّفا فِي العلوم البلاغية وَ هما: حسن كافي پروشْتْشاقْ (Ḥasan Kāfī Pruščak) وَ حسن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ (Ḥasan Mūsā El-Bosnewī) وَ لم يشتهر سواهما بالتّأليف فِي هٰذَا الميدان. وَ سوف نتناول أوّلا حسن كافي پْرُوشْتْشَاقْ وَ أثره لأنه أول من ألّف فِي هٰذَا الموضوع. ولد حسن كافي پْرُوشْتْشَاقْ فِي مدينة پْرُوسَاتْسْ[٦٣٥] سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م، وَ بعد أن تلقّى تعليمه الأوّل فِي الْبُوسْنَةِ وَ اصل دراسته فِي إسْطَنْبُول حيث استمع إلٰى أشهر أساتذتها فِي ذٰلِكَ الوقت، ثم رجع إلٰى البوسنة سنة ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م، وَ بدأ يدرّس العلوم الدينية فِي مدينته وَ يؤلف وَ أولٰى هٰذِهِ المؤلفات "رسالة فِي تحقيق لفظ چلبي" وَ يليه "مختصر الكافي فِي المنطق" وَ كتب عَلَيْهِ شرحًا شنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م. وَ عيّن قاضيًا فِي المدينة فِي السنة نفسها، وَ نراه سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٨٨ م يذهب إلٰى إسْطَنْبُول من جديد وَ لا يمكث فِيهِ إلّا فترة وَ جيزة لأنه عيّن فِي السنة نفسها قاضيًا فِي منطقة سْرِيمْ[٦٣٦] (Srem) وَ فِي هٰذَا

---

٦٣٥ پروساتْسْ (Prusac) من أقدم المدن فِي الْبُوسْنَةِ، وَ كانت المدينة مركزًا ثقافيًّا كبيرًا فِي الأيّام الأولٰى من الحكم العُثْمَانِيّ فِي الْبُوسْنَةِ.

٦٣٦ اسم المنطقة شمال شرقيّ فِي يُوغُسْلَافِيَا فتحها الأتراك أثناء فتوحاتهم فِي البلقان (Balkan) لٰكن كانت المنطقة قريبة من الحدود المجريّة وَ كانت ميدانًا لمعارك عديدة بين المجر وَ الْعُثْمَانِيِّينَ.

الوقت بدأ يؤلف كتابه الجديد "سمت الوصول إِلى علم الأصول"[٦٣٧] الَّذِي أتمّ تأليفه أثناء زيارته للأماكن المقدسة سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ م، وَ فِي السنة التالية عيّن قاضيًا فِي پِرُوسَاتْسْ (Prusac) من جديد حينما ألّف أشهر مؤلفاته بالْعَرَبِيَّة، وَ هي: "أصول الحكم فِي نظام العالم"[٦٣٨]. وَ اشترك المؤلف بعد ذٰلِكَ فِي الحملة العسكرية عند اغره[٦٣٩] سنة ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢ م، وَ عرض هٰذَا الكتاب إِلى بعض الشخصيات العسكرية وَ نصحه هٰؤُلَاءِ أن يترجمه إِلى اللغة التُّرْكِيَّة أيْضًا، وَ فعل ذٰلِكَ المؤلف بعد رجوعه من الحملة فقد ترجم الكتاب إِلى التُّرْكِيَّة وَ قدمه إِلى السلطان العُثْمَانِيّ بواسطة الوزير إِبْرَاهِيم پاشا (Ibrāhīm-paša) وَ عينه السلطان بعد ذٰلِكَ قاضيًا مدى الحياة فِي مدينة پِرُوسَاتْسْ بشرط أن يدّرس العلوم الدينية فِيهَا وَ لقد أطاع المؤلف هٰذَا الأمر وَ بقي يدّرس وَ يؤلف فِي المدينة حَتّٰى توفي سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م.

---

٦٣٧ راجع الصفحة ٢٨٥.

٦٣٨ عرف هٰذَا الكتاب فِي المصادر الأوروبية تحت عنوان: "أصول الحِكم (كسر الحاء) فِي نظام العالم"؛ لٰكن ممّا نذهب إِلَيْهِ هُوَ أن العنوان الصّحيح هُوَ: "أصول الحُكم (بضمّ الحاء) فِي نظام العالم". وَ هٰذَا العنوان يتناسب مع موضوع الكتاب.

٦٣٩ أغره ((Eger (Eğri) أيالة شرقيّ تركيا، مساحتها ١٣،٣١٧ كم.

وَ قبل أن ننتقل إِلَى مؤلفات حسن كافي فِي علم البيان يجدر بنا أن نذكر أن بعض الباحثين[٦٤٠] يذكر عنه بأنه نظم الشعر أيْضًا، لكننا لم نجد من مقاصده سوٰى هذين البيتين اللذين ختم بها كتابه "أصول الحكم فِي نظام العالم":

"يـا عالمًـا بجمـيـع الحـال وَ الطـلـب

نرجـو النجـاة من الأحـزان وَ الكرب

أعـط الخـلاص من الأوزار قـاطـبـه

وَ ارْحم عـبـيـدك خلصنـا من التعـب"

لِذٰلِكَ سوف نتناول المؤلّف فِي الموضوع الَّذِي وَجدنا له آثارًا أدبية أو علميّة، فمكانته، عَلَى حسب رأينا، بين العلماء وَ ليس بين الشّعراء.

ألّف حسن كافي فِي علم البيان كتابين:

١- تمحيص التّلخيص،

٢- شرح تمحيص التّلخيص[٦٤١].

وَ كما يظهر من عنوان هٰذين الكتابين أن المؤلّف كان معجبًا بكتاب "التّلخيص" للخطيب القزوينيّ، وَ يذكر فِي آخر كتابه هٰذَا أنّه تمّ تأليفه فِي الثّالث

---

٦٤٠ الْجَوْهَر الأَسْنٰى، مُحَمَّد الخانجي (Mehmed Handžić)، ص ٥٠.

٦٤١ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ١٦٨٩.

وَ العشرين من شهر رجب سنة ١٠١٦ هـ / فِي الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٦٠٧ م، وَ يناقش المؤلّف فِي مقدمة كتابه بعض مسائل علم البيان، وَ فِي الجزء الأول منه يأتي بتعريفات لعلم المعاني وَ البيان وَ البديع، وَ فِي الجزء الثاني يتناول علم المعاني وَ علم البيان، وَ يختم كلامه عنه بقوله:

"فاعلم أن المجاز أبلغ من الحقيقة وَ الاسْتعارة من التّشبيه وَ الكنايه من التّصريح."[٦٤٢]

أمّا علم البديع، فقد تناوَلَه فِي خاتمة كتابه وَ ذكر سبعة وَ ثلاثين نوْعًا منه. وَ يتناول "تمحيص التخليص" المسائل الأساسية فِي علم البيان، وَ لكن المؤلف لم يوضح هٰذِهِ المسائل وَ لم يأت بأمثلة كافية، فالقارئ العادي يبقى حائرًا بعد قراءته عاجزًا عن فهم أشياء كثيرة فيه. وَ يبدو لنا أن المؤلف ألّف هٰذَا الكتاب للذين تخصصوا فِي علم البيان، أما العامة فقد كتب لهم شرحًا عَلَيْهِ وَ سمّاه "شرح تمحيص التلخيص"، وَ لكي يستبين لنا الفرق بين هذين الكتابين نأتي ببعض الأسئلة:

عندما يتناول علم المعاني فِي "تمحيحص التّخليص"، يقول عن الكلمة المثبتة وَ أغراضها:

"فقد يراد به إفادة المخاطب، أما الحكم أو كونه عالمًا بِهِ."[٦٤٣]

---

[٦٤٢] تمحيص التّلخيص، وَرقة رقم B ١٣.

[٦٤٣] تمحيص التّلخيص، وَرقة A ٣.

أمّا فِي شرحه فهو يوسّع هٰذَا الكلام، فيقول:

"فقد يراد به إفادة المخاطب، أمّا الحكم مفعول الإفادة أي وقوع النّسبة أو لا وُقُوعها كقولك: "زيد قائم" أو "زيد غير قائم" لمن لا يعرف أنه قائم أو غير قائم، وَ كون الحكم مقصودًا للمخبر بخبر لا يستلزم تحقيقه فِي الواقع، أو كونه أي المخبر عالمًا به أي الحكم كقولك: "حفظت الْقُرْآن" لمن حفظه."[٦٤٤]

وَ يقول فِي "تمحيص التّخليص" فِي فصله عن علم البيان:

"الكناية: وَ هُوَ لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه. وَ به تفارق المجاز."[٦٤٥]

وَ يقول عن ذٰلِكَ فِي شرحه:

"الكناية: وَ هِيَ لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه، وَ هِيَ فِي اللُّغَة: مصدر من كنيت بكَذا عن كَذا، وَ كنوت إذا تركت التّصريح بِهِ؛ وَ فِي الاصْطِلَاح: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه، أي إرادة معناه المطابقي مع لازمة كلفظ "النّجاد" المراد به طول القامة مع جواز أن يراد طول النّجاد أي حمائل

---

[٦٤٤] شرح تمحيص التّلخيص، وَرقة رقم A-B ٣٠.

[٦٤٥] تمحيص التّلخيص، وَرقة رقم A-B ٣.

السّيف أيْضًا، وَ به تفارق المجاز فإنه لا يجوز فِيهِ إرادة المعنٰى الحقيقي للزوم القرينة المانعة عن إرادة معناه الحقيقيّ."[٦٤٦]

وَ نذكر الآن حكمه عَلٰى البديع، إذ يقول فِي خاتمة "تمحيص التّلخيصِ":

"وَ القول بالموجب وَ هُوَ ان يقع صفة فِي كلام الغير كناية عن شيء فتثبتها لغيره كقوله:

"وَ قـالـوا قـد صـفٰـى عـنـا قـلـوب

لـقـد صـدقـوا وَ لٰـكـن عـن وَ دادي[٦٤٧]"

أمّا فِي "شرح تمحيص التّلخيص"، فيقول:

"القول بالموجب وَ هُوَ أن يقع فِي كلام الغير كناية عن شيء فتثبتها لغيره، أي تثبت أنت فِي كلامك تِلْكَ الصّفة لغير ذٰلِكَ الشيْء كقوله:

"وَ قـالـوا قـد صـفـت عـنـا قـلـوب

لـقـد صـدقـوا وَ لٰـكـن عـن وَ دادي"

فظاهر أن هٰذَا البيت من هٰذَا القبيل، وَ أمّا فِي البيتين الأوليين، وَ هما:

---

٦٤٦ شرح تمحيص التّلخيص، وَرقة رقم A ٧٣.

٦٤٧ تمحيص التّلخيص، وَرقة رقم B ١٥.

"وَ إخــوان حــســبــتــهــم دروعًــا

فــكــانــوهــا وَ لٰــكــن لــلأعـــادي

وَ خــلــتــهــم ســهــامًــا صــائــبــات

فــكــانــوهــا وَ لٰــكــن فِــي فــؤادي"

فغريب منه، إذ ليس فِيهِ كلام الغير."[٦٤٨]

وَ لَقَد جئنا بِهٰذِهِ الأمثلة الثلاثة لتتضح الفوارق القائمة بين – تمحيص التلخيص – وَ – شرح تمحيص التلخيص – وَ قيمتها أَيْضًا، وَ الشرح الَّذِي زوده بأمثلة كثيرة أهم مَا فِي هٰذَا الموضوع، وَ هٰذَا جعلت الكتاب اكثر وضوحًا وَ أقرب إِلٰى القارئ وَ لسنا نبالغ إذ نقول أن الشرح أكثر فائدة وَ قيمة من الأصل نفسه.

أمّا المؤلّف الثاني الْبُوسْنَوِيّ الَّذِي ألّف فِي هٰذَا الموضوع فهو مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ (Muḥammed bin Mūsā El-Bosnewī) وَ عنوان كتابه "حاشية عَلٰى شرح الشّريف الجرجانيّ عَلٰى مفتاح العلوم"، وَ لقد جمع المؤلف فِي كتابه الحواشي الَّتِي ألّفت عَلٰى "مفتاح العلوم" وَ قدمه إِلٰى الوزير حسين پاشا (Ḥusejn-paša) وَ يقول عن شرح الجرجاني فِي مقدمة الكتاب، بعد ثنائه عَلٰى "مفتاح العلوم":

[٦٤٨] شرح تمحيص التّلخيص، وَرقة رقم A ٨٩.

"ألا أنه مستعل عَلٰى الفهم، بعيد من أن يكون هدفًا لكل ذي سهم، لا يطلع عَلٰى مقاصده إلَّا وَاحد بعد وَاحد من الأذكياء... وَ لقد تصدّى لشرح ذاك الشّرح غير وَاحد من الفضلاء وَ اشتغل بحله جم غفير من فحول الشعراء، مع ذٰلِكَ لم يتفق له شيء يكشف عن وَ جده فوائده نقابها وَ يذلل فِي سبيل تحقيق المعاني من المطايا البيان صعابها بل لم أر مَا بعد عداد الحواشي وَ الشروح إذ كل مَا وصل إلي من ذٰلِكَ مقدوح وَ مجروح... فتارة اعترضوا فيما لم يعلموا عليه، وَ تارة تعرضوا لبيان كلامه بأمر لم يثبت هُوَ لديه، فحواني ذٰلِكَ إلٰى أن أكتب الكاشف عن معضلاته وَ أملي المبيّن لعويصاته، وَ أشير إلٰى جوابات أكثر الإعتراضات وَ مزيلات تِلْكَ الأوهام وَ الشبهات، وَ أتلقّى مَا يتوجه منها عَلَيْهِ بالإعتراف، مراعيًا فِي جميع ذٰلِكَ شريطة الإنصاف، وَ ملتزمًا لحكاية الفاظهم كما أوردوها، غير مقتصر عَلٰى ذكر المقاصد الَّتِي قصدوها، دفعًا لمراجعة المرتابين إلٰى مصنّفاتهم... وَ لعمري إن هٰذَا الأمر جليل عزيز المرام، قليل الوجود فِي جميع الأعصار وَ الأيام، وَ لئن ردّه القاصرون، فسيقبله الماهرون، وَ إن ذمّه الأداني وَ الجهال، فسوف يمدحه أصحاب النظر وَ الكمال."[٦٤٩]

وَ نفهم من هٰذَا النّصّ أن المؤلّف يعرض منهجه إلٰى جانب اعتزازه بعمله، وَ ينقد بعض الشّراح عَلٰى "مفتاح العلوم" وَ لقد نقده لا يستند عَلٰى أهواء

---

[٦٤٩] حاشية عَلٰى شرح الشّريف الجرجاني عَلٰى مفتاح العلوم، وَرقة رقم ١.

وَ لا يجرمنه شنآن هٰؤُلَاءِ إلّا يعدل بل يستند فِي نقده هٰذَا إلٰى النّصوص الأدبيّة وَ يحكم عَلٰى أساسها، وَ نضرب بعض الأمثلة الآخرٰى من الحاشية:

"قوله: وَ منه قول الجاحظ، أن الشعر صياغة وَ ضرب من التصوير، قال ابن الكمال[٦٥٠]: "إن مراد الجاحظ بالصّياغة فِي كلامه هٰذَا تصوير المعاني عَلٰى مَا بينه الشيخ[٦٥١] "فِي دلائل الإعجاز" حيث قال: "وَ معلوم أن سبيل الكَلام سبيل التّصوير وَ الصّياغة، وَ أن سبيل المعنٰى الَّذِي يعبر عنه سبيل الشّيء الَّذِي يقع التّصوير وَ المصوغ فِيهِ كالفضّة وَ الذّهب يصاغ منها خاتم أو سوار، فمن وَهَم أن مدار قوله عَلٰى تشبيهه تأليف الكَلام بترتيب كلماته لصوغ الحلي فقد وهم."، وَ لا يشكّ من له أدنٰى مسكة فِي أن مَا زعمه دليلًا له لا شاهد كيف وَ قوله: "سبيل الكلام سبيل التصوير وَ الصياغة صريح فِي استعارة الصّياغة لتأليف الكلام"، وَ قوله: "وَ ان سبيل المعنٰى، صريح فِي أن المعاني شبيهة بالموادّ من الفضّة وَ الذّهب وَ إن الكَلام المركب منه كالخاتم وَ السّوار المصوغن"، وَ ذٰلِكَ لأنّ الألفاظ تابعة للمعاني تتقدّر مقدرها، وَ من زعم كون قول الشيخ وَ ان سبيل المعنٰى... إلخ." صريحًا فِي أن المفردات شبيهة بالمواد من الفضّة وَ الذّهب، وَ إن المعاني كالقوالب الَّتِي تصاغ فِيهَا المادّة

---

٦٥٠ يقصد به كمال پاشا زاده (Kemāl-paša Zādē) مورّخ وَ فقيه عُثْمَانِيّ شهير، توفّي فِي إسطَنْبُول سنة ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م.

٦٥١ يقصد به عبد القاهر الجرجاني.

فيحصل الخاتم أو السّوار سها سهوًا ظاهرًا، وَ مع قطع النّظر من الشّيخ وَ كلامه، يلزم حمل قول الجاحظ عَلٰى مَا حطه – قدّس سرّه – ، لأن الشّعر كما عرفه السّكاكي فِي آخر الكتاب من أقسام اللّفظ، وَ ذٰلِكَ يقتضي كون الصياغة المحمولة عَلَيْهِ مستعارة للفظ."[652]

وَ لكي نوضّح هٰذَا النّصّ نقف عند نصّ آخر من الحاشية المذكورة:

"قوله: وَ المتكفل بالاحتراز عن الخطإ فِي الإفادة علم المعاني وَ عن الخطإ فِي كيفيتها علم البيان، إلّا ترٰى أنه لو أدّٰى معنٰى الضّيافة فِي مقام إبتداء الأخبار بقوله: "إنّه لكثير الرّماد" كان الخطأ فِيهِ من جهة نظر المعاني دون البيان وَ لو أدّاه فِي مقام زيادة الوضوح بقوله: "هُوَ كثير الرّماد" كان الأمر بالعكس وَ قال ابن الكمال: "اعتبرني المعاني الحال وَ هٰهنا المراد، وَ ذٰلِكَ لأن صاحب المعاني تابع للحال وَ مضطرّ فِي رعاية مقتضاه وَ إيراد الكَلام مطابقًا له بخلاف صاحب البيان فإنه بعد أن راعٰى مقتضٰى المقام بحكم المعاني مختار فِي تصوير المعنٰى عَلٰى حسب مراده، تابع لما استحسنه وَ أراده من طريق إيراده من أنواع التّشبيه وَ الاسْتِعارة وَ الكناية... فإن هٰذَا الأعتراف بلزوم اعتبار المقام بحكم البيان أيْضًا."[653]

---

[652] وَرقة رقم B ٥٠ – A ٥١ من الحاشية.

[653] وَرقة رقم A-B ٥٩.

وَ من هٰذِهِ النّصوص يظهر لنا غرض المؤلّف الأساسيّ وَ هُوَ الاعتراض عَلٰى بعض الحواشي الَّتِي كتبت تعليقًا عَلٰى "مِفتاح العلوم"، ثم يتناول المسائل البلاغية الَّتِي كانت شغلًا شاغلًا لعلماء البلاغة عبر القرون.

وَ الواضح أن المؤلّف كان عارفًا فِي علم البلاغة، وَ أنّه كان يعيش فِي أفلاك العلوم وَ البلاغة الْعَرَبِيَّة. وَ نذكر أخيرًا كلامه دار حول اخْتِلَاف وقع فِي تفسير معنٰى الكلمة "لِلهِ درّ أمر التّنزيل" حيث يقول:

"واصل الدّرّ اللّبن، قال بعض المحثين ذكر – قدّس سرّه –[٦٥٤] فِي الهامش اللّبن خير الأطعمة عند العرب وَ هُوَ الأصل فِي التّغذية وَ التّربية، فقد أشار إِلٰى المناسبة بين المعنٰى الأصلي وَ الفرعي، وَ أوما إِلٰى تربية الله لأمر التنزيل وَ إِلٰى أن مَا كان مربيه وَ مكمله الله يكون ممدوحًا كاملًا لكونه خيرًا محضًا، وَ يقرب منه مَا قيل: "لما كان اللبن أقوٰى الأشياء المؤثرة فِي الطبائع"، وَ كان ذٰلِكَ سبب التربية وَ التكميل، استعملت العرب هٰذِهِ الكلمة فِي مقام المدح وَ الدعاء، فتارة يستعملونها مرادًا بِهَا الخير... وَ أخرٰى يستعملونها مرادًا بها معنٰى التربية وَ التكميل، فقوله "لله درّ أمر التّنزيل" يحتمل المعنيين، وَ من الظاهر أن المقام لا يساعد سوٰى أن يكون المعنٰى:

---

[٦٥٤] يقصد به الجرجاني.

لله عمله أو خيره قصدًا به إلٰى التّعجّب عنه وَ المدح له كما قال ــ قدّس سرّه ــ."[655]

وَ علٰى هٰذَا المنوال ينتقل المؤلّف من تصحيح الأخطاء الَّتِي وقع فِيهَا الشّراح إلٰى مناقشة المعاني البلاغيّة وَ استخراج الصواب بقدر الإمكان. وَ يميز كتابه بلغة عَرَبِيَّة جميلة وَ ذوق مؤلّفه الممتاز. وَ عندما نلتفت إلٰى الظروف السياسية وَ الاِجْتِمَاعِيَّة وَ الأدبية فِي ذٰلِكَ الوقت نجد أن الَّذِي قدمه موسٰى الْبُوسنَوِيّ فِي ميدان علم البلاغة ليس بقليل. وَ لو لم يكتب الْبُوسنَوِيّ فِي علم البلاغة سوٰى هٰذَا الكتاب لكان كافيًا حَتّٰى يمثلهم فِي الأدب الْعَرَبِيّ الإسْلَامِيّ.

المؤلفات فِي علم الصّرف وَ علم النّحو

لقد رأينا فِي الفصل السّابق أن مسلمي الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك لم يقدموا للشعر الْعَرَبِيّ إنجازات كبيرة عَلٰى الرغم من أن هٰذِهِ الإنجازات تستحق الذكر وَ الدراسة. أما فِي ميدان العلوم اللغوية فالأمر يختلف كثيرًا إذ ألّف هٰؤُلَاءِ مؤلفات

---

[655] وَرقة رقم A ٢٣٥ من الحاشية.

كثيرة وَ قيمة. وَ سوف ندرس فِي هٰذَا الفصل المؤلفات اللغوية الَّتِي عثرنا عليها، كما نشير إلٰى حياة أصحابها باختصار.

١- مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسنَوِيّ – عَلَّامَك[٦٥٦] (Muḥammed bin Mūsā El-Bosnewī – ʻAllāmeḱ):

يعتبر مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسنَوِيّ من أكبر العلماء فِي الميدان الأدبي الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فِي الْبُوسنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي القرن الحادي عشر الهجريّ / السّابع عشر الميلاديّ. ولد فِي سراييفو سنة ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٥ م، وَ بعد أن تلقّى تعليمه الثانوي فِي مدينته رحل إلٰى إِسْطَنْبُول حيث اتسعت علومه الَّتِي تلقاها فِي الْبُوسنَةِ. وَ لقد درس فِي مدارس مختلفة فِي تركيا، وَ لكن لم يجد تفهمًا مع علماء تركيا، وَ نراه يشكو من الظروف الثَّقَافِيَّة وَ الاِجْتِمَاعِيَّة حينذاكن وَ هٰذَا الصراع المستمر عَلٰى المنصب وَ المقام الَّتِي يستحقه فِي البيئة وَ المجتمع وَ عَلٰى لقمة العيش من جهة ثانية لم يعقه عن الإتيان بالآثار الَّتِي خلدت اسمه فِي الأدب الإسلامي. وَ نذكر من مؤلفاته أولًا "حاشية عَلٰى شرح ملا جامي عَلٰى الكافية" الَّذِي تم تأليفه فِي الحادي وَ العشرين من ذي القعدة سنة ١٠٣٥ هـ / فِي الرابع عشر من أغسطس سنة ١٦٢٦ م.

---

[٦٥٦] أعطي هٰذَا اللقب حينما كان طالبًا فِي مدرسة الغازي خُسْرو بك وَ ذٰلِكَ بفضل موهبته وَ تعمقه فِي العلوم المختلفة، وَ ليس من الصعب الإستنتاج أن أصل هٰذِهِ الكلمة الْعَرَبِيّ "علامة"، وَ أضيف عَلَيْهَا الكاف عَلٰى الصّرف الْفَارِسِيّ للتّصغير.

وَ من المعروف أن عصامالدّين للاسفائني (٩٤٣ ﻫ / ١٥٢٦ م) كتب شرحًا عَلٰى "الكافية" لابن الحاجب وَ كَذٰلِكَ كتب حاشية عَلٰى شرح ملّا جامي (Mullā Džāmī) عَلٰى الكافية.

وَ يحاول علامك فِي حاشيته هٰذِهِ أن يعترض لآراء عِصَامالدِّينِ حو "الكافية" وَ يدافع عن ملّا جامي الَّذِي أعجب به الْبُوسنَوِيّ إِلٰى حدّ الهوس إلَّا أن هٰذَا الإعجاب لم يكن دافعًا أساسيًا لدفاعه عنه كما يقول بعض الباحثين، بل يرجع ذٰلِكَ إِلٰى أسباب أخرٰى غير شخصيّة، وَ دَعْنَا نسمع أولًا مَا يقوله عن عِصَامالدِّينِ نفسه:

"لقد ظهر وُقُوعه فِي حيص بيض وَ كونه كمن اشتبهت عَلَيْهِ الشّؤون وَ اختلطت به الظّنون فإن مَا ذكره فِي امتناع كون العامل فِيهِ الإضافة إو المضاف يدلّ دلالة قدسية عَلٰى كون الإضافة اللّفظية مشاركة للمعنوية فِي اعتبار حرف الجر نفٰى ذلك، وَ أَيْضًا تجويز كون العامل هُوَ المضاف مع قطع النظر عن الحرف هُوَ معنٰى منافس لقوله: الاسْم لا يعمل الجر إلَّا لنيابته عن الحرف العامل وَ إنما وقع فِي هٰذِهِ الورطة من أن القوم يقولون فِي المعنوية بأن الإضافة بمعنٰى "السلام" أو بمعنٰى "من" وَ لا يقولون كَذٰلِكَ فِي اللفظية بل يصرحون بأن مفادها ليس إلَّا التّخفيف، لٰكنه غفل عن أن إثبات ذٰلِكَ فيه، وَ نفيه عنه مبني عَلٰى اعْتبار معنوي، وَ هٰذَا إنما يكون بعد تحقيق الإضافة وَ ثبوتها، وَ هُوَ يتوقف عَلٰى اعتبار الجرّ كما عرفت، فلا يلزم من قولهم اللفظية لا تكون بمعنٰى عن وَ اللام وَ عدم تقديرها لإفادة معناهما عدم اعتبار حرف الجر مطلقًا، إلَّا ترٰى

أن بعض أفراد المعنوية من نحو – غلام زيد – لا يجوز فِيهِ تقدير اللام لفساد المعنٰى، فإذا وجب اعتبار الحرف فِيهِ لتصحيح اللفظ نفي اللفظية أولٰى."[٦٥٧]

وَ يعرض مُحَمَّد موسٰى الْبُوسْنَوِيّ آراءه بِهٰذِهِ الطّريقة فِي أثناء الكتاب كلّه، وَ لقد قسّمه إِلٰى أجزاء ثلاثة هِيَ التالية:

١- كتب فِي الجزء الأول منه عن الاسْم وَ الصفة – ٤٤٠ صفحة،

٢- كتب فِي الجزء ا لثاني عن الفعل – ١٢١ صفحة،

٣- كتب فِي الجزء الثالث عن الحرف – ٦٠ صفحة.

وَ نعتقد أن النصوص الَّتِي أشرنا إِلَيْهَا سالفًا من كتابه تدل دلالة وَاضحة عَلٰى ثقافته الواسعة وَ معرفتة للغة الْعَرَبِيَّة وَ أسرارها. وَ ليس من الغريب أن كتابه هٰذَا كان معروفًا فِي المراكز الإِسْلَامِيَّة مثل حلب[٦٥٨]، وَ استفاد منه طلاب العلم فِي تِلْكَ المناطق.[٦٥٩]

---

[٦٥٧] مكتبة الغازي خُسْرو بك، وَرقة رقم B ١٩٣.

[٦٥٨] عيّن الْبُوسْنَوِيّ قاضيًا فِي حلب سنة ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م وَ قضٰى فِيهِ آخر أيّامه، درس فِي حلب علم النّحو وَ الصّرف وَ لا ريب أنّه من بين الكتب الَّتِي قد اعتمد عَلَيْهَا فِي تدريسه كان كتاب ملّا جامي وَ كتابه المذكور أيضًا.

[٦٥٩] الْجَوْهَر الأسنٰى، مُحَمَّد الخانجي، ص ١١٦.

٢- عبدالكمال إسْمَاعِيل ابْن الحاجّ وَالي الـتْرَاوْنِيقْي
('Abdul-Kemāl Ismā'īl bin El-Hādždž Wālī El-Travnikī)

وَ من كتب الصّرف وَ النّحو الّتِي ألفها الْبُوسْنَوِيُّونَ يلفت النظر كتاب عنوانه "النّملية فِي إظهار القواعد الصّرفيّة وَ النّحويّة"[٦٦٠] لعبد الكمال إسْمَاعِيل ابن الحاجّ وَالي التْراوْنِيقْي[٦٦١]. وَ لقد بقي هٰذَا الكتاب مجهولًا حَتّٰى العقد السّابع من هٰذَا القرن عندما اكتشفه أحد الباحثين المسلمين الْبُوسْنَوِيِّينَ وَ هُوَ عمر موشيتْش[٦٦٢] (Omer Musić). وَ لا نعرف عن حياة المؤلف سوٰى مَا كتبه هُوَ نفسه فِي مقدمة كتابه، وَ يفهم من ذٰلِكَ أنه قضٰى أكثر أوقاته فِي الْبُوسْنَةِ وَ أتم كتابه سنة ١٠٥٢ هـ / ١٦٤٣ م، وَ ذٰلِكَ بعد سفره إلٰى بلغراد وَ الأماكن المجاورة لها[٦٦٣] وَ قد أهداه إلٰى ابن معلمه علٰى[٦٦٤] وَ اسمه سليمان.

---

٦٦٠ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٤٤١/١، يحتوي عَلٰى ٦٩ صفحة.

٦٦١ نسبة إلٰى مدينة تْراوْنِيقْ (Travnik) فِي قلب الْبُوسْنَة.

٦٦٢ الملاحق لدراسات فِي اللّغات الشّرقية (POF)، عمر موشيتش (Omer Mušić)، العدد ٥-٦، سنة ١٩٥٦ م.

٦٦٣ حازم شَعْبَانُوفِيتْش.

٦٦٤ يمدحه فِي كتابه كثيرًا، لٰكنّه لم يذكر سوٰى اسمه، فلا نعرف من كان هٰذَا الشّخص.

وَ لَقَد قسم كتابه إلى ثلاثة أبواب، تناول فِي الباب الأول الاسم وَ فِي الباب الثاني الفعل وَ فِي الباب الثالث الحرف. وَ تنجلي معرفته الواسعة بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة فِي أسلوبه الجميل، فنراه مثلًا يعدّ أربعة وَ أربعين معنًى لحرف "الألف" فقط (في كلامه عن الحرف)، وَ نرٰى من الضّروريّ أن نعرض بعض ملاحظاتنا عَلٰى هٰذَا الكتاب وَ مؤلّفه بحيث يتجلّٰى بوضوح أن المؤلّف فِي طريقة عرضه للكتاب قد انْحرف عن الطّريقة الَّتِي اعتاد عَلَيْهَا النحاة، وَ عندما نقرأ كتابه يخيل إلينا أن أمامنا كتابًا فِي التّصوّف وَ ليس كتابًا فِي النّحو، ذٰلِكَ لأن المؤلّف فِي تفسير الكلمات وَ المفهومات يلجأ إلٰى تفسير صوتي بحت وَ يبعد بذلك من التفسير اللُّغَويّ المطلوب. وَ عَلٰى سبيل المثال نذكر كلامه عن البسملة:

"فأدخل الألف فِي أوله ليدل عَلٰى ا لإليهية: فصار اسم، ثم أدخل الياء ليدل عَلٰى بقاء الله فصار بلسم، ثم حذفت الهمزة لكثرة اسْتعماله فصار بسم."[٦٦٥]

وَ ما نذهب إلَيْهِ أن التّراوْنِيقّي لم يكن تحت تأثير الصّوفيّة فحسب وَ إنّما انْضمّ إلٰى صفوفها، وَ ذٰلِكَ لأن الفترة الَّتِي عاش فِيهَا قد عرفت بانتشار الصوفية بين العلماء، وَ نرٰى بعض المؤرّخين الْعُثْمَانِيِّينَ، حينما يتحدّثون عن الشّخصيّات الكبيرة قبل كلّ شيْء يذكرون

---

[٦٦٥] النّمليّة، وَرقة AB.

الطّريقة الصّوفيّة الَّتِي ينتمي إِلَيْهَا هٰؤُلَاءِ الأشخاص. وَ نفهم من أحدٰى النصوص فِي مقدمة "النملية" أن الإفتراض الَّذِي نذهب إِلَيْهِ فِي كثير من الصحة، وَ هِيَ هٰذَا النّصّ:

"لما لفظني الأيام وَ الأزمان بسهام زيارة الإخوان من ديار البوسنة إلٰى بلغراد السلطاني بلغت وَ جولت بعض البلدان مستعينًا بالملك العزيز المنان وَ ناويًا الجهاد وَ زيارة الندمان."

وَ يرٰى بعض العلماء أن هٰذِهِ الطّريقة (الطّريقة الصّوفيّة) غير علميّة وَ غير مقبولة[٦٦٦]، غير أننا حين نقرأ "النّمليّة" نلاحظ أن المؤلف لم يهمل الجانب اللُّغوِيّ أَيْضًا وَ لنسمع مَا يقول فِيهَا عن كلمة "الإمام":

"وَ الإمام الكتاب كقوله ــ تعالٰى ــ: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾[٦٦٧]، أي بكتابهم، وَ الإمام فِي موضع آخر بمعنٰى المقتدٰى كقوله ــ تعالٰى ــ: ﴿وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

---

٦٦٦ عمر موشيتش (Omer Mušić).

٦٦٧ الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة الإسراء، الآية ٧١.

الظَّالِمِينَ﴿١٢٤﴾﴾[668] أي مقتدى، وَ الإمام الطّريق لقوله – تعالٰى –: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴿٧٩﴾﴾[669] أي بطريق وَاضِح، وَ الإمام اللّوح المحفوظ كقوله – تعالٰى –: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴿١٢﴾﴾[670]، أي فِي اللّوح المحفوظ."

وَ يتبيّن من هٰذَا النّصّ أن المؤلّف يبحث عن المصطلح المعين معتمدًا أولًا عَلٰى القرآن الكريم، وَ عَلٰى الرغم من أنه لم يسافر إلٰى الخارج لاكتساب المعرفة إلّا أنه قد اطلع عَلٰى المصادر الْعَرَبِيَّة الْإِسْلَامِيَّة اطّلاعًا وَاسعًا، حَتّٰى يحاكي الكتاب العرب فِي اسلوبهم فنراه يبتعد أحيانًا عن الموضوع الَّذِي يعالجه ابتعادًا تامًا، وَ يقول فِي "النملية" بعد كلامه عن أشكال المصدر:

---

[668] الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، سورة البقرة، الآية ١٢٤.

[669] الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، سورة الحجر، الآية ٧٩.

[670] الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، سورة يٰس، الآية ١٢.

"إذا انتقشت هٰذا عَلٰى صحيفة خاطرك، وجدت ثلاثين وَزْنًا من المصادر الَّتِي ذكرناها."[٦٧١]

وَ كما اسْتعمل علماء النحو فِي كتبهم كلمة "يافتاي" نجد صاحبنا يستعمل كلمة "وَ أما يافتاي"[٦٧٢]، فالنّمليّة كتاب يستحق الإلْتفات وَ الدّراسة، أقول ذٰلِكَ عَلٰى الرغم من نواقصه، مثل كونه لا يشمل موضوعات النّحو وَ الصّرف كلّها. وَ نعتقد أن حياد المؤلف عن بعض الموضوعات النّحويّة وَ الصّرفيّة قد عمد إلَيْهِ المؤلف لأنه ألّف الكتاب للذين ألمّوا بالقواعد الْعَرَبِيَّة من قبل ليكون مساعدًا لهم، لِذٰلِكَ سماه "النّمليّة فِي إظهار القواعد الصّرفيّة وَ النّحْويّة" وَ لم نسمّه "النّمليّة فِي القواعد الصّرفيّة وَ النّحْويّة".

٣- مصطفٰى بن يوسُف الأيّوبيّ الملقّب بالشّيْخ يويو[٦٧٣] (Muştafā bin Jūsuf El-Ejjūbī – Šejh̲ Jujo):

ننتقل الْآن إلٰى مصطفٰى بن يوسف الأيّوبي أشهر مؤلّف ظهر بين مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ قد عاش فِي بداية القرن الثّاني عشر الهجريّ / نهاية القرن السّابع عشر الميلاديّ. وَ يعدّ الشيخ يويو عَلٰى

---

[٦٧١] النّمليّة، وَرقة B ١٢.

[٦٧٢] النّمليّة، وَرقة A ٩٦.

[٦٧٣] وَ عرف بِهٰذا الاسْم فِي الأوساط العلمية وَ الشّعبية: شيخ يؤيؤ.

حسب عدد مؤلّفاته الْعَرَبِيَّة وَ قيمتها العلميّة وَ الفنّيّة أشهر الشّخصيّات الإِسْلَامِيَّة فِي يُوغُسْلَافِيَا عَلٰى الإطلاق. وَ له فِي مدينة موستار سنة ١٠٦١ هـ / ١٦٥١ م، فِي عائلة علمية، تلقّى فِيهَا تثقيفه الأول، وَ بما أن الطريق الوحيد لكسب المعرفة الْعَالَمِيَّة كان فِي ذٰلِكَ الوقت يؤدّي إِلٰى إِسْطَنْبُول توجه مصطفٰى أيّوبوفيتْش (Muṣṭafā Ejjūbović) هُنالك سنة ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م، وَ كَان فِي السّابعة وَ العشرين من عمره. وَ الَّذِينَ كتبوا عن سيرة حياته[٦٧٤]، لا يزودوننا بالمعلومات الوثيقة عن حياته فِي إِسْطَنْبُول، كل مَا نعرف هُوَ أنه بعد اكمال دراسته درّس فِي عدة مدارس فِي إِسْطَنْبُول فنال شهرة وَاسعة فيها. وَ بعد مرور خمسة عشر سنة قضاها فِي إِسْطَنْبُول رجع إِلٰى موسْتار سنة ١١٠٤ هـ / ١٦٩٢ م، وَ عين قاضيًا فيها، وَ إِلٰى جانب القضاء اشتغل مدرسًا فِي مدرسة قَره گوز بك[٦٧٥]

---

٦٧٤ وَ أشهر هٰذِهِ السير:

أ- السّيرة الَّتِي كتبها تلميذه الأستاذ إِبْرَاهِيم أوبياتْش (Ibrāhīm Opijač) تحت عنوان "مناقب الفاضل المحقّق مصطفٰى بن يوسف الموسْتاريّ" وَ لقد اعْتمد عَلٰى هٰذَا الكتاب كلّ من كتب عن الشّيخ يويو.

ب- السّيرة الَّتِي كتبها تلميذه الثاني، وَ هُوَ شاعر مصطفٰى حرمي (Muṣṭafā Ḥuremi) وَ ذٰلِكَ تحت عنوان نظام العلماء.

٦٧٥ وَ كَانت هٰذِهِ المدرسة بالنّسبة لمنطقة الْهَرْسَك بمثابة مدرسة الغازي خُسْرو بك بالنّسبة لمنطقة الْبُوسْنَة.

(Karađoz-beg) وَ توفّي سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٧ م، وَ هُوَ فِي السابعة وَ الخمسين من عمره. وَ لقد ألّف مصطفٰى أيوبوفيتش باللغات الشرقية الثلاث، وَ طبيعي أن نقف فِي هٰذَا البحث عند مؤلفاته النحوية. ترك مصطفٰى أيوبوفيتش كتابًا فِي النحو سماه "الفوائد العيديّة" فاق به كل المؤلفات من هٰذَا النوع الّتِي ألّفت فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ الحقيقة أن هٰذَا الكتاب ليس إلّا شرحًا لكتاب "النّموذج" للزّمخشريّ. بدأ تألّيفه فِي إسْطَنْبُول فِي النّصف الثّاني من ربيع الأول سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٢ م، وَ أتمّه فِي الثامن عشر من شهر رجب سنة ١٠٩٤ هـ / في الثالث عشر من يوليو سنة ١٦٨٣ م. وَ لم يكتف المؤلف بمجرد شرح "النّموذج" بل أضاف الأشياء الّتِي وَ جدها فِي كتب النحو الأخرٰى، كما يشير فِي مقدمة كتابه:

"فأخذت فِي شرح له يتضمّن تفصيل مجملاته، وَ تبين معضلاته، وَ كشف أستاره عن أسراره، وَ نصب المنار أنواره، وَ حل ألفاظه، وَ بسط معانيه، وَ تشييد قواعده وَ تسديد مبانيه، وَ أضفت إلَيْهِ فوائد خلا عنها الكتاب استسقيتها من المفصل[٦٧٦] وَ

---

[٦٧٦] المفصل للزّمخشريّ.

الكتاب[٦٧٧]، وَ سلكت مسلك الإيجاز وَ الإختصار، وَ تركت مذهب الإطناب وَ الإكثار."[٦٧٨]

وَ فيما يلي نورد بعض الأمثلة من "فوائد العبدية" ليستبين لنا الطّريقة الّتِي يعالج فِيهَا الشّيخ يويو (Jujo) الموضوعات المختلفة، وَ حينما يتناول الزمخشري حروف الجر يعلق يويو عَلٰى كلامه، فيقول:

"قال فِي المفصل: "سمّيت بذٰلك لِأن وَصفها عَلٰى أن تفضي بمعاني الأفعال إِلٰى الأسماء"، وَ هِيَ فوضٰى فِي ذٰلِكَ وَ إن اختلفت بها وَ جوه الإفضاء."

وَ يفسر بعد ذٰلِكَ كلمة "الفوضٰى" فيقول:

"يقال قوم فوضٰى بوزن سكرٰى أي متساوون لا رئيس لهم، كَذا فِي الصّحاح."[٦٧٩]

ثمّ نراه بعد ذٰلِكَ يشرح كيف أن صاحب المفتاح عدّ كلمة "أيْ" من بين حروف العطف، وَ لم يفعل كَذٰلِكَ صاحب "النّموذج" فيقول:

---

٦٧٧ الكِتاب فِي إعلال البناء وَ الإعراب لعَبْداللهِ بن الحسين الإكباريّ.

٦٧٨ الفوائد العبدية، (Facsimile) (النّسخة طبق الأصل) ٨.

٦٧٩ الفوائد العبديّة، ص ١٠٤.

"وَ كأنّه عدّه منها نظرًا إِلٰى أن مَا بعده يشارك مَا قبله فِي الإعراب وَ يختلف باخْتِلَافه وَ اخْتِلَاف إعرابه التابع بسبب اخْتِلَاف إعراب المتبوع إذا كان بواسطة حرف يكون عطفًا، وَ الجمهور عَلٰى أن "أيْ" حرف تفسير وَ مَا بعده عطف بيان لما قبله."[680]

وَ يظهر لنا المؤلّف فِي الكتاب وَ كأنّه يؤدّي دور النّاقد، وَ هُوَ يقارن بين النّصوص وَ يشير إِلٰى العيوب وَ المساوئ وَ يحاول دائمًا أن يأتي بالحلّ الصّحيح. وَ عَلٰى سبيل المثال، عندما يتكلّم الزّمخشريّ عن الأسماء المتصلة بالأفعال لا يذكر أكثر من خمسة أنواع، فيعلق الشيخ يويو عَلٰى ذٰلِكَ قائلًا:

"قال فِي المفصل: "وَ من أصناف الاسم الأسماء المتصلة بالأفعال"، أي ثمانية أسماء: المصدر، اسم الفاعل، اسم المفعول، الصّفة المشبّهة، اسم التّفضيل، اسم الزّمان وَ المكان، اسم الآلة، ثمّ ذكرها مفصلة عَلٰى التّرتيب وَ فِي هٰذَا الكتاب لم يذكر إلّا الأوّل."[681]

وَ من هٰذِهِ الأمثلة القليقة، نستطيع أن نأخذ صورة جلية عن مصطفٰى أيّوبوفيتْش (Muşṭafā Ejjūbović) وَ أثره، وَ يضطر إِلٰى جانب

---

[680] الفوائد العبديّة، ص ١٢٠.

[681] الفوائد العبديّة، ص ٨٤.

أسلوبه الجذاب قدرته اللغوية وَ النقدية وَ إطلاعه الواسع عَلٰى الأعمال اللغوية، فلا نبالغة إذ نضع "الفوائد العبديّة" بين كتب النحو الْعَرَبِيّ الَّتِي يمكن الإعتماد عليها.

٤- إبْـرَاهِـيـم بـن الـحـاجّ إسْـمَـاعِـيـل الْـمُـوسْـتَـارِيّ – أُوپِيَاتْش
:(Ibrāhīm bin El-Ḥādždž Ismāʻīl El-Mostarī – Opijač)

حين توفّي مصطفٰى أيّوبوفيتْش (سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م) أخذ قبس العلم من يده تلميذه إبراهيم الحاج إسْمَاعِيل المعروف بِأُوپِيَاتْش (Opijač) الَّذِي لا نعرف عن حياته شيئًا كثيرًا لعدم وُجُود معلومات دقيقة، بيد أن بعض هٰذِهِ المعلومات يقوض هٰذِهِ المعلومات يقدمها لنا عمر مُوشِيتْش (Omer Mušić) فِي إحدٰى مقالاته[٦٨٢]. لٰكنّه يخطِئ إذ يزعم فِي مقالته هٰذِهِ أن المعلومات الَّتِي يقدمها تنشر أوّل مرّة، لأنّ هٰذِهِ المعلومات قد ذكرها قبله مُحَمَّد الخانجيّ (Mehmed Handžić) فِي إحدٰى مقالاته.[٦٨٣]

---

٦٨٢ Mušić, Omer (1961.) *Ibrāhīm Opijač El-Mostarī*, Prilozi Orijentalne filolne filologoje, X-XI, Sarajevo, p. 31-32..

إبْرَاهِيم أُوپِيَاتْش الموستاريّ، عمر موشيتش، الملاحق فِي الدراسات الشرقية، ١٠-١١، ص ٣١-٣٢، سرايفو ١٩٦١ م.

٦٨٣ غلاسنيق (Glasnik)، العدد الثّاني عشر، ص ٦٣٤، زغرب ١٩٥٤ م.

ولد أوپِيَاتْشْ فِي موسْتار فِي السّابع وَ العشرين من رمضان سنة ١٠٨٩ هـ / في الثّاني عشر من أكتوبر سنة ١٦٧٩ م[٦٨٤]، وَ أتمّ دراسته فِي مدينة موسْتار، ثمّ درّس اللُّغة الْعَرَبِيَّة وَ العلوم الإسْلَامِيَّة فِي مدرسة قَره گوز بك (Karađoz-beg) وَ غيرها من مدارس موستار. توفّي سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م.[٦٨٥]

وَ لم يشتهر إبْرَاهِيم أوپِيَاتْشْ بكتابة سيرة حياة استاذه مصطفٰى أيّوبوفيتْشْ فقطْ بلْ ألّف كتبًا فِي النّحو وَ التّفسير كَذٰلِكَ. وَ سوف نذكر فِي هٰذَا الموضع كتابين له فِي النّحو. أمّا الكتاب الأوَّل فهو "شرح المصباح للمطرزي"[٦٨٦] الَّذِي تمّ تأليفه سنة ١١٢٠ هـ / ١٧١٩ م[٦٨٧]، وَ يتميّز الكتاب بالدقّة وَ التفصيل، فنضرب مثلًا:

"حينما يتناول المطرزي "كان" يوجز كلامه عَلٰى هٰذَا القول: "وَ من ذٰلِكَ "كان" فِي قولهم: "النّاس مجزون بأعمالهم أخيرًا فخيرًا."."، وَ يعلّق أوپِيَاتْشْ (Opijač) عَلٰى هٰذَا:

---

٦٨٤ وَ يذكر هٰذَا التأريخ المؤلّف نفسه فِي سيرة أستاذه.

٦٨٥ Šabanović, Hazim; *Književnost muslimana Bosne i hercegovine na orijentalnim jezicima*, p. 442..

أثر مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك باللّغات الشّرقية، حازم شبانوفيتش، ص ٤٤٢.

٦٨٦ وَ هُوَ أبو الفتح ناصر بن عبدالسّيّد المطرزيّ (١١٤٩-١٢١٣).

٦٨٧ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٩٤٠، يحتوي من مائة صفحة.

"يجوز فِي مثل هٰذِهِ الصورة وَ هِيَ أن يجئ بعد "إن" اسم، ثمّ فاء بعده اسم، أربعة أوجه: الْأوّل نصب الْأوّل وَ رفع الثّاني وَ هُوَ أقواها وَ لذا خصه المؤلف رحمه الله بالذكر نحو "إن خيرًا فخيرٌ" أي إن كان عملهم خيرًا فجزاؤهم خيرٌ، وَ الثّاني نصبها نحو "إن خيرًا فخيرًا، أيْ إن كان عملهم خيرًا فكان جزاؤهم خيرًا، وَ الثّالث رفعها، نحو "إن خيرٌ فخيرٌ" أي إن كان فِي عملهم خيرٌ فجزاؤهم خيرٌ، وَ الرّابع عكس الْأوّل أي رفع الْأوّل وَ نصب الثاني نحو "إنْ خيرٌ فخيرًا، أي إذا كان فِي عملهم خيرٌ فكان جزاؤُهم خيرًا، وَ قوّة هٰذِهِ الوجوه وَ ضعفها بحسب قلّة الحذف وَ كثرته."[٦٨٨]

وَ علٰى هٰذَا المنوال يعالج الموضوع أثناء كتابه وَ يأتي فِيهِ بآراء المدارس النّحْويّة المختلفة، يناقش الاخْتِلَافات محاولًا أن يستنبط منها الصّواب. وَ هٰذِهِ الطّريقة تزيد اهْتمام القارئ لكتاب من جِهة، وَ ترفع الكتاب إلٰى المستوٰى العلميّ المطلوب من جهة ثانية. وَ فيما سبق رأينا المؤلف فِي دور الشارح أما الآن فنلتقي معه كاتبًا مستقلًّا فِي النّحو وَ هُوَ "المختصر فِي النّحو"[٦٨٩]، وَ هُوَ آخر شيء ألّفه أوپيّاتْش علٰى الإطلاق، وَ بما أن هٰذَا الكتاب مصدرنا الأساسي وَ

---

[٦٨٨] شرح المصباح، ص ١٩٥.

[٦٨٩] مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٦٢٩، يحتوي علٰى ثماني وَ أربعين صفحة.

الوحيد فِي هٰذِهِ الدراسة، فإننا سنرجع إِلَيْهِ أولًا، فيقول المؤلف فِي مقدّمتِهِ:

"إني بعد مَا وجهت عنان الهمة تلقاء التصنيف وَ أدرجت بعض تحريراتي فِي جملة التاليف ذٰلِكَ فضل الله العلي اللطيف، أردت أن أجمع فِي النحو مختصرًا عَلٰى القواعد المهمة مختصرًا، مرتبًا إياه عَلٰى عدة فصول، تسهيلًا للطالبين الحصول، الأول فِي الكلمة وَ الكلام وَ أحوالهما، الثاني فِي المرفوعات الثالث فِي المنصوبات، الرابع فِي المجرورات، الخامس فِي التوابع، السادس فِي الأسماء المتصلة بالأفعال، السابع فِي الأفعال وَ الحروف."

وَ يقسم أوبِيَاتْش كتابه التّقسيم المعتاد عند علماء العرب مستعملًا اصْطِلَاحاتهم وَ أمثلتهمن وَ يظهر لنا ذٰلِكَ من النّصّ التّالي:

"الفصل الثّالث فِي المنصوبات، المفاعيل فخمسة: المفعول المطلق وَ هُوَ المصدر مبهمًا كان أو محدودًا، فالأول يكون للتأكيد، فلا يتقدم عَلٰى الفعل وَ لا يثنٰى وَ لا يجمع، وَ قد يكون بغير لفظه نحو: "قعدت جلوسًا"، وَ الثاني يكون للعدد وَ النّوع وَ يثنٰى وَ يجمع نحو: "ضربت ضربة وَ ضربتين"، وَ قد يحذف وَ يقام وَصفه مقامه نحو: "قمت طويلًا"، وَ قد يحذف فعله جوازًا مثل: "خبر مقدم"، أيْ قدمت وَ وجوبًا سماعًا مثل: "حمدًا له وَ شكرًا"، وَ غير ذٰلِكَ."[٦٩٠]

---

[٦٩٠] المختصر فِي النّحو، ص ١٣-١٤.

وَ تظهر قابليّة المؤلف فِي إيجاز الموضوع، فهو لا يتعب القارئ بعرض آراء مختلفة، بل يكتفي بذكر الرأي الأرجح فِي الموضوع، عندما يتناول الفعل المضارع مثلًا يحصر قوله عَلٰى الكلمات التالية:

"وَ الأصحّ كونه مشتركًا بين الحال وَ الاستقبال مَا لم يدخل عَلَيْهِ اللّام أو السّين أو سوف."[691]

وَ لٰكن معنٰى ذٰلِكَ أن الإيجاز غالب عَلٰى كتابه كلّه، وَ إنّما يلجأ المؤلّف إلٰى المناقشات وَ التّوضيحات الطّويلة عندما يتطلّب الموضوع ذٰلِكَ، مثل مَا يفعل فِي أثناء كلامه عن حروف الجرّ:

"فمن الابتداء فِي غير زمان عند البصريّين وَ مطلقًا عند الكوفيّين، نحو: "صمت من يوم الجمعة وَ خرجت من البصرة" وَ "هٰذَا الكتاب من زيد"، وَ تبين نحو: "لي خمسة من الدراهم"، وَ التّبعيض نحو: "أخذت من الدراهم"، وَ التّعليل نحو: ﴿مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ كَتَبْنَا...﴾[692]، وَ البدل كقوله – تعالٰى –: ﴿أَ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ...﴾[693]. وَ بمعنٰى "فِي" فِي الظروف كثيرًا كقوله –

---

[691] المختصر فِي النّحو، ص ٢٦.

[692] القُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة المائدة، الآية ٣٢.

[693] القُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة التّوبة، الآية ٣٨.

تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾[٦٩٤]، وَ زائدة فِي غير الموجب عند البصريين نحو: "مَا جاءَني من أحد" وَ "هل جاء مِن أحد".[٦٩٥]

كما نجد فِي الكتاب عبارات غامضة كَذٰلِكَ، وَ يقول مثلًا عن الإعراب اللفظي وَ التقديري:

"وَ الإعراب اللّفظي وَ التّقديريّ... وَ كلّ منهما قد يكون بالحركات وَ قد يكون بالحروف، وَ كل منهم قد يكون بتمامها وَ قد يكون ببعضها، أما الأوّل مثل: "زيد وَ عصا"، أما الثاني من الأوّل، فمثل: "أحمد وَ القاضي"، وَ رفعًا وَ جرًّا، وَ أمّا الأوّل من الثاني فمثل: "أبوه وَ أبو القوم"، وَ أمّا الثّاني من الثّاني فمثل: "مسلمان وَ مسلمي" رفعًا."[٦٩٦]

وَ كان بأمكانه أن يضع الأمثلة المذكورة بعد ذكر القاعدة مباشرة وَ لكنه يواصل دراسته ثم يرجع إِلَيْهِ ثانية، وَ هٰذِهِ الطريقة تجعل متابعة

---

٦٩٤ الْقُرْآنُ الكَرِيمُ، سورة الجمعة، الآية ٩.

٦٩٥ المختصر فِي النّحو، ص ٣٢.

٦٩٦ المختصر فِي النّحو، ص ٢٠٧.

الموضوع صعبة، وَ يبدو أن المؤلف وقع فِي مثل هٰذِهِ الأخطاء بسبب حرصه الدائم عَلٰى الإيجاز وَ الإختصار. وَ هٰذِهِ الثغرات الَّتِي لا يخلو منها كتاب لا تقلل قيمة "المختصر فِي النّحوِ" وَ هُوَ من أحسن الكتب النحوية الَّتِي أَلّفت فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ. وَ يجدر بنا أن نذكر أن "المختصر فِي النّحوِ" قد كتب عَلَيْهِ شرح طويل وَ كتبه ابنه عَبْدالله وَ عنوانه "شرح المختصر فِي النّحوِ"[٦٩٧]، وَ يقول المؤلّف فِي مقدمة كتابه[٦٩٨] أنّ "المختصر فِي النّحوِ" يحتاج إِلٰى التّكملة وَ ا لإيضاح. وَ لقد فرغ المؤلّف من هٰذِهِ الكتابة فِي التّاسع عشر من محرّم سنة ١١٧٦ هـ / فِي العاشر من أغسطس سنة ١٧٦٢ م[٦٩٩]. وَ يتّضح أن المؤلّف نال ثقافة كبيرة، وَ أنه يجيد اللُّغَة الْعَرَبِيَّة إجادة تامّة وَ معرفته للقواعد الْعَرَبِيَّة تستحقّ الثّناء وَ الإعجاب.[٧٠٠]

---

٦٩٧ المجموعة الشّرقية لمجمع العلوم وَ الفنون اليوغُسْلافيّة، زغرب (Zagreb).

٦٩٨ شرح المختصر فِي النّحو، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٨٨.

٦٩٩ شرح المختصر فِي النّحو، وَرقة B ١٠٥.

٧٠٠ وَ هٰذَا ليس غريبًا لأنّ المؤلّف نشأ فِي عائلة عرفت برعاية العلم وَ العلماء. وَ لقد تكلّمنا عن أبيه بما فِيهِ الكفاية، أمّا جدّه إسْمَاعِيل أوبِيَاتْش فكان أستاذ الشّيخ يويو أكبر علماء منطقة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

وَ لَقَد سلك عَبْدالله مسلك أبيه فِي شرحه، إِلَّا أنّه زود الكتابة بإيضاحات جديدة وَ مفيدة، وَ هُوَ يسرد فِيهِ آراء النّحاة القدماء وَ المتأخّرين وَ يقارن مقارنة علمية بين الاصْطِلَاحات النّحويّة القديمة وَ الجديدة. وَ نود أن نختم هٰذَا الفصل بنص من "شرح المختصر فِي النحوِ" إذ يقول المؤلّف فِي الفصل الرابع منه:

"الفصل الرابع من الفصول السّبعة فِي بيان المجرورات وَ هِيَ عَلٰى ضربين: الأوّل مجرور بالإضافة، وَ الثّاني مجرور بحرف الجرّ، فالمجرور قسمان عَلٰى اصْطِلَاح المتأخّرين، منهم الزّمخشريّ حيث قال فِي "الأنموذج": "المجرورات عَلٰى ضربين، مجرور بالإضافة وَ مجرور بحرف الجرّ"، بناء عَلٰى أن الإضافة عندهم أي عند المتأخّرين هِيَ النّسبة المخصوصة المقتضية للجرّ بواسطة تقدير حرف الجرّ، فالمضاف إِلَيْهِ فِي هٰذَا الاصْطِلَاح إنما هُوَ زيد فِي: "غلام زيد"، لا زيد فِي: "مررت بزيد"، وَ الإضافة عَلٰى اصْطِلَاح القدماء هِيَ النّسبة المقتضية إياه أي الجر بواسطة حرف الجر لفظًا أو تقديرًا أي سواء أكان حرف الجر مقتدرًا نحو: "غلام زيد"، أم ملفوظًا كما مثل له بقوله: "مررت بزيد" وَ قد جرٰى سيبويه عَلٰى هٰذَا الاصْطِلَاح حيث سمٰى المجرور بحرف جر ظاهر مضافًا إليه، فإن زيدًا فِي: "مررت بزيدٍ"، مضاف إِلَيْهِ إذ قد أضيف المجرور إِلَيْهِ، وَ تبعه الشيخ ابن الحاجب وَ قال فِي الكافية: وَ

المضاف إِلَيْهِ كلّ اسم نسب إِلَيْهِ شيء بواسطة حرف الجرّ لفظًا أو تقديرًا."[701]

لقد اكتفينا فِي هٰذَا الفصل بذكر هٰؤُلَاءِ العلماء الخمسة وَ مؤلّفاتهم وَ نستطيع أن نقول أن هٰذِهِ المؤلّفات نسبة إِلٰى الزّمن الَّذِي أنشئت فِيهِ وَ الظروف الَّتِي عاشها مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك تمثّل قيمة علميّة وَ تاريخيّة عظيمة فهي لا تختلف عن المؤلّفات المماثلة فِي العالم الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ فِي مضمونها وَ إن اختلفت اختلافًا جزئيًّا فِي أُسلوبها. وَ إذا كنّا ننظر اليوم نظرة جديدة إِلٰى النّحو وَ نحاول تبسيطه وَ تيسير دراسته، فإن ذٰلِكَ لا يعني أن مؤلّفات القرون المادية لم تعد تنفعنا، لأنّ الأمرَ عَلٰى عكس ذٰلِكَ، ففي هٰذِهِ المؤلّفات مَا يعيننا فِي منهجنا وَ يهب لنا أبعادًا جديدة بما يفتحه لنا من أبواب.

محاولة تأليف الموْسُوعات

لا نعرف أن أحدًا من مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك حاول أن يؤلّف موسوعة سوٰى المرحوم مُحَمَّد الخانجيّ (Mehmed Handžić)، وَ لقد سبق أن

[701] شرح المختصر فِي النّحو، ص ٥٥.

تناولنا آثاره الأدبية فِي هٰذَا البحث، وَ نشير فِي هٰذَا المكان إلٰى الموْسُوعتيْن الكبيرتيْنِ اللّتيْنِ بدأ كتابتهما، وَ هُما:

١- مجمع البحار فِي تاريخ العلوم وَ الأسفار[٧٠٢].

٢- تذييل كشف الظنون عن أسامي الكتب وَ الفنون[٧٠٣].

وَ نترك المؤلّف يحدثنا عن الأسباب الَّتِي دفعته إلٰى تأليف هٰذَا الكتاب، يقول فِي مقدّمة "مجمع البحار فِي تأريخ العلوم وَ الأسفار":

"أمّا بعد، فإن العلوم الَّتِي تداولها المسلمون من أوّل عهد إلٰى وَقتنا هٰذَا قد كثرت... وَ الاطّلاع عَلٰى تأريخ تِلْكَ العلوم وَ تراجم حملتها من العلماء وَ أوصاف مَا دوّنوه من الدّواوين، يربي الهمم وَ يقوٰى العزائم، وَ يحث الخلف عَلٰى اقتضاء السلف، فلِذٰلِكَ أردت أن أجمع لنفسي أولًا وَ لمن يسير سيرتي ثانيًا كتابًا جليلًا جامعًا لتأريخ علوم المسلمين من أول نشأتها إلٰى هٰذَا العهد، شاملًا لعدد كبير من تراجم حملتها المشاهير، محيطًا بما وقفت عَلَيْهِ من أسماء ما دوّن فِيهَا من الكتب. وَ هٰذَا الفنّ الَّذِي تصديت لخدمته فِي جليل القدر، عظيم المنفعة، خدمة العلماء قديمًا وَ حديثًا وَ ألّفوا فِيهَا تآليف جمّة،

---

٧٠٢ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٩٥، تحتوي عَلٰى ٢٧٠ صفحة.

٧٠٣ وَ تَتَجَلّٰى لنا من عنوان هٰذَا الكتاب أنّ المؤلّف قصد بِهِ إعطاء صورة عن أهمّيّة أثر كاتب چلبي.

أنكرها، إن شاء الله – تعالٰى –، فِي محلّها من هٰذَا الكتاب، وَ إن من أشهر تِلْكَ التآليف وَ أكثرها انتشارا وَ أكبرها حجمًا وَ أشملها إحاطة. كشف الظنون عن أسامي الكتب وَ الفنون، وَ أنا الفقير اقتفيت أثره، وَ وافقت فِي الغالب صنيعه، وَ لكن لم يمنع كتابي أن يكون لنفسه مستقلًا غير محتاج إلٰى غيره وَ غيره يحتاج إليه، لأني قسمته قسمين:

- الأوّل فِي تأريخ العلوم وَ تراجم حملتها، وَ من قارن بين هٰذَا القسم وَ بين مَا يقابله من "كشف الظنون" وَ مفتاح السعادة الطّاش كبري (Eṭ-Ṭāš Küprī) وَ "أبجد العلوم" للصّدّيق خان (Eş-Şiddīq ẖān) وَ "مدينة العلوم" للأزنيقي وَ "إرْشاد القاصد" للأكفاني وَ مَا فِي مقدّمة "كشاف اصْطِلَاحات الفنون" للتّهانويّ الهنديّ وَ غيرها من الكتب فِي هٰذَا الفن تبين له فضل مَا جمعناه علينا.

- وَ القسم الثّاني فِي سرد أسماء المصنّفات مع التّعريف بها، وَ هُوَ بمستوٰى علميّ مَا فِي "كشف الظنون" مع تهذيبه وَ تنقيحه وَ زيادات جمع من مستدرك عَلَيْهِ وَ مزيل وَ عند المقارنة تبين الحقيقة، إن شاء الله – تعالٰى –، ثمّ أنّي سمّيت هٰذَا الكتاب

"مجمع البحار فِي تأريخ العلوم وَ الأسفار" لجمعه كتب هٰذَا الفنّ."[704].

وَ يتكلّم الخانجي بعد ذٰلِكَ عن غاية العلوم، فيرٰى أن لها غاية اجتماعية إنسانية، فالعلم لا بد أن يكون فِي خدمة المجتمع الإنساني يرتقي به هٰذَا الإنسان إلٰى المرتبة الَّتِي تلائمه فِي هٰذَا الوجود، وَ بذلك يخالف الخانجي الَّذِينَ يزعمون أن العلم لأجل العلم وَ ليس لأجل المجتمع، فيقول:

"أعلم أن كلّ العلوم آلة وَ وسيلة إلٰى غيرها وَ هُوَ العمل فِي حيّز المجموع وَ الأفراد، إلَّا أن منها بعضًا يخدم البعض الآخر، كالنحو وَ الصّرف فإنما يحتاج إليهما لتوقف فهم النّصوص الشّرعيّة وَ كلام النّاس عَلَيْهَا، وَ نحو هٰذِهِ العلوم اختصت باسم الآلية لكونها وَسِيلَة وَ آلة لنيل غيرها من العلوم. وَ العاقل من ينزل الأمور منازلها، فيشتغل بالوسائل بقدر مَا تتوقف عَلَيْهَا المقاصد، قال ابن خلدون: أما العلوم الَّتِي هِيَ مقاصد فلا حرج فِي توسعة الكلام فيها، وَ تفريع المسائل وَ استكشاف الأدلة وَ الانظار."[705].

---

[704] مجمع البحار فِي تأريخ العلوم وَ الأسفار، ص ٤-٥.

[705] مجمع البحار، ص ٣٣

وَ في الجزء الأول من "مجمع البحار" يتناول الخانجي مسألة نشوء الخطّ وَ الكتابة، وَ ينقسم هٰذَا الفصل إِلٰى سبعة وَ عشرين بابًا، وَ نسرد بِهٰذَا الصّدد مجموعة المراجع الَّتِي أراد المؤلّف تناولها:

١- تاريخ الكتابة – أنواعه وَ ماهيتة،

٢- ظهور الكتابة عند العرب،

٣- النّساء عرفن الكتابة زمن الرسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ –،

٤- عن الَّذِينَ زاولوا الكتابة غير الْعَرَبِيَّة أيام النبي – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –،

٥- أدوات الكتابة حَتّٰى ظهور الورق وَ تاريخه من ذٰلِكَ اليوم،

٦- من الخطاطين المشهورين،

٧- سرعة الكتابة بالحروف الْعَرَبِيَّة،

٨- الورق وَ الطباعة،

٩- انتشار الكتابة الْعَرَبِيَّة فِي مختلف الدّول،

وَ هٰذَا التّقسيم يشير إِلٰى ضخامة الموضوعات الَّتِي أراد المؤلّف أن يتناولها لو قدر له البقاء فِي هٰذِهِ الدّنيا، أمّا الجزء الثّاني من مجمع البحار، فقد أفرده للتّأريخ وَ انقسم هٰذَا الجزْء إِلٰى ثمانية وَ عشرين بابًا، وَ تناول فِيهِ أَيْضًا موضوعات كثيرة نذكر منها: دراسة عن اللّهجات الْعَرَبِيَّة، وَ عن الخليل بن

أحمد، وَ عن أفصح الْعَرَبِيّ، وَ عن التّأليف بالأبجديّة القديمة[706]. وَ عن الأعمال الَّتِي أُلّفت عَلٰى غرار "الصحاح"[707] وَ أخيرًا عن الكتب اللُّغَوِيَّة الَّتِي أُلّفت عَلٰى غرار الجمهور[708].

وَ عَلٰى الرّغم من أن الخانجيّ لم يتمّ هٰذَا الكتاب إلَّا أنّ المنجز منه يدلّنا عَلٰى أن أمامنا شخصيّة لها علم غزير وَ قوّة إرادة كبيرة. وَ لو شاءَت الأقدار أن يتمّ كتابه هٰذَا لكان ذٰلِكَ كسبًا كبيرًا للعلم، وَ مع ذٰلِكَ فإن الَّذِي قدّمه الخانجي للعلوم الْعَرَبِيَّة وَ الإِسْلَامِيَّة ليس بقليل.

وَ أما كتابه الثاني "تذييل كشف الظّنون عن أسامي الكتب وَ الفنون"[709] فقد قصد المؤلّف أن يدخله فِي "مجمع البحار" فيما بعد وَ يشير إلٰى ذٰلِكَ تحت عنوان "كشف الظنون" حيث يقول:

---

٧٠٦ وَ أوّل الحروف حسب هٰذِهِ الأبجديّة القديمة حرف العين، وَ يذكر الخانجيّ هٰذِهِ الكتب: "كتاب العين" للخليل بن أحمد، "مختصر العين" لأبي بكر الزّبيديّ، "المعجم" لابن سِيده، "الجمهور" لابن دريد... إلخ.

٧٠٧ يذكر منها: "الكتاب" للصّفوان، "لسان العرب" لابن منظور، "القاموس المحيط" للفيروزآباديّ.

٧٠٨ يذكر منها: "المجمل" لابن فارس، "المحيط" لصاحب بن أبادي.

٧٠٩ مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٩٦، يحتوي عَلٰى ١٨٣ صفحة.

"وَ هُوَ بعد ترتيبه، إن شاء الله – تعالٰى –، فِي كتابي الكبير المسمّٰى "جمع البحار فِي تأريخ العلوم وَ الأسفار".

وَ لم يهتمَّ المؤلّف بِهٰذَا الكتاب بذكر الأسماء الَّتِي ذكرها چلبي فِي "كشف الظنون" فحسب، بل اهتم بصورة خاصة بذكر المؤلفات الَّتِي ظهرت بعد كتابه "كشف الظنون" وَ سوف نذكر نصًا من هٰذَا الكتاب أَيْضًا لكي نرٰى كيف يرضٰى الخانجي المعلومات عن الآثار الأدبية وَ مؤلفيها:

"نور اليقين فِي سيرة سيّد المرسلين، للشيخ مُحَمَّد الخضري بك المفتّش بوزارة المعارف وَ مدرس التّأريخ الْإِسْلَامِيّ بالجامعة المصريّة سابقًا، المتوفّٰى فِي التّاسع من شوال سنة ١٣٤٥ ﻫ الموافق الحادي عشر من أبريل سنة ١٩٢٧ م، أوّله: نحمدك، يا من أوضحت لنا سبيل الهداية، وَ أزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية... إلخ، يقول فيه: "كنت أجد من نفسي عند النّشأة الأولٰى ارْتياحًا لقراءَة تواريخ السابقين وَ قصص الغابرين. وَ أجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب وَ أنصح مسلم، وَ كنت أرٰى فِي تاريخ نبينا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ مَا لقيه من أذٰى قومه حينما دعاهم إِلٰى الحقّ، وَ عظيم صبره حَتّٰى هجر أوطانه وَ بلاده، أعظم ضرب لأفكار المسلمين، فإنه يدلهم عَلٰى مَا يجب اتّباعه، وَ مَا يلزم اجتنابه ليسودوا كما ساد سابقوهم..." ثمّ قال: "إنّ الناس غير مهتمين بقراءة السّيرة، وَ أنه قدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة فِي هٰذَا الموضوع، وَ شجعه ذٰلِكَ عَلٰى تأليف مختصر فِي ذٰلِكَ الموضوع، وَ كان مورده فِي تأليفه الْقُرْآن الكريم وَ صحيح السنة ممّا رواه البخاريّ وَ مسلم وَ ساعده

الشّفاء للعياض، وَ السّيرة الحلبيّة، وَ المواهب اللدنية وَ إحياء علوم الدين، وَ هٰذَا الكتاب مطبوع مرّات فِي القاهرة، الطبعة الرابعة سنة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م، فِي مطبعة مصطفٰى محمد، صاحب المكتبة التِّجَارِيَّة الكبرٰى بشارع مُحَمَّد عليّ."

وَ يتبيّن لنا من هٰذَا النّصّ أن الخانجيّ فِي تناوله لأيّ كتاب ليسعٰى إلٰى أن يأتي بالمعلومات التالية:

- الأثر وَ صاحبه،
- بداية ذٰلِكَ الأثر،
- غرض المؤلف من تأليفه،
- أفكار المؤلف،
- المصادر الَّتِي اعتمد عَلَيْهَا المؤلف فِي كتابه،
- عدد الطبعات وَ تاريخ إصدارها وَ مكان نشرها.

بقيَ لنا أن نذكر أن الخانجي ألّف هٰذَا الكتاب أثناء إقامته فِي القاهرة.

وَ ذٰلِكَ فِي السّادس عشر من أغسطس سنة ١٩٣١ م / الثّاني من ربيع الثّاني سنة ١٣٥٠ هـ. وَ بِهٰذَا نختم كتابنا عن هٰذَا الموضوع، لِأنّ المؤسُوعة الوحيدة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ هِيَ الَّتِي بدأ يكتبها الخانجي وَ لا علم لنا بغيرها.

الباب الرّابع

اَللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ

عَرَبِجا (Arebica)

الفصل الأول:

اَللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ عَرَبِجا[٧١٠] انْتشارُهَا وَ تطْويرُهَا

فِي هٰذَا الْبَابِ سوْف نعالج نوعًا خاصًّا من الأدب، أنتجه مسلمُو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك ألا وَ هُوَ الْأدب الشّعبيّ الَّذِي كتب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة.

وَ علٰى الرّغم من أنّ هٰذَا النّوع الْأدبيّ يختلف عن الأدب الإِسْلَامِيّ الَّذِي تناولناه فِي الباب الثّالث من هٰذَا البحث، إلَّا أنّنا نستطيع أن نعدّه من التّراث الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ، وَ ذٰلِكَ لعلاقته الوطيدة بالأدب الْعَرَبِيّ من النّاحية اللُّغويَّة. فهٰؤُلَاءِ الأدباء، وَ إنْ تكلّموا بِاللُّغَةِ الْيُوغُسْلَافِيَّة[٧١١] وَ عاشوا فِي أجواء الظّروف المحلّيّة وَ عالجوا موْضوعات تتعلّق بالبيئة الْبُوسْنَوِيَّة حينذاك، إلَّا أنّهم كتبوا

---

[٧١٠] هِيَ مَا كتب من أدب شعبيّ يُوغُسْلَافِيّ بأحرف عَرَبِيَّة.

[٧١١] اللُّغَة الرّسمية فِي جمهوريّة يُوغُسْلَافِيَا الإِشْتِرَاكِيَّة الإتّحَادِيَّة (SFRJ/СФРЈ) كانت اللُّغَة الصِّرْبُوكُرْوَاتِيَّة (Srpsko-hrvatski/Српско-хрватски).

بالحروف الْعَرَبِيَّة وَ لقد عرفت هٰذِهِ الكتابة باسم عَرَبِـچا[٧١٢] (عَرَبِيتْسَا: Arebica) وَ الإنتاج الأدبي بِهٰذَا الشّكل عرف باسم الأدب الأعْجميّ[٧١٣] (Alhamijado).

وَ من الجدير بالذّكر أن هٰذَا النّوع من الأدب ظهر عند مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الوقت الَّذِي ضعفت فِيهِ الآداب الشرقية وَ الْإِسْلَامِيَّة العامة. وَ مما يدلنا عَلٰى صحة هٰذَا الاستنتاج حقيقة تأريخية مهمّة وَ هِيَ أنّنا فِي النّصف الثاني من القرن السّادس عشر وَ طيلة القرن السّابع عشر الميلاديّ[٧١٤] لا نجد أحدًا من الكتّاب وَ الأدباء المسلمين خاض غمار هٰذَا الموضوع، وَ لٰكن الأدب الشّعبي ترك طابعه عَلٰى العصر، وَ إن كان قد إزدهر فِي النّصف الثّاني من القرن الحادي عشر الهجريّ / النّصف الثّاني من القرن السّابع عشر الميلاديّ، فإنّنا

---

[٧١٢] هٰذَا المصطلح مشتقّ من كلمة "عَرَبِيّ".

[٧١٣] من المعروف أن المسلمين فِي الأندلس، بعد القضاء عَلٰى اللُّغَة وَ الثَّقَافَة الْإِسْلَامِيَّة فِيهِ وَ نبذها، أجبروا أن يتكلموا بِاللُّغَةِ الإسبانيّة القديمة الَّتِي يسمونها الهيميادو (الأعجميادو: Alhamijado) وَ معناها: الأعجمي – غير الْعَرَبِيّ –، وَ من هنا عرف هٰذَا النّوع من الأدب عند جميع الشعوب غير الْإِسْلَامِيَّة بِهٰذَا الاسْم.

[٧١٤] وَ هِيَ الفترة الذّهبيّة للعلوم الْإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ الَّتِي ظهر فِيهَا أشهر أدبائِها وَ علمائِها.

نجد آثاره قبل ذٰلِكَ بكثير[715]، معنٰى ذٰلِكَ أن هٰذَا النوع من الأدب كان يستعمل فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك أكثر من ثلاثمائة وَ خمسين سنة مضت[716].

وَ مع ذٰلِكَ فإن مَا نعرفه عن الأدب الشّعبي بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة قليل جدًّا، وَ لا نبالغ إذ نقول أن الدّراسة الحقيقيّة لها لم تبدأ بعد. وَ الأخبار الأولٰى عن هٰذَا الإنتاج يرجع تاريخها إلٰى نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ / النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر الميلادي.

كما نلاحظ أن الَّذِينَ بدأوا يكتبون بِهٰذَا الأسلوب ليسوا من الأدباء أو النّقّاد وَ إنّما همْ من صفوف اللغويّين وَ المؤرّخين.

وَ لعلّ دراسات الدّكتور أوتو بْلَاو[717] هِيَ أهمّ وَ أفضل الدّراسات الَّتِي ظهرت خارج يُوغُسْلَافِيَا، وَ أكثرها شمولًا، وَ قد أشار فِيهَا الكاتب إلٰى أشهر

---

[715] وَ أقدمُ هٰذِهِ الآثار قصيدة (Ej nevista) وَ الَّتِي ترجم بعض المستشرقين الْيُوغُسْلَافِيِّينَ وَ الأوروبيين "القصيدة الكرواتية" وَ لكن هٰذِهِ التّرجمة لم تكن صحيحة، لأن قصد الشاعر كان: قصيدة مسلم من المجر بالتُّرْكِيَّة (أي الْعَرَبِيَّة) – وَ قد كتب هٰذِهِ القصيدة أحد المسلمين من مدينة أرْدَلْيْ (Erdély) وَ اسمه أحمد وَ ذٰلِكَ سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م.

[716] آخر كتاب كتب بالْعَرَبِيَّة حَتّٰى كتابة هٰذِهِ الرّسالة هو: "فقه العبادات" للسيّد مُحَمَّد سعيد سَرْدَارِيفِيتْشْ (Muḥammed Se'īd Serdarević) وَ قد طبع فِي سراييفو سنة ١٩٤١ م. وَ مؤخّرًا نشر الكتاب بالْعَرَبِيَّة: "نهپوحه فؤنهتسقه مِسلِى قود عَرَپا و عَرَبِجا" (مَرَاحِلُ الْفِكْرِ الصَّوْتِيّ عِنْدَ الْعَرَبِ وَ عَرَبِجا) لِآلْدِينْ عاصم مُصْطَفِيتْشْ (Aldin (Asim) Mustafić) وَ قد طبع فِي بلغراد سنة ١٣٩٢ هـ ش / ١٤٣٤ هـ ق / ٢٠١٣ م.

المؤلّفات الَّتِي كتبت بالحروف الْعَرَبِيَّة، كما أنه ألّف قاموسًا تركيًّا بوسنويًّا أضافه إلٰى دراساته، وَ لَا شَكَّ فِي أنّه قد استفاد من القواميس المختلفة الَّتِي ألّفها الْبُوسْنَوِيُّونَ من قبل.

أمّا فِي يُوغُسْلَافِيَا فالدّراسة الأولٰى الَّتِي سمع النّاس من خلالها عن هٰذَا النّوع من الأدب الشّعبيّ فقد ظهرت سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م فِي كتاب: (Serbokroatische Dichtungen Bosnischer Moslims aus dem XVII, XVIII und XIX Jahrhundert.) وَ مؤلّفاه هما: سيفالدّين كمورا (Sejfud-dīn Kemura) وَ سْفيتوزار تْشوروفِيتْشْ (Svetozar Ćorović) وَ النّقص فِي محتوٰى هٰذَا الكتاب هُوَ أن مؤلّفيْه لم يأتيَا بنماذج أصلية من النّصوص بل اكتفيا بكتابة هٰذِهِ النّصوص الْيُوغُسْلَافِيَّة وَ ترجمتها. وَ ها نحن أولاء نقرأ هٰذِهِ الدّراسات كلّها دون أن يستبين لنا حقيقة مهمّة وَ هي: مقدرة كتّاب هٰذَا الأدب فِي الْعَرَبِيَّة وَ طريقة كتابة الأدب الْيُوغُسْلَافِيّ بحروف عَرَبِيَّة. وَ لكي نفهم هٰذِهِ الحقيقة يصبح من الضّروريّ أن نفتش عن النّصوص الأصليّة لِهٰذِهِ الدراسات وَ هٰذَا العمل لم يكن ميسورًا لأن هٰذِهِ النّصوص لا تزال مهملة فِي زوايا المكتبات أو البيوت، وَ لٰكنّني نجحت فِي الحصول عَلٰى الكثير منها وَ الاطّلاع عَلَيْهَا وَ ذٰلِكَ بفضل طائفة

---

[٧١٧] أوتّو بْلَاو (dr. Otto Blau) مستشرق نمساوي كتابه:

Blau, dr. Otto (1868.) *Bosnisch-türkische Sprachdenkmäler*, Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, V Bd No 2., Leipzig.

من الْمُؤَسَّسَات[٧١٨] وَ الشّخصيات[٧١٩] الَّتِي تعنٰى بِهٰذَا التراث عناية بالِغة فِي وَقْتنا الحاضر.

وَ عندما اطّلعت عَلٰى النّصوص الأصلية رأينا أن كمورا وَ تْشوروفيتْشْ قدْ وقعا فِي أخطاء جسيمة[٧٢٠]، لِأنهما لم يعنيا عناية كافية بالنّصوص فأخطأوا فِي قراءة بعض الكلمات خطأ استوجب معه خطأ التّفسير. وَ مع ذٰلِكَ فإن هٰذَا الكتاب له أهمّيّة وَ قيمة كبيرة لِأنه كان الباعث عَلٰى إثارة هٰذَا الموضوع وَ أساسًا للدراسات التّالية فيما بعد الَّتِي لم تظهر إلّا بعد مرور ثلاثين سنة من تأريخ إصدار الكتاب المشار إليه، وَ ذٰلِكَ فِي بداية العقد الخامس من هٰذَا القرن[٧٢١].

---

٧١٨ منها مجمع العلوم وَ الفنون فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ الَّذِي يقوم فِي الوقت الحالي بدراسة جذرية وَ علميّة لِأعمال هٰذَا الأدب، وَ لِهٰذَا الغرض جمعت الْمُؤَسَّسَة المذكورة أشهر علماء الإستشراق فِي يُوغُسْلَافِيَا وَ كلّفتهم بِهٰذِهِ المهمة، وَ عَلٰى رأس هٰؤُلَاءِ الدكتور عبدالرّحمٰن ناميتاق (dr.‘Abdur-Raḥmān Nemetak).

٧١٩ وَ منها الدّكتور عبدالرّحمٰن ناميتاق (dr.‘Abdur-Raḥmān Nemetak).

٧٢٠ وَ كَذٰلِكَ حدث لكلّ من كتب عن هٰذَا الأدب إِلٰى وَقْتنا هٰذَا، لِأنهم جميعًا قد أهملوا النّصوص الأصليّة فِي دراساتهم.

٧٢١ وَ ممّا هُوَ جدير بالذّكر أن بعض علماء الْبُوسْنَة، وَ أخصّ المستشرقين منهم أشاروا إِلٰى هٰذَا الموضوع خلال هٰذِهِ الفترة، وَ لٰكن هٰذَا لم يكن فِي نطاق الدّراسة وَ التّمحيص وَ نذكر منهم: فهيم بيراقْتَاريفيتْشْ (Fehīm Bajrāktarević)، عثمان سوقولوفيتْشْ (Osmān Sokolović)، عليّ ناميتاق (‘Ali Nametak) وَ غيرهم.

وَ ها نحن أولًا نلتقي من جديد بمُحَمَّد الخانجي وَ كتابه "الإنتاج الأدبيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك"[٧٢٢] وَ الَّذِي أفرد فِيهِ فصلًا خاصًّا عن حلول اللُّغَة الْعَرَبِيَّة فِي الأدب الشّعبيّ الْيُوغُسْلَافِيّ وَ فِيهِ يذكر ثمانية عشر شخصًا قد نظموا قصائد بِاللُّغَةِ الْبُوسْنَوِيَّة مكتوبة بأحرف عربية، وَ قد سار عَلَٰى نفس النّمط بشيء من التّوسّع فِي هٰذَا الموضوع الأديب الْبُوسْنَوِيّ: مُحَمَّد حاجّ يَحيِتْشْ (Muḥammed Hadžijahić) فِي كتابه: أدب المسلمين الكرواتيّين حَتَّٰى سنة ١٨٧٨ م[٧٢٣].

وَ فيه يذكر خمسة وَ عشرين مؤلّفًا حَتَّٰى الِاحْتِلَال النّمْسَاوِيّ لِلْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك[٧٢٤].

وَ مع هٰذَا نستطيع أن نقول أن الدّراسات الحقيقية لِهٰذَا النّوع من الكتابة الأدبية لم تبدأ بعد، وَ ذٰلِكَ لأن الَّذِينَ كتبوا فِي هٰذَا الموضوع لم يدخلوا فِي تفسير

---

٧٢٢ الإنتاج الأدبي لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، مُحَمَّد الخانجي، ص ٨١-١٠٣، سراييفو ١٩٣٣ م.

Handžić, Muḥammed (1933.) *Književni rad bosansko-hercegovačkih muslimāna*, Sarajevo, p. 81-103..

٧٢٣ أدب المسلمين الكرواتيّين قبل سنة ١٨٧٨ م، مُحَمَّد حاجّ يحيِتْشْ، ص ٣، سراييفو ١٩٣٨ م.

Hadždžijahić, Muḥammed (1938.) *Hrvatska muslimanska književnost prije 1878.*, Sarajevo, p. 3..

٧٢٤ الِاحْتِلَال النّمْسَاوِيّ لِلْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك استمرّ من سنة ١٨٧٨ م حَتَّٰى سنة ١٩١٨ م.

هٰذِهِ الأعمال الأدبية وَ لم يتناولوها من النّواحي الأدبية وَ اللُّغويَّة وَ النّقدية، وَ من دون هٰذِهِ الأحكام لا يجوز أن نقول عن أية مادّة أنها مدروسة.

لِأجل ذٰلِكَ لا نخطِئُ إذ نقول عن المؤلّفات الَّتِي ذكرناها سالفًا حول هٰذَا الموضع بأنها ليست دراسات، وَ إنّما هِيَ إشارات إِلٰى هٰذَا النّو ع الأدبي فحسب.

وَ سوف نتحدث أولًا عن هٰذَا النوع من كتابة الأدب الشعبي من الناحية اللُّغوِيَّة. وَ لظهور هٰذِهِ الكتابة بين مسلمي وَ أدباء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك أسباب كثيرة أهمها الدافع الديني. وَ قد عرف مسلمو بونسة وَ هرسك بتمسكهم الشديد بالدين الْإِسْلَامِيّ وَ كان هٰؤُلَاءِ طوال فترة الحكم التُّرْكِيّ للبلاد اليد اليمنٰى للعثمانيين أثناء نشرهم للدّعوة الْإِسْلَامِيَّة فِي بلاد البلقان، وَ كانوا سدًّا منيعًا أمام هجمات الدّول الأوروبية وَ غاراتها عَلٰى تركيا.

كما حافظوا علٰى النّفوذ العُثْمَانِيّ السّياسي فِي المنطقة، وَ لكن إخلاص الْبُوسْنَوِيِّينَ لم يكن نتيجة مصلحة مَا كما يرٰى بعض المؤرّخين، بل سببه العقدية الْإِسْلَامِيَّة، وَ دليلنا عَلٰى ذٰلِكَ أن الْبُوسْنَوِيِّينَ حين رأوا الأتراك يبيعون المبادئ الْإِسْلَامِيَّة بأمور دنيوية تافهة وَ من ثمّ ببيع بوسنة للدّول الأجنبية (النمسا) رفضوا أن يخضعوا للسلطان الثعماني، وَ هم الَّذِينَ لم تربطهم بالأتراك أية علاقة قومية بل علاقة الدّين الْإِسْلَامِيّ فقط.

وَ لَقَد ذكرنا فيما سبق أن ضعف العلوم الشّرقية فِي النّصف الثّاني من القرن الثالث عشر الهجريّ / فِي النّصف الثّاني من القرن الثامن عشر الميلادي،

قد أنتج الأدب الشعبي فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك[٧٢٥]، وَ ليس معنٰى ذٰلِكَ أن الفترة الَّتِي نشأت فِيهَا هٰذِهِ الكتابة قد شهدت موت الدراسات الْعَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة مطلقًا وَ لٰكن الأكثرية السّاحقة من مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك لم يعرف من الْعَرَبِيَّة سوٰى كتابة حروفها الَّتِي تعلّموها فِي قراءة الْقُرْآن الكريم، وَ معنٰى ذٰلِكَ أن اللُّغَة الْعَرَبِيَّة ظهرت وَ حفظت فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بفضل الْقُرْآن الكريم.

وَ عندما نتناول موضوع اسْتعمال الأحرف الْعَرَبِيَّة فِي كتابة الأدب الشّعبيّ فإن الَّذِي يهمنا قبل كلّ شيء أن نعرف طريقة كتابة اللُّغَة الْبُوسْنَوِيَّة بأحرف عَرَبِيَّة، وَ لا شكّ أن هٰؤُلَاءِ المؤلّفين قد وَاجَهوا صعوبات كبيرة فِي هٰذَا السّبيل لأنه لم تكن هناك أية قواعد تساعدهم وَ ترشدهم إلٰى الصواب.

وَ المشكلة الأساسية كانت كتابة بعض الحروف الْبُوسْنَوِيَّة الَّتِي ليس لها وُجُود فِي اللُّغَة الْعَرَبِيَّة مثل: حرف (ج أي: C) وَ يلفظ كحرفين معًا "تْسْ" مع الفارق فِي الكتابة، أو إذا وجدت نفس هٰذِهِ الحروف فِي اللّغتين، إلّا أن النّطق بها يختلف اختلافًا كبيرًا كما أن هناك حروفًا عَرَبِيَّة ليس لها وُجُود فِي اللُّغَة

---

[٧٢٥] وَ لا بد لنا أن ننصّ عَلٰى الاعتراضات الَّتِي توجه إلٰى هٰذِهِ النّظرية عَلٰى الرّغم من أنها فِي أصلها صحيحة:

أولًا: ظهر هٰذَا النّوع من كتابة الأدب مبكرًا جدًّا، حَتّٰى رافقت ظهور أعمال عربية أدبية.

ثانيًا: كان من الْبُوسْنَوِيّينَ من كتب بالْعَرَبِيَّة وَ بِهٰذَا النّوع من كتابة الأحرف فِي نفس الوقت.

الْبُوسنَوِيَّة مثل: ث، خ، ذ، ص، ض، ط، ظ، ق، إِلَى آخره، وَ فِي مثل هٰذِهِ الحالات وَ تسهيلًا للقراءة وَ النّطق وضعوا إشارات خاصّة فوق الحروف أو تحتها. وَ عندما نطّلع عَلَى النّصوص المكتوبة بِهٰذَا الشّكل نرَى أن مؤلّفيها قد كتبوا هٰذَا الأدب بطرق مختلفة، وَ هٰذَا الاخْتِلَاف لم يكن بين مؤلّف وَ آخر فحسب، وَ إنّما كان المؤلّف الواحد يستعمل عدّة طرق أحيانًا، وَ لا ريب أن هٰؤُلَاءِ جميعًا سلكوا مسلك الأتراك وَ الفرس وَ اسْتعاروا منهم الإشارات لبعض الحروف الْبُوسنَوِيَّة، لِهٰذَا تعرّضت هٰذِهِ الكتابة إِلَى الفوضَى الَّتِي نلاحظها فِي أغلب هٰذَا الإنتاج الأدبي كما نرَى فِي الفترة الأخيرة محاولة بعض علماء الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك وضع أسس وَ قواعد لِهٰذِهِ الكتابة وَ من أشهر هٰؤُلَاءِ الشاعر المعروف عمر حومو (Omer Humo) من مدينة موسْتار، فَفِي الوقتِ الَّذِي حاول بعضهم القضاء عَلَى هٰذَا النّوع من كتابة الأدب الشعبي فِي الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك بأحرف عربية – كما حدث فِي تركيا – وَقف عمر حومو مدافعًا عنه، مشجعًا طبقات الشّعب المختلفة عَلَى اسْتعماله قائلًا:

"اعلم أن لغة المرء أسهل عَلَيْهِ من أية لغة أخرَى[٧٢٦]، وَ كَذٰلِكَ الحال بالنّسبة لنا نحن الْبُوسنَوِيِّينَ، فمن السّهل علينا أن نكتبها "بالخط الرّسميّ" المرسوم من أن نكتبها بحروف لاتينيّة بعيدة كل البعد عن مشاعرنا وَ معتقداتنا بقوله:

---

[٧٢٦] الإنتاج الأدبي لمسلمي الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك، مُحَمَّد الخانجي، ص ٨٣، سراييفو ١٩٣٣ م.

Handžić, Muḥammed (1933.) *Književni rad bosansko-hercegovačkih muslimāna*, Sarajevo, p. 83..

"دۆبرۆ زنادِى، سوڤۆم إِنْسَانۆ سوۆي يەزِيق ۆد سوِيێو يەزِيقا ۆدومچِه لاقشِى يە. ناما بۆسانچِما ناش يەزِيق ومۆما يە لاغاحان، دا سە ۆپِشە عَرَبسقِم رَسْمِ خَطّۆم وِ يَازِيۆم قاۆ شتۆ يە ۆ مُصْحَفۆ. ڤۆ ۆمە "أَلِف وَ بىر نُقْطۆ" وِ هَجَالِپِسات ۆواي كِتَاب وِ غۆرنە رازۆمەچە."

وَ من الجدير بالذّكر أن حومو ليس الوحيد الَّذِي حاول إصلاح الكتابة عَلٰى هٰذَا النّحو بل ساعده عدد من علماء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فيما بعد، غير أنّه لم يتمّ اتّفاق عَلٰى طريقة وَاحدة لِهٰذِهِ الكتابة.

هٰذَا مَا يتعلّق بمشكلة كتابة الأدب الشّعبيّ بالْعَرَبِيَّة وَ هِيَ مشكلة كانت تعاني منها الأجيال السّابقة من أبناء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ سوف نعرض الآن لمشكلة أخرٰى لها علاقة وَثيقة بسابقتها وَ قد عانٰى منها هٰذَا الجيل ألا وَ هِيَ: مشكلة قراءَتها وَ كتابتها بِاللُّغَةِ الْبُوسْنَوِيَّة الحديثة، فإذا أردنا أن نقدّم للقرّاء هٰذَا التّراث وَ نعرفهم بِهٰذِهِ الثَّقَافَة فلا بدّ أن نترجمها إِلٰى اللُّغَة الْبُوسْنَوِيَّة المفهومة لأجيال يومنا الحاضر، لأنّ الكتابة بالْعَرَبِيَّة وَ فهمها لا يجيدها إِلَّا قلّة من النّاس.

هٰذَا من ناحية، وَ من ناحية أخرٰى نلاحظ اهْتمامًا بالغًا عند مسلمي يُوغُسْلَافِيَا وَ الشّعبيْن الْيُوغُسْلَافِيّ وَ الْأوروبيّ عَلٰى العموم بكلّ مَا يرتبط بالثَّقَافَة الْإِسْلَامِيَّة قديمًا وَ حديثًا.

وَ لا بدّ أنْ نذكرَ أن الَّذِينَ كتبوا عن هٰذَا التراث حَتّٰى الْآن لم يجدوا طريقة وَاحدة سليمة لكتابة هٰذَا الأدب بِاللُّغَةِ الْيُوغُسْلَافِيَّة بلْ سلك هٰؤُلَاءِ مسلك الإنجليزيّين فِي كتابة الحروف الْعَرَبِيَّة فوقعوا فِي أخطاء ظاهرة، لأن اللُّغَة

الْبُوسْنَوِيَّة فِيهَا بعض الحروف الملائمة للحروف الْعَرَبِيَّة، أو مشابهة لها عَلَى وَجه التّقريب.

فنأخذ عَلَى سبيل المثال حرف "ثاء" الَّذِي كتبوه بالشّكل التالي: (T̲ t̲)، وَ ذٰلِكَ لصلتهم بالثّقافة الغربيّة، وَ لٰكن المجدّدون لِهٰذَا الأدب يكتبون هٰكذا: (S̲ s̲)، لصلة الشّبه بينه وَ بين الحرف اللاّتيني (S s) أي "س" مع استعمالهم للنّقاط وَ الإشارات لتمييز الحروف بعضها عن بعض، فكلمة "ثَالِث" مثلًا كانوا يكتبونها: (tālit) "تالت" لفظها بالْعَرَبِيّ، أمّا مع استعمال الإشارات الحديثة فتكتب بِهٰذَا الشّكل: (s̲ālis̲)، وَ بذٰلك يصيب فِي قراءَتها وَ فهم معناها إِلَى حدٍّ مَا.

وَ ليس هُناك أيّة صعوبة فِي كتابة الحروف: ج، د، ر، ز، س، ش، غ، ف، ل، م، ن، لِأن هٰذِهِ الحروف موجوده فِي اللُّغَة الْبُوسْنَوِيَّة أَيْضًا وَ إنّما موضوع كلامنا الحروف المتعدّدة وَ الَّتِي يقابلها حرف وَاحد فقط فِي اللُّغَة الْبُوسْنَوِيَّة مثل: ح، خ، ك، وَ هِيَ وَاحدة من العقبات الَّتِي وقفت فِي وَجْه قراءة وَ فهم الأدب الشّعبي المكتوب عَلَى هٰذَا الشّكل، صعوبة فِي النّطق، يقابلها صعوبة فِي فهم المعنَى المراد. كما أن منها مَا يلفظ بشكل يؤدّي إِلَى اخْتِلَاف كامل فِي موسيقا الحرف بالنسبة لأذن السّامع وَ مَا يعقبه من فهم خاطِئ لما قيل مثل الحرف: ك، وَ هٰذَا الحرف له قصّة خاصّة وَ طويلة فِي كتابة الأدب الْبُوسْنَوِيّ وَ

لفظه، وَ حَتّٰى بداية هٰذَا القرن لفظه مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك كحرف (Ć ć) أي "تْشْ"[٧٢٧] حَتّٰى فِي قراءة الْقُرْآن الكريم[٧٢٨].

كما نجد فِي بعض نصوص الأدب الشّعبي القديمة أن حرف الگاف (گـ) قد غيّر إِلٰى حرف "ك" كما نرٰى فِي كلمة "گناه" فقد لفظت كونَاه (Kunāh) فنلاحظ أنّنا لا نحتاج إِلٰى مثل هٰذِهِ الإشكالات لأنّنا نجد فِي الْبُوسْنَوِيَّة الحروف الملائمة لِهٰذِهِ الكلمة فنكتبها كما هِيَ گُنَاه (gunǎh) وَ نلفظها أيضًا كما هِيَ فِي الْعَرَبِيَّة بالضّبط "جُناح" كما نلاحظ هٰذَا التغيير فِي حروف "نْ + يْ"، فنجدهما قد أندمجا فِي حرف وَاحد وَ هُوَ (ن، أيْ بِاللّاتينيّة: Nj nj) مع أنّه من السّهل علينا أن نكتبها كما فِي أصلها الْعَرَبِيّ وَ لْنأخذ عَلٰى سبيل المثال كلمة "دُنْيَا" الَّتِي نجدها مكتوبة بِهٰذَا (dunjā) مع أنّنا نستطيع أن نكتبها (dun-jā) فهي أقرب إِلٰى الصّواب.

وَ في حديث أجريته مع الدّكتور عبدالرّحمٰن نامتاك علمت منه أن مجمع العلوم وَ الفنون فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك يدرس هٰذِهِ المسألة دراسة جدّيّة، وَ هِيَ

---

[٧٢٧] وَ لقد أخذ مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك هٰذِهِ المادّة من الأتراك وَ الفرس الَّذِينَ يلفظون حرف الكاف كحرف "تْشْ" (Ć ć) أي ينطقونه بالكشكشة.

[٧٢٨] وَ قد قضٰى عَلٰى هٰذِهِ العادة السّيّئة القارئ المشهور الحاجّ حافظ مُحَمَّد يَحييتْش (hadždži hāfiẓ Muḥammed Hādždžijahić) وَ كان يعمل مدرسًا فِي مدرسة الغازي خُسْرو بك فِي سراييفو.

الطّريقة الوحيدة لتقديم هٰذِهِ الثَّقَافة إلٰى القارئ فِي قالب جديد آخذًا هٰذَا المجمع عَلٰى عاتقه جمع نصوص الأدب الشعبي لصياغته فِي أسلوب سهل، شيّق مفهوم.

وَ بعد فقد سبق لنا فِي الباب الأول وَ الثاني من هٰذِهِ الرّسالة أن تعرّفنا إلٰى التّراث الإسْلَامِيّ الْعَرَبِيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ تناولناه بشيء من التّفصيل، وَ نستطيع أن نقول الآن بأن الأدب الشعبيّ تراث عَرَبِيّ إسْلَامِيّ أيْضًا، عَرَبِيّ لِأنّه كتب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة وَ إسْلَامِيّ لِأن الموْضوعات الَّتِي عولجت فِيهِ كانت لها علاقة وَطيدة بالدّين الإسْلَامِيّ، وَ فِي الحقيقة أن هٰذَا الْأدب هُوَ الأدب الشعبيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

وَ لَقَد ذكرنا فيما سبق أن هٰذَا الأدب غير مدروس وَ لم يحاول أحد حَتّٰى الآن أن يرتّب هٰذِهِ الأعمال وَ يبوّبها، وَ إنّما نجد أمامنا ركامًا من مخطوطاته بعضها فوق بعض تنتظر اليد العلمية الأمينة لإخراجها إلٰى حيز الوجود، وَ بعد اطّلاعنا عَلٰى هٰذَا الإنتاج نستطيع أن نقسمه إلٰى الأصناف التالية:

١- الشّعر الدّينيّ:

وَ هٰذَا الشّعر أكثر انتشارًا من سواه وَ لا شكّ أنه كان محبّبًا من الأوساط الشّعبية[٧٢٩] لكون غالبية شعب الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك من المسلمين.

---

[٧٢٩] وَ مَا زلنا نسمع طائفة من هٰذِهِ القصائد فِي المناسبات الإسْلَامِيَّة الَّتِي تقام فِي مختلف مناطق الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ سنعرض الأمثلة من كلّ منها عَلٰى حدة عندما نأخذ بالحديث عن الأدباء الَّذِينَ نظّموا قصائد فِي هٰذِهِ المواضيع.

وَ في الكثير من هٰذِهِ القصائد نشعر بوضوح بالنّزعة الدّينيّة الَّتِي تميل إِلٰى تمجيد اسم اللهِ وَ طلب العون منه ــ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالٰى ــ، كما نشعر فِي بعضها بالنزعة الصوفية البحتة الَّتِي تميل إِلٰى ترك الدنيا وَ ملذّاتها وَ تتقرب إِلٰى الحدود بكثرة الذكر وَ التفكير فِي الله ــ عزّ وَ جلّ ــ إِلٰى أقصٰى الحدود.

٢- شعر الوعْظ وَ الإرْشاد:

وَ عَلٰى الرّغم من أن هٰذَا النوع من الشعر يشتمل عَلٰى عناصر دينية إِلَّا أنه يختلف عن الْأوَّل لأنه موجه إِلٰى النّاس عامّة وَ بصورة خاصّة إِلٰى الشباب، وَ لِذٰلِكَ كان أكثر اجتماعية وَ أكثر فائدة.

وَ قد أخذ أصحاب هٰذَا الشعر عَلٰى عاتقهم مسْؤُوليّة كبيرة إِلَّا وَ هي: رسم الطّريق السوي للشباب المسلم فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك:

٣- شعر الدّعوة:

وَ هٰذَا النّوع من الشّعر كان أقل انتشارًا من غيره، وَ قد وَ جدنا منه قصيدة كاملة للشاعر هوائي[٧٣٠] (Hewā'ī) وَ لٰكن حَتَّٰى هٰذِهِ القصيدة وَ أمثالها لا تخرج عن نطاق الدين وَ قد اسْتعملت فِي تبليغ الدّعوة الإِسْلَامِيَّة، وَ أقول هٰذَا لأن بعض المؤرخين وَ الأدباء الْيُوغُسْلَافِيِّينَ

---

[٧٣٠] مُحَمَّد أسْكوفي هوائيّ (Muḥammed Uskufī Hewā'ī).

لوّنوا هٰذِهِ القصيدة بألوان التبشير وَ السّياسة، فِي حين أنها بعيدة كل البعد عن ذٰلِكَ كما سنرٰى.

وَ لقلة هٰذَا الشعر فِي الأدب أسباب طبيعيّة وَ تاريخية فالإسلام قد انتشر إبان إزدهاره، وَ السبب الطَّبِيعِيّ هُوَ أن المسلمين لم يحاولوا فِي يوم من الأيام اتّباع مثل هٰذِهِ الأساليب لأن بين أيديهم مَا هُوَ أقْوٰى من الشعر وَ أمتن لنشر الدعوة إلّا وَ هُوَ الْقُرْآن الكريم.

٤ـ الشّعر السّياسيّ:

ازْدهر هٰذَا النّوع من الأدب الشّعْبي فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي الفترة الَّتِي ضعفت فِيهَا الدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ بدأت تفقد نفوذها السّياسي وَ الاِقْتِصَادِيّ فِي العالم.

وَ قد وَصف كتّاب الأدب الشعبي آنذاك الفوضٰى الاِجْتِمَاعِيَّة الَّتِي اعْترت وَ سادت الدولة الْعُثْمَانِيَّة فِي غير قليل من الأسٰى وَ الألم.

وَ سوف نتناول الآن أشهر كتاب هٰذِهِ الفترة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ نقف عند إنتاجهم، تمامًا كما تحدثنا عن أدبائِها وَ علمائِها فِي اللُّغَة الْعَرَبِيَّة وَ علومها، ملتزمين فِي دراستنا بالترتيب الزّمنيّ.

الفصل الثاني:

أشهر كتّاب الأدب الشّعبيّ وَ إنتاجهمْ

مُحَمَّد أسكوفيّ هوائيّ (١٠١٠-١٠٦٢ هـ/ ١٦٠١-١٦٥١ م)

(Muḥammed Uskūfī Hewā'ī)

يعْتبر هوائيّ رائدًا من رواد هٰذا النّوع الأدبيّ وَ علمًا من أعلامه بين مسلمي الْبوسْنَة وَ الْهَرْسَك، ولد فِي الْبوسْنَة فِي منطقة دونْيا توزْلَا (Donja Tuzla) سنة ١٠١٠ هـ/ ١٦٠١ م.

يقول هوائيّ فِي كتابه: "تبصرة العارفين":

"مسقط رأسي مدينة زْفورْنيق[٧٣١]، أنا من طبقة الأشراف، وَ لٰكن أهل الصّدق وَ الإحسان، هم أصحابي."

"بنم سنجاق زورنيق ديارم – بك ادعلي يرالي لي صدق أهل يارم."

---

[٧٣١] هِيَ مدينة تقع فِي شرق الْبُوسْنَة.

وَ لا نعرف عن حياته شيئًا كثيرًا سوٰى أنّه من عائلة غنية وَ أنّه درس فِي إسْطَنْبُول ثمّ رجع إلٰى مسقط رأسه، كان عارفًا باللّغتين التُّرْكِيَّة وَ الْفَارِسِيَّة وَ تذهب بعض الرّوايات إلٰى أنّه كان يحسن الْعَرَبِيَّة أَيْضًا، وَ ستكون مؤلّفاته الْبُوسْنَوِيَّة موضوع دراستنا الآن.

لقد عرف هوائي بقاموسه[٧٣٢] "العارف المقبول" (Maqbūli-'Ārif) الَّذِي ألّفه سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م عَلٰى شكل قصيدة ذات مقدّمة كتبها بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّة، يقول فِيهَا أنّه قرّر أنْ يكتبَ هٰذَا القاموس حين رأى المكتبة الإِسْلَامِيَّة خالية من مثله وَ يهديه إلٰى الْبُوسْنَوِيِّينَ وَ إلٰى الَّذِينَ يريدون أن يتعلّموا الْبُوسْنَوِيَّة، وَ هٰذَا القاموس له قيمة تاريخيّة وَ أدبية كبيرة، لأنَّ لُغَة الْبُوسْنَوِيِّينَ شقّت بِهٰذَا الكتاب طريقها إلٰى مواكبة لغات العالم الأخرٰى بصورة رسمية وَ لم يقتصر صدٰى هٰذَا الكتاب عَلٰى الدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَحدها وَ إنّما امتدّ إلٰى أوساط العالم الأخرٰى بترجمته إلٰى لغات متعدّدة.[٧٣٣]

بقي لنا أن نذكر أن هٰذَا القاموس له اسم ثان فِي الأوساط الشّعبيّة وَ العلمية وَ هو "پوتر شَاهِدِيَا" (Potur Šāhidija) وَ يرجع ذٰلِكَ إلٰى أن هوائيًا قد

---

٧٣٢ وَ القاموس هُوَ القاموس الْبُوسْنَوِيّ-التُّرْكِيّ.

٧٣٣ راجع الصّفحة ٣ من هٰذَا الكتاب، وَ يذكر هٰذَا القاموس كَذٰلِكَ القنصل الرّوسيّ فِي الْبُوسْنَة إيفان ست هلفرونقي (Ivan Stjepanovič Jastrebov (Иван Степанович Ястребов)) فِي معرض كتابه "آداب الصّرب وَ شعرهم فِي زمن الأتراك" وَ قد طبع هٰذَا الكتاب فِي مدينة پيتروغراد (Petrograd (Петроград)) سنة ١٨٨٦ م .

ألّفه عَلٰى غرار القاموس الْفَارِسِيّ التُّرْكِيّ لمؤلّفه إبْرَاهِيم الشّاهدي وَ الَّذِي عرف باسمه فيما بعد، وَ يعترف هوانيّ باستفادته من هٰذَا القاموس إذ يقول:

"عمل هٰذَا عَلٰى طراز قاموس الشّاهدي وَ حاشا لي أن أعترض عَلَيْهِ فِي شيْء."

"محصل شاهدى طرازى يزمز ولى حاشا اكابو قدر سوز."[٧٣٤]

وَ كلمة پوتر (Potur) كلمة تركيّة تعني: إنسانًا أسلم مؤخر، وَ بما أن مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك أسلموا عَلٰى أيدي الأتراك وَ يعتبرون حديثي عهد بِالْإِسْلَامِ لِذٰلِكَ سمّي القاموس بِهٰذَا الاسْم.

وَ لٰكن هوانيًّا لم يشْتهر بِهٰذَا القاموس فقط، وَ إنّما نظّم مجموعة قصائد ذات طابع دينيّ أو اجتماعيّ، وَ سوف نتناول فِي هٰذَا المكان إحدٰى قصائده الَّتِي كانت وَ لا تزال موضع النّقاش فِي الْأوساط الْأدبيّة داخل يُوغُسْلَافِيَا وَ خارجها.

وَ القصيدة عنوانها "تعالوا عَلٰى الأمان"، لا كما يزعم البعض أنه "تعالوا إلٰى الإيمان"، لِأنّه نداء موجه إلٰى نصارٰى جمهورية صربيا المجاورة وَ هٰذَا النّداء فهمه أكثر الأدباء وَ النّقاد الْيُوغُسْلَافِيِّينَ كنداء إلٰى الْإِسْلَام لِأن هوانيًّا يختتم كلّ بيت من قصيدته بِهٰذَا النّداء:

تــعــالــوا لــنــا آمــنــيــن!

---

[٧٣٤] الإنتاج الأدبي، مُحَمَّد الخانجي، ص ٨٥.

"حودته نامی وی نا وِیرو!"

وَ كلمة "نا وِيرو" (Na viru) ليس معناها إِلٰى الدّين وَ إنّما نداء إِلٰى الأمان، وَ من الَّذِينَ فسّروا هٰذِهِ الكلمة بمعنٰى "تعالوا إِلٰى الدّين" هُوَ الأستاذ عليّ ناميتاق[٧٣٥] وَ الدّكتور محسن رِضْويتْش[٧٣٦]. وَ بينما يبرر الأستاذ عَلٰى موقف المؤلّف محاولًا أن يفهمه آخذًا بعين الاعْتبار البيئَة وَ الظّروف الَّتِي عاش فِيهَا يقول رِضْويتْش (Rizvić):

"إنّ القصيدة بعيدة كلّ البعد عن التّسامح الدّينيّ، فهي قصيدة تبشيريّة نشعر فِيهَا بجوّ القرون الوسطٰى، لأنّها لم تتحرّر من القوّة وَ الوعيد."[٧٣٧]

وَ فيما يلي نقدم ترجمة لجزء منها حيث يقول:

---

[٧٣٥] القواميس التُّرْكِيَّة الصُّربوكرواتيّة، عليّ ناميتاق ('Alija Nametak)، ص ٢٣٨، زغرب ١٩٦٨ م.

Nametak, Alija (1968.) *Rukopisni tursko-hrvatskosrpski riječnici*, Zagreb, p. 238..

[٧٣٦] الإنتاج الأدبي لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك إبان الحكم النّمْسَاوِيّ، محسن رِضْويتْش (Muhsin Rizvić)، ص ٣١، سراييفو ١٩٧٣ م.

Rizvič, Muhsin (1973.) *Književno stvaranje muslimānskih pisaca u Bosni i Hercegovini u doba austrougarske vladavine*, Sarajevo, p. 31..

[٧٣٧] نفس المصدر السّابق، ص ٣٢.

نـحـن لسنـا لـكـم من الأشـرار.

أنّنا مثلكم لِأنّنا من خالق وَاحـد،

كـونـوا مـطـيـعـيـن لِلهِ،

وَ تـعـالـوا إلـيـنـا آمـنـين!

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Nismo vami mi zlotvori.
Bog nas jedan jer satvori,
bud'te Bogu bogodvori,
hod'te nami vi na viru!

الأبيات مكتوبة بعَرَبِچا:

نِسـمؤ وامِى مِى زلـؤتـووْرِى

بؤغ ناس يەدان يەر ساتووْرِى،

بـؤدتـه بـوغـؤ بـؤغـؤدووْرِى،

حـؤدتـه نـامِى وِى نـا وِيـرو!

فلسنا ندري من أين رأى محسن رِضْويتْشْ فِي هٰذِهِ القصيدة أثر الإكراه وَ الوعيد، وَ هُوَ أحد الأدباء الْيُوغُسْلَافِيِّينَ المعاصرين وَ يعيش فِي الفترة الَّتِي نلاحظ فِيهَا دراسة التّراث الْإسْلَامِيّ فِي يُوغُسْلَافِيَا دراسة علميّة، بعد أن طغت عَلٰى هٰذِهِ الدّراسة غيوم السّياسة وَ التّعصّب زمنًا طويلًا؟ وَ إِلٰى جانب ذٰلِكَ فإن

محسن رِضْوِيتْشْ أحد أبناء المسلمين من الْبُوسْنَة وَ يعرف عن هٰذَا التّراث أكثر ممّا يعرف غيره!

وَ قصيدة هوائيّ هٰذِهِ الَّتِي لا تتجاوز المِائة وَ خمسين بيتًا نستطيع أن نعدّها من بين القصائد الوطنيّة، وَ محورها أن النّاس جميعًا بدأوا من آدم وَ يناديهم فِيهَا أن يعيشوا حياتهم فِي السّلم وَ الأخوّة وَ السّعادة، وَ لو دعا هوائيّ فِي قصيدته هٰذِهِ إِلَى الْإِسْلَام وَ كان له الحقّ فِي ذٰلِكَ، لاستعمل فِيهَا كلمات مناسبة مثل: الْإِسْلَام، مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –، الْقُرْآن... إلخ، لٰكن هٰذِهِ الكلمات لا نجدها فِي القصيدة إطلاقًا.

وَ كانت الدّعوة إِلَى الْإِسْلَام جارية كما قلنا وَ لا تزال، فهي دائمًا تتمثّل فِي وُجُود الْقُرْآن الكَريم وَ هُوَ كتاب الدّعوة فِي الْإِسْلَام، وَ سبيله فِي الدّعوة نظيف من أيّ إِكْراه أو إِجْبار.

وَ لسنا نخطِئ لَوِ اسْتنتجْنا أن هوائيًّا كَان وَاحدًا من أُدباء الأدب الشّعبيّ الَّذِينَ ظلمهم النّقّاد فِي يُوغُسْلَافِيَا وَ خارجها ذٰلِكَ لأنّهم أخطأوا فِي قراءَة إِنْتاجه وَ فهم معناه. وَ هُوَ من الشّعراء الممتازين وَ قد أثبت كفاءَته هٰذِهِ فِي اللُّغَة التُّرْكِيَّة.

وَ إِلَى جانب هٰذَا فقد أدّى هوائيّ فِي الأدب الْبُوسْنَوِيّ نفس الدّور الَّذِي أدّاه يونس أمره[٧٣٨] (Yūnus Emre) فِي الأدب التُّرْكِيّ المبكّر، فكلاهما بقيا زمنًا

---

[٧٣٨] يونس أمره، أحد رواد الأدب التُّرْكِيّ المبكّر.

طويلًا خارج المسرح الأدبيّ، لٰكن جاءت الأجيال الَّتِي وجدت نفسها فِي قصائِدِهِم، وَ أخرجتهم من الظّلم الَّذِي لحق بهم فِي الماضي.

حسن قائميّ

(Ḥasan Kā'imija)

شاعر متصوّف، ولد فِي سراييفو وَ دخل مدرسة التّصوّف فِي صوفيا (بلغاريا) فِي طفولته وَ لم يرجع إِلٰى وطنه إلَّا بعد حصوله عَلٰى الإجازة الجامعيّة، وَ يذهب أكثر الَّذِينَ كتبوا عن حياته[٧٣٩] إِلٰى أنّه كان ينتمي إِلٰى الطّريقة الصّوفيّة المعروفة بـ"أهل الخلوة" (Halwetijje) وَ كانت كثيرة الانتشار فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ أكبر دليل عَلٰى ذٰلِكَ العدد الكَبير من أماكن الذّكر الموجودة إِلٰى وَقْتنا الحاضر وَ المنتشرة فِي جميع أنحاء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك كما هُوَ معروف.

---

[٧٣٩] من بينهم الدّكتور صفوت باشاَقِيتْش (Safvet Bašagić)، وَ شيخي (Šejhī)، صفائي (Ṣafā'ī)، وَ مُحَمَّد سُرَيَّا (Muḥammed Surejjā) وَ غيرهم.

كما نفهم من أخبار تاريخيّة وثيقة أنّه عاش فِي سرايفو حَتّٰى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨١ م وَ الَّتِي عرفت بالثّورة المشهورة الَّتِي قامت ضدّ القاضي عُمَرَ وَ نائبه أحمدَ أفندي وَ اشْترك فِيهَا حسن قائمي، وَ قَدْ عرف بأفكاره الثّورية وَ عَلٰى أثر ذٰلِكَ انْتقل إِلٰى مدينة زْفورْنيق[٧٤٠] حيث بقي فِيهَا حَتّٰى وفاتِهِ سنة ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م.

وَ نعتقد أنّ هٰذَا ليس السّبب الوحيد لِانْتقالِهِ وَ إنّما نميل إِلٰى تصديق الأخبار الشّعبيّة الَّتِي تقول أن الخلاف قَدْ وقع بينه وَ بين علماء سرايفو فِي ذٰلِكَ الزّمن.

وَ لَقَد كتب قائمي قصائد بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّة[٧٤١] وَ الْبُوسنَوِيَّة، وَ إن مَا يهمنا فِي فِي هٰذَا البحث قصائده المنظومة بِاللُّغَةِ الْبُوسنَوِيَّة.

وَ قد عثرنا عَلٰى ثلاثة قصائد له أولاهما قصيدة دينيّة وَ هِيَ لا تختلف عن القصائد الَّتِي نظّمها مسلمو الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك فِي تِلْكَ الفترة يقوم فِيهَا بحض النّاس عَلٰى طاعة الخالق فيقول:

---

[٧٤٠] لا تزال تُرْبَتُهُ قائمةً فِي هٰذِهِ المدينةِ، وَ هِيَ موْضع الاحتفالات الدّينيّة وَ الذّكر.

[٧٤١] له ديوان بالتُّرْكِيَّة، وَ هُوَ عبارة عن مجموعة قصائد دينيّة وَ اجتماعيّة تنبأ فِي بعض منها بأحداث لم تجر بعد. وَ نتيجة لنشر هٰذِهِ القصائد حصل خلاف بينه وَ بين علماء مدينة سرايفو فكان أن أغلقوا إنتاجه وَ من ثمّ قرّر الِانْتقال إِلٰى مدينة زفورنيق حيث عاش فِيهَا حَتّٰى وَفَاتِهِ.

أيّها الإنسان لا تكن بدون عمل

فطاعة الله وَاجِبة فِي كلّ عمل

صلّ لله الأوقات الماضية

اتّـــــــلُ وَ ردّد: الله، الله...

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Ti besposlen nemoj hodat,
Valja Bogu sve robovat,
Prošle vakte sve naklanjat,
Allāh, Allāh... reci ti.

الأبيات بعَرَبِيچا:

تِى بەسپۆسلەن نەمۆى حۆدات،

والّا بۆغۆ سوە رۆبۆوات،

پرۆشلە وَقْتە سوە ناقلانات،

الله، الله... رەچِى تِى!

وَ فِي قصيدته الثّانية هاجم عادة التّدخين مشيرًا إِلى عواقبه الوخيمة بالنّسبة للإنسان فيقول:

التّـدخـيـن عــادة ذمـيـمــة،

وَ اسْتـغـمـالـه مـن الـعـيـوب،

لِأنّــه مــن الــمــكــروهـــات،

ابــتــعــدوا عــن الـتّـدخـيـن!

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Zločesta je rabota,
pušit ga je sramota,
jer je vrlo grehota,
ostan'te se tutuna!

الأبيات بعَرَبِيچا:

زلـوْچــهسـتــا يــه ربـوْتــــا،

پوْشِت غــا يـــه سـرامـوْتـــا،

يــهر يــه ورلــوْ غـرمحـوْتـــا،

وْسـتــانـتــه ســه تـوْتـوْنـــا!

أمّا قصيدته الثّالثة، وَ الّتِي اشتهر بها قائمي فهي "فتح كندية"[٧٤٢] الّتِي تمثل تعبيرًا قاصدًا عن الشّخصيّة المسلمة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك يقول فيها:

ستندمون بغرابة فوق العادة،

لأنّ الأتراك سوف ينتصرون،

وَ ستذهب أموالكم هباء،

عندما يتمّ فتح كاندية!

الأبيات بالحروف اللاتينيّة:

Čudo ćete kukati,
Turci će vas tukati,
Otiđoše dukati,
Kad vam ode Kandija.

الأبيات بعَرَبِچا:

چـوُدو جـهتـه قـوُقـاتِـى،

تُـرْكِـى جـه واس تـوُقـاتِـى،

---

[٧٤٢] كاندية (Kandija or Iraklion (Ηράκλειο)) وَ هِيَ جزيرة كريت الإغريقيّة الّتِي تقع فِي الجزء الشّرقيّ من البحر المتوسّط.

ۋتِـبـچـۋشـــه دۆقـــاتِـــى،

قـــاد وام ۋده گـــانـــدِيَــــة.

وَ قد ساعدت هٰذِهِ القصيدة وَ أمثالها السّلطة الْعُثْمَانِيَّة عَلٰى بسط نفوذها فِي هٰذِهِ المناطق بسهولة وَ يسر.

وَ قد نظّم حسن هٰذِهِ القصيدة قبل فتح كاندية، متنبّئًا فِيهَا بنتائج هٰذِهِ الحملة[٧٤٣] محاولًا أن يزرع الرّعب فِي قلوب أهالي المدينة المحاصرة، موهمًا إيّاهم أن المدافعة عنها عبث وَ أنهم سيصبحون أسرٰى لدٰى الأتراك فِي النّهاية، ثمّ بعد ذٰلِكَ يندّد بهم عَلٰى مَا شنّوه من غارات عَلٰى المناطق الإِسْلَامِيَّة وَ أن الأتراك سوف ينتقمون منهم، وَ من خزائنهم المليئة، سوف يعيدون بناء المناطق المخربة.

وَ يختتم قائميّ قصيدته بفكرة فحواها أنّ الله وَاحد وَ أن الشّمس وَاحدة وَ أن الحروف تتكلّم معلنة أن عاقبة الأمور تكون كما تنبّأ هُوَ فِي قصيدته، وَ هٰذِهِ الكلمة الأخيرة تكشف أمرًا مهمًّا من حياة هٰذَا الْبُوسْنَوِيّ وَ هُوَ وُجُود علاقة مباشرة أو غير مباشرة بينه وَ بين أُولٰئِكَ المتصوّفة الَّذِينَ يعتقدون أن الحروف لها أهمّيّة وَ قيمة كبيرة، وَ الحروف الَّتِي يقصدها قائميّ هِيَ حروف الْقُرْآن الكريم وَ يسمّٰى هٰذَا المذهب لدٰى الصّوفيّة "الحروفيّة".

---

[٧٤٣] وَ فعلًا استولٰى الأتراك عَلٰى جزيرة كريت، وَ قد حصل ذٰلِكَ بعد موت قائميّ بعشرين سنة تقريبًا، إذْ فتحوها هٰؤُلَاءِ سنة ١١٣١ هـ / ١٧١٨ م.

السيّد عبدالوهّاب إلْهاميّ

(Es-Sejjid ‘Abdul-Wehhāb Ilhāmija)

عاش فِي مدينة ترْاوْنِيقْ (Travnik) وَ توفّي فِيهَا سنة ١٢٣٧ ﻫ / ١٨٢١ م، بعد أن أغنى مكتبات الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك طيلة حياته بكتاباته الأدبيّة.

وَ لئن كان هوائيّ هُوَ الأديب الَّذِي نشأ عَلى يده هٰذَا الصّنف الأدبيّ، فلقد كان الَّذِي أتمّه وَ أنضجه هُوَ عبدالوهّاب إلهامي معطيًا إيّاه شكله النّهائيّ المعروف فِي وَقْتنا الحاضر.

نقول ذٰلِكَ عَلى الرّغم من أن هٰذَا النّوْع من كتابة الأدب قد استمرّ بعد موته طيلة قرن من الزّمن تقريبًا.

وَ يعدّ إلهامي من أبرز الشّخصيات الأدبيّة الَّتِي ظهرت فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك فِي القرن الثّالث عشر الهجريّ / القرن التّاسع عشر الميلاديّ وَ قد تفوق عَلى الَّذِينَ سبقوه وَ عاصروه فكرًا وَ فنًّا وَ إنْتاجًا وَ إخْلَاصًا فِي العمل للدّين الإسْلَامِيّ وَ للعدالة الاِجْتِمَاعِيَّة وَ الإنسانيّة الَّتِي نادٰى بِهَا فِي جميع قصائده، فهي بقوّتها تهدم كلّ مَا يصادفها من عقبات. لٰكن قصائده هٰذِهِ قدْ ساهمت فِي هدم حياته أيْضًا، إذ مَا أن انْتشرت وَ ذاع صيتها حَتّٰى حكم عَلَيْهِ بالإعْدام عَلى أثرها

وَ ذٰلِكَ سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م وَ قد نفذ هٰذَا الحكم فِي مدينة تْراوْنِيق[٧٤٤] (Travnik) بأمر من وَزِير الْبُوسْنَة آنذاك جلال الدّين پاشا.

وَ عندما ندرس هٰذِهِ الشّخصيّة الأدبيّة وَ الإنسانيّة نودّ أن نقدّمها إلٰى القارِئ الْعَرَبِيّ وَ الْعَالَمِيّ فِي قالب حقيقيّ جديد، وَ إلٰى ذٰلِكَ تدعونا أمانة العلم وَ التّأريخ فقد تعرضت شخصية هٰذَا الأديب إلٰى ظلم الكتاب الأوروبيّين لِأسبابٍ كثيرةٍ منها:

- موقف الغرب العدائيّ تجاه كلّ مَا هُوَ إسْلَامِيّ وَ اسْتهانتهم بالإنْتاج الَّذِي له صله بالثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة وَ الْعَرَبِيَّة.

- أخطاؤُهم فِي ترجمة نصوصه (من الْعَرَبِيَّة بصورة عامّة) سواء أ كَانَ ذٰلِكَ سهوًا أم عمدًا، وَ الخطأ فِي التّرجمة بطبيعة الحال يسْتلْزم خطأً فِي التّفسير وَ تقديم الرأي الصّحيح وَ الحكم العادل.

وَ لمْ يتحرّر إنتاج مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك سواء أ كَان بالْعَرَبِيَّة أم الْبُوسْنَوِيَّة من التّفسيرات المغرضة إلّا فِي النّصف الثّاني من هٰذَا القرن[٧٤٥]، وَ منذ ذٰلِكَ الوقت بدأنا نقرأ عن قيمة هٰذَا الأدب من النّاحية التّأريخيّة وَ الأدبيّة وَ الفنّيّة، وَ قد أنكرت أوروبا هٰذِهِ القيم طوال قرون عديدة.

---

[٧٤٤] وَ قد دفن فِي نفس المدينة وَ قبره لا يزال قائمًا حَتّٰى يومنا هٰذَا.

[٧٤٥] وَ عَلٰى إثر تِلْكَ الحريات الأدبية ظهرت دراسات قيمة عن التّراث الإِسْلَامِيّ فِي المنطقة.

وَ بعد هٰذِهِ النّظرة الخاطفة عَلٰى موقف الغرب من تراث مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، نرجع إِلٰى السّيّد عبدالوهاب إلهامي وَ عمله وَ فِي ضوء مَا تقدم يظهر لنا إلهاميّ شاعر السّياسة، وَ الَّذِينَ نظروا إِلَيْهِ من هٰذِهِ الزّاوية – وَ هُمْ كثيرون – أخطأوا فِي حكمهم عَلَيْهِ فهو ليس شاعرًا سياسيًّا وَ إنّما هُوَ مصلح اجْتماعيّ وَ دينيّ وَ لقد نظر إِلٰى مستقبل مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك من زاوية الخوف وَ الضّيق، وَ ذٰلِكَ لما أصاب الإمْبَرَاطُورِيَّة الْعُثْمَانِيَّة – وَ الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك جزْء منها – من هزائم عسكريّة وَ تدهور اجتماعيّ وَ فكريّ.

وَ لَقَد صبّ إِلْهَامِيّ نقده اللّاذِع عَلٰى النّظام الحاكم فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ كَذٰلِكَ عَلٰى رجال الدّين الَّذِينَ بدأوا يشتغلون فِي خدمة النّظام الفاسد آنذاك، وَ من تِلْكَ القصائد الَّتِي نقد فِيهَا الأحوال الِاجْتِمَاعِيَّة وَ الدّينية فِي الْبُوسْنَة، قصيدته المشهورة تحت عنوان "بدأ غريب الزّمان" وَ الَّتِي يقول فيها:

مـن الـصّـعـب احـتمـال المظالم،

وَ الأصـعب منه مهازل الأتـراك،

وَ الـمـنـــافــقــون مــن ورائـــهــم؛

مــاذا يــراد بِــهٰــذَا، يــا إِلٰـــهـــي؟

قد بـدأ عـلـمـاء غـريبوا الأطوار،

لِأنّــهــم عـلـمـاء بــدون أعـمـــال،

عَلٰى يديهم ينتظر الهلاك!

ماذا يراد بِهٰذَا، يا إِلٰهي؟

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Ovo trpit' – teška muka,
a još više turska bruka,
munāfika stoji huka;
šta se hoće, za Boga?

Nasta čudna 'ulemā',
jer ne čine 'amela,
od njih jadna proloma!
šta se hoće, za Boga?

الأبيات بِعَرَبِچا:

ووۆ ترپِت – تەشقا مۆقا،

آ يۆش وِشە تۆرسقا برۆقا،

مُنَافِقا ستۆيِى حۆقا؛

شتا سە حۆچە، زا بۆغا؟

ناستا چۆدنا عُلَمَاء،

يەر نە چِنە عَمَلا،

ۋد نِبح يادنا پرۋلۋما؛

شتا سه حۆجه، زا بۆغا؟

وَ يشير فِي قصيدته هٰذِهِ إلٰى الرّذائل السّياسية الّتِي ظهرت فِي الإمْبَرَاطُورِيَّة الْعُثْمَانِيَّة حينذاك.

وَ أولٰى مزايا عصره حسب قول الشّاعر سيادة الإجْرام وَ المجرمين وَ انْعدام الأمل وَ القوّة فِي نفوس المسلمين، ثمّ بعد ذٰلِكَ يصف علماء عصره وَ يقول عنهم أنهم قد تركوا الْقُرْآن وَ صاروا يعملون فِي خدمة السلطان.

وَ فِي نهاية القصيدة، وَ عدد أبياتها لا يتجاوز ثلَاثة عشر بيتًا يصف فِيهَا الوزراء وَ الباشاوات فيقول:

عندما تنظر إلٰى أحدهم،

نعطيه من الاحترام مَا يليق،

لٰكنه يفهم العمل سياسة،

ماذا يراد بِهٰذَا، يا إلٰهي؟

لا يستطيع أن يكون إمامًا،

دائمًا جوابه بالتّمام،

وَ كــانَّـــه شـــيـــخ الإِسْـــــلَام،

مـــاذا يـــراد بِـــهٰـذا، يـــا إِلٰـــهـــي؟

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Kad mu gledaš u kijāfet,
dao bi mu ti ḍijāfet,
krivo uče za sijāset,
šta se hoće, za Boga?

Nije kāder biti imām,
A kaže se potamām,
Jordam čini k'o šejẖ-islām,
šta se hoće, za Boga?

الأبيات بِعَرَبِجا:

قـاد مـۆ غلـەداش ۆ قِيَافَـت،

داۆ بـى مـۆ تـى ضِـيَـافَـت،

قـرِيـوۆ ۆچه زا سِيَـاسَـت،

شـتـا سـه حـۆجـه زا بۆغا؟

نـيـيـه قَـادِر بـيـت إمَـــــام،

أ قـــاژه ســــه پـۆ تَـمَــام،

يـۆردام چِـنِـى قۆ شَيْخ إسْـلَام؛

شــتــا ســه حـۆجـه زا بۆغا؟

وَ قد أحاط بِهٰذِهِ الحاشية وَ بينهم الصّالح وَ الطّالح – طفحة من الطّغاة وَ الخونة – وَ كلّ بيت من هٰذِهِ القصيدة ينتهي بالتّساؤُل:

"مــاذا يــراد بِــهٰـذَا، يــا إلٰــهــي؟"

وَ الجدير بالذّكر أن إلْهَامِيّ إلٰى جانب شعره الاِجْتِمَاعِيّ نظّم قصائد فِي التّصوّف وَ الإرشاد، أمّا التّصوّف فَلِلشّاعر صلة وَثيقة بِهِ لِأنّه كان متصوّفًا[٧٤٦] وَ من قصائده فِي هٰذَا الموضوع القصيدة التّالية وَ الَّتِي يقول فيها:

هــيّــا، أيّــهـا الـولــد، تـعلّـم!

لا تـقـض أوقاتك فِي الشــــارع!

إمـلأ قـلـبـك بـالـحـبّ الإلٰــهـي!

فـهـي أكـبـر نـعـمـة من الْباري.

---

[٧٤٦] كان ينتمي إلٰى الطريقة الصّوفيّة المعروفة بالنّقشبنديّة.

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Hajde, sinak, te uči!
Po sokāku ne trči!
Svoje srce poturči!
To je ni'met najveći.

الأبيات بِعَرَبِجا:

حـايْـده، سِـنـاق، تـه وُچِـى!

پـو زُقَـاقـو نـه تـرچِـى!

سـوويـه سـرچـه پوتُرْكِى!

تـو يـه نِعْـمَـت نـايـومچِـى.

وَ قد شجع فِي قصائده الشّباب عَلٰى التّصوّف مشيرًا إلٰى الحسنات الّتِي تكشفها لهم حياة المتصوّفة.

أمّا شعر الدّعوة وَ الإرشاد فيحث فِيهِ الشّباب عَلٰى اتّباع الْقُرْآن وَ شريعته.

* * *

وَ بدراستنا لهٰؤُلاءِ الأعلام الثّلاثة فِي الأدب الشّعبي نكون قد درسنا أبرز أدباء مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك من كتاب هٰذَا الأدب، وَ قد ظهر بعدهم عدد كبير من أدباء هٰذَا اللّون سنقف عند طائفة منهم لأنّ ذكرهم جميعًا غير ممكن، وَ يحدث كثيرًا أن نعثر عَلٰى نصوص أصحابها غير معروفين.

وَ من الَّذِينَ كتبوا فِي الأدب الشّعبي عَلٰى هٰذِهِ الطريقة مصطفٰى باشيسنقي[٧٤٧] الَّذِي نظّم قصائد تحت اسم "شوقي" وَ لقد وَجَدْنا له قصيدة وَ عنوانها "قصائد دينية" (Pobožna pjesma) وَ عدد أبياتها أربعة عشر بيتًا فقط، وَ موضوع القصيدة فناء الإنسان وَ قصر حياته الدّنيا، وَ مطلعها:

فـــانـــظـــر الآن مـــن أنـــت،

أنـــت فـــانٍ – سَـــمـــعـــتَ؛

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Nut pogledaj sada ko si,
fani da si ti čuo si;

[٧٤٧] مصطفٰى باشيسنقي (Muştafā Baševskija) ١١٤٤-١٢٢٤ ﻫ / ١٧٣١-١٨٠٩ م، أحد أبناء سراييفو وَ من أشهر علماء التّاريخ هُنا، وَ قد كتب بِالْعَرَبِيَّة أيْضًا.

الأبيات بِعَرَبِيچا:

نـوت پۆغلـەداي سادا قۆ سِى،

فَـانِـي دا سِـى تِـى چـۆۆ سِـى؛

وَ يمشي فِي القصيدة عَلَى هٰذَا المنوال موجّهًا الإنسان توجيهًا إسلاميًّا صحيحًا، وَ نجد أن بعض المؤرخين اليوغسلاف قد نسبوا له قصائد أخرٰى مثل "عِبْرَة أرنب" (Zečeva pouka) وَ "رامو وَ صَالحة" (Ramo i Ṣāliḥa) لٰكنّنا نشكّك فِي صحّة نسبتها له، لأنّه إذا مَا ناقشنا القصائد مناقشة موضوعية نجدها بعيدة كلّ البعد عن فكر باشيسْقي[٧٤٨] وَ إن كانت تُقرأ فِي الأوساط الشّعبية فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك.

وَ من هٰؤُلَاءِ الكتّاب المحبّبين لعامّة الشّعب بصورة خاصّة عبدالرحمٰن سرّي[٧٤٩] ('Abdur-Raḥmān Sirrī) من مدينة فُويْنِيتْسا (Fojnica) الَّذِي نظم قصائد بالْبُوسْنَوِيَّة وَ التُّرْكِيَّة، أمّا قصائدة بالْبُوسْنَوِيَّة فملِيئة بالدّعوة إلٰى الرّوحانيّة.[٧٥٠] وَ هٰذَا مَا نجده جليًّا فِي قصيدته الَّتِي يقول فيها:

---

[٧٤٨] القصيدة "رامو وَ صالحة" هِيَ قصيدة حبّ، وَ نشكّ أن باشيسْقي قدْ تطرّق إلٰى هٰذَا الموضوع فِي حياته الأدبية.

[٧٤٩] عبدالرّحمٰن سرّي ('Abdur-Raḥmān Sirrī) ١١٩٩-١٢٦٣ ﻫ / ١٧٧٨-١٨٤٦ م.

[٧٥٠] وَ قد فهمنا من كتب السّيرة أنّه تربّى تربية صوفيّة منذ طفولته.

افتـح عينـيك، أيّـهـا الـدّرويــش!

ابْـتـعـد عـن الأعْـمـال الـسّـيّـنــة!

إذا أردت ثـوابًـا فـاعـمـل جـاهــدًا!

وَ قُل دائمًا: سبحان الله، سلطان الله!

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Ah, dervīšu, otvori oči!
Što ne valja sveg de prođi!
Ṣewāb hoćeš nefsa muči!
Subḥān Allāh, sulṭān Allāh!

الأبيات بِعَرَبِچا:

آه، دَرْوِيشو، وتوورِى وْچِى!

شتو نه والْا سوەغ سه پروْچى!

ثَوَاب حوچەش نَفْسا مُوچِى!

سُـبْـحَــانَ الله، سُــلْــطَــانَ الله!

وَ إذا كان كلّ من هوائيّ وَ قائميّ وَ إلْهَامِيّ قد تناول فِي قصائده مشاكل بيئته وَ مجتمع، فموْضوع قصائد عبدالرّحمٰن سرّيّ هُوَ مشكلة الرّوح الإنسانيّة وَ تربيتها.

وَ تربية الرّوح فِي نظر سرّيّ مستحيلة بدون اللّجوء إلٰى أفلاك الصّوفيّة وَ خوض غمارها، وَ لقد وَجَدْنا له قصائد ثلاثًا تعالج كلّها هٰذِهِ القصيدة كما فِي قصيدته السّالفة الذّكر.

وَ فِي القصيدتين الأولٰى وَ الثّاني، يعرض الصّفات وَ المزايا الَّتِي لا بدّ منها لمن يختار حياة المتصوّفة وَ يذكر منها: قوّة الإيمان بالله وَ كثرة الذّكر وَ طهارة النفس وَ البدن وَ كثرة الصلاة، وَ تحسين الخلق... إلخ. أمّا فِي قصيدته الثّالثة فيؤكّد فِيهَا أن العقل السّليم سوف يؤدّي بالإنسان إلٰى الرّاحة وَ الفلاح أي إلٰى الصّوفيّة.

وَ قصائد سرّيّ، وَ إن لم تكن لها قيمة أدبيّة أو فنّيّة فقد كانت لها قيمة تربوية وَ أخلاقيّة كبيرة، وَ لِذٰلِكَ نالت شهرة وَاسعة وَ مركزًا مرموقًا فِي نفوس الْبُوسنَوِيِّينَ حَتّٰى يومنا هٰذَا.

وَ ممّا تقدّم نلاحظ أن كلّ الَّذِينَ شملتهم دراستنا كَانوا من أصل بُوسْنَوِيّ وَ لا ينتمي أحد منهم إلٰى منطقة الْهَرْسَك، وَ هٰذِهِ وَ هِيَ المنطقة الَّتِي ذكرنا من قبل أعطت من أبنائها عددًا كبيرًا من الْأدباء وَ العلماء فاقت بِهِ مَا قدّمته الْبُوسْنَة فِي بعض الْأحيان.

وَ كَذٰلِكَ حدث بالنّسبة لِلْكِتابة بالْبُوسْنَوِيَّة، إذْ نجد فِيهَا أكبر مثال لِهٰذَا الأدب فِي شخصية عمر حازم حومو الَّذِي ولد فِي مدينة موسْتار (Mostar) حيث حصل عَلٰى ثقافته فِيهَا ثمّ قضٰى حياته فِي تعليم الشّباب المسلم فِي مختلف أنحاء منطقة الْهَرْسَك.

وَ رَأى حومو أن التّعليم لا يكون ناجحًا وَ لا يعطي المردود المرتقب إلّا إذا توفّرت وَسَائل تعليمه عَلٰى أن تقدم بلغة يفهمها وَ يستعملها أهْل هٰذِهِ المنطقة.

وَ لم يكتف حومو بِهٰذِهِ الدّعوة – لإحياء اللُّغة الْبُوسْنَوِيَّة – فحسب، وَ إنّما جاءَ بِبَعْضِ التّفسيرات وَ التّجديدات كَما ذكرنا[٧٥١].

وَ دعْوة حومو[٧٥٢] هٰذِهِ إلٰى تأْليف الْكُتُبِ الدّينيّة[٧٥٣] وَ طبعها بِاللُّغَةِ الشّعبيّة كَانت دعْوةً جديدةً وَ لِذٰلِكَ أثارت ضجّة كُبرٰى بين المسلمين.

وَ من أولٰى الطّبقات الَّتِي قاومت هٰذِهِ الدّعْوة طبقة رجال الدّين الَّذِينَ وقفوا صفًّا وَاحدًا ضدّ حومو وَ دعْوتِهِ، حَتّٰى نجد فِي بعض مَا كتبوه تحريضًا صريحًا لِلابْتِعَادِ عن هٰذَا الأدب![٧٥٤]

وَ لَقَد شقّ حومو طريق دعوتِهِ فِي الأوساط الشّعبيّة بكتابه المشهور "سهلة الوصول" الَّذِي طبع سنة ١٢٩٢ ﻫ / ١٨٧٥ م فِي سراييفو مختَتِمًا كتابه هٰذَا بالكلمات التّالية:

---

[٧٥١] راجع الصفحة ٩ وَ ١٠ من هٰذَا الباب أي ص ٤٤٧-٤٤٨.

[٧٥٢] عمر حازم حومو (Omer Ḥāzim Humo) ١٢٣٦-١٢٩٨ هجريّ.

[٧٥٣] وَ الكُتُب الدّينيّة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك حَتّٰى ذٰلِكَ الوقت كَانت تكْتب بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّة وَ القليل منها كان يكتب بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة.

[٧٥٤] مثل الوثيقة الَّتِي طبعت فِي سراييفو من سنة ١٣٢٦ ﻫ / ١٩٠٨ م، انظُر: الإنتاج الأدبيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، ص ٩٦.

"كَتبته بِالْبُوسنَوِيَّة ليعمّ النّفع أولٰئِكَ النّاس الَّذِينَ لا يعرفون الْعَرَبِيَّة وَ التُّرْكِيَّة."

وَ قد اشْتهر إِلٰى جانب حومو فِي هٰذَا الميدان أديبان آخران من منطقة الْهَرْسَك هما: مُحَمَّد رشدي دِيزْدَاريفيتْش[٧٥٥] وَ حمزة پوزيتْش[٧٥٦].

أمّا مُحَمَّد رشدي ديزداريفيتْش فقد كتب قصائد دينيّة وَ موْضُوعها سير الأنبياء – صلوات الله عليهم – منها: قصّة يوسف، قصّة إِبْرَاهِيم وَ إِسْمَاعِيل – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ –، ثمّ بعد ذٰلِكَ وَفَاة مُحَمَّد – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –، وَفَاة فاطمة – عَلَيْهَا السَّلَام –، معراج النّبيّ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ –، وَ غيرها من هٰذِهِ القصائد.

وَ كانت هٰذِهِ القصائد كثيرة الانتشار، حَتّٰى أنّه ترجم بعضها إِلٰى لغات أوروبيّة أخرٰى.

وَ أمّا السّيّد حمزة پوزيتْش، فهو آخر مسلم خاض غمار هٰذَا النّوع من الأدب الشّعبيّ فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ قصيدته المشهورة "إِبْرَاهِيم الخيّاط" (إِبْرَاهِيم ترزيا[٧٥٧]) يقدّم فِيهَا النّصح لِأحد الشّباب المسلمين وَ اسمه إِبْرَاهِيم وَ قد

---

[٧٥٥] وُلد فِي مدينة تْريبِينْيه (Trebinje) سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٣٣ وَ توفّي سنة ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٥ م.

[٧٥٦] وُلد فِي مدينة موسْتار وَ توفّي فِيهَا سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م.

[٧٥٧] ترزي (Terzija) كلمة فارسية معناها: خيّاط.

كان يعمل خيّاطًا للثّياب وَ غرض القصيدة كما نَرٰى، تربية الشّاب المسلم وَ توجيهه توجيهًا إسْلَامِيًّا وَ لقد نظّم پوزيتْش هٰذِهِ القصيدة سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٥ م أيّام الحكم العُثْمَانِيّ حينما كان طالبًا فِي السّنة الرّابعة بمدرسة "رشديا" فِي مدينة موسْتارفي منطقة الْهَرْسَك.

وَ من القصائد الّتِي كانت أكثر انْتشارًا فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بِاللُّغَةِ الْبُوسْنَوِيَّة قصيدة "عبدالله"[٧٥٨] (Avdija) وَ صاحبها يُوسُف چنگيتْش[٧٥٩] (Jūsuf Čengić) ينصح فِيهَا ابْن أخيه بقوله:

هَيَّا، يا عَبْدَاللهِ، إِلٰى الوعظِ،

صلِّ الأوقات الخمسة،

لا تدع أي فرض يفوت،

ليكن كلّ هٰذَا باسم الله!

---

[٧٥٨] عَوْدِيا (Avdija) أيْ: عَبْدُاللهِ، وَ كثيرًا مَا نجد أن حرف "الباء" قد غير إِلٰى "الواو" وَ حسب علمنا أن الأتْراك جاؤُوا بِهٰذَا من قبل وَ قد أخذه الْبُوسْنَوِيُّونَ.

[٧٥٩] يُوسُف چنگيتْش، وُلِد فِي منطقة فيلينيا، قرب مدينة فوتْشَا.

ادع الله فِـــي كـــلّ أمـــــر،

أحبب أخـاك حبّك لـنفسك،

ارْحم غيرك رحمتك لنفسك،

كُـلّـنـا إخـوة، يـــا عَـبْدالله!

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Hajd' Avdija, ti na vaz̧,
Klanjaj pet vakat' namāz,
Terć ne čini Božji farz,
A za Boga, Avdija!

Miluj Boga vrh sebe,
a svog brata k'o sebe,
milovaće i tebe
naša braća, Avdija.

الأبيات بِعَرَبِيچا:

حـايد عَبْدَاللهِ، تِـى نـا وَعْظ،

قلانـاي پـــهت وَقْـت نَـمَـاز،

تَرْك نـه چِنِى بوژِيى فَرْض،

آ زا بـــوغـــا، عَـــبْـــدَاللهِ!

مِيلوّي بوْغا ورح سەبە،

آ سووْغ براتا قْوْ سەبە!

مِيلوّواجە وِ تەبە!

ناشا براجا، عَبْدَاللهِ!

وَ فِي هٰذِهِ القصيدة يعبر عن الشّباب المسلم فِي شخصيّة عَبْدِاللهِ وَ قَدْ نالت الْإِعْجاب فِي أوساط الشّباب حَتّٰى أعجبوا بِهَا إِلٰى حدّ الهوس.

وَ قَدْ ظهرت القصيدة سنة ١٢٨٣ ﻫ / ١٨٦٦ م وَ عدد أبياتها ثلاثة وَ اربعون بيتًا[٧٦٠] وَ نستطيع أن نقول أن لِهٰذِهِ القصيدة قيمة تربويّة وَ أخْلاقية كبيرة، دون أن تكون ذات قيمة أدبيّة أو فنّيّة تذكر، وَ لٰكنّها وجدت مكّانها فِي بحثنا هٰذَا لِأنّها أثرت فِي نفوس الْبُوسْنَوِيِّينَ فِي الفترة الّتِي نعالجها فِي البحث.

وَ من الجدير بالذّكر أنّ المرْأة المسلمة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قد أدّت دورها فِي هٰذَا النّوع الأدبيّ وَ أشهر من كتب من النّساء السّيّدة أمّ حانه

---

٧٦٠ وَ القصيدة نشرها ضمن إنتاجه الكّاتب مُحَمَّد كاپيتانوفيتْش (Mehmed Kapetanović) فِي كتابه "التّراث الشّعبيّ" (Narodno blago) وَ ذٰلِكَ سنة ١٣٠٥ ﻫ / ١٨٨٧ م.

چوفيدينا[٧٦١] (Ummihana Čuvidina) فِي قصيدتها المشهورة "أهل سراييفو يذهبون مع الجيش لحرب صِرْبيا"[٧٦٢] حيث تقول:

سبع سنين مضت

علٰى الشّعب الْبُوسْنَوِيّ الفقير:

من سراييفو خرج مبكّرًا،

ليصل إلٰى بلغراد الشّهيرة.

الأبيات بالحروف اللّاتينيّة:

Evo danas sedam godin dana
Kako cvili bosanska fukara:

Iz Saraj'va rano podraniše,

I siđoše stojnu Biogradu.

---

٧٦١ وُلدت فِي منطقة خُريد (Hrid) التّابعة لمدينة سراييفو، سنة ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م، وَ توفّيت سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨٠ م.

٧٦٢ وَ قد توجّهت هٰذِهِ الحملة من مدينة سراييفو سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م تحت قيادة عليّ پاشا ('Ali-paša).

الأبيات بِعَرَبِچا:

ئەوۆ داناس سەدام غۆدِن دانا

قـاقـۆ چـوِبلِی بۆسانسقا فُقَـرَاء:

اِبز سـاريُوا رانـۆ پـۆدرانِشـه،

وِ سِـچۆشه ستۆينۆ بەۆ غرادۆ!

وَ قدِ اشْترك فِي هٰذِهِ الحرب خطيب أمّ حانه السّيّد مصطفٰى چامجي بيرقتار[٧٦٣] حيث استشهد فيها.

وَ هٰذِهِ القصيدة تعبر تعبيرًا صادقًا عن الْإيمان وَ الشّجاعة وَ الحبّ.

وَ لَا بدّ أن نشير إلٰى أن كتاب الْأدب الشّعبيّ عنوا عناية خاصّة بشخصيّة مُحَمَّد – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – إذْ ألّفوا فِي هٰذَا الموْضُوع نثرًا أو شعرًا الشّيء الكثير، وَ قد مجدوا فِي مؤلّفاتهم حياة ناشر الدّعوة الْإسْلَامِيَّة وَ قدْ عرف هٰذَا

---

٧٦٣ بيرق (bajrak) كلمة تركية تعني: راية.

الإنتاج فِي الأدب الْبُوسْنَوِيّ باسم "مَوْلُود"[٧٦٤] وَ كان أكثر انْتشارًا من أيّ كتاب آخر بعد الْقُرْآن الكَريم، وَ كان كتابه يتمتّعون بالشّهرة وَ التّقدير.

كَما نلاحظ أن أكثر هٰذِهِ المؤلّفات الّتِي وَجَدْنَاهَا فِي هٰذَا الموضوع ليست أصليّة، بلْ هِيَ ترجمة حرفيّة من اللُّغَة التُّرْكِيَّة وَ من بين هٰذِهِ الكتب انتشر كتاب "مولد النّبيّ" لصالح غاشيفيتْشْ (S. Gašević) وَ هُوَ ترجمة لكتاب سليمان چلبي الّذِي انتشر فِي عهد الإمْبَرَاطُورِيَّة التُّرْكِيَّة، وَ قد طبع هٰذَا الكتاب بِاللُّغَةِ الْبُوسْنَوِيَّة لِأوّل مرّة سنة ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٩ م، ثمّ بعد ذٰلِكَ كان له عشر طبعات حَتّٰى اليوم.

وَ فِي هٰذَا الكتاب نجد أشياء تناقض الواقع ممّا عرف من حياة النّبيّ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – إذ يذكر أحداثًا لم ترد عن الرّسول – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – وَ الرسول بريء من كل هٰذَا كما نعلم، وَ تسرب الإسرائيليات فِي مثل هٰذِهِ المؤلّفات ليس أمرًا جديدًا، فهي موجودة فِي الكتب الْعَرَبِيَّة نفسها، فكيف بالكتب الّتِي كتبت وَ طبعت فِي العالم الإسْلَامِيّ؟

وَ ممّا نلاحظه وَ نحن نقرأ كتاب صالح غاشيفيتْشْ أنّه ملِيء بالكلمات الّتِي لا نجدها فِي اللُّغَة الْبُوسْنَوِيَّة، بل يستعملها النّاس فِي الجبل الأسود[٧٦٥].

---

[٧٦٤] وَ هٰذِهِ القصائد عادة تقرأ أثناء المناسبات الدّينيّة الّتِي تقام احتفالا بذكرٰى مولد النّبيّ – صَلّٰى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ – فِي المساجد أو البيوت، وَ لا تزال تقام هٰذِهِ الاحتفالات فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ مدنِهَا وَ قرَاهَا الإسْلَامِيَّة وَ ذٰلِكَ لِأكثر من مرّة خلال السّنة الواحدة.

وَ لٰكن كتاب صالح غاشيفيتْشْ المذكور ليس التّرجمة الوحيدة لكتاب سليمان چلبي وَ إنّما له ترجمتان أخريان كَذٰلِكَ أولاهما لعارف بن مصطفى من سراييفو[٧٦٦] وَ الثّانية لسعيد زَنونوفيتْشْ[٧٦٧]، غير أنّهما لم تحظيا بالانْتشار حظوة ترجمة السّيّد صالح غاشيفيتْشْ.

وَ إِلٰى جانب هٰؤُلاءِ الْبُوسْنَوِيِّينَ الّذِينَ كتبوا فِي هٰذَا الأدب وَجَدْنَا بعض الْآثَار لهٰؤُلَاءِ الكتّاب:

- أحمد قره خوجه[٧٦٨] (Aḥmed Karaḥodža)،
- حسين ديزْداريفيتْشْ[٧٦٩] (Ḥusejn Dizdarević)،

---

[٧٦٥] منطقة فِي جنوب شرقي يُوغُسْلَافِيَا، وَ هِيَ وَاحدة من الجمهوريات الستّ فِي يُوغُسْلَافِيَا، وَ ممّا تجدر الإشارة إِلَيْهِ أن المسؤولين فِي سراييفو حاولوا تغيير كلمات كثيرة للّغة الْبُوسْنَوِيَّة أثناء طبع الكتاب. وَ قد تمّ إعلان دولة الجبل الأسود استقلالها في ٣ حزيران / يونيو ٢٠٠٦ م.

[٧٦٦] طبع الكتاب فِي إِسْطَنْبُول سنة ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م.

[٧٦٧] طبع فِي سراييفو سنة ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م.

[٧٦٨] عاش فِي القرن الثّالث عشر الهجريّ (التّاسع عشر الميلاديّ) نشر عام ١٨٠٣ م قصيدة "اسمعوا أيّها المؤمنون" وَ قد عرفت بين الأوساط الشّعبية باسم بوشْنْياقُوشَا (Bošnjakuša).

فَيْضو صوفته[770] (Fejzo Softa).

وَ لَقَد تكلمنا عن الْبُوسنَوِيِّينَ الَّذِينَ ألّفوا فِي الأدب الشّعبيّ وَ ذكرنا بعض أعْمالهم دون ترجمتها إِلٰى الْعَرَبِيَّة وَ ذٰلِكَ للأسباب التّالية:

- أولًا: هٰذِهِ الأشعار أو القصائد ليست لها قيمة أدبيّة أو فنّيّة بحيث تستحقّ التّرجمة. حَتّٰى إذا أردنا أن نترجمها يستحيل ذٰلِكَ لأنّها بعيدة عن أوزان الشّعر الْعَرَبِيّ.

- ثانيًا: الكتابة الْبُوسنَوِيَّة بالْأحرف الْعَرَبِيَّة تستحقّ بحثًا مستقلًا وَ دراسة خاصّة وَ إنّما درسناها هُنا لِأنّها مرتبطة بالرّسالة من ناحية وَاحدة فقط، إلّا وَ هِيَ كتابتها بالحروف الْعَرَبِيَّة.

وَ بهذا القدر من الدّراسة لِلْأدب الشّعبيّ فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك نكون قد أشرْنا فقط إِلٰى دوره التّأريخيّ وَ الأخلاقيّ فِي حياة مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك وَ أتمنّٰى أن تكون هٰذِهِ الدّراسة بداية لدّراسات قادمة فِي هٰذَا الموضوع.

---

[769] حسين ديزداريفيتْشْ ١٢٨٦ هـ / ١٨٥٢ م، وَ من قصائده: "الواجبات الإِسْلَامِيَّة"، "وفاة فاطمة – عَلَيْهَا السَّلَام –" بنت مُحَمَّد – صلّٰى الله عَلَيْهِ وَ آلِهِ –.

[770] وَ هُوَ أحد شعراء القرن الثّالث عشر الهجريّ (التّاسع عشر الميلاديّ) من مدينة تْراوْنِيقْ، كَتَبَ كتابًا فِي تعليم الْحروف الْعَرَبِيَّة عَلٰى شكل قصيدة أهْداها إِلٰى إحدٰى طالباتِهِ وَ اسْمها فاطمةُ، وَ من الجدير بالذّكر أن الشّاعر الَّذِي قام بتعليم طلّابه بنفس هٰذِهِ الطّريقة هُوَ الهنديّ الْفَارِسِيّ بغلري (Begleri).

وَ لَقَد وَجَدْنا جزءًا كبيرًا من الأدب الشّعْبيّ الغفل الَّذِي لا نعرف أسماء كتّابه، وَ من هٰذِهِ الْأعمال نذكر قصيدته باسم "عرض حال" مدينة دووْنو[771] (Duvanjski Arzuhal) وَ فِيهَا يشكو أحد الأشراف إِلٰى السّلطان العُثْمَانِيّ الوضع الإِجْتِمَاعِيّ السَّيِّءِ فِي مدينة دووْنو[772]، وَ بينما يَرٰى فريق من المؤرّخين[773] اليوغُسْلَافيّينَ أن القصيدة نظّمت سنة ١١١٨ ﻫ / ١٧٠٦ م يذهب آخرون[774] إِلٰى أن ذٰلِكَ كان سنة ١٢٢١ ﻫ / ١٨٠٩ م، وَ نعتقد أن الرأيَ الْأوّلَ هُوَ الصّحيح لِأنّ الوثائق تشير إِلٰى أن القصيدة قديمة جدًّا وَ قدْ طبعها ضمن أعماله كلّ من أوتّو بْلاو (Otto Blau) وَ سيفالدّين كمورا (Sejfud-dīn Kemura) وَ مُحَمَّد كاپيتانوفيتْش (Mehmed Kapetanović).

وَ كَذٰلِكَ عثرنا عَلٰى وَثِيقة أخرٰى مكتوبة بِاللُّغَةِ الْبُوسنَوِيَّة يشكو فِيهَا أحد أبناء الْبُوسنَة إِلٰى السّلطان العُثْمَانِيّ سوء الْأحوال الَّتِي تعانيها هٰذِهِ المنطقة وَ ذٰلِكَ سنة ١٢٣٠ ﻫ / ١٨١٤ م، وَ كاتبها غير معروف. وَ ليس من المستبعد أن مثل هٰذِهِ الوثائق قد ستر اسم صاحبها عمدًا، عَلٰى سبيل الاحتياط السّياسيّ أو أنّه اشترك فِي كتابتها أشخاص عديدون.

---

[771] عرض حال (Arzuḥāl) هِيَ وَثيقة تعبّر عن وَضع منطقة مَا.

[772] إحدٰى مدن منطقة الْهرْسك.

[773] مُحَمَّد كاپيتانوفيتْش (Mehmed Kapetanović).

[774] كمورا وَ تْشوروفيتْش (Kemura and Ćorović).

بقي علينا أن نذكر أن الْبُوسنَوِيِّينَ قد ترجموا إِلَى هٰذَا النّوع من الإنتاج الأدبيّ بعض الأعمال من الأصل الْعَرَبِيّ.

وَ نجد فِي كثير من المخطوطات قصيدة "شيطان نامه" (Šejṭān nāmē) فلا شكّ أن هٰذِهِ القصّة قد ترجمت من الْعَرَبِيَّة إِلَى التُّرْكِيَّة وَ ترجمها الْبُوسنَوِيُّونَ إِلَى لغتهم فيما بعد.

وَ لَقَد رأينا أثناء حديثنا عن العلوم الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسنَة كيف أن الصّلة كانت وَثِيقة بين العالم الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ وَ الْبُوسنَة فِي ميادين الحياة المختلفة، أما فِي فترة انتشار فإِنّ هٰذِهِ العلَاقة قد ضعفت أو كادت تنقطع، وَ السّبب فِي ذٰلِكَ بسيط وَ واضح لِأنّ العالم الإِسْلَامِيّ آنذاك كان غارقًا فِي ظلمات الجهل خلوًا من العلوم وَ الاخْتراعات، محرومًا من نور الحضارة وَ التّقدّم الفكريّ وَ كانت هٰذِهِ الحال بالطّبع منعكسة عَلَى حال المسلمين فِي الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك أَيْضًا.

وَ إِذْ نختَتِم كتابنا عن هٰذَا الموضوع نودّ أن نقول أنّ الأحكام الأدبيّة الَّتِي أبداها النّقّاد عن هٰذَا النّوع من الكتابة الأدبية سواء أ كَان ذٰلِكَ فِي يُوغُسْلَافِيَا أم خارجها، وَ قد ظلمت هٰذَا التّراث لِأنّ هٰؤُلَاءِ وَزَنُوهَا بأوْزان نقديّة حديثة.

وَ الْواقع أن أحكامنا عَلَى أيّ شعب من الشّعوب ينبغي أن ترتكز إِلَى الزّمن وَ الظّروف الَّتِي تحيط بذٰلك الشّعب، وَ إِلَّا لم تكن أحكامًا سليمة عادلة، وَ مسلمو الْبُوسنَة وَ الْهَرْسَك كما سبق أفوْا خلال القرنين العاشر وَ الحادي عشر الهجريّ / السّادس عشر وَ السّابع عشر الميلاديّ، بالْعَرَبِيَّة وَ أتقنوها إِلَى درجة أن أعمالهم لا تختلف عن الأعمال الأدبيّة الْعَرَبِيَّة.

ثمّ يأتي القرن الثّامن عشر وَ تموت هٰذِهِ الدّراسات أو توشك أن تموت، وَ مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قد بدأوا يدخلون فِي فترة مظلمة لينهوا فِيهَا قرنين من الزّمن.

وَ خلال هٰذِهِ الفترة العصيبة الَّتِي اتّحدت فِيهَا كلمة أعداء الْإِسْلَام وَ تشتت كلمة المسلمين، قام عدد من أبناء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك يدافع عن عقيدته وَ شخصيّته الْإِسْلَامِيَّة، يدافع عن أصالته وَ تراثه مضحّيًا فِي ذٰلِكَ السّبيل بحياته فِي كثير من الأحيان.

هٰؤُلَاءِ هم كتّاب الأدبِ الشّعبيّ بالْبُوسْنَوِيَّةِ الَّذِينَ أخذوا الحروف الْعَرَبِيَّة وَسِيلَة للتّعبير، وَ بِذٰلِكَ صوّروا فِي صورة مَا حياة اللُّغة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك إِلٰى يومنا هٰذَا.

اَلْخَاتِمَةُ

خلاصةُ الكتابِ

حالة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قبيل مجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ

ظهرت الدّولة الْبُوسْنَوِيَّة عَلَى مسرح الأحداث الْعَالَمِيَّة فِي بداية القرن السّابع الهجريّ / الثّاني عشر الميلاديّ، وَ استمرّت حَتَّى نهاية القرن التّاسع الهجريّ / النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلاديّ. وَ خلال هَٰذِهِ الفترة رافقت الْبُوسْنَة أزمات اقتصاديّة وَ سياسيّة وَ دينيّة كثيرة (عديدة)، إلَّا أنّها بلغت أولَى قوتها فِي نهاية القرن السّابع عشر الهجريّ / الرّابع عشر الميلاديّ، أي بالأحرَى مع بداية الفتوحات الْعُثْمَانِيَّة فِي جزيرة البلقان. تقع الْبُوسْنَة فِي الجزْء الشّماليّ الغربيّ من شبه جزيرة البلقان عَلَى منطقة تلتقي فِيهَا ستّة أنهر: دْرِينَا، بوسنة، وْرْبَاس، أونَا، سَافَا، نِيرِيتْفَا.

وَ كَما بدأ الْعُثْمَانِيُّونَ فتوحاتهم فِي البلقان، كان من بين أهدافهم الْبُوسْنَة بطبيعة الحال، وَ ذَٰلِكَ لأنّها تمثّل جسرًا حيويًا بين الشّرق وَ الغرب وَ نقطة استراتيجيّة مهمّة فِي البلقان، وَ كان هُناك عدّة أسباب وَ ملَابسات سهلت لِلْعُثْمَانِيِّينَ أن يحقّقوا غاياتهم وَ نواياهم العسكرية فِي هَٰذِهِ المنطقة نذكر بعض هَٰذِهِ الأسباب:

الأسباب السياسية

لقد كانت الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ خاصّة قبيل مجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ، عبارة عن عدد من الأسر الإقطاعيّة الَّتِي كانت تنافس بعضها البعض فِي الحكم، وَ كثيرًا مَا كان هٰذَا التّنافس يؤدي إِلٰى اشتباكات وَ حروب بينها. هٰذَا فِي داخل الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، أمّا فِي خارجها فقد كانت ممزّقة بين نفوذ الدّولتين القوّيتيْن فِي ذٰلِكَ الوقت، هُما الدّولة المجريّة من الشّمال وَ الدّولة الْعُثْمَانِيَّة الَّتِي كانت تتقرب من الشّرق.

وَ نظرًا إِلٰى عدم وُجُود الاستقرار السياس، وَ لنشوب الحروب الدّاخلية بين الإقطاعيّين، فإنّ حالة البلاد الإقْتِصَادِيَّة قد ضعفت، وَ لم تكن الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قادرة عَلٰى أن تقاوم التّيار العُثْمَانِيّ الإسْلَامِيّ الَّذِي كان يتقدّم نحو الْبُوسْنَة بسرعة مدهشة.

الأسباب الدّينيّة

وَ لا بدّ أن نذكر فِي هٰذَا المكان الأحوال الدّينيّة فِي الْبُوسْنَةِ إذا كانت منقسمة دينيًا أيْضًا، فها نحن أولًا نجد فِيهَا المذاهب المسيحيّة التّالية:

- المذهب الكَاثوليكيّ: وَ كان أنشط المذاهب سياسيًّا،
- المذهب الأرْثوذكسيّ: مع نفوذ محدود،

- المذهب البوغوميليّ: وَ كان يعتبر هرطقيًا وَ خارجًا عَلٰى المذاهب المسيحيّة الأخرٰى، وَ كان أكثر انتشارًا فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.

وَ كان لطائفة البوغوميل دور كبير فِي الفتوحات الْعُثْمَانِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، وَ ذٰلِكَ لأن هٰؤُلَاءِ بعد اضطهاد وَ تشريد الَّذِي لاقوه من قبل الكاثوليكيّين وَ الأرثوذكسيّين، استقبلوا الْعُثْمَانِيِّينَ استقبال المنقذين لا الفاتحين، أمّا الاضطهاد الَّذِي تعرّضت إِلَيْهِ هٰذِهِ الطّائفة، فلم يشترك فِيهِ مسيحيُّو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، بل ساعدتهم فِي ذٰلِكَ الدّول الأوروبية الأخرٰى، وَ بصورة خاصّة الباباوات من روما.

وَ أخيرًا نذكر حقيقة تأريخيّة مهمّة بالنّسبة للبوغوميل، فهي أن جميع هٰؤُلَاءِ دخلوا الإِسْلَام بعد الفتح العُثْمَانِيّ لِلْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَك.

انْتشارُ الإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

لقد جاء الْعُثْمَانِيُّونَ إِلٰى الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بالنّظم السّياسيّة وَ الِاقْتِصَادِيَّة الجديدة، وَ إِلٰى جانب ذٰلِكَ جاؤا بدين جديد الا وَ هُوَ الإِسْلَام. وَ لقد اعْتنق سكّان منطقة الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك الإِسْلَام أكثر من أيّ منطقة أخرٰى فِي البلقان، وَ يرجع

السّبب فِي ذٰلِكَ أن الأكثريّة السّاحقة من البوغوميل قد أسلمت فور الفتح العُثْمَانِيّ للمنطقة، وَ فيما بعد دخل الْإِسْلَام عدد غير قليل من الكاثوليكيّين وَ الأرثوذكسيّين.

وَ إِذْ نتحدّث عن العوامل المساعدة لِانتشار الْإِسْلَام فِي هٰذِهِ المنطقة فلا بدّ لنا أن نرجع إِلٰى الوراء، إِلٰى بداية نشر الدّعوة الْإِسْلَامِيَّة فِي الجزيرة الْعَرَبِيَّة، حَتّٰى يتسنّٰى لنا حقيقة تاريخية عظيمة فهي أن العوامل المساعدة لنشر الْإِسْلَام دائمًا كانت وَاحدة وَ أهمّها التّسامح الدّينيّ التّامّ، فكما لا نجد إجبارًا أو إكراها فِي نشر الدّعوة الْإِسْلَامِيَّة عند العرب، لا نجده عند الْعُثْمَانِيِّينَ أَيْضًا.

وَ عَلٰى الرّغم من الزّعامات وَ الكتابات الأوروبيّة الكاذبة أنّ الْإِسْلَام قد نشر بالقوّة وَ السّيف، لا نجد مثلًا وَاحدًا عَلٰى أنّه أحد أجبر وَ أكره فِي اعْتناق الْإِسْلَام، وَ لقد نشر الْعُثْمَانِيُّونَ الْإِسْلَام فِي البلقان كما نشره أسلافهم العرب من قبل متمسكين بالآية الكريمة الّتِي تقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَاۗ وَ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٥٦﴾﴾[٧٧٥].

وَ لذا إذا نتحدّث عن العوامل المساعدة لانتشار الْإِسْلَام، نحن نضع فِي المكان الْأَوَّل التّسامح الدّينيّ، ثمّ نذكر العوامل الأخرٰى:

---

[٧٧٥] الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

- العامل السّياسيّ وَ الِاجْتِمَاعِيّ،

- العامل الِاقْتِصَادِيّ،

- العامل الثَّقَافِيّ

إن الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بدخولها فِي حوزة الدّولة الْعُثْمَانِيَّة، خرجت من نطاق مستواها الضّيّق وَ حياتها السّياسيّة المضطربة، وَ بدأت تساهم فِي الأحداث السياسيّة وَ الثَّقَافِيَّة فِي عالمها المعاصر، وَ أصبحت الْبُوسْنَة دولة ذات قوّة وَ شأن ليس فِي يُوغُسْلَافِيَا فحسب، بل فِي آسيا وَ أوربا فِي الوقت نفسه.

انْتشارُ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

لما انتشر الْإِسْلَام فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، ظهرت فِيهَا الْمُؤَسَّسَات وَ الدّوائر الَّتِي عنيت بشكل خاصّ بالثَّقَافَة الْإِسْلَامِيَّة، وَ كان لِهٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات أهمّيّة كبيرة فِي قلب أوروبا، وَ مع أن العدد الكبير من هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات قد تخلّى عن المهمّة الَّتِي وَ جدت من أجلها، إلّا أن عددًا منها يؤدّي دوره فِي وَقْتنا الحاضر. وَ تمثل هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات برهانًا أكبر عَلٰى أهمّيّتها بالنّسبة للإنسان، لأن هدفها الأساسيّ هُوَ بناء هٰذَا الإنسان مادّيًا وَ معنويًّا، حضاريًّا وَ روحيًّا، وَ ليس هدفنا هدم المجتمع وَ تحطيم أخلاقه وَ معتقداته.

وَ من هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات الإِسْلَامِيَّة نذكر:

١- الأوْقاف المتنوّعة، وَ يزيد عددها فِي الفترة الَّتِي تناولناها فِي هٰذَا البحث عَلٰى ثلاثمِائة، مَا بين وقْف كبيرة وَ صغير، وَ كانت أموال الأوقاف فِي تداول وَ استثمار مستمرّ،

٢- الدّكاكين المختلفة (المهنيّة وَ التِّجَارِيَّة)،

٣- بزستانات،

٤- كاراوان سراي،

٥- خانات،

٦- الحمّامات،

٧- الجوامع وَ المساجد،

٨- التّكايا (الزّوايا)،

٩- الكتاتيب،

١٠- المدارس،

١١- المكتبات،

١٢- دور المسافرين،

١٣- الجسور،

١٤- أنابيب المياه وَ الآبار وَ النّافورات،

١٥- أبراج السّاعة

وَ الجدير بالذّكر أن أكثر هٰذِهِ الْمُؤَسَّسَات قام بإنشائها أصحاب الأوقاف وَ مال الأوقاف كان قابلًا للتغيير نحو الازْدياد وَ الانْخفاض وَ لا شكّ أن الوقف أدّى دوره الكبير وَ المشرّف فِي نواحي الحياة المختلفة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ إلّا أنّه بمرور الزّمن استنفدت أملاكها وَ أصبحت الْمُؤَسَّسَات الإِسْلَامِيَّة تراعي بِهَا الجماهير الإِسْلَامِيَّة فِي المنطقة. فإذا كان فِي الماضي أن الأفراد يقومون ببناء المساجد وَ الجوامع مثلًا يقوم الآن من وَرَاء ذٰلِكَ الشّعب المسلم فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ بأكمله. يعني لنا أن نقول أن الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك بدخولها إِلَى الإِسْلَام اندمجت فِيهَا الثَّقَافَة السُّلَافية المتواضعة بالثَّقَافَة الإِسْلَامِيَّة ذات التّقاليد وَ التّراث المتطوّر، وَ خلف فِيهَا ثقافة غريبة وَ فريدة لها طابع شرقي وَ غربي فِي آن وَاحد.

المؤلّفاتُ الإِسْلَامِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ لمسلمِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

إنّ بناء عدد غير قليل من الْمُؤَسَّسَات الثَّقَافِيَّة وَ الِاقْتِصَادِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ، قد أتاح فرصة لِارْتفاع مستوى ثقافة سكّانها، وَ فتح حدودها تجاه

المراكز الثَّقَافِيَّة الكبيرة فِي الدّولة الْعُثْمَانِيَّة، كَأدرنة، وَ إِسْطَنْبُول وَ بورصة وَ دمشق وَ بغداد حالي القاهرة. وَ ذٰلِكَ ساعد لينال أبناء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك ثقافة لا بأس بها فِي العلوم المختلفة. لٰكن لا بدّ من الملاحظة أن عددًا من أبناء الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك لم يرجعوا إِلٰى بلادهم أبدًا بل بقوا يتقلدون الوظائف المختلفة فِي الدوائر الْعُثْمَانِيَّة شاسعة الأطراف، وَ هُناك اشتغلوا وَ الفوا وَ شرحوا المؤلّفات المشهورة آنذاك فِي العالم الإِسْلَامِيّ. كما كان هُناك عدد من هٰؤُلَاءِ رجعوا إِلٰى وَطَنهم الأصليّ وَ مارسوا فِيهَا التّدريس وَ القضاء وَ التّأليف فِي الْمُؤَسَّسَات الإِسْلَامِيَّة المختلفة.

وَ فِي إطار هٰذَا البحث تعرضت إِلٰى مَا كتبه مسلمو الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك من إنتاج بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة، وَ من الجدير بالذّكر أنه مَا من أحد سلّط الأضواء عَلٰى هٰذَا الموضوع، لأن معظم الباحثين أوروبيّين كانوا أم يوغسلافيّين قد خلطوا بين الكتابة الْعَرَبِيَّة وَ التُّرْكِيَّة وَ الْفَارِسِيَّة. وَ بما أن مسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك قدموا إنتاجًا فِي مختلف العلوم الإِسْلَامِيَّة فقد اتّبعت فِي تعرضي لِهٰذَا الموضوع التسلسل التالي:

فِي الفصل الأَوَّل من الباب الثّالث تكلمت عن المؤلفات الدّينيّة، يتضمن علوم التفسير وَ الحديث وَ أصول الفقه، وَ علم العقائد، وَ علم التّصوّف؛ وَ تكلّمت فِي الفصل الثّاني عن المؤلّفات فِي العلوم اللُّغَوِيَّة، وَ الظّاهر أن مسلمي الْبُوسْنَة لم يبرعوا فِي ميدان الشّعر عَلٰى الرّغم من أنّهم حاولوا نظمه، لٰكنّهم برعوا فِي المجالات الأخرٰى كالأدب وَ اللُّغَة، فقدموا إنتاجًا يستحق الاهْتمام وَ التّقدير.

الأدبُ الشّعبيُّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

وَ فِي الباب الرّابع وَ الأخير من هٰذَا البحث تعرضت إلٰى الحديث عن الأدب الشّعبيّ لمسلمي الْبُوسْنَة وَ الْهَرْسَك، وَ مع أنه لا توجد قيمة أدبية تذكر لِهٰذَا الأدب، فقد تعرّضت له لكونه مكتوبًا بالحروف الْعَرَبِيَّة، وَ فِي هذ الفترة بالذّات ضعفت فِيهِ كفاءَة المسلمين فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ لكي يكتبوا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فأخذوا يكتبونه بِاللُّغَةِ الْبُوسْنَوِيَّةِ، وَ لٰكن بأحرف عَرَبِيَّة، وَ بذٰلك مددوا حياة اللُّغَة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ أوّلًا وَ فِي يُوغُسْلَافِيَا ثانيًا إلٰى وَقْتنا الحاضر.

تمَّ بحمدِ اللهِ!

وَ صَلِّ اللّٰهُمَّ عَلٰى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِينَ...

اَلْخَاتِمَةُ بِاللُّغَةِ الْإِنـكليزيّةِ

Summery

This thesis is an effort to give a detailed idea of the contribution of the Muslims of Bosnia and Herzegovina in the fields of Arabic and Islāmic sciences between the 15th and 19th centuries. Islāmic culture of course includes whatever was written in it in the language of the Qur'ān regardless of the place in which it was written or the people who wrote it, for Islām is a world religion not restricted to a certain place or a certain people.

That is why I always felt the need to study the contributions of the Muslim countries in that respect. The fact that we see in many non-Arab countries the Arab letter among people who don't speak Arabic shows the influence of Islāmic culture and the language of the Qur'ān everywhere. Among those who lived and died for Islām and who tried hard to build a solid Islāmic culture are the people of Bosnia and Herzegovina. Yet we must confess that the help given to these people from the Islāmic World (whether material or spiritual) was so scanty, especially when they were under the mercy of the cruel people in the Balkan area. Of course the Muslims themselves were at that time weak to help themselves let alone helping others. The people of Bosnia and Herzegovina knew that, and, through their great love for Islām and the prophet of Islām, wrote many books that fill to-day the libraries of their countries...

I am sorry to say that this legacy, although it is abundant, is not known to the world in general and to the Muslims in particular. This is, no doubt a great injustice done to the Muslims of Bosnia and Herzegovina.

Again I say this thesis is the first effort to throw light upon the legacy of the Muslims of Bosnia and Herzegovina written in Arabic. Although I felt lonely facing a deep ocean which nobody had ventured to plunge in, yet I think it will arouse the interest of many after me who try to fathom its depth. I feel happy for being the first to tread on that path.

I have divided this thesis into the following chapters:

The spread of Islām in Bosnia and Herzegovina

The state in Bosnia began with the beginning of the 12th century and continued till the second half of the 15th century. It lies in the North Western part of the Balkan where six rivers meet: Drina, Bosna, Vrbas, Una, Sana and Neretva. Before the Ottoman conquest Bosnia was divided between two powerful countries at that time, Hungary and Ottoman Empire. Because of the lack of political stability, because of the internal wars among the kings and the feudalists, and because of the foreign wars with the Republic of Dubrovnik and the Ottomans, the Bosnia and Herzegovina became politically and economically weak. As a result of all this there were religious struggles between the different sects in the country:

1. The Catholics – who were the most active,
2. The Bogomils – who were considered heretics,
3. The Orthodox – who had limited power.

We must add to all this the social discrepancies. There were the kings, the nobles the farmers and the inhabitants of the cities. There were always discrepancies and struggles among these classes.

It was clear that the people of Bosnia and Herzegovina were culturally backward. There were no centres of learning expect the few monasteries and the palaces of the nobles (which were beyond the reach of the common people).

This was the state in Bosnia and Herzegovina in the second half of the 15th century when the Ottomans began their invasion of the land. The conquest of Bosnia took more than a hundred years which started with the fall of Bosnia in 1463 and ended in 1592 with the fall of Bihać city; the last city in the North Eastern part of Bosnia. Here I must draw the attention to an incident which is of major importance; I mean the fact that many of the inhabitants of Bosnia and Herzegovina were converted to Islām. The Ottomans not only brought with them political and economic systems, they brought a new religion, which is Islām with all its motive power as a faith. It has always been said in Europe that Islām spread by means of the sword but the truth is that Ottomans spread Islām, as their predecessors did, through conviction in accordance with the injunction of the Qur'ān. No force was used to convert people to Islām whether in Bosnia or anywhere else. This is proved by the fact that Muslims stick to their religious beliefs in spite of the difficulties and the obstacles they meet in most countries of the Balkan after the departure of the Ottomans, In Yugoslavia itself we find the clear proof of what we say for we notice that some people were converted to Islām and that most of the people remained Muslims although there is nothing to force them.

They stick to their religion because they love it regardless of the Ottomans or others. After the evacuation of the Ottomans, Islām remained and will always remain in the hearts of the people of Bosnia and Herzegovina.

The spread of Islāmic culture in Bosnia and Herzegovina

With the spread of Islām in Bosnia and Herzegovina, the establishments for Islāmic culture and knowledge appeared. These establishments may be found till today in the heart on Europe and although most of them have abandoned their original message they are still a proof that their aim was to build man spiritually and materially and not to destroy societies, morals and beliefs.

Of these establishments we mention:

The different kinds of mortmains "Waqfs" (their number exceeded 300 and the capital exceeded 6 million "Dirhams" the different shops, the Bezistans, the Karavan Saray, the Hans and the Ḥammāmat, the secondary schools, the libraries, the graves, the clock towers and the bridges.

When the Bosnia and Herzegovina became part of the Ottoman Empire, the humble Slavic culture mingled with the great Islāmic culture and together they formed a unique culture which was Eastern and Western at the same time.

The Arab Islāmic writings of the Muslims of Bosnia and Herzegovina

The construction of a considerable number of cultural establishments helped to raise the cultural standard of the inhabitants of Bosnia and Herzegovina and opened their boarders to the big culture establishments in the Ottoman Empire in Edirne, Istanbul, Bursa, Damascus, Baghdad and even Cairo. This helped the

inhabitants of Bosnia and Herzegovina to increase their learning in the different branches of knowledge. It must be mentioned, however, that a great number of them never returned to their mother land but held jobs there, wrote books or explained and commented upon the famous writings which were extant at that time. There were others, of course, who returned to Bosnia and Herzegovina where they worked as teachers, judges or writers in the different Muslim establishments.

Within the frame of this thesis I discussed what the Muslims of Bosnia and Herzegovina produced in Arabic, a thing which had not been done before. Because most of the researchers, whether Europeans of Yugoslavia, did not discriminate between what was written in Arabic and what was written in Turkish or Persian. As the Muslims of Bosnia and Herzegovina produced in every branch of science, I followed the coming order in discussing their production:

In the first section of Chapter 3, I talked about the religious writing, including interpretation of the Qur'ān, the tradition "Ḥadīṯ", theology, Fiqh and mysticism. In the second section I talked about the linguistic writings. It seems that the Muslims of Bosnia and Herzegovina did not excel in poetry in spite of the fact that they tried it. However, they excelled in other spheres such as literature and linguistic science for they produced valuable things.

Folk literature in Bosnia and Herzegovina

In the 4th and last Chapter of this thesis, I talked about the folk literature of the Muslims of Bosnia and Herzegovina. Although from the literary point of view it is not of great importance, I had to talk about it because it is written in the Arabic letter. Just about that

time the efficiency of the Muslims in Bosnia and Herzegovina had become so weak that they resorted to writing their literature in the Bosnian language but using the Arabic letter.

In the end I would like to mention that this thesis is no more than a link in the chain of research studies that discuss the culture of Bosnia and Herzegovina. I believe that in this way I contribute in drawing a true picture of the Muslims in Bosnia and Herzegovina.

May be the subject has not been given its due. The reason is that it is a large subject. If this is considered only the beginning of a series of research studies in it, I'll be content.

اَلْمَصَادِرُ وَ الْمَرَاجِعُ

اَلْمَرَاجِعُ الْعَرَبِيَّةُ

١. الْقُرْآن الكريم.

٢. الحديث النَّبويّ الشَّريف.

٣. **الْأدب الْعَرَبِيّ المعاصر فِي مصرَ**، الدّكتور شوقي ضيف، القاهرة ١٩٥٧ م.

٤. **تأْريخ التَّربية الإِسْلَامِيَّة**، أحمد شلبي، الطّبعة الثّالثة، القاهرة ١٩٦١ م.

٥. **تأْريخ الشّعوب الإسْلَامِيَّة**، كَارل بروكْلْمان، التّرجمة الْعَرَبِيَّة، بيروت ١٩٦٨ م.

٦. **التَّربية عبر التأْريخ (من العصور القديمة حَتَّى أوائل القرن العشرين)**، عَبْداللهِ عبدالدّائمِ، الطّبعة الأولى، بيروت ١٩٧٢ م.

٧. **دليل لِإصْلَاحِ الْأَوْقافِ**، مُحَمَّد أحمد العمر، بغداد ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م.

٨. **الفتح الْعُثْمَانِيّ وَ انْتشار الإِسْلَام وَ الْمُؤَسَّسَات الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي القرنين الخامس عشر وَ السّادس عشر**،

نيازي مُحَمَّد شُكْريتْشْ، رسالة الماجستير نوقشت فِي بغداد فِي السّادس عشر من أذار سنة ١٩٧٢ م، غير منشورة حَتَّى الْآن.

٩. **كتاب أحكام الأوقاف**، الشّيبانيّ (أبو بكر بن عمْرو المعروف بالخصاف)، الطّبعة الأولى، القاهرة ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤ م.

١٠. **معجم البلدان**، ياقوت الحمويّ، طبعة لا ينسخ، ج ١، سنة ١٨٦٦ م.

اَلْمَرَاجِعُ التُّرْكِيَّةُ

١. **الإمْبَرَاطُورِيَّة الْعُثْمَانِيَّة،** (١٣٠٠-١٦٠٠) (ترجم الكتاب إلى اللُّغَة الْيُوغُسْلَافِيَّة)، خليل إينالجق، بلغراد ١٩٧٤ م.

٢. **تَأْرِيخ أبو الفتح،** طورسون بك، إسْطَنْبُول ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥ م.

٣. **تواريخ آل عثمان،** عاشق پاشا زاده.

4. Tapu defterleri (TD), *Başbakanlık Arşivi (BBA)*, Istanbul, No. 18., photocopy.

5. Tapu defterleri (TD), *Belediye Kütüphanesi – Muallim Cevdet Kısmı*, Istanbul, No. 76., photocopy.

اَلْمَخطوطات الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْـهَرْسَكِ

١. **أزهار الرّوضات فِي شرح روضات الجنّات**، حسن كافي پْروشْتْشاق، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٢٥/١٥١٤.

٢. **تجلّيات عرائس النّصوص فِي منصّات حكم الفصوصِ**، عَبْدالله الْبُوسْنَوِيّ، المكتبة القومية فِي القاهرة، مخطوطة رقم ٦٧٥٣.

٣. **حاشية علّامك عَلٰى شرح المواقفِ**، مُحَمَّد موسٰى الْبُوسْنَوِيّ، المكتبة الجامعية فِي بلغراد، مخطوطة رقم ٤٣،٦٢٦.

٤. **حاشية عَلٰى تفسير البيداويّ**، مُحَمَّد بن موسٰى الْبُوسْنَوِيّ، دار الكتب المصريّة رقم ٣٤١، وَ كَذٰلِكَ مكتبة سْفيتوزار ماركوفيتْشْ الجامعيّة فِي بلغراد، رقم ١٨.

٥. **حاشية عَلٰى تفسير سورة الكهف**، مُحَمَّد موسٰى الْبُوسْنَوِيّ، مكتبة سْفيتوزار ماركوفيتْشْ الجامعيّة فِي بلغراد، رقم ٦٢٦، ٤٣.

٦. **حاشية عَلٰى ديباجة تفسير البيداويّ**، إبْرَاهِيم أوپِيَاتْشْ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، رقم المخطوطة ٤٠٠٦.

٧. **حديقة الصّلَاة**، حسن كافي پْروشْتْشاق، مخطوطة فِي المعهد الشّرقي فِي سراييفو، رقم ٣/٥٦٦.

٨. **رسالة الحقّ الصّحيحِ فِي إثبات نزول سيّدنا المسيحِ**، مُحَمَّد الخانجيّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٢٦٥٠.

٩. **رسالة بستان المحدّثين**، مُحَمَّد الخانجيّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ١٣٨.

١٠. **رسالة فِي الطّهارة**، سلامي سرايليتْشْ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٢/٢٥٦٥.

١١. **سمت الوُصُولِ إلى علم الأُصُولِ**، حسن كافي پْروشْتْشاق، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٠٤٠٦.

١٢. **شرح الرّسالة النّسفيّة**، مصطفى أيّوبوفيتْشْ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٨٦٠.

١٣. **شرحُ العروضِ الأندلسيّ**، محمود بن خليل الموسْتاريّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٦٦٠.

١٤. **شرح تمحيص التّلخيصِ**، حسن موسى الْبُوسْنَوِيّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ١٦٨٩.

١٥. **عمدةُ الفرائضِ**، سيفالدّين پروحو، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٦٢٠.

١٦. **فتح الأسرار**، مصطفى أيّوبوفيتْش، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٤٠٢٧.

١٧. **فضيلة الجماعة**، مصطفى بن مُحَمَّد الأقحصاريّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٧٦١.

١٨. **لبّ الفرائضِ**، مصطفى أيّوبوفيتْش، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٨٦٠.

١٩. **مجمع ترجيح البينات**، حسن بن نصوح الْبُوسْنَوِيّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٢/٣٤٨٩.

٢٠. **محرّك القلوب لعبادة علّام الغيوبِ**، بهاءالدّين أحمد بن مصطفى الموسْتاريّ، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٧٣١.

٢١. **مفتاح الحُصُولِ لمِرْآةِ الأُصولِ**، مصطفى أيّوبوفيتْش، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ٣٨٧١.

٢٢. **نورُ اليقينِ فِي أُصُول الدّينِ**، حسن كافي پْروشْتْشاق، مكتبة الغازي خُسْرو بك، مخطوطة رقم ١/١٥١٤.

الْمَرَاجِعُ اليوغُسْلَافيّة وَ الأوروبيّة

1. **Babić**, Anto (1972.), *Iz istorije srednjovjekovne Bosne*, Sarajevo.
2. **Bašagić**, Safvet (1931.) *Poznati Hrvati, Bosanci i Hercegovci u turskoj carevini*, Zagreb.
3. **Bašagić**, Safvet (1912.) *Bošnjaci i Hercegovci u islāmskoj književnosti*, Vlastita naklada, Sarajevo.
4. **Bašagić-Redžepašić** (1900.) *Kratka uputa u prošlost Bosne i Hercegovine*, Sarajevo.
5. **Blau**, dr. Otto (1868.) *Bosnisch-türkische Sprachdenkmäler*, Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Leipzig.
6. **Čelić**, Džemal and **Mujezinović**, Mehmed (1969.) *Stari mostovi u Bosni i Hercegovini*, Sarajevo.
7. **Ćirković**, Sima (1946.) *Istorija Bosne*, Beograd.
8. **Ćorović**, Vladimir (1946.) *Bosna i Hercegovina*, Beograd.
9. **Ćurić**, Hajrud-dīn (1965.) *Školske prilike muslimana u Bosni i Hercegovini (1800-1878.)*, Sarajevo.
10. **Dinić**, Mihajlo (1940.) *Zemlje Hercega od svetoga Save*, Srpska književna akademija, Beograd.

11. **Dobrača**, Kasim (1963.) *Katalog arapskih, turskih i persijskih rukopisa*, prvi dio, Sarajevo.
12. **Đorđević**, F. (1959.) *O ciganima uopšte i njihovom doselenju na balkansko poluostrvo*, Beograd.
13. **Filipović**, Nedīm (1957.) *Kanūni i kanūn-nāmē*, OIS, Sarajevo.
14. **Filipović**, Nedīm (1959.) *Historija naroda Jugoslavije*, Zagreb.
15. **Glušac**, Vladimir (1945.) *Istina o Bogumilima*, Beograd.
16. **Gujić**, Kasim (1935.) *Osvajač Bosne sultan Muḥammed El-Fātiḥ i bosanski franjevci*, Zagreb.
17. **Hadžijahić**, Muḥammed (1938.) *Hrvatska muslimanska književnost prije 1878.*, Sarajevo.
18. **Handžić**, Ādem (1962-63.) *O islāmizaciji u sjeveroistočnoj Bosni u petnaestom i šesnaestom stoljeću*, POF, sv. XVI-XVII, Sarajevo.
19. **Handžić**, Ādem (1962-63.) *Postanak i razvitak Bijeljine u šesnaestom vijeku*, POF.
20. **Handžić**, Mehmed (1933.) *Književni rad bosansko-hercegovačkih muslimāna*, Sarajevo.
21. **Handžić**, Mehmed (1934.) *Pitanje tekija u Jugoslaviji*, Glasnik VIS-a, Beograd.
22. **Handžić**, Mehmed (1940.) *Širenje Islāma u Bosni i Hercegovini i porijeklo bosansko- hercegovačkih muslimāna*, Sarajevo.

23. **Hasandedić**, Hifzija (1961.) *Kulturnoistorijski spomenici u Mostaru iz turskog perioda*, Sarajevo.

24. **Hasandedić**, Hifzija (1972.) *Muslimānske biblioteke u Mostaru*, Anali, 1, Sarajevo.

25. **Hrbak**, Bogumil (1957.) *Kuga u balkanskim zemaljama pod Turcima od 1450.-1600.*, HG, Beograd.

26. **Hukić**, 'Abdur-Raḥmān (1961.) *Arapi i Islām u Evropi*, Glasnik VIS-a.

27. **İnalcık**, Halil (1974.) *Osmansko carstvo (klasično doba – 1300-1600.)*, Srpska Književna zadruga, translation, Beograd.

28. **Jireček**, Konstantin Josef (1952.) *Istorija Srba*, 11, Beograd, prevod: prof. Jovan Radonjić.

29. **Kemura**, Sejfud-dīn (1908.) *Iz Sijāḥat-nāmē Evlije Čelebije*, GZM, XX.

30. **Kemura**, Sejfud-dīn (1909.) *Sarajevske džamije i druge javne zgrade iz turskog doba*, GZM, XI.

31. **Klaić**, Vjekoslav (1897.) *Istorija srednjega vijeka*, Zagreb.

32. **Kreševljaković**, Hamdija (1932.) *Gazi Husrev-begova banja*, Sarajevo.

33. **Kreševljaković**, Hamdija (1955.) *Odakle potiču muslimani Bosne i Hercegovine i ko su oni?*, Zagreb.

34. **Kreševljaković**, Hamdija (1958.) *Eṣnāfi i obrti u starom Sarajevu*, Sarajevo.

35. **Lopašić**, Radoslav (1889.) *Spomenici hrvatske krajine*, Zagreb.

36. **Mandić**, Dominik (1967.) *Etnička povijest Bosne i Hercegovine*, Roma.

37. **Mihajlović**, Konstantin (1959.) *Janičareve uspomene*, Beograd, prevod: prof. Đorđe Živanović, SAN, Beograd, 1959..

38. **Mošin**, Vladimir (1950.) *Ljetopisi popa Dukljanina*, Matica Hrvatska, Zagreb.

39. **Mujezinović**, Mehmed (1960.) *Turski rukopisi iz šesnaestog vijeka u Bosni i Hercegovini*, POF, 3-4, Sarajevo.

40. **Mujezinović**, Mehmed (1968.) *Gazi Husrev-bogova biblioteka u Sarajevu*, Sarajevo.

41. **Mujezinović**, Mehmed (1974.) *Islāmska epigrafika u Bosni i Hercegovini*, Sarajevo.

42. **Mujić**, Muḥammed (1955.) *Stari mostarski vodovod*, Naše starine, 01, Sarajevo.

43. **Nametak**, Alija (1968.) *Rukopisni tursko-hrvatski riječnici*, Zagreb.

44. **Novaković**, S. (1892.) *Hadži Kalfa ili Kātib Çelebi, turski geograf sedamnaestog vijeka o balkanskom poluostrvu*, SKA, XVIII, Beograd.

45. **Orbini**, Mavro (1968.) *Kraljevstvo Slovena*, SKZ, Beograd.

46. **Prelog**, Milan (1942.) *Povijest Bosne*, Sarajevo.

47. **Rački**, Franjo (1931.) *Bogumili i Peterani*, SKA, 38, Beograd.

48. **Radonjić**, Jovan (1950.) *Rimska kurija i južnoslovenske zemlje od šesnaestog do devetnaestog vijeka*, Beograd.

49. **Redžić**, Husrev (1960.) *Ko je graditelj Gazi Husrevbegove džamije u Sarajevu*, Radovi ND BiH, XIII, Sarajevo.

50. **Rizvić**, Muhsin (1973.) *Književno stvaranje muslimanskih pisaca u Bosni u Hercegovini u doba Austro-ugarske vladavine*, Sarajevo.

51. **Rycout**, Poul (1670.) *Historie de l'état présent de l'Empire Ottoman*, Amsterdam.

52. **Rypka**, Jan (1924.) *Beiträge zur Biographie, Charakteristik und Interpretation des türkischen Dichters Sabit*, I, Prag.

53. **Samardžić**, Radoje (1961.) *Beograd i Srbija u spisima francuskih savremenika XVI-XVII vijeka*, Beograd.

54. **Skaljić**, 'Abdullāh (1973.) *Turcizmi u srpsko-hrvatskom jeziku*, Sarajevo.

55. **Skarić**, Vladislav (1939.) *Širenje islāma u Bosni i Hercegovini*, Gajret, kalendar za 1940., Sarajevo.

56. **Solovljev**, Aleksandar (1949.) *Nestanak bogumilstva i islāmizacija Bosne*, GDI BiH, Sarajevo.

57. **Šabanović**, Hazim (1952.) *Dvije najstarije vakuf-nāmē u Bosni*, Sarajevo.

58. **Šabanović**, Hazim (1959.) *Bosanski pašaluk*, ND BiH, Djela, knjiga XIV, Sarajevo.

59. **Šabanović**, Hazim (1967.) *Evlija Çelebi – Putopis, odlomci o jugoslovenskim zemljama*, treće izdanje, Sarajevo.

60. **Šabanović**, Hazim (1973.) *Književnost muslimāna Bosne i Hercegovine na orijentalnim jezicima*, Sarajevo.

61. **Šišić**, Ferdo (1973.) *Ljetopis popa Dukljanina*, SAN, knjiga LXVII, Beograd.

62. **Thallóczy**, dr. Lajos (1959.) *Povijest (Banovine, grada i varoši) Jajca 1450.-1527.*, Tisak kr. Zemaljske tiskare, Zagreb.

63. **Truhelka**, Ćiro (1911.) *Testament gosta Radina*, GZM, XXIII, Sarajevo.

64. **Truhelka**, Ćiro (1911.) *Tursko slovenski spomenici dubrovačke arhive*, GZM, Sarajevo.

65. **Vego**, Marko (1967.) *Naselja bosanske srednjovjekovne države*, Sarajevo.

66. **Vuletić Vukasović**, Vid (1897.) *Bilješke o kulturi južnih Slovena*, Dubrovnik.

الفهرست

الفهرست

كلمة النّـاشر.. ٥

المقدّمة.. ٧

المقدّمة.. ٩

انْتشارُ الْإسْلَامِ وَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.................... ٢٩

الأحوالُ العامّةُ لِلْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ قبيل مَجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ.. ٣١

لمحة عن جغرافيا المنطقةِ وَ تأْرِيخِهَا.......................... ٣١

سكّان الْبُوسْنَةِ ٤١

الْأَحْوَالُ الدِّينِيَّةُ وَ السِّيَاسِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ إِثْرَ مَجِيءِ الْعُثْمَانِيِّينَ.. ٤٧

الْأَحْوَالُ الدِّينِيَّةُ.. ٤٧

البوغوميل وَ مبادِئُهم الدِّينيّة ٤٩

اَلْأَوْضَاعُ السِّيَاسِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ.......... ٥٧

فَتْحُ الْعُثْمَانِيِّينَ لِلْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.................................. ٦٣

ميلاد الدّولة الْعُثْمَانِيَّة وَ فتوحاتها ٦٣

اِنْتِشَارُ الإِسْلَامِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ٨٧

الأسباب السّياسيّة وَ الاِجتماعيّة ١٠١

اَلْأَسْبَابُ الدِّينِيَّة ١٠٣

انتشار الثّقافة الإِسْلَامِيَّةِ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ١١٣

المُؤسّسات الإِسْلَامِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ١١٥

الوقف الإِسْلَامِيّ وَ دوره فِي بناء هٰذِهِ المُؤسّسات ١١٥

المُؤسّساتُ الدِّينِيَّةُ وَ الثَّقَافِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ١٢٧

الجوامع وَ المساجد وَ دورها فِي نواحي الحياة المختلفة ١٢٧

التّكايا أو الزّوايا ١٤٢

اَلْمَدَارِسُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ١٤٧

المكتبات فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ١٧١

المؤسَّسَات الإِسْلَامِيَّة الاِقْتِصَادِيَّة وَ الاِجْتِمَاعِيَّة ١٨٥

الأسواق وَ الدكاكين ١٨٥

بزستانات (Bezistani) ١٩٢

الجسور فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.................................. ١٩٤

الخانات.. ٢١٣

كاراوان سراي.. ٢١٨

دار المسافرين وَ المطابخ – مسافر خانات (Musāfir-ẖāna) .. ٢١٩

الحمّامات (Ḥammāmi).. ٢٢٥

أنابيب المياه وَ النافورات.. ٢٢٨

المقابر وَ الأضرحة.. ٢٣١

أبراج الساعات.. ٢٣٦

المُؤلّفاتُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ........................... ٢٤١

انْتشار اللُّغَة الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ........................ ٢٤٣

اَلْعُلُومُ الدِّينِيَّةُ... ٢٥٩

المؤلّفاتُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ.. ٢٥٩

التأليف فِي علم الحديث.. ٢٨١

التأليف فِي أصول الفقه... ٢٩٣

التّأليف فِي علم الفقه... ٣٠٢

التّأليف فِي علمِ العقائِدِ.. ٣٣٤

المؤلّفات فِي علم التّصوّف ٣٥٠

المؤلّفاتُ اللُّغويّةُ وَ الأدَبِيَّةُ ٣٦٧

الشّعرُ الْعَرَبِيُّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ.. ٣٦٧

النّثر الْعَرَبِيّ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ٣٩٢

كتابة الشّروح وَ الْحواشي ٣٩٩

علم العرُوض.. ٤٠٧

الدّراسات فِي علم المعاني وَ البيان وَ البديع.. ٤١١

المؤلفات فِي علم الصّرف وَ علم النّحو ٤٢٢

محاولة تأليف الموسوعات ٤٤٣

اَللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الأدَبِ الشَّعْبِيِّ عَرَبِيچا (Arebica).. ٤٥١

اَللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الأدَبِ الشَّعْبِيِّ عَرَبِيچا انْتشارُهَا وَ تطْويرُهَا ٤٥٣

أشهر كتّاب الأدب الشّعبيّ وَ إنتاجهم.. ٤٦٩

مُحَمَّد أسكوفيّ هوائيّ (١٠١٠-١٠٦٢ هـ / ١٦٠١-١٦٥١ م) ٤٦٩

حسن قانميَ ٤٧٥

السّيّد عبدالوهّاب إلْهاميَ ٤٨١

اَلْخَاتِمَةُ ٥٠٧

خلاصةُ الكتابِ ٥٠٩

اَلْخَاتِمَةُ بِاللُّغَةِ الإنكليزيّةِ ٥١٩

Summery ٥٢١

اَلْمَصَادِرُ وَ الْمَرَاجِعُ ٥٢٧

اَلْمَرَاجِعُ الْعَرَبِيَّةُ ٥٢٩

اَلْمَرَاجِعُ التُّرْكِيَّةُ ٥٣١

اَلْمَخطوطات الْعَرَبِيَّة فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ ٥٣٢

الْمَرَاجِعُ اليوغُسْلَافيّة وَ الأوروبيّة ٥٣٥

الفهرست ٥٤١

الفهرست ٥٤٣

اَلثَّقَافَةُ الإِسْلَامِيَّةُ وَ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبُوسْنَةِ وَ الْهَرْسَكِ

من سنة ٨٦٩-١٢٩٥ هـ/ ١٤٦٣-١٨٧٨ م

النَّاشِر:	المركز الإِسْلَامِيّ – موستار
تَأْرِيخ النَّشر:	موسْتَار، ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤ م
كتابة النّصّ:	ريهام (شبل قطب) مُصْطَفِيتْش
التَّقْدِيم و التَّصْحِيح:	أَلْدِين عَاصِم مُصْطَفِيتْش
المراجعة:	أَلْدِين عَاصِم مُصْطَفِيتْش
الطَّبعة:	الأولى
المطبعة:	Dobra knjiga

ISLĀMIC AND ARABIC CULTURE IN BOSNIA AND HERZEGOVINA
from 869 to 1295 hijri
(from 1463 to 1878 AD)

Published by: *Islāmski Kulturni Centar Mostar*
Publisher: *Salih Čolaković, M.Sc.*
Published in: *Mostar 1436 AH / 2015 AD*
Typesetting: *Rīhām (Šibl Quṭb) Mustafić*
Editor & DTP: *Aldin Mustafić, M.Sc.*
Printed by: *Dobra knjiga*

CIP - Katalogizacija u publikaciji
Nacionalna i univerzitetska biblioteka
Bosne i Hercegovine, Sarajevo

930.85(497.6)

ČOLAKOVIĆ, Salih
Es-sekafetu el-arebijjetu ve el-islamijjetufi
Bosneti ve Hersek 1463-1878 / Salih ef. Čolaković.
- Mostar : Islamski kulturni centar, 2015. - 550
str. ; 23 cm
Tekst na arap. jeziku. - Bibliografija: str.
535-541.

ISBN 978-9958-804-44-1
COBISS.BH-ID 22068486

ISLĀMIC AND ARABIC CULTURE IN BOSNIA AND HERZEGOVINA

from 869 to 1295 hijrī (from 1463 to 1878 AD)

Written by:

Salih Čolaković, M.Sc.

Mostar, 1436 AH / 2015 AD